البرتغاليون في بحر عُمان

أَحداث في حوليات

من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م

المجلد الحادي عشر

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

منشورات القاسمي

البرتغاليون في بحر عُمان

أَحداث في حوليّات

من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م

البرتغاليون في بحر عُمان

أَحداث في حوليّات

من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م

المجلد الحادي عشر

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

منشورات القاسمي

اسم الكتاب :
البرتغاليون في بحر عُمان ، أحداث في حوليات ، من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م ، المجلد الحادي عشر .
الدكتور سلطان بن محمد القاسمي (الإمارات) .
....
اسم الناشر : منشورات القاسمي ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة .
سنة الطبع : ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة

التوزيع : منشورات القاسمي
ص . ب : ٦٤٠٠٩ الشارقة ، دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف : ٠٠٩٧١٦٥٠٩٠٠٠٠ — براق : ٠٠٩٧١٦٥٥٢٠٠٧٠
البريد الإلكتروني : Info@aqp .ae
....
الفهرسة الوصفية أثناء النشر :
مكتبة الشارقة العامة ، هيئة الشارقة للكتاب ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة :
٩٥٣،٠٧٥٣
ق س . ب
القاسمي ، سلطان بن محمد بن صقر ، حاكم الشارقة ، ١٩٣٩م- البرتغاليون في بحر عُمان : أحداث في حوليات ١٤٩٧م — ١٧٥٧م / سلطان بن محمد القاسمي . - الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي ، ٢٠٢٥م .
٢١ مج . ؛ ص : ٤٧٠ ؛ ١٥,٥ X ٢٣,٥ سم .
يشتمل على هوامش .
تدمك : ٤-٩٩-٧٢١-٩٩٤٨-٩٧٨
١- عُمان (السلطنة) — تاريخ — العصر الحديث — الاحتلال البرتغالي ٢ - عُمان (السلطنة) — تاريخ — عصر اليعاربة ٣ — دول الخليج العربي — تاريخ — الاحتلال البرتغالي أ — العنوان
....
الترقيم الدولي : ٤-٩٩-٧٢١-٩٩٤٨-٩٧٨
إذن طباعة رقم MC-٠٣-٠١-٥١٩٢٣٢٣ بتاريخ ٢٠٢٥/٠٢/١٨م ،
مكتب تنظيم الإعلام ، وزارة الثقافة والشباب ، الإمارات العربية المتحدة
الطباعة : AL Bony Printing Press – Sharjah، UAE
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

المحتويات

مقدمة المجلد الحادي عشر	**٧**
• أحداث عام ١٥٦٢م	٩
• أحداث عام ١٥٦٣م	١٣
• أحداث عام ١٥٦٤م	٤٩
• أحداث عام ١٥٦٥م	٧٥
• أحداث عام ١٥٦٦م	٣٥٥
• أحداث عام ١٥٦٧م	٣٧١
• أحداث عام ١٥٦٨م	٣٩٣
• أحداث عام ١٥٦٩م	٤٤٩
دليل الباحثين	**٤٥٣**
هوامش المجلد الحادي عشر	**٤٦٥**

مقدمة المجلد الحادي عشر

يضمّ هذا المجلد بين دفتيه ، أحداث ثمانية أعوام ، وهي من العام ١٥٦٢م إلى العام ١٥٦٩م ، وقد جاءت الأحداث تبيّن طلب الأتراك السلم والصداقة ، في حين تمّ فتح سفارة للبرتغاليين في فارس .

على أثر ذلك التقارب ، تمّ فتح الطريق بين البصرة وحلب ، ومنها إلى البندقية ، وهو الطريق القديم لنقل التوابل إلى أوروبا .

بعد أن احتلّ البرتغاليون عدن ، قامت ثورة في الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر ضدّ الأتراك .

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

أحداث عام ١٥٦٢م

وردت رسالة من محكمة التفتيش في "غوا" إلـى "دوم سيباستياو" "Dom Sebastiao" ، "غوا" "Goa" ، في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر ، عام ١٥٦٢م ، يُذكر فيها قرار بأن قدوم بعض اليهود البيض من تركيا عبر هرمز ، هو أمر ضار يستدعي إصدار قانون الرقابة : (١)

مقتطف :

إن وصول اليهود البيض في هذه البلاد من تركيا عبر هرمز ، واتصالهم بالمسيحيين الجدد المقيمين أصلاً في البلاد ، شيء بغيض يتنافى مع مبادئ الدين والحصانة ، عليه فمن المهم ألا يُسمح لهم بالدخول هنا ، ولابد أيضاً من ترحيل الذين أقاموا سابقاً .

هذا الهدف يمكن تحقيقه إذا ما علمت على سن تشريع ينص على

---

(١) رقم الوثيقة والهامش.

أن الموت أو الأسر هو مصير جميع اليهود البيض الموجودين في إقليم هرمز ، أو في أي قلعة من قلاعهم ، أو مواقع مساكنكم ، وفي الموانئ التي تحت إدارتكم أو إدارة قادتكم ، وأن يصار إلى مصادرة جميع ممتلكاتهم ووضعها إما لأعمال على ضفة النهر أو منحها لمن يوشون بهم .

أما السفن التي يوجدون فيها أو تلك التي يثبت أنهم استغلوها في المجيء ، فيجب أن يقبض عليها فوراً في حالة عدم مغادرتها المنطقة في الموعد الذي حدد لها ، هذا سيمنع أي قدوم جديد .

أما الموجودون هنا فسوف يعودون إلى تركيا ؛ حيث إنه لن يسمح لهم بالتجارة مع "البرتغاليين" أو الإبحار في تلك المياه ، إذا ما أعطيت لهم حرية الملاحة في البحار ، فسوف يتجهون قطعاً إلى "كوتشين" "Cochin" العليا ، أو إلى بعض بلاد الملحدين ، وينقلون تجارتهم وبضائعهم عبر البحار .

إذا ما فرض هذا القانون فإن قدوم المسيحيين الجدد من تركيا ، سوف يكون أخف ضرراً ، إذ حينها لن يكون هنالك يهود هنا يمكن أن يختلطوا بهم أو يتمازجوا معهم ، وهكذا سوف تقل خطورتهم .

يجب ألا يطال الخطر مجموعة اليهود السود من "ملبار" إذ إنهم مواطنو تلك البلاد ، لأنهم رجال بحر وملاحون ، وبالتالي فإن خطورتهم قليلة جداً ؛ وذلك ليس بسبب علاقاتهم المتبادلة معنا ، وإنما بسبب جهلهم ، فإنهم قلما يكونون عرضة للفساد والانحراف مع من يتعاملون معهم .

وإذا ما تركنا هذا جانباً فحقيقة ، إننا فقدنا كل أمل في هدايتهم طالما ظل اليهود البيض يعيشون في وسطهم مسببين الكثير من الضرر ، وذلك من خلال تشجيعهم لهم على المثابرة في الاستمرار على الإثم .

مقتطف :

بشأن الطلب الخاص بتوظيف "أندريه بيرس" "Andre Peres" مراقباً (سيد بحر) على بحر هرمز :

السيد "أندريه بيرس" ، مراقب السجن ، والحاجب عند سيدتنا الملكة ، رجل جيد ، لأنه يقوم بواجبه خير قيام ، غير أن المعاش الذي يتقاضاه لا يكاد يغطي احتياجاته ، خاصة وأن المعيشة أصبحت غالية في هذه البلاد ، لقد جاء إلى هنا أعزباً ، وكي يعمل على تحسين صورته في هذا المنصب عمد للزواج ، تماماً كما هي العادة والتقليد المتبع هنا .

إنه رجل فقير ، ولابد لسموكم أن يتفضل عليه بوظيفة تناسبه ، وتدر عليه دخلاً كي يتمكن من الإنفاق على مطالبه واحتياجاته ، فجميع الوظائف هنا تعتمد على الموافقة الملكية ، وإذا ما تفضل سموكم بإعطائه فرصة للعمل ، فإنه بمرور الوقت سوف يتمكن من إثبات جدارته .

عموما ، فهو مناسب لشغل أي من الوظائف التالية : رئيس الوكلاء في "ديو" "Diu" ، مراقب البحرٍ في "ديو" أوفي هرمز ، وإذا ما سمح سموكم بتعينه في أي من تلك الوظائف فسوف يكون ممتناً لسموكم .

كتب في "غوا" ، بتاريخ الثالث والعشرين من شهر ديسمبر ، عام ١٥٦٢م .

"فرانسيسكو ماركوس بوتلهو" "Francisco Marcos Boutelho" ، "اليكس دياز فالكاو" "Alex Dias Falcao" .

أحداث عام ١٥٦٣م

بعث الأب (القس) "أندريه فرنانديز" "Andre Fernandes" رسالة إلـى الأب "بيرو دا فونسيكا" "Pero da Vonsica" في "البرتغال" ، "كوتشين" ، بتاريخ السادس عشر من شهر يناير ، عام ١٥٦٣م ، يذكر فيها ينابيع البحرين في البحر المالح : [٢]

السادس والعشرون : في الخليج الفارسي ، وبالقرب من جزيرة تسمى "البحرين"[أ] ، وهي أقرب لأراضي الجزيرة العربية عنها من فارس ، وحيث تتدفق مياه عذبه بكميات كبيرة ، يتم الحصول عليها من خارج البحر بالطريقة الآتية .

يسبح البحارة للعمق عندما يكون الجزر منخفضاً بحيث لا يغطسون لأعماق بعيدة ممسكين بحقيبة من جلد الماعز بأفواههم وهي مغلقة ، ثم

(أ) "البحرين" : هذا الجزء من الجملة أضيف في موقع آخر ، وقد لا يكون جزءاً من الوثيقة الأصلية .

---

(٢) رقم الوثيقة والهامش.

يقومون بفتحها أمام ينابيع ضخمة تطلق من جوفها كمية هائلة من المياه العذبة ، وبهذه الطريقة يملأونها بذلك الماء الطيب .

أقدم بخدمة سماحتك لله

"أندريه فرنانديز"

وفي العام نفسه (١٥٦٣م)
بعث الأب "أنطونيو دي كوادرو" "Antonio de Guadro" رسالة إلى الأب "ديوغو ليونيس" "Diogo Leones" ، رئيس الكنيسة العام "لجمعية يسوع" ، "كوتشين" ، الثامن عشر من شهر يناير ، عام ١٥٦٣م ، ويذكر في رسالته جزيرة سوقطرة : [٣]

الثالث : المكان الثالث ، الأقرب للمكان الذي نحن فيه ، هو جزيرة سوقطرة ، هي مليئة بالمسيحيين الذين بقوا هناك بعد فترة "القديس توماس" بالاسم فقط ، ولا يعرفون الكثير عنها ، على أية حال فإن القس الذي كان مسؤولاً قد توفي[أ] ، بما أن اللغة لم تكن معروفة[ب] ، ولم يتوفر مترجم ، لذلك كان التقدم طفيفاً .

(أ) الأب "جواو لوبيز" .

(ب) لغة "سوقطرة" – إحدى لهجات جنوب الجزيرة العربية .

(٣) رقم الوثيقة والهامش.

قس آخر أكثر حكمة عن الذي بقي حياً[أ] ، كان في طريقه إلى هناك لبحث إمكانية إنتاج فواكه فسيظل هناك ، أما في حالة عدم ذلك ، فسيحمل رسالة من نائب الملك ، يأمرهم فيها تسليم أربعة أو خمسة غلمان يختارهم القساوسة لتلقي التعليمات هناك ، ثمّ بعد إحضارهم إلى هنا ، وتعلم اللغة البرتغالية يمكن أن يصبحوا مترجمين ، ثم يعودون إلى هناك من هنا في خلال ثلاث أو أربع سنوات .

الرابع : المكان الرابع الذي نحن فيه ، هو هرمز حيث لا يوجد أحد حتى الآن ؛ وذلك للنقص في أعداد القساوسة .

في هذه السنة على أي حال سيقوم الأب "فيسنتي توندا" "Vicente Tonda" الذي جاء من "إيطاليا" بالذهاب إلى هناك ؛ لأن القبطان الذي في طريقه حالياً إلى هناك[ب] ، والذي أبحر في نفس القارب ، كان قد تأثر كثيراً بثقافته وسأل عنه ، بالرغم من أن الأب الأكبر "فرانسيسكو" له ذاكره قوية وشهيرة إلا قد أعطى اهتماماً كبيراً لهرمز[ت] .

قد أظهرت التجربة أخيراً أن محصولاً قليلاً من الفاكهة قد تم إنتاجه هناك ؛ وذلك لأنها منطقة حدودية ومنطقة صراعات ؛ حيث تأتي الفائدة من الاعترافات التي تتم أمام الكهان ، والمواعظ التي تقدم

(أ) الأب "جاسبر كويلهو" ظل في "سوقطرة" ، يبدو أنه لم يرسل كمعاون .

(ب) اسم حاكم المقاطعة هو "دومر . بيدرو دى سوزا" .

(ت) على سبيل المثال كتب "أكسافير" للأب "سيماو رودريقس" في ١٥٤٩/١/٢٠م "احتياجات أعضاء جمعيتنا كثيرة جداً في هذه المنطقة خاصة في مدن مثل هرمز و"ديو" أكثر من "غوا" ، لنقص في المبشرين وأشخاص روحانيين وحيث يعيش الكثير من "البرتغاليين" خارج ديننا" .

للجنود المتمركزين هناك ، والذين يصل عددهم إلى ما بين أربعمائة وستمائة من إنجاز أي شيء خاصة ، وأن الأتراك مصرون على احتلال هرمز ، أحد الكهان[أ] كان قد سحب للذهاب إلى أماكن أخرى ، حيث قدم إنجازاً كبيراً هناك وسط الروحانيات وفي خدمة الرب .

(أ) آخر من عمل هناك كان الأب "ايريس برانداو" قبل أن يعود إلى الهند في شتاء .

وفي العام نفسه (١٥٦٣م)

بعث الأب "ميلشيور نونيس باريتو" "Melchior Nunes Baretto" رسالة إلى الأب "دييجو ليونيس" ، الرئيس العام لرهبان "جمعية يسوع" ، "كوتشين" ، في الرابع والعشرين من شهر يناير ، عام ١٥٦٣م ، ويذكر فيها مصوع التي غزاها الأتراك : (٤)

لقد تمّ إخطارك عبر رسائل السنوات الحالية عن صعوبة واستحالة أن نضع أقدامنا على أرض الحبشة نتيجة لغزو مصوع من قبل الأتراك الذين شيّدوا قلعة هناك ؛ وبسبب ذلك فهم لا يسمحون لأي شخص من هناك أن يجري في ذلك الجزء من البحر الأحمر ، لذلك ما لم يتجمع أسطول ضخم لنقل ألف رجل مقاتل فأننا لن نتمكن من الدخول إلى هناك .

ما حدث لاحقاً ، أننا علمنا عن طريق السفن التي وصلت من مكة بالتحديد أن الملك الذي كان كاثوليكياً قد توفي ، وأن الأسقف

(٤) رقم الوثيقة والهامش.

"أندريه" ورفقائه[أ] يعانون بشدة هناك ، نجح ملك ملحد[ب] يعادي مثاليات ، وأهداف المعتقد الكاثوليكي في الوصول إلى كرسي المملكة ، ألقى القبض على الأسقف ورفقائه ، واحتجزهم أسرى مع العديد من "البرتغاليين" في منطقة بعيدة عند "إثيوبيا" خلف بحيرة هي منبع نهر النيل في أرض مصر[ت] .

الوحيد الذي هرب من الأسر هو الأب "مانويل فرنانديز" "Manuel Fernandes" ، واتخذ له ملجأ في أراضي "البارناجيس" ، القائد المسؤول عن الشريط الساحلي[ث] الذي لم يرغب في إطاعة الملك الملحد ، في السنوات الستة التي قضوها في أرض "برستر جون" حتى الوقت الحالي لم تصلنا أي أخبار عن أي منهم ، لا خطاب ولا رسالة محدده منهم نستطيع أن نسترشد بها .

في أغسطس الماضي عام ١٥٦٢م تسلم نائب الملك[ج] رسائل من أسير في مصوع ، يقول فيها أن "البارناجيس" قد انضموا مع ثلاثمائة تركي ، وأطاحوا بالملك الملحد[ح] ، إن كانت تلك هي الحالة فإن نائب الملك كان ليبدي رغبة عظيمة في الرد على طلب الأب "البطريرك" في أن يقوم بإرسالنا إلى هناك هذه السنة .

(أ) "اندريز دى أوفيديو" أسقف مع رفقائه .

(ب) يدعي "ميناس" (آدمز سقد) .

(ت) "بحيرة تانا" .

(ث) تقرير القساوسة الإثيوبيين في ١٥٦٢/٧/٢٩م للقس العام .

(ج) "د . فرانسيكو كوتينهو" .

(ح) تقرير القساوسة الإثيوبيين في أعمال بيكارى .

علم أخيراً وبيقين كبير ، أن الملك الملحد (٣٨٤v) كان لا يزال يحكم ويقوم باضطهاد المسيحيين الذين يعيشون هناك ، ولذلك ظلت مسألتان هامتان باقيتين ، الأولى تتعلق بالأتراك الذين استولوا على المدخل ، والثانية هي موضوع الملك الملحد وعدائه للكنيسة الكاثوليكية ؛ بسبب هذا ؛ وبسبب الأماكن الكثيرة التي يتوجب الذهاب إليها في الهند ألغى نائب الملك موضوع مغادرتنا وأخبر "البطريريك" صراحة بأنه لا يمكن إرسالنا إلى أرض "بريستر جون" "Prester John" هذه السنة .

في حقيقة الأمر لم تكن هناك مخصصات من ملك "البرتغال" لأي شيء حتى يقوم نائب الملك بإرسال "البطريريك" مع بقية القساوسة ، وسفير إلى أرض "برستر جون" ، كما لم يكن هناك أي أمر من الملك يأمر فيه بإنفاق أموال على أسطول يتألف من ألف رجل لمهاجمة الأتراك الموجودين في مصوع ، وأن يجبر ملحدي تلك المملكة بأن يقدموا فروض الطاعة للكنيسة الرومانية .

بما أن الأتراك يتزايدون وملك وسكان أرض "برستر" يعارضون وصول "البطريريك الروماني" ، فمن الواضح أن ألفين أو ثلاثة ألف رجل عليهم الذهاب ، وهزيمة أرض "برستر" وتدمير المماليك ، إلا أنهم لن يتبعوا عقيدة الكنيسة الرومانية ، ولن يخضعوا لطاعة "بطريريكهم" ، لا أدري متى يمكن أن يكون ذلك ممكناً ، بحالة الهند تلك وهي تواصل في تزايد حاجتها للحرب والتي عليها الدخول فيها .

وفي العام نفسه (١٥٦٣م)

بعث "أنطونيو منديز دي كاسترو" "Antonio Mendes de Castro" رسالة إلـى الملكة ، بتاريخ الأول من شهر أغسطس عام ١٥٦٣م ، ويذكر فيها قصة ملك "قشن" والانتقام للبرتغاليين : (٥)

سيدتي ..

بقيت سفينتان في تلك الجزر ، وهي السفينة "رينها" "Renha" والسفينة "ساو فيسنتو" "Sao Vicento" التي جئت على ظهرها .

غادرت "قشن" في التاسع والعشرين من يناير ، وغادرت السفينة "رينها" في الثلاثين من الشهر وفي الثامن والعشرين من هذا الشهر ، غادرت السفينة "فرول دي لامار" "Frol de la Mare" التي عند المضيق واجهت طقساً رهيباً حطم الدفة والحبال ، وسحبتها السفينة "رينها" برفقتها ليومين أو ثلاثة .

(٥) رقم الوثيقة والهامش.

ويقال إنهم أعدوا مؤخراً دفة جديدة ، وأيضاً المضخات ، وانتظروا طقساً مناسباً ليتحركوا ، شاهدتها لكن كان الوقت ليلاً ، وعند منحنى رأس الرجاء الصالح ، وبوجود رياح عاتية لم أتمكن من التحدث معها ، لابد أنها الآن في "ساو توري" "Sao Tori" ؛ لأنه في اليوم التالي قام المرشدون بجعلها تنعطف عند رأس الرجاء الصالح ، لم يكن على ظهر تلك السفينة أي فلفل ، لكن الاثنتين الباقيتين هنا جاءتا بسبعة آلاف ومائة قنطار من الفلفل .

السفينة "سيدرو" "Sedro" بقيادة القبطان "دوم فازيو دي تايدي" "D . Vasio de Ataide" ، يبدو أنها غادرت في اليوم الثاني أو الثالث من شهر فبراير ، وأيضا لم تكن تحمل فلفلاً ، وإنما أليافاً من جوز الهند وخشباً أسود وصواري وأشياء أخرى .

السفينتان "كابيتانا" "Capitana" و"سبيرانزا" "Espiransa" لم تغادرا "قشن" حتى بعد الخامس عشر من فبراير ، كان قبطان السفينة "سبيرانزا" "دوم فرانسيسكو ماسكارينهاس" "Francisco Mascarinhas" ويبدو أنها لم تأت بأكثر من ستة أو سبعة آلاف قنطار من الفلفل ، وإن توفر ذلك ، فسيكون هو ما وعد به ملوك "ملبار" نائب الملك وهو أكثر بكثير مما ذكرته بأعلى ، أما السفينة "تايجر" "Tiger" فان نائب الملك طلب منها الحضور دون أي حمولة .

الأمور التي حدثت خلال الوقت الذي كنت فيه بـ الهند هي :

في "داماو" "Damao" حصل نائب الملك من خلال "جارسيا روديريجيز دي تافورا" "Garcia Roderigues de Tavora" ضد القائد

الحبشي الذي قتله بنفسه كما قتل نسبة كبيرة من الذين كانوا معه ، وكان قد جاء يعيش على جزر "داماو" ، وكانت في حالة ثورة ، أما "كامباي" "Campay" فإنها تعيش في سلام .

في نوفمبر الماضي جاء المدعو "كوجي نصر الله" من الجنسية "الباسورينية" كسفير للباشا في البصرة ، جاء إلى نائب الملك ، وصل هذا الشخص عبر هرمز ليرتب معه السلام ، وكان مخولاً بسلطات من الترك ليبرم معاهدات سلام ، وإنهم سيحطمون السفن التي لهم في البصرة ، وبعد أن عقد نائب الملك مجلساً عن الموضوع أجاب بعدم وجود سلطة في يده من سيده الملك حتى يقوم بترتيب مثل هذه المعاهدات السلمية ، لكنّه سيعلمه بالأمر .

وسيكتب له عبر تلك السفن ، وبالبر أيضاً ، وحالما يبعث سموه بالتعليمات فسيرسل له الرد على طلبه ، ثمّ طلب من السفير الانصراف ومعه المدعو "أنطونيو تيكسيرا" "Antonio Texiera" ، وهو رجل متزوج من هرمز ليرافقه حتى البصرة ، وأن يسهلوا له مروراً حتى يأخذ الرسالة إلى سموه .

في نهاية نوفمبر الماضي ، غادر نائب الملك "غوا" إلى "قشن" مع خمسين سفينة نتيجة لسماعه الأخبار بأن الفلفل لم يكن متداولاً ، في الطريق كانت له مقابلة في "كوليت" مع "الساموريم" حيث التقاه نائب الملك مع كل الرجال الذين معه ، وانتظره عند بستان للنخيل بعيداً قليلاً على الشاطئ ، حيث تقابلا بكثير من الود .

وعند مغادرة نائب الملك من "غوا" كان قد جاء حاكم روماني إلى

"قشن" تابع لملك "قشن" ، وأثناء ذهابه من المدينة إلى بلدته من منزل قبل مغادرة المدينة أصيب بطلق ناري من بندقية ، أصابته بجروح في ذراعه وقتلت أحد حراسه .

عندها بدأ بقتل كل "البرتغاليين" والمسيحيين الذين مروا عبر الطريق الذي يصل حتى "قشن" "دي جيما" ، وهناك ذبحوا "امريكو دي ماسيدو" "Ameriquo de Macedo" القائد السابق "لكانانور" "Cananore" ، وكان في سفينة تحت الإصلاح في تلك البلدة ، ويقال إن القتل بين "البرتغاليين" والمسيحيين من المواطنين ارتفع لعشرين أو ثلاثين قتيلا ، وآخرون يقولون إن العدد أكثر من ذلك .

ملك "قشن" من الجانب الآخر تقدم في الحال لتهدئة الأوضاع ، وألقى القبض على حاكمه ، وكان رجلاً سيئاً ، وغير ودود وعدائي تجاهنا ، وقد هرب من الاعتقال ، وبعد أيام قليلة جاء ملك "قشن" بالأخير ، ابن أخيه إلى قلعتنا ، وأمر بأن يحضر أمامه سبعة من الرجال المتهمين ، وأمام القائد والرجال أعدمهم بالسيف .

كانت سيلان محاصرة تماماً وفي حالة يأس وبؤس شديد وبلا طعام ، وقد رتب نائب الملك أن يبعث "دوم فرانسيسكو ماسكرينهاس" القائد الأول للبحار يقضي الشتاء هناك ، وقد بدأت الاستعدادات مؤخراً لذلك الغرض .

عند ميناء "بيمجالا" الصغير حيث كان "افونسو فيرتادو" "Afonso Fertado" ، هو القائد المسؤول ثار الناس هناك وتمردوا ، وتأكد بصورة جازمة أن ضياع الأموال والبضائع كان أكثر من ثلاثمائة ألف

"باردوس" من الذهب ، وقد ذبحوا أعداداً من "البرتغاليين" والمسيحيين تفوق المائة من الأشخاص ، وأسروا أكثر من ثلاثمائة ، استولوا وأحرقوا ثلاثين سفينة ومركباً شراعياً ، بها كمية ضخمة من المدفعية والبنادق وأسلحة أخرى ، وكان "افونسو فيرتادو" قد وصل مؤخراً إلى "قشن" ، كانت الخسائر جسيمة جداً ولم يبق أحد لم يتأثر بذلك .

عند وصول "أفونسو فيرتادو" إلى هناك ، قدم بعض الأشخاص من "الدوريشا" أخباراً تفيد بأن "البنغاليين" يريدون شروطاً للسلام ، وسيسمحون بإطلاق الأسرى والسفن ، ولا أدري ما حدث في هذا الخصوص .

في "مالاكا" توجد بعض المشاكل ؛ وخوفاً شديداً نتيجة لحقيقة أنه مؤخراً وفي السنة الماضية ، جاءت سفينتان من الصين لتقضيا الشتاء في الهند وجدتا في "داشيم" أكثر من مائتي سفينة والكثير من المدفعية والرجال المحاربين ، وهي تبعد ثلاثين فرساً خلف "مالقة" ، وأخبروا رجال السفن ليمروا ؛ لأنهم يحملون شهادات بالعبور لكونهم أصدقائنا ، لكن يعتقد بصورة مؤكدة أن هذا كان عملية تظاهر وتمثيل فقط .

بما أن "دوم فرانسيسكو دي سا" "D . Francisco de Sa" كان قائد "مالقة" أيضاً قد كتب لنائب الملك بأن هناك افتراضاً ، بأن ذلك كان حصاراً ؛ بسبب تحرك ذلك الأسطول ، وهو معد بكامل قوته وعتاده ، ولم يكن هناك سبب في استدعائه لذلك الجزء من البلاد ، حيث أرسل ، وكان ذلك إلى "جانتانا" ، عليه ولذلك السبب ، وأيضاً لانتظار وصول "جوميز بانيتو" .

بسبب سفينة ضخمة يقودها "سيماو دي كونها" "Simao da Cunha" ،

قام أحد سكان "غوا" الذي قضى الشتاء في "مالقة" ، وكان قد غادر قريباً حتى يأخذ السفن التي جاءت للمملكة ، وحتى الثلاثين من ديسمبر ، أقصد يناير ، لم يأت أي شيء من "مالقة" .

كما لم تصل أي أخبار بأنها وصلت إلى الساحل ، كانت هناك خشية بأن تكون حوصرت ، وتعاني بعض الصعاب والمشاكل ، وندعو الله أن يبعد عنها ذلك الأمر ، وأن تأتي تلك السفن التي هنا حاملة البريد وإحداها "فرول دي لامار" .

رأيت من الصحيح أن أقدم بياناً عن تلك الأشياء لسموك ، كما بدا من الصحيح لـ "دوم ديوجو دي مينديز" "D . Diego de Mendes" القائد الأول للأسطول بأن يبعث برجل تلك التي جاءت من الهند لسموك حتى يقدم معلومات تتعلق ببعض الأمور الخاصة بـالهند .

إن كانت لك رغبة في معرفتها ، وهو "بلشيور ريبيلو" "Belchior Rebello" القائد السابق في "كولاو" "Colao" ، والذي جاء معي في هذه السفينة ، وكان سعيداً جداً بوجوده في هذه المهمة ، معتقداً أنه بقيامه بذلك سيكون قد أدى خدمة لسموك .

نسأل الرب أن يطيل في عمرك ، ويثبت دولتك لسنوات عديدة .

من هذه السفينة "ساو فيسنتي" في اليوم الأول من أغسطس للعام ١٥٦٣م .

"أنطونيو مينديز دي كاسترو"

على العنوان : لسيدتنا الملكة

وفي العام نفسه (١٥٦٣م)

وردت نسخة لرسالة من "بيرو دا كروز" "Pero da Cruz" إلـى الإخوة في "جمعية يسوع" في "إيفورا" "Evora" ، "غوا" في الثالث والعشرين من شهر نوفمبر ، عام ١٥٦٣م ، ويذكر فيها جزر القمر : (٦)

نص مقتطف

فقرات رقم : الرابعة والعشرين ، السادسة والعشرين

الفقرة الرابعة والعشرون : في اليوم الثالث بعد مغادرتنا ، استطعنا أن نرى جزر "كومورو" "Comoro" ، وهي أعلى أرض رأيتها في حياتي وأكثرها ارتفاعاً ، يقال إنها مأهولة ببعض أقوام "المولاتو"(أ) ،

(أ) جزر "كومورو" أربعة باستثناء الصغيرة و"كومورو" هي الأكبر عن "أنجاسيجا" ، هي الآن تحت النفوذ الفرنسي . كان عدد السكان مائة وثلاثين ألف قبل ثلاثين عاماً ، خليط من الزنوج ، "مالاقاسى" ، فرس ، عرب .. الخ ..

(٦) رقم الوثيقة والهامش.

التجارة مع مسلمي مكة ، فارس والجزيرة العربية ، يمكن مشاهدة تلك الأرض من فوق السحاب ، وعندما يبعد المرء عنها لا يصدق أنها أرض ، إنما سحابة سوداء ، سامقة جداً مع سحب بيضاء تحتها ، وعندما يقترب منها يكتشف المرء أنها أرض ، ويقال إنه لا توجد أرض أعلى منها في العالم[أ] .

الفقرة السادسة والعشرون : قبل الوصول إلى "غوا" والأمواج تتجه نحو مضيق مكة . توقفنا قليلاً في الخلف ، كان يوماً شاقاً ، وكنا على وشك الوصول إلى "غوا" في مياه هادئة ، ولا ندري كم نبعد عن "غوا" ، ومعنا القليل من المياه بحيث لا يكفي كل رجل سوى ربع لتر في اليوم ، في اليوم التالي عندما استطعنا رؤية الأرض لم تكن هناك حاجة للماء بعد ذلك .

فقد كان هناك الكثير منها ، ومن كل شيء ، صلنا جميعاً معاً ، وقد استقبلنا الكهنة والإخوة الذين جاءوا على بعض الأطواف[ب] ، العادية ونحن ، الأب "ديانيسيو" "Dianesio" والأب "ماركوس" "Marcos"[ت] ، والأخ "جاكومي" "Jacomi"[ث] وشخصي نقوم بما تفرضه علينا الطاعة ويتوجب علينا عمله .

(أ) البركان "كارتالا" يرتفع ٢٤٥٠ متر في الجزيرة الرئيسية .

(ب) مانشوا ، سفينة من ملابار بصارى واحد وشراع رباعي "جاليوت" . في لغة "مااليالي" تسمى "مانجى" ، و"ماكفا" في لغة "ماراثى" .

(ت) "مويش" .

(ث) "دى براجا" .

الأب "كابريرا" "Cabreira" ذهب إلى "باسين" ومعه الأب "كابرال" "Cabral"[أ] بالأمس[ب] وفي الثاني والعشرين من شهر نوفمبر إلى هرمز حيث الأب "توندا" والأب "غونسالو فاز" "Goncalo Vaz" موجودان هناك . تملؤنا الحماسة جميعاً الآن نتيجة لطرد "البراهميين"[ت] وكما جرت العادة في السابق مارسنا طقوس التلميذ .

(أ) "ايمانويل كابرال" .

(ب) "أونتيم" في "البرتغال" .

(ت) طردهم ملك "البرتغال" إذ وقع في ١٥٦٣/٣/٦م وثيقة بطرد البراهميين وكل الذين يمارسون الشعوذة والذين وقفوا في وجه انتشار المسيحية .

وفي العام نفسه (١٥٦٣م)

وردت رسائل عظيم الترك إلـى الملك "دوم سيباستياو" ، بتاريخ الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٦٣م ، يطلب السلم والصداقة : (٧)

الرسالة الأولـى :

ترجمة لرسالة كتبت بواسطة سموه ، من : زعيم المسلمين للسيد السامي المشهور السيد "سيباستيان" ملك البرتغال ... الخ .

باسم دين المسيح المقدس للسيد المعظم والأمير الرزين والسيد المنتخب من بين عظماء الأمراء العالي المقام بين سادة المسيحية القوى المشهور الذي تحفه الفضائل من كل صوب ، ذي الشرف العالي عن كل الساده الكبار ، العادل المستحق للثقة وعظمة الدولة ، الرأس السامي الذي ينحني له كل حكام مملكة البرتغال ، الملك

(٧) رقم الوثيقة والهامش.

سيباستيان الذي نسأل الرب أن تملأ السعادة حياته وتزيد من رخائه حتى الممات .

بعد استلام رسالتنا هذه ، وعليها الختم الإمبراطوري ، لكل من يرى ذلك ، كما هو الحال لصاحب المقام السامي الذي لا يقهر العاهل القوى ، الذي تتمثل فيه كل الفضائل بالعالم وهو مستودع الشهامة العظيمة المستحق لكل الثقة والتشريف من كل العظماء والامراء في العالم ،

تم تعريفنا بذلك عبر مسالك الجزيرة العربية جاء به أحد رجالك الفضلاء الذي أرسل من الهند ، بلادك ، وقد انتخب من بين نظرائه من السادة المسيحيين ، وكلف بمراسيم كافيه وسلطات ، وهو بالاسم "أنطونيو تيسين ازيفيدو" "Antonio Tesen Azevido" وكيف نقل رغبتك لمعالجة السلام والوصول إلى هدنة مع حكامنا المنتخبين من بلادنا الذين اخترناهم ووضعناهم في ذلك المكان .

أما بالنسبة لإيطاليا فقد بعث برسالة منك بنفس الغرض قدمت عبر رسالة موقعة من السفراء المذكورين سابقاً عبر "نيكولو بيترو كوجينو" "Nicolao Petro Cojino" طبقاً للعادة القديمة والاستخدام المعروف مع طلبات أن تسلم رسالة أخرى ذكرت فيها نفس الرغبة والنوايا وعبرت عن عظمتنا وكرمنا والحبية التي فيها ويعكس نفس الشعور .

مع ذلك وقبل وصول المبعوث المذكور لنفس الغرض ثم الاتفاق أنه عند استلام رسالتك الأولى ، وبما أنه ترك بعثته وأعماله بطريقة مشرفة وبمنتهى الحكمة والعقلانية ، كما شاهدنا ، فقد كرمناه وقبلنا تلك النوايا بناء على استحقاقاته الجيدة ، وفي مدحه الكثير ، وبواسطة

رسالتنا الودية والاجابة عليها قد كلفناه بها وبعثناه بسلطات كاملة ، ليواصل أينما يكون جلالتك .

عندما يصل بإذن الرب ويقف أمامك كما اخطرتني تماماً برغبتك وعزمك ، خاصة بما أنها أمر يستحق الإجلال ومفيد أن ننعم بالسلام للصالح العام ولشعب ذلك البلد ، كونك عبرت عن الإرادة في كسب صداقتهم وطلبتها أن تتفق مع جلالته إمبراطورنا ، لما هو مكتوب في تلك الرسالة الأولى ، ونحن نبعث برسالة من دولتنا السامية ؛ لأنك أرسلت سفيراً موثوقاً به ، وبسلطات كافية يمكن التباحث معه لتأكيد مبدأ الصداقة من جانبنا .

أؤكد بأنها صداقة ونوايا حسنة لن ننسحب منها أو نفسدها ، بل نقبلها كل أريحية تماماً ، وبكل تقدير ، سنحظى بالهدوء بكثير من الشرف والنتائج الجيدة ما يرد في ذلك المعنى فإنه سيتقرب من جلالتك كما وعدنا وبواسطته وبالإذن الإمبراطوري ، فنرجو أن تبعث بالرد متى رأيت ذلك مناسباً ومرضياً مع السرعة بإذن من الرب .

قدم من مقعدنا الإمبراطوري في القسطنطينية .

في اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر ١٥٦٣م .

أمرت من الإمبراطور التركي بترجمة هذه الرسالة .

إبراهيم بك – كبير مترجمي البلاط .... للإمبراطورية العظمى ... الخ .

الرسالة الثانية (غير مكتملة) :

ترجمة رسالة صاحب السمو كبير المسلمين .. إلخ

كتبت لملك البرتغال السامي وعالي المقام .

من عميق أيماننا بالمسيح ... إلى الأمير الكريم ، سامي المكانة بين أمراء المسيحية العظيم ، القوي ، الشجاع وصاحب الفضائل ، المشهور بين كل العظماء وحامي العدالة صاحب الكرامة والمكانة العالية ، كبير رعاة البلاد ، العالي المبجل الملك سباستيان ، الذي نتمنى له السعادة دائماً وزيادة الرخاء والتقدم والنجاة في الحياة الأخرى ، بعد تسلمنا لمخلص وصل وعليه الختم الإمبراطوري ، كما ظهر الآن من الجناب العالي ، مفعم بكل طهارة العالم مستحقاً ثقة أن يكون مركزاً لكل عظماء السادة الأمراء .

في حوالي منتصف مايو رجلنا سابق الذكر المدعو "نيكولاس بيترو كوجينو" الذي تسلمنا عبره رسالتك الودية ، والتي أشرت لنا فيها كيف إن جانب الهند يرغب ويتمنى السلام والصداقة وتأسيسها مع حكامنا وسادتنا الذين رشحناهم في تلك البلاد ، والذين جاءوا ليعبروا عن روح الرغبة عندنا ، إن كان قانعاً بالتفاوض ، وتنفيذ رغبة سيادتك المذكورة ، وهي الصداقة التي تأتي من رغبتنا القوية .

عليه فإننا نسمح ونأذن بالوصول الآمن لمبعوثيك الذين بحضورهم هنا لنا ، ونحن في انتظار إكمال هذا العمل تجاه الرغبات الودية التي أظهرتها ، وعند وصول مبعوثك المذكور إلى كبيرنا المبجل ، كل تلك الرغبات طرحت أمامي نيابة عنك ، وأيضاً كل الذي جاء في رسالتنا الأولى والذي لم يكتب من قبل ، وقد ظهر كل شيء بطريقة جيدة وممتازة ، وقدم الأمر وفهمناه ، وتعرفنا عليه ، وخلصت أنه جيد وممتاز .

عند تحققنا من ذلك أدرك الجناب العالي كلٍ شيء منذ البداية ليس من منطلق عدائي ، لكن عبر صداقة ، وكنا دائماً نسعى لذلك ، ولا نمتنع عن تأسيسه خاصة لما فيه دعم السلام ، الصداقة والسلم العام وماهو في صالح البلاد والشعوب المجاورة الذين يلجأون لنا .

بكل إيمان سنتباحث مع دولتنا العليا ونتمثل في مبدأنا وطبيعتنا الموروثة طبقاً لعاداتنا في احسن ما يكون التفاوض مع رجال كبار لا حصر لهم عن الموضوع .

قررنا احتضان وقبول الصداقة التي أظهرتها رغبتنا الكريمة ، والتي سنبديها دائماً وفي كل الأوقات ، والتي أبديناها حتى قبل وصول مبعوثك المذكور ، بعد سماع موضوع الهدنة ، وقد أوفى مبعوثك بمسؤوليته وحكمته حتى النهاية ؛ لذلك كلفناه وأرسلناه برسالة طيبة تستحسن ما جاء به .

واثقين في الله بأنه سيصل ، وعبره أطلعناك على الموضوع الذي بينته ، وبكل ثقة أنت في القلب عند التباحث جيداً في هذا الأمر حتى النهاية ، وانك ستبعث بسفير من جانبك حاملاً سلطات كافية ليمكن التباحث الجاد في أمر السلام والصداقة مع تلك البلاد بطريقة حبية ، حتى تكتمل بكل استحقاق وشرف . ترفع من سمعة جلالة الزعيمين .

وفي العام نفسه (١٥٦٣م)

بعث "سيماو دا كوستا" "Simao da Costa" رسالة إلى "دوم سيباستياو" ، "غوا" الحادي عشر من شهر ديسمبر ، عام ١٥٦٣م ، بشأن وصول مبعوث الأتراك إلى هرمز لعقد اتفاقية السلام : (٨)

سيدي

في العام ١٥٦٢م وصل مبعوث من الأتراك ، أرسل من قبل باشا البصرة إلى هرمز ليطلب من نائب ملك الهند توقيع السلام .

في هرمز حيث أقوم بخدمة سموك . تم اختياري لإحضاره إلى الهند وتقديمه لنائب الملك ، وهذا ما قمت بعمله ، من "غوا" وبناء على أوامر نائب الملك أخذته أنا بنفسي مرة أخرى إلى هرمز ومن هناك إلى البصرة ، حيث أستطيع ملاحظة أين تقع البصرة ومداخلها ، قواتها ودفاعاتها وأسطولها من السفن .

(٨) رقم الوثيقة والهامش.

كما أقوم بمراقبة كيف تحكم البلاد ، وأدون كل شيء قد يكون مهماً لسموك ، كما أخبرت أن أتواصل مع أهل الجزر[أ] بطريقة لا تجعلهم يفقدون الأمل بأن يصبحوا أتباعاً لسموك ، وهم يعيشون على هذا الأمل ، كما أشاهد من الرسائل التي عرضوها عليَّ والكراهية الشديدة التي يحملونها تجاه الأتراك .

قمت بكل ذلك بمساعدة ربنا والرغبة الأكيدة في خدمة سموكم ، طلب مني نائب الملك أن أعرف سموك بأدق التفاصيل لما أراه ، وبالمعلومات التي حصلت عليها عن تلك البلاد ، سترى سموك أنني قد وفيت عهدي بذلك ، عندما تقرأ التقرير المرفق طيه .

فيما يتعلق بما شملتني به سموك من فضل وإحسان وتعييني قنصلاً في هرمز ، فإنني أثق في الله بأن سموك قد وجدني أهلاً لتلك الثقة ، وهذا المنصب وآمل في أن تتلقى التقارير عني ، وكيف أنني أقوم بخدمة سموك في تلك الأنحاء .

نسأل الله أن يمنح سموك العمر المديد ، وأن تقوم في خدمة الرب ، ويزيد من مساحة أملاكك الملكية ويمد في عمرك لتنتصر على كل إفريقيا .

كتب في "غوا" في الحادي عشر من شهر ديسمبر ، عام ١٥٦٣م

"سيماو دا كوستا"

مرفق مع هذه الرسالة التقرير التالي :

(تقرير قمت أنا "سيماو دا كوستا" بكتابته ويتعلق بـ البصرة كطلب سيدنا الملك) :

(أ) قوم من العرب .

الفقرة (١) : تنشأ جزيرة مرزك عند مصب نهر البصرة الذي تقسمه إلى فرعين ؛ أحد الأفرع يسمى نهر البصرة والآخر نهر العربية ، كل من تأتي من "البحرين" و"القطيف" يدخل عبر الفرع الأخير ، ثلاثة أرباع الطريق من مصب النهر إلى البصرة تنتهي الجزيرة حيث يصبح النهر واحداً ، المسافة من هناك حتى مدينة البصرة تمثل الربع الآخر من الطريق ، كما ذكرت سابقاً ، فإنه عند نهاية الجزيرة يصبح النهر واحداً والمسافة باتجاه النهر نحو قلعة البصرة تبلغ خمسة وعشرين فرسخاً ، خلف جزيرة مرزك المجاورة لـ فارس توجد جزيرة صغيرة غنية جداً وخصبه .

الفقرة (٢) : من مدخل نهر البصرة ، وحتى تصل إلى المياه العذبة ، فإن القناة يبلغ عمقها ما بين ثلاث وأربع أو حتى خمس قامات بطول الإنسان ، من المنطقة التي توجد فيها المياه العذبة ، وحتى نهاية جزيرة مرزك ، فيبلغ العمق حوالي سبع أو ثماني قامات ، بعد أن تعبر الجزيرة يصبح النهر أكبر ، ويصبح العمق في المنتصف أكثر من اثنتي عشرة قامة .

الفقرة (٣) : مقابل نهاية جزيرة مرزك ، تقف القلعة وعليها قائد وبعض الفرسان الأتراك والخيالة ، يتلقون من المزارعين المحليّين الأرز والقمح والشعير مرتين في العام من محاصيلهم المبكرة .

الفقرة (٤) : جزيرة "مرزك" نفسها مزدهرة ، ولا يقطنها الكثير من السكان ، الجزء الداخلي من الجزيرة ، حيث المسجد بدأ يعج بالسكان قبل ثلاث سنوات ، يتكون السكان أساساً من مزارعين يقومون بزراعة كميه وأفره من الأرز والقمح والشعير .

ازداد عدد السكان فيها بسرعة مذهلة ؛ لأن باشا البصرة أعطى المزارعين الحرية للسكن والعيش والزراعة هناك ، وفرض جزية مقدارها العشر فقط ، كان ذلك مناسباً جداً ، ويختلف عن الجزية التي تدفع في البصرة التي تبلغ الثلث ، ولذلك ازداد عدد السكان هذه الجزيرة على هذا النحو المتسارع .

الفقرة (٥) : عند الطرف الأقصى لجزيرة مرزك كانت هناك قلعة في الزمن السابق تم تدميرها من قبل دومر "أنتاو دي نورونها" "Antao de Noronha" عندما قدم إلى البصرة ، لم يعد بناؤها حتى الآن أو استفيد منها ، من المسجد الذي ذكرته سابقاً ، وحتى نهاية الجزيرة حيث القلعة يتكون معظم السكان من المزارعين ، وهم ينتجون مقادير كبيرة من المحاصيل الغذائية .

فقرة (٦) : يمتد المدخل إلى النهر عند البصرة على نحو ضيق ، ويبلغ عمقه ما بين ست إلى سبع قامات عند المد ، ومن أربع إلى خمس قامات عند الجزر ، وتندفع المياه في فورة شديدة عند المد والجزر .

فقرة (٧) : في هذه المنطقة على جانب البصرة ، يوجد معقل محاط بجدار للحماية بشكل مثلث ، واثنين من مواقع إطلاق القنابل على قمته ، بجانب النهر وعلى مستوى الشاطئ . توجد مصائد أسماك وأخرى إلى داخل مجرى المياه ، للمعقل فتحات على الجدران لإطلاق البنادق عبرها ، على الجانب الآخر من مجرى المياه يوجد مسجد عالٍ مع بعض المنازل ، وفي هذا المسجد دفن الباشا .

فقرة (٨) : توجد منطقة صغيرة من أرض فضاء حول حصن

البصرة متاخمة لمجرى الماء والنهر . تكونت نتيجة لقطع العديد من أشجار النخيل التي كانت تحيط بها ، أما المدخل لمجرى المياه ليست له سلسلة حديدية كما أفيد سابقاً .

فقرة (٩) : مقابل مدخل مجرى المياه على الجانب الفارسي توجد قلعة ضخمة وقوية وأطول من الحصن ، يبدو أنها كانت من أجل الدفاع عن الممر نحو أعلى مجرى النهر ، لكنهم لم يتمكنوا من منع عبور أي شخص مصمم على القيام بذلك .

في اليوم الذي دخلت فيه ، أطلقوا العديد من الطلقات من ثلاث قطع مدفعية في تلك القلعة ، من الحصن عند المدخل ، وحتى المياه أطلقوا أيضاً على الأرض التي بالقرب من القلعة حيث يوجد جسر من أطواق يبلغ طوله أكثر من ثلث فرسخ مع سلسلة حديدية ، من البصرة وحتى مكتب الجمارك الكائن في مؤخرة ذلك الجسر توجد أربعة عشر خوراً . تحتوي على كميه كبيرة من المياه عند المد والجزر .

سبع منها واسعة وليست عليها جسور ، للسبعة الأخرى جسور متحركة ، صنعت من أشجار النخيل ، وتخترق تلك الخيران بعمق شديد على الأرض ، وتوفر المياه لري كل مزارع أشجار النخيل خارج أسوار القرية ، داخل بساتين النخيل خلف تلك الأسوار يوجد العديد من المعابر الطويل المتحركة ، وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعل هذا المدخل قويّاً ومحروساً بطريقة جيدة ؛ لأن خلف تلك الخيران تحيط الأسوار بكل بساتين النخيل مع ممرات ضيقة توفر حماية كبيرة .

فقرة (١٠) : للجسر ثماني عوامات مرساتها ملقاه عند المد والجزر

وموصولة مع بعضها البعض بسلسلة حديدية ، وهي سلسلة متينة مصنوعة من جزئين ، عندما تبحر السفن تأتي السفن للداخل عبر الفتحة التي تركت بين الأطواق العائمة ، العوامات الأخيرة صنعت من ألواح خشبية ، يعبر عليها الناس بصورة مستمرة راجلين أو على ظهر الخيل . تلك الألواح قابلة للتحرك وترفع بالليل حتى لا يعبر أحد من الجانب الآخر إلى المدينة .

فقرة (١١) : من هذا الجسر يمتد مجرى المياه لأعلى النهر لكنه ضيّق جداً ، على بعد قليل من هذا الجسر يوجد حوض السفن حيث تبنى السفن الشراعية ، السفن الشراعية الجديدة على الشاطئ تحميها القلعة كملاذ ، أما الأخرى التي يجري العمل عليها فراسية عند الشاطئ في مكان آخر مع تلك التي على النهر حتى إذا دعت الحاجة لها .

فقرة (١٢) : يمرّ كل ليلة رجال على ظهور الخيل على طول الجسر من الجانب الآخر لحراسته ، ويختفون أثناء النهار ، وهم يقومون بذلك ؛ لأنهم يخشون جيرانهم خاصة عرب الجزائر (العرب الذين يمكن أن يطلقوا السفن ويدخلوا المدينة) .

فقرة (١٣) : القلعة على منطقة واحدة في المدينة على طول مجرى المياه ، وأما الجسر المذكور أعلاه ، فنهايته الأسوار التي تحيط بالمدينة ، وتقود إلى هذه القلعة لتكمل إغلاقها بهما ، للقلعة خندق صغير يملأ ويفرغ بمياه من النهر مع المد والجزر ، لا يوجد أي شيء بين القلعة ومساكن المدينة سوى ذلك الخندق ، يبدو أن للقلعة مدفعية قليلة جداً ، هناك تمثال معدني على بوابة القلعة وأشياء أخرى بعضها مكسور .

الفقرة (١٤) : هناك جملة من دعامات الجدران حول كل الأسوار التي بالمدينة التي لها أيضاً سور حماية منخفض مع فتحات لإطلاق النار عبرها ، على سور الحماية هذا لا توجد أي مدافع ، خارج نفس السور ، هناك خندق يحيط بها يمتلئ بالماء ويفرغ عنه بواسطة النهر ، الخندق عميق لكنه ليس واسعاً ودائماً يحتوي على الماء .

الفقرة (١٥) : القلعة والأسوار المحيطة بها تتم مراقبتها بطريقة جيدة جداً أثناء الليل خاصة في بعض المواقع والبوابات على وجه الخصوص من قبل القائد وجنوده ، قضى القائد هناك ثلاث سنوات ، ولم يغادر القلعة إلا في حالة استدعائه من قبل الباشا لأمر هام .

فقرة (١٦) : للمدينة أربع بوابات ، يحرسها رجال مسلحون على أربع نوبات كل يوم . تفتح عند الصباح ، وتغلق قبل الغروب عندما لا يزال ضوء النهار موجوداً ، البوابات تقع في الشمال ، والجنوب ، والشرق ، والغرب ، في أيام الجمع عندما يكون الجميع في المسجد تبقى البوابات مغلقة حتى خروج المصلين .

فقرة (١٧) : يبدو أن للبصرة مدفعية أفضل ؛ لأن الأتراك متبجحون ، ووضعوها كلها على مدخل الجسر العائم الذي به السلسلة الحديدية على الأرض فوق الألواح الخشبية ، ووضعوا قطع المدفعية التالية المختلفة من بنادق وقاذفات صغيرة وكبيرة انفجرت إحداها في يوم دخولي إلى البصرة .

فقرة (١٨) : مما أبدوه في اليوم الذي دخلت فيه ، فإن لهم سبعمائة رجل ، منهم مائة وخمسون معهم بنادق والبقية معهم أقواس وأسهم ،

لكنني أكيد من أن ألف رجل الذي نشروا في البصرة منهم خمسمائة من الفرسان الخيالة ؛ لأنهم من البصرة يذهبون للمساعدة حيثما تتم الحاجة لهم ، لأماكن مثل "القرنة" ، "الزكية" ، "والمدينة" وقلاع أخرى على الجانب الفارسي ؛ بسبب المناوشات التي تقوم بينهم وبين جيرانهم .

فقرة (١٩) : أسماء قادة القلاع التي في "القرنه" ، "الزكية" و"المدينة" وأخرى على الجانب الفارسي ويعرفون بـ "كابان" : "ميرا" "Mira" ، "سام" "Sam" ، "جاكوس" "Jacos" و"بيكوس" "Picos" ، لهم مشاة وفرسان خيالة ، ويساعدون بعضهم بعضاً عند الضرورة ، عند وفاة الباشا .

قام أولئك القادة ؛ وخوفاً من المؤامرة بالذهاب فوراً إلى البصرة للمساعدة ، وعند وفاته أرسلوا في الحال رسالة إلى بغداد يطلبون فيها بعض الرجال ، أرسل خمسين من الجنود الإنكشاريين لحراسة المدينة ، وذلك للثقة التي يولونها لهم .

فقرة (٢٠) : أفضل منطقة بـالبصرة هي قرية عربية تسمى "سراجي" ، وتبعد حوالي نصف فرسخ عنها ، الطريق إليها سهل ، مفتوح ومستو ، والمسافة من هناك وحتى أسوار المدينة نصف المسافة التي تقطعها طلقة بندقية ، مقابل إحدى البوابات على الجانب الجنوبي ، وبين هناك وأسوار المدينة توجد منازل وسوق ، والطريق واسعة .

فقرة (٢١) : عندما غادر "أنطونيو تيكسيرا" ذهب عن طريق حدود الجزائر ، وقد ذهبت معه لمسافة نصف فرسخ من البصرة ، خرج عن طريق الجسر الذي على الأطواف ذي السلسلة الحديدية . تبدأ على

الجانب الآخر من الجسر بساتين النخيل وتمتد لمسافة بعيدة ، وتصطف تلك البساتين في صفوف ، ولها أسوار عالية ، ولكل منها جداول وخنادق لتخزين المياه ، وتحفظ تلك المنطقة بطريقة جيدة ، من هناك وحتى بقية البلاد فالمنطقة منبسطة ، وبها مستنقعات في بعض الأماكن .

فقرة (٢٢) : ما شعرت به تجاه هؤلاء الناس منذ بداية إقامتي ، والآن أكثر عن ذي قبل أنهم قلقون جداً لتحقيق السلام ، وهم مهتمون لذلك جداً على حساب رخائهم ، وهم يعيشون حياة مزدهرة ؛ بسبب كل تلك البضائع التي تمر عبر مضيق هرمز إلى البصرة ، مثل القرنفل ، القرفة ، جوز الطيب ، صمغ اللبان ، النيلة والأقمشة التي تؤخذ حتى تركيا ويدفع عليها رسوم عشرة بالمائة في البصرة .

مسافة الرحلة من البصرة وحتى بغداد بين اثني عشر إلى خمسة عشر يوماً ، وتدفع رسوم قدرها أحد عشر بالمائة ومن بغداد إلى حلب الرسوم واحد وعشرون بالمائة .

هناك نفقات أخرى كثيرة لذلك التاجر الذي يغادر هرمز مع بضائع قيمتها ألف "كروزادوس" يدفع خمسمائة "كروزادوس" كرسوم عليها حتى يصل إلى حلب ، لكن تلك البضائع قيمة جداً ، وتعوض تماماً ، وبكثرة تلك الرسوم التي دفعت عليها .

تأتي أطعمة أخرى عبر هذا الطريق ، ويدفع عنها نفس النسب ، لذلك السبب هم مهتمون كثيراً بأمر السلام ، البصرة وأماكن أخرى تمر عبرها تلك البضائع أصبحت غاية في الأهمية ، الملابس السوداء من

"كامبي" وأماكن أخرى تستخدم في البصرة والبلاد المجاورة ومن قبل عرب الجزر ، في البصرة يدفعون ثمانية بالمائة عنها .

فقرة (٢٣) : أعطاني باشا البصرة الإذن بالمغادرة في الثامن من شهر أغسطس ، والذهاب لرؤية السفن الشراعية والأماكن التي تبني فيها ، وجدت خمس سفن جديدة ليست فيها واحدة . تم تقفيل شقوقها ، إلا أنها مكتملة تماماً ، لم تكن تحتاج لأي شيء ، بأكبرها توجد اثنتان وعشرون كنبة طويلة ، ثلاثة منها لها ثمانية عشر مقعداً ، وواحدة لها ستة عشر مقعداً ، لكل سفينة شراعية مكان لرفع المرساة وحبل عند الجزء الخلفي المرتفع من السفينة ، وكل الدعامات تم تركيبها ، وكلها مختومة وضمت لبعضها حتى لا تنفصل ، وكانت كل الأشياء الضرورية الأخرى جاهزة .

فقرة (٢٤) : الخشب المستخدم في تلك السفن الشراعية الذي قمت بلمسه بيدي من خشب الزان والصنوبر . تبلغ سماكة الألواح الخشبية أصبعين وعرضها قدر راحة اليد وأقل قليلاً ، ويوضع بينها بعض خشب "التيك" لتقوية الهيكل ؛ لأن تلك الألواح عرضها صغير ، وكذلك سماكتها ولا تعمر طويلاً ، وتنغلق بسهولة .

فقرة (٢٦) : خارج حوض السفن وأمام القلعة هناك سفينة شاطئية عليها عشرون مقعداً ، أصلحت حديثاً ، وهي إحدى السفن التي جاء بها "بيربك" ، يوجد بالقرب منها سفينة شراعية صغيرة بها سبعة عشر مقعداً ، وسفينة شراعية بصاريين عليها خمسة عشر مقعداً ، بنيت قبل سنة ونصف . تم إصلاحها الآن ؛ لأن خشبها تعفن وفسد كثيراً .

عند أعلى النهر من الجسر العائم يوجد سفينة شراعية وأخرى ذات صاريين في نفس حالتها وتستخدمان عند الضرورة . توجد أيضاً أربعة من زوارق الكوبرا الصغيرة التي تطلق مدافع صغيرة من على أسطحها . تستخدم تلك القوارب بصورة دائمة في الذهاب إلى "القرنة" و"المدينة" لإرسال العون ، وحمل رسائل لعرب الجزر ؛ لسهولة تحركها وخفه مناورتها .

فقرة (٢٧) : أذن كل الأسطول الحربي يتألف من ثمان مع ما ذكرت سابقاً ما بين ستة عشر إلى اثنين وعشرين من المقاعد مع بارجتين بها أحد عشر مقعداً والأربعة زوارق الصغيرة المذكورة أعلاه وتبلغ جميعاً أربع عشرة سفينة .

فقرة (٢٨) : لا يوجد المزيد ؛ لأن "الفسطاس" الذي أخذوه من العرب في القاهرة وآخر أخذوه من "بالتازار دو برادو" "Balthasar do Brado" في القطيف قد فسدت ولم تعد صالحة ، السفينة الشراعية الضخمة "بدر" التي أحضرها "بيري بك" راسية في خور ، فسد خشبها ومليئة بالمياه ، جدت في حوض السفن كمية من ألواح الخشب من النوع الذي ذكرت وكمية أيضاً من الشمع لملء الفراغات ، كما وجدت الكثير من الأخشاب إلا أنها من النوع الضعيف ، ولا تصلح إلا في إصلاح السفن عندما تتضرر أجزاؤها .

ققرة (٢٩) : كما شاهدت الكثير من الصواري الصغيرة وعوارض من الصنوبر للأشرعة يبلغ مجموعها كلها الخمسين ، هناك عدد من المراسي الحديدية الصغيرة والكبيرة ، التي يقومون بصناعتها في البصرة ويرسلونها

إلى فارس ، وأيضاً الكثير من قذائف المدافع الصغيرة والكبيرة المصنوعة من الحجار ، وأيضاً عوارض خشبية يدفعون عليها السفن .

فقرة (٣٠) : وجدت أن ألواح "التيك" تلك تأتي إلى هنا ، يستخدمونها ويخلطونها مع ألواح أخرى يملكونها ، وهي تأتي من الهند في طريقها إلى "البحرين" و"ظفار" ، يحملونها تحت الأثقال من الحصى ، وتأتي تلك التماثيل من "دابول" ، "باسين" ، "بومبي" ، "داماو" و"ديو" .

كما تأتي بعض الأخشاب على السفن قادمة من هرمز لإحضار المؤن كحمولة إضافية ، يسمونها باللغة الفارسية "درابس" ، وهي تباع هناك في هذا المكان يستخدمون ألواح أخرى من أشجار النخيل التي بـالبصرة تستخدم هنا أيضاً .

فقرة (٣١) : وجدت أيضاً أن من تلك الأماكن يأتي كذلك الكثير من المجاريف ، وهي تستخدم في الكثير من الأغراض .

فقرة (٣٢) : يعتبر النهر غير صالح لتلك السفن ؛ لأنها تفسد بسرعة عند استخدامها ، وعندما ترسو فإنها تتفكك ؛ بسبب الرياح الجافة والشمس ، كما إنها لا يعتمد عليها ، وكثيراً ما تحتاج للصيانة ، بعد وصولي للبصرة أفرغوا إحدى السفن الشراعية الصغيرة ، وأخرى كبيرة ؛ لأنهما تضررتا كثيراً ، قاموا بإصلاح السفينة الكبيرة في الحال أثناء وجودي هناك ، كان نصف الجزء الأسفل متعفناً إلا أنهم جددوه تماماً خلال فترة وجيزة .

فقرة (٣٣) : من ناحية موقع الجزيرة ، فإنني أشعر بأن هذا الأسطول من السفن يمكن إحراقه بسهولة عند أي صدام مع عرب الجزر ، وأعتقد

دون أي شك في أنهم سيتعاونون عندما يرون قوة الملك سيدنا على مضيق البصرة ؛ لأنهم لا يرغبون سوى في ذلك الأمر .

فقرة (٣٤) : تأتي الأخشاب إلى البصرة من مكان يسمى "حورنة" ، حيث تقطع الألواح والمفاصل والصواري والدعامات ، وتذهب من هنا عبر النهر إلى "خماسي" ، وهي مدينة تبعد مسيرة ثمانية أيام عن بغداد . تستغرق الرحلة ثلاثة أيام عند وضعها على عربات من هذا المكان إلى نهر بغداد ، في النهر توضع على أطواق عائمة تصل إلى بغداد في خلال عشرة أيام ، من بغداد إلى البصرة توضع على مراكب كالتي تنقل البضائع ، ومن نفس المكان يأتون بالحبال والمسامير .

فقرة (٣٥) : قضيت الأيام التي أمضيتها بـ البصرة ، أتحقق من الأشياء التي ذكرتها في هذا التقرير ، هذه المعلومات قدمت بدقة من قبل رجل يرغب ويقدر خدمة سموك .

كتب في "غوا" – في الحادي عشر من شهر ديسمبر ، عام ١٥٦٣م

"سيماوا دا كوستا"

أحداث عام ١٥٦٤م

وردت رسالة من الملك تتعلق بـ"أندريه أمادو" "Andre Amado" ، "لشبونه" في الأول من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م ، يذكر أمين سجل الوفيات في قلهات ومسقط : [٩]

ملخص

رسالة من الملك يمنح بموجبها "أندريه امادو" ، حامل الدرع وأحد نبلاء بلاطه ، ابن "افونسو غونسالو امادو" "Afonso Goncalo Amado" وظيفة الوكيل وأمين سجل الوفيات في قلهات ، ومسقط لفترة قدرها ثلاث سنوات عندما تصبح شاغرة من قبل أولئك المعينين عليها بمقتضى الأحكام الصادرة قبل الأمر الحالي أو بأي وسيلة كانت .

"لشبونه" – الأول من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م

(٩) رقم الوثيقة والهامش.

وفي العام نفسه (١٥٦٤م)

منح وظيفة قيادة القلعة في "بانجيم" "Banjim" ، "لشبونه" ، الرابع من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م ، ويذكر تكريم "مانويل دي ميلو" "Manuel de Milo" :[١٠]

اعتباراً لخدمات "مانويل دي ميلو" ، الذي كان قائداً في "بانجيم" ولخدمات "أنريك دي ميلو" "Enrique de Milo" ابنه الذي وجد نفسه في القلعة بـ "البحرين" تحت الحصار من قبل الأتراك فقد منح قيادة القلعة في "بانجيم" في حالة وفاة والده .

"لشبونه" - الرابع من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م

"ألفارو فيرنانديز" "Alvaro Fernandes"

---

(١٠) رقم الوثيقة والهامش.

وفي العام نفسه (١٥٦٤م)

وردت رسالة من الملك بخصوص "مانـويل دي ميـــلو" و"أنريك دي ميلو" ، "لشبونه" ، في الثالث والعشرين من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م ، ويذكر فيها اعترافه بخدمات "مانويل دي ميلو" : [١١]

ملخص

رسالة من الملك يقر ويعترف فيها بخدمات "مانويل دي ميلو" قائد قلعة "بانجيم" في الهند وخدمات "أنريك دي ميلو" ، ابنه ، الذي كان بالقلعة في "البحرين" عندما حوصرت من قبل الأتراك ، حيث ذهب من هرمز بناء على أوامر "دوم أنتاو دى نورونها" ، الذي يقوم الملك حالياً بإيفاده إلى الهند كنائب للملك .

ففي قلعة "البحرين" عانى المدعو "أنريك دي ميلو" ، وقاتل

(١١) رقم الوثيقة والهامش.

ببسالة ؛ دفاعاً عنها كما عرف الملك بذلك ، وفي حالة وفاة "مانويل دي ميلو" ، فإن الملك يمنح قيادة قلعة "بانجيم" إلى ابنه "أنريك دي ميلو" بنفس الطريقة التي عين والده عليها في السابق .

"لشبونه" ، الثالث والعشرين من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م

وفي العام نفسه (١٥٦٤م)
وردت رسالة من الملك بخصوص "مانويل دي ميلو" ، "لشبونه" في الثالث والعشرين من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م : [١٢]

ملخص

رسالة من الملك ، ليكن معلوماً أنه في يوم الثاني عشر من شهر فبراير من العام الماضي ١٥٦٤م ، قرّر أن يمنح "لويس دى ميلو دا سيلفا" "Luis de Milo da Silva" ، أحد نبلاء بلاطه والموجود الآن بالهند منصب قيادة قلعة هرمز لفترة مدتها ثلاث سنوات .

عندما تصبح شاغرة من قبل أولئك الذين عينوا فيها ، بمقتضى أحكام صدرت قبل المرسوم الحالي أو عندما تصبح شاغرة بأي وسيلة كانت عليه التخلي عن الرحلتين ككابتن ووسيط تجاري في السفينة الشراعية التي ستبحر من الهند إلى "باندل" ، التي قام الملك ، سيدة وجده (تمسى بمجد الراحة والمجد في قبره) بمنحها له في العام ١٥٥٧م .

(١٢) رقم الوثيقة والهامش.

كما يقرر الملك إصدار الرسالة الحالية التي تتعلق بجعله قائداً كما موضح في المرسوم المذكور ، إن كان الأمر يتعلق بكونه عمل على إحدى أو الرحلتين البحريتين المذكورتين ، فعليه تركها والتخلي عما بقي من مدة خدمتها ، وكان قد خدم الاثنين ، فإن الملك قرر منحه القيادة المذكورة بالرغم من كونه خدم في الرحلتين إلى "باندل" أو لا .

"لشبونه" ، في السادس والعشرين من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م .

وفي العام نفسه (١٥٦٤م)

بعث الأب "مانويل كابرال" "Manuel Cabral" رسالة إلـى الأب "دييجو ميراو" "Diego Mirao" ، هرمز ، الحادي عشر من شهر إبريل ، عام ١٥٦٤م ، ويذكر فيها الأجواء قبل الوصول إلـى هرمز : [١٣]

الأب الموقّر السلام على المسيح

١) بالرغم من عدم ملاءمة الوقت ، ولم أشعر بأي ميل ؛ لأنه ولمدة ثلاثة أيام لم أقم بأي قداس ؛ بسبب تورم يدي وأن التزامي نحو شخصك الموقر ولكل من في المجمع[أ] ، يلزمني بما أستطيع القيام به ، كتبت لك عبر السفن المغادرة إلى "البرتغال" مطولاً عن رحلتنا ، وذكرت لك بعض الأحداث التي مررت بها بعد مغادرتي المكان الذي

(أ) مجمع "كويمبرا" .

(١٣) رقم الوثيقة والهامش.

أنت فيه ، نقلت لك ذلك بنفس الطريقة التي ينقل بها ابن لوالده[أ] ، وبما أن هذا الرجل يغادر الآن ، فسأكتب لك أخباراً عن نفسي[ب] .

٢) بعثت من "غوا" إلى هرمز حيث أنا مع الأب "توندا"[ت] في رحلة أقضي فيها واحدا وعشرين يوماً ، وقد استغرقتني أربعة أشهر ، قمت فيها بخلاف المحن الأخرى عندما كنا على مشارف هرمز . تدور حول الكاب (الرأس) الذي يسمى "مسندم"[ث] ، وحيث الكثير من السفن الشراعية ، ضاعت وهي في رحلتها إلى الهند وكنت أنا نفسي في مرحلة من الضياع .

تقدمنا يوماً حتى أوشك الليل أن يسدل أستاره وكل أشرعتنا مشرعة ، وعندما كنا على وشك إنزال الشراع الرئيسي كانت الرياح قوية ولم نستطيع طويها ، وكنا أقرب إلى الغرق ، كان ذلك أمر حدث ونحن أقل من نصف فرسخ عن اليابسة ولم يكن في مقدورنا أن نتحول بعيداً عنها .

٣) بعد أن سلمنا الله من ذلك قام قبطاننا ضد رغبة الكثيرين بالبقاء طافياً دون إلقاء المرساة ، وكنا نتوقع اللحظة التي ستتحطم فيها السفينة الشراعية ، وجدنا أنفسنا عند الفجر في خليج يبلغ عمقه حوالي أحد عشر "براساس" (البراساس يساوي ٢,٢٠متر) ، ولم يكن في مقدورنا الخروج منه عند أي جانب .

(أ) ضاعت هذه الرسالة .

(ب) وثيقة ٣٣ ، ١٠ .

(ت) الأب "فيسنتي توندا" .

(ث) رأس مسندم ، في أطراف الجزيرة العربية عند الخليج الفارسي .

رسـالة من الأب "مانـويـل كابرال" إلـى الأب "دييجـو مـيراو" ١٥٦٤م

كنا على مرأى من هرمز لمدة تسعة أو عشرة أيام . تهب علينا أعاصير قوية دون توقف ، كان أحدها من القوة بحيث تمنيت لو كنت ما زالت في المجمع ، وصلت الأمور إلى درجة بحيث رمينا أربعين برميلاً لتخفيف حمولة السفينة كما فككنا حوالي الأربعين من كابينات السفينة التي تشبه النوع البرتغالي ، أرخينا الأشرعة وحتى كدنا أن نقطع الصواري .

عملت مثل "البرتغاليين" الآخرين الذين يعملون في السفينة (لا أقول ذلك مثل البحارة ؛ لأنهم جميعاً من العرب "البربر" ، وعندما يكونون في طقس مشابه يتفقون جميعاً على أن ذلك حتفهم وقدرهم[أ] ، استمعت إلى اعترافات منهم ، وأقمت معهم صلوات كثيرة ، وقمنا بالكثير من الأعمال الدينية المخلصة التي لن أذكرها بالتفصيل إنما بالإيجاز .

المتعلقات الأثرية القديمة التي معي لم تمسسها المياه خلال كل تلك الرحلة من "البرتغال" ، قضيت يومين في البحر حيث كنا جميعاً نبحث عن وسيلة لإنقاذ أنفسنا ؛ حيث لم نكن نبعد أكثر من نصف فرسخ من اليابسة ، أشعلنا النيران على اليابسة مستخدمين الأشياء التي ألقيناها لتخفيف حمولة السفينة .

ويبدو أن بعض الناس قد جاءوا ليلاً ليروا أن كانت السفينة قد وصلت عند الشاطئ ، وهم يقومون بذلك من أجل سرقة بعض

(أ) نصيب كلمة عربية تستخدم في آسيا وإفريقيا بمعنى حظ وقدر ثم يتوقفون عن العمل .

الأشياء ، ربما أن أولئك "البربر" وجدوا تلك الأشياء فقط ، وعندها قاموا بإشعال النيران فيها .

سفينة شراعية ضخمة أخرى كانت تبحر على مسافة نصف فرسخ أمامنا ، عندما استدرنا نحو الرأس أمضيت الليل كله وأشرعتها منصوبة ، اتجهت نحو اليابسة ، وتحطمت ، وكان من الممكن أن يحدث ذلك لنا إذا كنا قمنا بنفس ما قاموا به .

سلمنا الله بالرغم من عدم وجود خبز معنا أو لحم ، وحيث كان اليوم هو يوم الصوم الكبير(أ) ، وكنا قد غادرنا "غوا" في نوفمبر (ب) ، ولم يكن معنا حتى السمك باستثناء الذي نقوم بإمساكه ، ولا خمور ؛ لأن البرميل منها من هذه البلاد يكلف أربعمائة "كروسادوس" كأرخص سعر ، وقد قمنا بإفراغ المياه في البحر في اليوم الأول ، عندما آملنا في الوصول لـهرمز في نفس تلك الليلة احتفلنا بيوم الثلاثاء يوم التحلل من الخطايا بعمل الأرز ، وكأننا كنا في اليابسة .

٤) وصلنا إلى هرمز حفاة الأقدام ، وأمسكنا بالحبل ، ولم يكن معنا غير واحد فقط وجدت "أندريه توندا" و"غونسالو فاز" في غاية الضعف والإنهاك ؛ بسبب المرض الذي ألم بهما(ت) ، وقد مات الكثيرون في هذه البلاد جراء ذلك .

غادر "غونسالو فاز" إلى "غوا" وبقينا أنا والأب "توندا" ، يقوم هو

(أ) يوم الرماد يوم الأربعاء وافق الخامس عشر من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م .

(ب) الثاني والعشرين من شهر نوفمبر ، عام ١٥٦٣م .

(ت) وثيقة ١٠/٣٣ .

بالوعظ ، وأنا أستمع للاعترافات ، ويمكنك أن تحكم أيها الموقر كيف أجيد أنا ذلك . أثق في الحبر الذي كان قانعاً بإرسالي إلى هنا ، أقوم بالدراسة والعمل في هذا ، بأفضل ما عندي من قدرات ؛ لكنني لست النموذج الأمثل في ذلك .

٥) الأوضاع في هذه البلاد ليست كمثلها في البلاد الأخرى . "مارتيم نافارو" (الذي نرجو من الله أن يجعل منه قديساً سبحانه) ، وهو الكاتب وأستاذ القانون الكنسي وأصله من "نافاري" "Navari" ، أن عليه العودة مرة أخرى الآن ؛ ليدرس مرة ثانية ، فسيكون الأفضل في التقرير عن الأشياء التي تحدث هنا وتصنيفها ، إن كان لأي أحد أن يشك في ذلك .

فإنني سأقول إن الشيطان قد وضع الكثير من الشكوك والمصاعب في الطريق عما كان المتعلمون من الرجال قادرين على اكتشافه وحله ؛ لأن أهل هذه البلاد (الأكثرية هنا عما في أي مكان آخر في الهند) أكثر سوءاً من الشياطين أنفسهم ، فهم يلفقون الأشياء ، لهم أساليبهم في السرقة .

وارتكاب الذنوب والمساومات التي لا يستطيع حتى الشيطان حبكها حتى إن اجتمعوا معاً ، سأكتب عن بعض الأمور إن وجدت بعض الوقت ، لأذهل بعض الذين يعترفون ويخشون من الاستماع للشباب في هذه البلاد ، بينما واحد فقط من أولئك الشباب سيكون قادراً على الاستماع للاعتراف منهم جميعاً .

٦) نستمع إلى اعترافات الكثيرين منهم ، ويكاد أن يكون من الجميع بهذه البلاد ، ومن بعض الذين يأتون من أماكن أخرى يحملون

تصرفاتهم المنحرفة ، يحبنا الجميع وأود أن يعرف شخصكم الموقر شيئاً واحداً ، أنه لا يوجد مسيحي واحد في الهند لو كان يملك رغيف خبز ، فلن يعطي منه حتى نصفه إلى يسوعي .

أرجو من سماحتكم أن تؤكد من جانبك أن الذين يستمعون للاعترافات ، ويأتون إلى هنا يجب أن يكونوا الأشخاص الحقيقيين المفترض وجودهم ؛ لأن معظم المتعلمين ليسوا مؤهلين لأن يستمعوا للاعترافات حيث أنت ، ولا أدري كيف أن الأقل معرفة يقومون بذلك هنا .

٧) توفي الكونت نائب الملك[أ] ، كانت وفاته مفاجئة ، وقد حل محله "جواو دي ميندونسا" "Joao de Mendonca" القائد السابق "مالقة" وهو مخلص جداً لنا ، المضيق هنا مفتوح الآن ، ويمر العديد من الأتراك بسفنهم عبره الآن ، إلا أننا لا نخشاهم على الإطلاق ؛ لأن الجنود موزعون بين أربعة من القادة ، مائة منهم تحت كل ضابط ، ومائة أخرى يحرسون بوابة القلعة على دوريات من خمس وعشرين في كل دورية بغض النظر عن حراس البوابات ، وآخرون ينضمون إليهم دون التزام ثابت .

يحمل جميعهم البنادق مع كل الذخيرة الضرورية وأيضاً لهم سيوف على خاصرتهم ، أما الزنوج ، فيحملون الرماح وسيوفاً قصيرة . تحرس القلعة ليلاً من وقت صلاة التبشير وحتى الصباح من قبل الدوريات ، ويعترفون الآن بجعل جميع الجنود يسكنون بالداخل .

٨) الأب "توندا" يوصيك بنفسه كثيراً ، ولم يتمكن من الكتابة

(أ) "فرانسيسكو كوتينهو" .

الآن ؛ لأنه لا يستطيع ، معنا هدية صغيرة لشخصك الموقر والتي نرجو أن تدخل البهجة في نفسك وقطعة كبيرة من قماش مطرز ، لكن إن وصلت هذه الرسائل إلى المجمع براً ، فسيكون ذلك أمراً كبيراً ، الأخير سيستخدم من قبلنا معاً هنا ، أما هذه الرسالة فللجميع ، إن كانت مناسبة لسماحتك ، أرجو عرضها على كل الأخوة .

أعلم جيداً أنني عند القيام بذلك ، فلست أعفي نفسي من التزاماتي نحوهم ، لكن ذلك سيرضي رغبتهم ورغبتي في ضرورة الكتابة لهم ، أما بالنسبة للالتزاماتي الأخرى التي اضطلع بها نحوهم ، فسأقول لهم الكثير كل شهر .

أوصي نفسي لك كثيراً ، وأستودعك قرابيني ، وصلواتي المخلصة .

٩) أحمل وصاياي للأب "غونسالو الفاريز" "Goncalo Alvares" إن لم يكن سيأتي إلى هنا هذه السنة(أ) ، وأيضاً لـ "مانويل الفاريز" "Manuel Alvares" وللأب "ريجو"(ب) ، و"بيرو جوميز" "Pero Gomez" ؛ و"فونسيكا" "Vonsica"(ت) ، و"مانويل رودريجيز" "Manuel Roderigues" ، و"ماركوس جورج" "Marcos George" ، و"ميغيل جوميز" "Miguel Gomez" ، والأب "فاريا" "Varia" .

و"جاسبار بلانو" "Gaspar Plano" ، و"تولوسا" "Tolosa"(ث) ،

(أ) زار الهند أول مرة في عام ١٥٦٨م .

(ب) جورج ريجو .

(ت) بيرو دا فونسيكا .

(ث) افناسيو دي تولوسا .

و"جـــواو فـــيريري" "Joao Feriere" ، و"بـــيرو دي ســـيلفا" "Pero da Silva" و"رينســـلو مارتنيز" "Rinclo Martins" ، "مانويل كوريا" "Manuel Correia" ، "جاسبار غونسالو" "Gaspar Goncalo" ، و"نـــيكولاو جـــراســـيدا" "Nicolao Graceda" ، و"جاكوم باربوسا" "Jacom Barbosa" .

و"لويس دي موريس" "Luis de Moris" ، "بيـــدرو انـــريكـــيو" "Pedro Anriquo"[أ] ، "أنطونيو باشيكو" "Antonio Pacheco" ، "ناوس" "Naos"[ب] ، و"جيرنيمو دياز" "Jeronimo Dias" و"كريستوفاو دي جوفيا" "Christofao de Govia" ، و"لوباتو" "Lobato"[ت] ، ولكل الإخوة الآخرين ، والقساوسة الذين أحبهم بالتساوي ، كحبي لعيسى المسيح . تحياتي القلبية للأب "غابريانو" "Gabriano" وأرجو أن تخبره أن يتوقف عن القلق ، فنحن معنا مياه للاستحمام .

إنها أمطرت كثيراً في البلاد هذه السنة ، ولا يتذكر أحد أنها كانت كذلك من قبل ، ونخاف قليلاً من النوم في السطح ، وسيهرب ستة آلاف من الأتراك والعرب "البربر" ليس فقط عند رؤية برتغالي ، لكن حتى عند رؤية الزنجي الذي يعمل عنده .

(أ) اثنان بنفس الاسم أنهيا دراساتهما في كلية كويمبرا ، أحدهما في الصف الثاني ، والآخر في الصف التاسع في العام ١٥٦٣م .

(ب) كوسماس داس ناوس .

(ت) ميلشوير لوباتو .

من هرمز ، في الحادي عشر من شهر إبريل ، عام ١٥٦٤م .

أخوك وخادمك في الله "مانويل كابرال" .

معنون إلى المسيح : أكبر قس موقر في إيمانه بالمسيح الأب "دييجو ميراو" عضو جمعية يسوع في "البرتغال" في "كويمبرا" "Coimbra" .

من هرمز

وفي العام نفسه (١٥٦٤م)

بعث الأب "فيسنتي توندا" رسالة إلى الأب "دييجو ليونيس" الرئيس العام "لجمعية يسوع" في "روما"، هرمز، في الخامس عشر من شهر إبريل، عام ١٥٦٤م، يذكر وضعه بين العرب في هرمز : [١٤]

أكثر الكهنة الموقرين للسيد المسيح، عليك السلام من المسيح .

١) بما أن حامل هذه الرسالة صديق عزيز لنا، وبما أنه يغادر هذه المدينة ومملكة هرمز في رحلة عمل هامة[أ]، فإنني لم أمانع في الكتابة لشخصكم الموقر بالرغم من ثقتي بأنني لن أكتب شيئاً جديداً، أنت لا تعرفه من خلال الرسائل العامة التي تأتي من الهند .

٢) أيها الأب الموقّر، منذ أكثر من عام، وفي طاعة الأوامر المقدسة، كنت في هذه المدينة حيث توجد قلة من المسيحية ؛ لأن طائفتهم كبيرة

(أ) انظر رسالة من "مانويل كابرال" العاشر من شهر إبريل، عام ١٥٦٤م – وثيقة ١٠/٣٣ .

---

(١٤) رقم الوثيقة والهامش.

جداً ، ودنيوية ومن الصعوبة سبر أغوارهم والوصول إلى داخلهم . أرجو من الله وبرحمته أن يفتح عقولهم حتى يستبينوا لأخطائهم .

أرجو من سماحتك أن تساعدنا في صلواتك وطقوسك المقدسة ؛ لأنني أستطيع القول إذا كانت أي مدينة في العالم تحتاج للعون ، فإنها هذه المدينة ، لترى أرضاً بها مثل هؤلاء الأشخاص النبلاء والحكماء ، وهم عمي تماماً ، ويجهلون كل أعمال الرب مما يجعلك تبكي عليهم ، بجانب ذلك ، فإن قلة قليلة هنا اعتنقت المسيحية ، ولن يلتزموا بإيمانهم ، ويتمسكوا به دون مساعدة شديدة وعظيمة .

إنها أرض غنية وخصبة ، ولا أظن أن هناك مثيلاً لها ، إنها الأسخن في العالم حتى أنني أسميتها المكان الذي تطهر فيه نفوس الموتى عن خطاياهم ، لكن عندما يتعلق الأمر بأعمال الرب ، فهي شديدة البرودة وجامدة ، هناك الكثير الذي يستحق المعرفة بخصوص هذا المكان ، لكن من أجل الإيجاز والاختصار فسوف لن أكتب عنها .

٣) سمعت من الهند قبل أيام قليلة في رسالة من الأب أسقف "الأبرشية"[أ] بأن الجميع بخير والحمد لله ، وإن الذين دخلوا في المسيحية يتقدمون ، وهم متماسكون وأنهم يأملون في اعتناق الكثيرين ، والتحول للمسيحية ؛ لأنه عندما يقترب المسيحيون من "البراهميين" (طبقة من الهندوس) في المدن سيصبح ذلك أكثر سهولة لجذبهم لإيماننا الرباني .

وصلتنا أخبار جيدة من اليابان ، وننتظر توقعات وآمال عراض .

(أ) الأب "انطونيو دي كاروس" الذي أرسل أخباراً من الهند لكل إرسالية في أوقات معلومة – ضاعت الرسالة ، وثيقة ٣٠ د .

القساوسة الذين ذهبوا إلى "إثيوبيا" يمرون بمصاعب ومخاطر جمة ، نرجو أن تدعو لهم عند الله سماحتكم ، وصلتني رسالة مفرحة من الأب "رودريغيز" في القاهرة[أ] .

٤) هذه المدينة كخارطة العالم ؛ لأنها تحتوي على كل الأشياء التي بالعالم باستثناء الأمور الإلهية ؛ لأنهم عند ذكر فضائل المسيحيين الأتقياء يسخرون منهم . هناك الكثيرون الذين يعلمون ذلك ، لكنهم لا يرغبون في إبداء ذلك ؛ لأنهم يرون الحب الذي نكنه نحن المسيحيين لبعض البعض ، والذي لا يعرفونه ، ولا يتبادلونه بينهم إطلاقاً .

٥) بفضل الله أنا بخير في هذه المدينة ، ومحبوب من قبل ليس فقط "البرتغاليين" ، لكن أيضاً من قبل العرب "البربر" ، ولا يعتري صداقتي أي من الذنوب . تحدثت مع الملك مرات عديدة[ب] ، مذكراً له بوعده الذي وعد به الأب الأكبر "جاسبار"[ت] وهو ودود جداً معي ، لكنه يميل إلى تغيير الموضوع . ندعو الله برحمته ألا ينير قلبه فقط لكن قلوب كل من في مملكته ، وهذا ما ندعمه بصلواتنا .

٦) في السنة الماضية كانت هناك موجات عاتية وطويلة من الأمراض في هذه المنطقة ، مرضت لخمسة أشهر ، لكن من يستطيع وصف

(أ) "كرستوفر روديغير" بطريريك الأقباط من فترة بيوس الرابع ومن جابرييل السابع . استدعى إلى "إيطاليا" في عام ١٥٦٢م فوصلها في مطالع عام ١٥٦٣م . عن رحلته وعنه .

(ب) "توران شاه الثاني" ، ملك هرمز منذ ١٥٤١م .

(ت) انظر ما كتبه الأب "جاسبار بارزيو" في ١٥٥٠/١١/٢٤م لليسوعيين في أوروبا عن رغبة ملك هرمز للتعميد – وثيقة الهند ١١ – ٨٧/٨٦ – ٤٥٧ .

عطف وشفقة أولئك "البرتغاليين"؟ بالرغم من أنهم قد لا يملكون أي شيء ، لكـن الملابس التي على أجسادهم يستطيعون مقاسمتها مع اليسوعيين في سعادة ومودة عظيمة . تمت العناية بي في منزل أحد المسؤولين من "البرتغاليين" بكل هذا الحب الذي لم أستطع وصفه على حقيقته[أ] كما تمت العناية بأحد الإخوة في منزل آخر ، ووجد نفس العناية والمودة والعطف[ب] .

٧) أرسلت قبل الآن رسالة لسماحتك براً[ت] مع أحد السفراء ، "أنطونيو تيكسيرا" بالاسم ، ولا أعلم إن كان شخصك الموقر قد تسلمها أم لا[ث] . الكهنة والإخوة من المملكة وصلوا إلى الهند ، والكهنة فرحون جداً ، إلا أنهم يتطلعون لسنة "الأبرشية" هذه[ج] ، وشخصكم الموقر بعلم الحاجة لقساوسة في تلك الأنحاء يكونون متعلمين جيداً ، وتشع منهم الفضيلة .

ماذا يمكنني أن أفعل ، فأنا لست متعلماً ولا رجلاً صالحاً ، أرجو من فضيلتكم الدعاء لي حتى يمنحني الرب ما أحتاجه من المعرفة ، حتى أتمكن من حل المعضلات الشائكة ، والفضيلة وحسن الخلق حتى أتعامل مع الناس الذين في قلوبهم مرض وغير محتشمين في ثيابهم[ح] .

(أ) وثيقة ١٠/٣٣ .

(ب) الأخ "غونسالو فاز" .

(ت) سلك الأب هيريديا طريق البر (عبر سوريا) في عام ١٥٥٣م - ١٥٥٤م .

(ث) يبدو أن الرسالة قد ضاعت .

(ج) فترة الثلاث سنوات للأب "كاورس" قد انتهت في ١٥٦٢م .

(ح) اقرأ ما كتبه الأب "مانويل كابرال" للأب لودفيكو غونسالفيس في نفس الموضوع ١٥٦٤/٤/١٠م .

٨) لا شيء أكثر من ذلك أيها الأب الموقر باستثناء أنني أكثرهم عدم فائدة . أطلب دعوات ومباركة سماحتكم التي نأمل جميعاً فيها لتريحنا ، أذكرني للأب "ميونا"[أ] .

من هرمز – الخامس عشر من شهر إبريل ، عام ١٥٦٤م .

من خادم فضيلتكم المتواضع لعيسى المسيح – "فيسنتي توندا"

(أ) الأب "مانويل ميونا" . رجل اعترف برتغالي للقديس اقناتوس ، توفي في "روما" ١٥٦٧/٣/٤م .

وفي العام نفسه (١٥٦٤م)

بعث ريس نور الدين رسالة إلـى الملك "دوم سباستياو" ، بتاريخ الخامس والعشرين من شهر مايو عام ١٥٦٤م ، ويذكر أنه لم يتم في السويس بناء أكثر من ثلاث وعشرين سفينة ، وكذلك في البصرة لا توجد تحركات والسفن لا تزيد عن عشر سفن : (١٥)

سيدي ..

حتى وإن كان في سلطتي أن أقوم بذلك ، فإنني لن أضيع فرصة أن أفعل ما تدفعني رغباتي للقيام به يومياً ، لأسباب كثيرة تفرض على أن أكون عبداً لسموك ، وأكثر من ذلك بل بناء على أفضال ومكارم كثيرة أتلقاها يوماً بعد يوم تتم هنا ، وأشياء ضرورية يجب إخطار وتعريف سموك بها ، كل تلك الأسباب كونها تحثني وتدفعني بعدم الخوف

---

(١٥) رقم الوثيقة والهامش.

من الكتابة لسموك ، وحيث وعبر البريد خلال السفن كتبت مؤخراً بخصــوص بعــض تلك الأشياء التي يتوجب عليّ التطرق لها في هذه الرسالة :

أود نوعاً ما القيام بذلك مرة أخرى ، حتى إن تمّ لومي ، كوني أبدو شخصا مزعجاً على أن أكون مهملاً ومتقاعساً في تقديم تلك البنود الهامة ؛ لأنها تُعد أموراً تشكل لحظة هامة ، ولعلي قد قمت بذلك عبر تلك الرسائل ، إلا أنه وبالرغم من ذلك ، فإنني أقوم بذلك مرة أخرى كما قلت من خلال هذا اليهودي الذي جاء من "غوا" بأمر من الحاكم "جواو دي ميندوسا" الذي خلف الكونت نائب الملك بعد وفاته ، وأيضاً ؛ بسبب عودة الجواسيس من السويس والقسطنطينية ، والذين كانوا فأرسلوا إلى هناك ، والذين وصلوا عند مغادرة هذا اليهودي .

عندها ، رأيت أنه من الصحيح تقديم هذه الأخبار التي جاءوا بها لي لسموك رغماً عن عدم وصول أي أخبار جديدة سوى تلك التي كتبتها مؤخراً ؛ ولأنه من المناسب معرفة العدو ، وما هو وضعهم ، فإنني أفيد أنه في السويس لم يتم بناء أكثر من ثلاث وعشرين سفينة حتى تاريخه ، ولا توجد أي تحركات بخصوص تلك التي في البصرة ، والتي نعلم أن عددها لا يتعدى العشر ، ويشمل ذلك العدد قاربين للبلاط وجميعها في حالة سيئة ، وكلها غير متحركة .

يقال إنهم يرغبون في السلام ، لعلنا ننال رضا الرب إن كان ذلك يصب في خدمته ، ونسأله أن يتم ذلك ، بما أنني أحد خدام سموك ، فقد كتبت بخصوص هذا السلام ما عبرت فيه عن حكمي عليه ، وكان الأتراك قد

طلبوا مضايف البصرة ومكة ، وها أنا أقوم بذلك الآن مرة أخرى ، وأقول بأنني أحيل نفسي لمجلس سموك .

حيث يمكن تقديم الكثير الذي لم أكن أتخيله ، لكن آخذين في الاعتبار ما كتبته عن تلك الأشياء في البصرة ، ومعاهدات السلام التي أبرمت بين الأتراك و"الكاتاماز" ، ويبدو من طلبهم الموافقة لتلك الشروط التي وضعها نائب الملك (ليرقد في سلام) أو التي أضيفت ، وأن ما طلبوه يجب أن يقبل ؛ لأن الأعمال الهندية تحت تجارب مستمرة ، والتي يجب أن تتم فيها ترتيبات جيدة .

يرغب فيها الأعداء هنا كثيراً ، خاصة هذه عظيمة الأهمية ، بالرغم من أنها لا يجب أن تكون السبب حكام ونواب الملك التابعين لك ، في أن يكفوا عن الاحتفاظ بمراقبة كلا المضيقين حتى يكون الأعداء الذين لا نثق فيهم تحت أنظارهم ، لكن عليهم ممارسة كل حذر وحيطة نحوهم .

أنا نفسي ، بالرغم من السلام ، لن أكف عن إحضار الكشافة ، لكنني سأمارس حذراً وحيطة مزدوجة ، بما أنني قدرت أنه وبعمل ذلك أصبو في خدمة سموك ، وأي أخبار يأتون بها سأعرضها على الحكام ونواب الملك ، وأيضاً عندما أتمكن ، سأبعث بها لسموك ؛ لأن كل ولائي مكرس لخدمة وتحقيق هذه المسؤولية التي كلفت بها .

في حالة حرب من جانب "مالابار" ، حيث أبحرت هذه السنة العديدة من السفن ؛ لتستطلع الساحل ، وتسبب بعض الأضرار بإذن من الرب وللمصلحة ، القلاع الأخرى في الهند جميعها والحمد لله في أمن وسلام .

كتبت لسموك عن كيف خلف "جواو دي ميندوسا" القائد السابق "لمالاكا" في تولي الحكومة ، وهو نتيجة للصداقة العظيمة التي تجمعه مع "دوم جواو دي اتايدي" "Joao de Ataide" ، فيما يبدو ، رغب في أن يرد لهذه البلاد بعض المسائل التي جاءت في وصيته ، والتي كان من بينها أن يكون لهم مراجع عام .

كان نائب الملك قد بعث به ليتولى الحكم ويقيم العدالة لأولئك الذين أرسلت الأطراف ضده يتوجهون إلى "غوا" ، وكانوا قد أُرسل في طلبهم هناك حتى يظهروا في المحكمة هناك أو وكلائهم ، ومن ضمنهم ملك هرمز ، وهو الأمر الذي لم يحدث منذ أن عادت هذه القلعة لسموك ، وقد أخبرت أن المسائل مررت ضد رغبة القضاة ، وقد كتبت أيضاً لسموك عنها ، ليس بسبب وضع الحاكم ليكون على هذه الحال ، لكن للحالة التي سيكون عليها "دوم جواو" نتيجة للشر الذي يحمله لكل هؤلاء الناس .

"دوم بيدرو دي سوزا" "D . Pedro de Susa" الذي عينته سموك لهذه القلعة كقائد ، أظهر حتى هذه اللحظة أطرافاً ممتازة ، وأنها ستكون مستحقة على اللوم لكل شخص لا يكتب لسموك نيابة عن نفسه ؛ لأنه في خدمة الرب وخير الجمهورية ، ولكل ما يتعلق بهذه القلعة وسيادة هذه البلاد ، لا أشعر حتى هذه اللحظة أن أحدا آخر خدم أفضل من هذا .

مما يبدو بعد بقائي في هذه الأنحاء أن الرب راض بعد عاصفة العام الماضي ليحرمه من شيء كان يملكه ، وأيضاً قرضاً كان قد منح له ، كان

قد تسلمه من بين يدي الرب ، وقدم له الشكر دون أن يتجاهل خدمة سموك ، لكنه أفضل الآن عن كل ما أدى به ، وبما أنني آمل القيام بذلك في سبتمبر بعون الرب ، لن أتحدث أكثر سوى الدعاء لسموك بطول العمر .

من هرمز ، في الخامس والعشرين من شهر مايو للعام ١٥٦٤م

ريس نور الدين

على العنوان : لسيدنا الملك

من ريس نور الدين

أحداث عام ١٥٦٥م

ورد خطّ الرحلة من جزيرة هرمز إلـى "طرابلس الغرب" [كذا[أ]] ، ومن ثم إلـى "لاروشيل" "La Rochelle" ، "فرنسا" ، بقلم السيد "أفونسو" "Afonso" ، بتاريخ الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ١٥٦٥م : [١٦]

البند : غادرت هرمز في الخامس والعشرين من شهر يونيو ، عام ١٥٦٥م في قافلة عن طريق فارس ، وكان ذلك ؛ لأن في البصرة - التي يمر خلالها أقصر الطرق وأكثرها أمناً - كان العرب وقائد المدينة تحت حصار من قبل التركي الكبير .

في وقت السلم تتجه القوافل عادة من البصرة إلى حلب خلال خمسين يوماً[ب] ، بأمان تام وسرعة أكبر من الطريق الذي سلكته .

(أ) المقصود "سوريا" (ملاحظة المترجم) .

(ب) خمسون يوماً ، خمسة وعشرون يوماً إلى "دمشق" ومن هناك خلال بقية المدة إلى حلب .

---

(١٦) رقم الوثيقة والهامش.

قد غادرت هرمز ، ورافقني "راغوني" "Ragoni" و"فينيسي"Venici" وبعض المسيحيين الأرمن ، وفرس آخرون ، وبعض الحجاج "البرتغاليين" الذين كانوا يحملون الصدقات إلى القدس .

في اليوم ذاته عبرت إلى البر الرئيسي عند باندل "جومبرون" "Gombron" التي تعني بالفارسية والتركية دار الجمارك أو المكان الذي يتم فيه دفع الرسوم ، وهي تبعد مسافة ثلاثة فراسخ عن طريق البحر إلى هرمز . تجمعت القافلة هنا ، وقد تألفت بشكل كلي من الجمال المستأجرة لحمل البضائع ، قد استأجرت جملاً أيضاً حتى أعبر لتاجر في تلك المناطق المسماة "سوداغار" .

البند : غادرنا في الثامن من شهر يوليو ، والشمس ترتفع باتجاه شرق الجنوب الشرقي ، وتغيب باتجاه غرب الجنوب الغربي ، وصلنا إلى نهر يسمى بالفارسية "أوباريق" ، وهو مجرى مائي ضيق يبعد مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام من "الباندل" في الثامن عشر من الشهر الحالي ؛ وكان ذلك ؛ لأن سائقي الجمال ، لم يكونوا راضيين عن مبلغ ستة وخمسين "شاين" xains للحمولة الواحدة ؛ لأن هذا السعر كان عالياً للغاية حتى مدينة "كاشان" ، يساوي "الشاين" xain أربعين "ريساً" ، ويضاعف ذلك أولئك الموجودين في تركيا ، أربعة "فنتن" .

قد انتظرنا قائد قلعة مجاورة تخضع لسلطان ملك هرمز ليأتي ؛ لكي ندفع الرسوم ، والتي تبلغ نصف "تستاو" لكل حمولة .

هنا سقط الجميع تقريباً مرضى ؛ بسبب الحرارة التي لا تصدق ، والتي أثرت علينا خلال هذه الرحلة ؛ لأن ريح الشمال كانت تهب ،

وكانت الحرارة تحرق الوجه والساقين ، ولم يكن هناك حل آخر سوى تغطيتها بشيء ، حتى لا تصيب الريح اللحم مباشرة .

الذي ساعد على إبقائي على قيد الحياة ، قماش مبلل بالماء حماني من هذه الريح ، وكنت ألف به نفسي دائماً . تهب هذه الريح عبر الخليج من قبالة البصرة ، قد هبت ابتداء من منتصف النهار ، وتوقفت عند الغروب .

البند : في الثالث عشر من شهر يوليو ، وبعد أن تم سداد الرسوم ، وإعطاء القائد هدية ، هي قارورة من ماء الورد ورغيفين بالسكر وعمامتين ، غادرنا هذا المكان ونمنا في سهل واسع تحيط به سلاسل جبلية ضخمة ، قد نمنا تحت حراسة مشددة في تلك الليلة ، وخلال عدة ليال لاحقة ، وكنا نطلق النار من ثلاث بنادق "مسكيت" ، كنا نحملها معنا طوال الليل ؛ بسبب كثرة اللصوص في هذه المنطقة .

في اليوم التالي سافرنا بطول نهر مائه ، مالح يجري عبر هذه المنطقة ، يقال إنه يأتي من لسان البحر ليصل إلى هذه النقطة من الخليج .

سافرنا عبر هذه السلاسل الجبلية ، وكنا نصعد أحياناً لارتفاعات شاهقة ، ونهبط أحياناً حتى يحل الليل حيث كنا نخيم على تل وسط هذه السلاسل الجبلية ، تحت الحراسة التي أشرت إليها .

واصلنا المسير ، مروراً بكثير من المنحنيات عبر سلسلة الجبال ذاتها وبطول النهر ذاته في عدة اتجاهات ، ولكننا كنا نتجه أساساً نحو الشمال .

في تلك الليلة ، أقمنا مخيمنا في سهل عريض ، عند سفح جبل

شاهق ، أعتقد أن سائقي الجمال عرفوا بسرقة اثنين من "الفاردوس" (fardos) ؛ لأنهم جعلوا التجار يقيمون مخيماتهم على مسافة من بعضهم البعض ، على الرغم من أن العادة المألوفة كانت هي أن يقيم الجميع مخيماتهم بالقرب من بعضهم البعض .

عند شروق شمس اليوم التالي ، غادرنا المكان عبر سلاسل جبال أقل ارتفاعاً ليس بينها نهر .

قبل ساعة من مغيب الشمس ، وصلنا إلى قلعة تسمى "تيزيرج" ، كان يوجد فيها قائد مسلم يخضع لملك هرمز ؛ إذ إن تلك المنطقة لا زالت تابعة له ، أسفل القلعة كانت هناك قرية صغيرة ، يعيش فيها خمسون من المواطنين المسلمين ، الفرس داخل منازل بائسة مبنية من الطين ، كانوا يعيشون على التمر والدجاج والأغنام ، ومشتقات الحليب التي كانوا يبيعونها للمسافرين .

كانت هناك أعناب جيدة كأعنابنا ، أقمنا مخيمنا على مسافة وراء تل ، وشربنا من نهر ذي ماء عذب للغاية ، وأكلنا تيناً رائعاً ، ورماناً بالغ الجودة ، كنا حتى تلك النقطة نتناول طعاماً رديئاً .

في ذلك المكان توفي نصراني أمريكي - وهو رفيقي - متأثّراً بالحرارة المرتفعة ، وترك كل ما يملك لتركيّ ، حصل على كل ثروته ، فيما عدا أنني أبلغت قائد القلعة سراً بذلك ، لم يجد ذلك نفعاً على الرغم من أنني أعطيته البضاعة ما دامت تخص نصرانياً ، من أجل إعادتها إلى هرمز ، مقابل مائة "لارين" (Larines) - ويعادل الواحد منها ما أعطاه التركي أربع مرات - أخفق في أن يفعل ذلك .

بند : في أول أغسطس ، غادرنا هذا المكان ، وأقمنا مخيمنا في سهل قريب من بحيرة كونتها مياه الأمطار ، كانت هناك بعض العواصف الرعدية ، وأمطار جاءت من الهند التي كان الفصل فيها شتاء آنذاك .

قد وصل أحد أشقاء قائد القلعة المذكور سابقاً لمرافقتنا ، وكان معه فارسان وخمسون من رماة السهام ؛ لحمايتنا من اللصوص ، مقابل ذلك أعطته القافلة مائة وخمسين "شاين" .

واصلنا السير لمدة يومين شمالاً ، ثم اتجهنا إلى الشمال الغربي عبر سلاسل جبال وسهول صحراوية ، ووصلنا في اليوم الثالث إلى نهر ماؤه شديد العذوبة ، وإلى مزرعة تسمى "كاسان" ، تقع هذه المنطقة في فارس ، وفي أراضي "الشاه طهماسب" التي تبدأ من هنا ، كان هناك رجل مسلم متزوج يقيم هنا ، وكان يبيع الفاكهة واللوازم ، كان هناك بطيخ رديء ، ولكن الدواجن والأغنام كانت جيدة .

خلال الأيام الثلاثة الأخيرة كنا نتناول الأرز فقط ، افترقنا هنا عن حراسنا ؛ إذ إن العادة جرت على ألا يصحب المسافرون حراساً بعد هذه النقطة ؛ حيث إن الطريق اعتبرت آمنة ، أو ربما ؛ لأن منطقة ملك هرمز تمتد إلى هذه النقطة .

من هناك فصاعداً ، بدأنا نشعر ببعض البرد في ساعات الصباح الأولى ، ولكن الفرق كان طفيفاً أثناء النهار ، كتبت من هنا رسالة إلى هرمز ، وأرسلتها بواسطة الحارس ، بقينا في هذا المكان لمدة ثلاثة أيام ؛ لأن سائقي الجمال ذهبوا إلى منازلهم على مسافة فرسخ .

في السابع من شهر أغسطس غادرنا المكان ، وبعد مسافة فرسخ

ونصف أقمنا مخيمنا قرب نهر وبستان يدعى "دشتبار" ، كان هناك قائد فارسي هنا من أجل قرى صغيرة قليلة في الجوار ، كانت في البستان كمية وفيرة من الفاكهة الجيدة ، وكان لدى القائد ثلاثة أو أربعة جياد وثلاثون أو أربعون من رماة السهام .

هنا لزمت الفراش مريضاً جراء الحرارة وبسبب الفاكهة ، وسرق أحد جنود القائد بندقيتي "المسكيت" ، ولم تكف طلبات ومناشدات المسافرين في القافلة ؛ لكي يعيدها لي ، وهم جميعاً لصوص وكذابون .

واصلت الرحلة داخل "أنجاريلا" "Angarella" ، وهي محمل شبيه بالكوخ الصغير ، مصنوع من ألواح ، وبه أقواس وقماش للوقاية من الشمس ، تتسع هذا "الأنجاريلا" لشخص واحد ، وتحمل على أحد جانبي ظهر الجمل ، في حين يكون على الجانب آخر حمل موازن أو "انجاريلا" أخرى / ما يسميه المسلمون "كاجاواس" (cajauas) ، حقق لي ذلك بعض الراحة بما أن أشعة الشمس لم تسقط عليّ .

بما أن المسلمين اعتادوا على أن يستولوا على جميع مقتنيات الأجانب الذين يتوفون على أراضيهم لتسليمها للملك ، فقد كتبت وصية سرية ، وسلمت سراً جميع المقتنيات الثمينة التي كانت لديّ لأشخاص أثق بهم .

بعد رحلة دامت أربعة أيام عبر سلاسل جبلية ، وأراض غير مأهولة ، وصلنا إلى سهل كان به قبر ضخم مشيّد بالطوب ، كمنزل مربع ، وبه بريج وأربعة مداخل دون أبواب ، كان مثل ذلك القبر مألوفاً لأولئك المسلمين الذين كانوا يستطيعون دفع تكاليفه .

في اليوم التالي ، أقمنا مخيمنا قرب منزل كبير ، ووصلنا في اليوم التالي إلى قرية تدعى "سيرجان" ، كنا نتجه طوال الوقت إلى شرق الشمال الشرقي .

بند : تقع سيرجان إلى الغرب على أرض منبسطة ، وكانت في السابق بلدة كبيرة ومقر الملك ، وقد استولى عليها الشاه إسماعيل ، وعاث فيها فساداً .

يوجد فيها الآن حوالي ستين منزلاً مأهولاً ، ويوجد الكثير من المنازل الأخرى غير المأهولة ، كما توجد عند المدخل نافورة ، مغطاة ماؤها عذب ومسجد ، وكان هناك طريقان واسعان مشجّران بأشجار صنوبر رائعة ، تّم غرسها في صفين ، الأمر الذي جعلها تعطي ظلاً جيداً للغاية ، يزيد عن عرض جوادين أو ثلاثة جياد ، تقف جوار بعضها البعض ، تنتهي هذه الأشجار عند مدخل المكان .

يقطن البلدة الفرس ، وهم أناس ذوو بشرة شقراء ، ويتميزون بطبع حسن للغاية ، قد وجدنا الكثير الذي أنعشنا ، ولا سيما العنب الأبيض البري اللذيذ ، والطويل والذي لا بذور له ، كما وجدنا أيضاً الدقيق والدجاج والأرز .

بقينا هنا لمدة يومين ، وفي السادس عشر من شهر أغسطس غادرنا المكان ، أتينا إلى قرية تقع على مسافة فرسخ ، وكانت صغيرة ، ولكن كانت فيها مزارع كثيرة وبساتين وأشجار السرو ، من هناك فصاعداً كان النهار أقل حرارة ، والليل بارداً للغاية .

مع استمرارنا في الرحلة ، صاحبت أشخاصاً طيبين عالجتهم ،

وأطلقوا عليّ لقب "حكيم" وهو يعني الطبيب ، في اليوم الثالث عشر من الشهر بقينا في حقل قريب من الطاحونة عندما تم تقديم هدية إلى القائد ؛ لأن هناك قائداً في كل مكان ، وقد جرت العادة على أن تقدم إليه القوافل هدية .

لم نكن نقطع أكثر من فرسخ واحد أو فرسخين أو ثلاثة فراسخ أو أربعة كحد أقصى خلال اليوم ، سافرنا بعد ذلك لمدة ثلاثة أو أربعة أيام عبر صحاري ذات ماء سيئ للغاية ، وقابلنا قافلة متجهة من "كاشان" "Cashan" إلى هرمز ، بعثت برسالة إلى هرمز مع القافلة ، في اليوم الرابع وصلنا إلى قرية صغيرة تسمى "سحربابك" .

بند : إن سحر بابك مكان يضم أربعين أو خمسين فرداً ، وتقع جهة الشمال الغربي ، جو القرية بارد ، وماؤها جيد ، وبها الكثير من الماشية والفاكهة ، ويبيع أهل القرية كل الفاكهة للقوافل ، يبيع الأهالي أيضاً نوعاً من الأثواب العريضة تسمى "كابانيك" "Capanic" ، وبطاطين يصنعونها من صوف الخراف و"قلنسوات" مخططة بالفراء ، لهؤلاء بشرة شقراء ، ويتسمون بسماحة الطبع ويشبهون "البرتغاليين" .

قد سعى كثير من أهالي القرية المرضى لمقابلتي ، وكان معظمهم يعانون من أمراض العيون ، كان هناك الكثير ممن يعانون من أمراض العيون هذه ، ويبدو أن هذا ناتج عن غطاء الرأس المصنوع من الفراء الذي يستخدمونه .

بقينا هنا لمدة يومين ، وبعثت برسالة عن طريق خادم "القاضي" هرمز الذي كان عائداً من يزد إلى هرمز ، في الرابع والعشرين من شهر

أغسطس ، غادرنا المكان وأقمنا مخيمنا قرب نهر عذب الماء ، وأتينا على خيام ثلاثة أو أربعة من الرعاة الذين يحرسون الماشية هناك ، كنا نسافر في تلك الأيام باتجاه شرق الشمال الشرقي ، ومن ثم باتجاه الشمال الشرقي وشمال الشمال الشرقي ، وصلنا في الخامس والعشرين من شهر أغسطس إلى مكان يدعى "حاور" .

بند : "حاور" مكان يقع إلى الغرب بطول نهر ذي ماء عذب ، وتوجد بها بساتين كثيرة ، تنتج فواكه جيدة ، ولا سيما اللوز والعنب الممتاز ، تضم "حاور" ثلاثين أو أربعين منزلاً من الحجر والطين ، يقطنها فقراء كما هو الحال في الأماكن السابقة .

هناك حصلت على أربع من طيور الحجل مقابل "دماسين" ، وهو ما يعادل حوالي خمسة عشر ريساً ، يوجد الكثير من طيور الحجل هنا ، ومذاقها جيد كطيور الحجل في منطقة "لشبونه" .

بقينا هنا لمدة يومين ، وفي الثامن والعشرين من شهر أغسطس واصلنا رحلتنا مجدداً ، أقمنا مخيمنا في مكان آخر غير مأهول قرب نهر عذب المياه ، في اليوم التالي أقمنا مخيمنا في سهل آخر غير مأهول لا يوجد فيه ماء ، ولكننا وصلنا في اليوم التالي إلى بئر ذات ماء عذب للغاية ، في اليوم التالي ، أتينا إلى مكان آخر غير مأهول لا ماء فيه ، عبر كثير من السلاسل الجبلية ، وأصبحنا نسافر الآن تارة إلى الشمال ، وتارة نحو الشمال الشرقي ، وصلنا في اليوم التالي إلى مكان اسمه "ريسكو" "Risco" .

بند : "ريسكو" مكان صغير مبعثر ، وشبه متهدم ، ولكنه بارد ،

وبه مزارع وبساتين ، ويسكنه الأهالي ذاتهم المشار إليهم آنفاً ، وصل بدوي إلى هنا على حصانه مع أربعين فارساً آخر ، مسلحين بالأقواس والسهام ؛ لنهب القوافل ، طبقاً للعادة ، وعلى حساب المسافرين في القافلة ، أعطى قائد القافلة للبدوي أربع قطع من قماش لعمائم وأربعة أحزمة كمرات - هي أوشحة ضيقة مصبوغة تلف حول الخصر - وقطعتين أو ثلاث قطع من القماش المصبوغ .

في اليوم التالي ، وبينما كنا نعكف على تحميل متاعنا ، جاء أحد أبناء هذا الرجل مع ثلاثة من الفرسان وخمسة من المشاة ، وكانوا مسلحين أيضاً ، واشتكى للقائد من أننا أعطينا والده مبلغاً تافهاً بينما كان في المنطقة مع كثير من الرجال ، وتحمل تكاليف باهظة لحماية القوافل من اللصوص .

حتى لا يقع شجار معه ، تم نصب خيمة له ، وتقديم وليمة له ولمرافقيه ، قدمت له بعد ذلك هدية ، بلغت ضعف الهدية التي حصل عليها والده ، انصرف بعد ذلك ، وأكد لقائد القافلة أنه سيكون في مأمن ، ويجب ألا يخشى شيئاً من ذلك الوقت فصاعداً ، اصطحبوا معهم من القافلة تركيا كسجين مع خمسة أو ستة فرسان ، قائلين إن بعض أنسابه قتلوا أحد أقاربهم في بغداد ، أخيراً وبفضل جدل وهدية ، تم إنقاذه بعد مسافة قصيرة من الطريق .

بعد مسافة ليست بالبعيدة في هذه المنطقة ، توجد مدينة فخمة ، تدعى يَزْدْ ، تكتظ بالسكان ، وتنشط تجارة كثيرة فيها ، يتم من هنا إرسال كل المياه النقية والمعلبات المستهلكة هنا إلى هرمز ، تخضع

المدينة لحكم "الشاه طهماس" ، يتمتع الرجال الذين يقيمون هناك ببشـــرة شقراء وبدماثة الخلق ، وأما نساؤهم فهن أجمل النساء في فارس ، تستغرق الرحلة منها إلى "كاشان" خمسة عشر يوماً ، وصلنا من المكان الذي ذكرته في اليوم ذاته إلى مكان صغير آخر ، يدعى "كاتو؟ كادويه؟" .

بند : (كاتو) هو مكان يشبه الأماكن الأخرى التي مررنا بها ، ويقيم فيه أناس كأولئك وهو بارد ، وفيه مزارع وبساتين ، يأكل الناس خبزاً أبيض مصنوعاً في شكل لفات ؛ إذ إن هذا هو نوع خبزهم ، كان ثمن السبع أو الثماني لفات "دماسين" واحداً ، وكان ثمن الديك الصغير نصف "دماسين" .

وثمن الدجاجة "دماسين" واحداً ، وعنقود العنب الكبير "دماسين" واحداً ، وأما ثمن حمل "الربادا" الممتاز ، فهو عشرة "دماسين" ، والماعز الكبير ستة "دماسين" ، كان هذا هو السعر السائد خلال الجزء الأكبر من الرحلة ، يباع كل شيء طبقاً لوزنه ؛ لأن القش وحطب الوقود أيضاً يباع في فارس بالوزن ، هناك ثلاثون "دوو" في الـ "دماسين" الواحد .

مـررنا فـي الثالث من شهر سبتمبر ، بقلعة حسنة البناء بألواح خشب ، وجص من الطراز الفرنسي ، وأقمنا مخيمنا على مسافة طلقة بندقية "مسكيت" أمامها بالقرب من نهر ماؤه عذب للغاية ، كنا قد قضينا ثلاثة أيام ، ونحن نعبر الصحراء عندما التقينا ببدوي على صهوة جواده ، وقد تسلح كأولئك الذين سبقت الإشارة إليهم ، قد أخبرنا

أن هناك خمسة عشر فارساً وراء تل ، وأنهم ساخطين على "الشاه طهماس" وقد طلبوا منه بأدب جم إعطاءهم هدية ، وقد فعل .

كنا نسافر في بعض الأحيان باتجاه الشمال ، وفي اتجاه الشمال الغربي أحياناً أخرى ؛ بسبب التغير في الاتجاه الناتج عن تعرج الجبال ، وصلنا في اليوم التالي إلى مكان يسمى "نادوشان" .

بند : "نادوشان" مكان أكبر وأكثر سكاناً من الأماكن التي مررنا بها ، تقع "نادوشان" إلى الشمال أو الشمال الشرقي ، وتتألف من منازل جيدة للغاية ، مشيدة من الطين والخشب ، وفيها ساحات مفتوحة ، كمنازلنا ولكن مع بعض السواتر المغطاة ، وأقواس في جدران المنزل الأربعة ، وعلى الأربعة الأخرى (إذ إنها مشيدة في شكل ثماني الأضلاع) أربعة منازل ببوابات صغيرة مغلقة ، سلالم تقود إلى سطح سقوفها المسطحة ، في المنازل نوافذ تطل على الجزء الداخلي من الساحات .

تتمتع النساء ببشرة شقراء ، وهن أجمل من النساء البرتغاليات ورشيقات للغاية ، كن يرتدين تنورات طويلة مثل قمصاننا ومقفولة من الأمام ، تلبس هؤلاء النسوة أيضاً عباءات قطنية مصبوغة باللون الأزرق يحكنها وينسجنها بأنفسهن ، يرتدين بنطلونات طويلة تنزل حتى القدم ، وقد صنعت من القماش ذاته ، وأحذية بيضاء ومزركشة ، ويرتدي البعض منهن نصف جورب ، ويضعن أقمشة بيضاء عريضة مثبتة على الخصر ، وتنزل حتى الأقدام ، ويعتمرون عمائم .

يلبسون في الصيف أردية قطنية بيضاء ، وأحذية يقومون بتبيضها ولها نعال ، يلبس آخرون أحذية ذات عنق تثبت بسيور ، وكان الفرق

الوحيد بينهم وبين "البرتغاليين" في الملبس واللغة ، أما من حيث القامة والتصرف وتقاطيع الوجه ، فقد كانوا متشابهين .

يعيش هؤلاء الناس كالآخرين ببيع محاصيلهم للمسافرين ، هي أرض بها مزارع كثيرة وماشية ، وبساتين كأراضي فارس الأخرى ، يزرع كثير منهم المحاصيل والحبوب أو يبنون المنازل والمباني ، توجد هنا فاكهة ذات قشرة رقيقة للغاية ، مثل لوزة خضراء صغيرة ، وتبدو تماماً مثل حبوب الصنوبر لدينا ، وهي ذات مذاق لذيذ للغاية .

ويطلق عليها الفرس اسم فستق ، توجد كميات كبيرة منه في بلاد فارس ، كميات كبيرة من الفستق ترسل من مدينة في "سوريا" ، تبعد مسيرة يوم من حلب وتسمى "سارمين" ، إلى "قبرص" ومن هناك إلى "روما" حيث تسمى الفستق ، تحظى هذه الفاكهة بتقدير بالغ .

تعد جميع الفواكه أفضل من فواكهنا ما عدا البطيخ ، فهو أبيض ونوعه رديء ، هناك بعض البطيخ الذي يسمونه "باتياس" و"كاربوز" الحلو ، وهو ينحل في الماء ، قد أحبها المسافرون في القافلة حباً شديداً ؛ ولكنني لم أستطع أكلها ، كنا قد حصلنا عليه كعلاج للحمى .

غادرنا هذا المكان في اليوم الحادي عشر من الشهر ، وقضينا يومين في منازل مشيدة من ألواح خشبية ثقيلة ، وفي اليوم الثالث وصلنا إلى مكان صغير ، يسمى "بنفيت" .

بند : أن "بنفيت" قرية صغيرة بائسة ، فيها عدد قليل من الأهالي ، تقع إلى الشرق وفيها ماء جيد ، قد شاهدت هنا الكثير من أشجار "التربنتينة" ، وهي قصيرة وعريضة ، وفيها أشواك مثل

الصنوبر الرملي ، هي تسمى "شاتالاغوش" بالفارسية ، تثمر هذه الأشجار فاكهة بيضاء تشبه التفاح ، وبداخلها نواة يمكن أكلها ، أما زيت "التربنتينة" الذي تنتجه هذه الأشجار ، فهو أبيض وشفاف كالبللور ، يوجد كثير من هذه الأشجار في أنحاء فارس ، وصلنا في اليوم التالي إلى أرض صغيرة ، حيث وجدنا الجزر والماء فقط ، وصلنا في اليوم التالي إلى مكان يسمى "باغام" "Pagam" .

بند : إن "باغام" مكان واسع ، ومكتظ بالسكان ، ويقع إلى شرق الشمال الشرقي ، وبه نهر جيد ، وكثير من المزارع ، وكروم العنب والبساتين التي تحتوي على كثير من الخوخ والجوز الممتاز والناعم .

يقطن المكان أشخاص مماثلون من الفرس ، كنا في تلك الأيام ، نسافر باتجاه الشمال وشمال الشمال الشرقي ، أتينا في اليوم التالي إلى مدينة "شيراجيان" "Shirajian" .

بند : تقع "شيراجيان" إلى شرق الجنوب الشرقي (من الطريق) ، ويقطنها الصنف ذاته من الناس ؛ ولكنهم أكثر خشونة ، المنازل فقيرة ومعظمها أدنى من مستوى الأرض كالأكواخ ، هناك الكثير من البساتين ، ويوجد نهر وقلعة صغيرة مشيدة من الطين بطريقة جيدة ، وسافرنا في اليوم التالي في الاتجاه ذاته ، ووصلنا إلى مدينة كبيرة تسمى "أرضستان" .

بند : و"أرضستان" مدينة تقع إلى الشمال أو الشمال الشرقي (من الطريق) ، وهي كبيرة للغاية ؛ ولكنها مهدمة منذ أيام "التتار" ، كما هو الحال في الجزء الأكبر من فارس .

يقطن المدينة الفرس الذين يرتدي معظمهم "قلنسوات" ، هي

خصبة للغاية وفيها سوقان كبيران مكشوفان ، ويباع فيهما الطعام النيئ والمطبوخ .

في المدينة طرقات تمارس فيها جميع أنواع الحرف ، في هذه المدينة يتم وزن جميع الأقمشة التي تحملها القوافل ؛ لأن إيجار الجمال يدفع على أساس الوزن .

بقينا هناك لمدة يومين ، وغادرناها في التاسع عشر من شهر سبتمبر باتجاه شمال الشمال الشرقي والشمال ، مررنا في ذلك اليوم عبر مكانين أو ثلاثة أماكن وأقمنا مخيمنا خارج مكان آخر يسمى "موخار" .

بند : و"موخار" مكان في سهل منبسط قرب نهر ، ماؤه عذب ، ويقع إلى شمال الشمال الغربي ، ويقطنها الناس ذاتهم ، ولديهم العادات ذاتها ، هناك شاهدت أفضل الرمان والسفرجل في العالم ، مررنا في اليوم التالي عبر مكانين آخرين ، وأقمنا مخيمنا قرب مكان ثالث يسمى خلال أباد .

بند : تقع خلال أباد إلى الجنوب أو الجنوب الشرقي ، المنازل هنا أفضل مما في الأماكن القليلة السابقة ، وقد شيدت من "الوتل" والجص ، وتتكون من أكثر من طابق واحد ، ولها سقوف مسطحة ، وحاجبان للنور .

في اليوم التالي ، أقمنا مخيمنا خارج مكان آخر يسمى "بوز أباد" .

بند : تقع "بوزأباد" إلى الشمال أو الشمال الشرقي ، وبها ماء عذب ، وتتوفر فيها فواكه كثيرة ، هنا دفعنا ستة ريس عن كل حمولة ، كرسوم للحراس الذين يحرسون تلك السهول من اللصوص .

غادرنا هذا المكان ، واتجهنا في سفرنا أحياناً إلى غرب الشمال الغربي والشمال الغربي ، ولكن ولوجود كثير من المنحنيات (في الطريق) والجبال لا يستطيع المرء أن يكون متأكداً من الاتجاهات ، في اليوم التالي - وهو الثاني والعشرون من شهر سبتمبر - وصلنا إلى مدينة "كاشان" الفخمة والمكتظة بالسكان .

بند : "كاشـــان" : إن هـذه المدينة مكتظة بالسكان إلى حد أن القافلة أوقفت عند البوابات لأكثر من ساعتين دون أن تتمكن من الدخول ؛ بسبب حشود الناس الداخلين والخارجين مشياً على الأقدام أو على ظهور الخيل ، هي مدينة عظيمة ورائعة للغاية يقطنها خمسة أو ستة آلاف نسمة ، ولكـن يؤمها عدد غير محدد من البشر إضافـة إلـى سكانها ؛ بسبب التجارة العظيمة التي تتم مزاولتها هناك ، يعود هذا ؛ لأن المدينة هي المنفذ من فارس وتركيا لجميع البضائع كالحرير والأقمشة الهندية والبهارات الخ .

يوجد في المدينة تجار ذوو أهمية وثراء ولكن الكثيرين غيرهم يأتون إلى هناك ، ويقطنها الفرس والتركمان واليهود من مواطني البلاد ، يرتدي معظمهم قلنسوات تغطي الرأس تماماً كما هي عادتهم ، يتباهى البعض بكونهم من عشيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ويسدلون شعورهم حتى الخصر بعد تقسيمها إلى ضفيرتين تنزلان من وراء الأذنين .

يحيط بالمدينة سور مشيد من الطين سقطت أجزاء منه ، قد شيدت غالبية المنازل من المادة ذاتها ، ما عدا بعض الحمامات والمساجد والفنادق المشيدة من الطوب ، ولكن لا توجد مبان فخمة في المدينة .

ينسج في المدينة كميات كبيرة من الحرير والساتان والمنسوجات المزدانة بالرسوم والأقمشة المقصبة والأشرطة ، وتؤخذ هذه المنسوجات والأقمشة إلى أماكن كثيرة .

السهل الذي تقوم فيها المدينة صغير ، ولهذا السبب تأتي جميع الإمدادات الزراعية للمدينة من أماكن أخرى ؛ لأن الجزء الأكبر من المنطقة رملي .

تقع المدينة إلى شرق الجنوب الشرقي قرب سلسلة عظيمة من الجبال ، ولكنها محاطة بالمزارع والكروم والبساتين التي تنتج خوخاً أكبر وأفضل من الذي ننتجه ، وسفرجل وتفاجأ أنه أفضل بكثير مما لدينا ، وكمثرى وجميع أنواع الفواكه الأخرى ؛ وذلك لأن هذا الجزء من فارس يتفوق على جميع البلدان الأخرى في إنتاج الفاكهة .

تتميز المدينة بنسيم يفوق نسائم المناطق الأخرى في فارس برودة ، توجد في المدينة سبعة أو ثمانية شوارع طويلة للغاية ، وتقوم على البعض منها مبان عالية للغاية ، وقناطر ذات أقواس شيّدها الملوك السابقون الذين عاشوا هنا في معظم الأوقات ؛ بسبب النسائم العليلة .

توجد في هذه الشوارع محلات كثير من الحرفيين ، وكثير من الطباخين الذين يبيعون ألف نوع من الأطعمة الشهية المجهزة أساساً من لحم الضأن ، الذي يعد أكثر الأطعمة شيوعاً في فارس ، أن الحملان هنا سمينة كالخنازير ، يتناول معظم التجار ، سواء كانوا من أهل البلاد أو أجانب ، أطعمة جاهزة ولا يعدون طعامهم في البيت .

هناك كثير من الأكشاك لبيع أطباق الحلويات ، وعدد آخر لا

يحصى من الأكشاك لبيع الفاكهة ، ومحلات المجوهرات التي تبيع الحلي الصغيرة التي أدهشتني ، لا يستطيع المرء المرور خلال هذه الأسواق في أي ساعة من اليوم دون أن يجد الكثير من الناس .

في وسط هذه الأسواق ، يوجد ميدان واسع تغطيه الأقواس ، ويصل في حجمه إلى دار الجمارك لدينا ، وله خمس أو ست بوابات ، تم وضع قضبان عبرها لمنع دخول الجياد ، يباع هنا الحرير ، وجميع أصناف البضائع ، وتبرم الاتفاقيات والعقود والمبادلات الهامة ، وهناك الكثير من المناضد والمباني الصغيرة حولها ، حيث يجلس الناس .

ويبيعون خلال ساعات اليوم ، يوجد هنا عدد هائل من الناس ، وأعداد كبيرة من الحرفيين كافة ، يعمل البعض منهم في حياكة نوع من الأردية بينما يحيك آخرون أنواعاً مختلفة ، يعمل البعض في حشو اللحف ، بينما يبطن آخرون العباءات والكابات بغراء من جميع الأنواع كغراء الثعالب ، وغيره من الأنواع ذات الجودة العالية ، والتي تأتي من حلب وتبريز و"روسيا" .

يحوك بعض الحرفيين القلنسوات ، وآخرون قبعات من القطيفة والحرير ، والبعض من هذه القبعات مبطنة بالقطن أو الغراء تحت الجزء العلوي من القبعة ، يحوك البعض بناطلين قصيرة – وهي التي يرتديها الجميع – مع أحذية .

تتميز أحذيتهم بأنها أقصر وأوسع من الأحذية ذات العنق الطويل ، ولها كعوب جلدية مثبتة بسيور أسفل الركبة .

يصنع كثير من الحرفيين قطعاً نحاسية ، عليها نقوش ، تم إعدادها بمخرطة ؛ إذ إن كل شيء تقريباً محفور في المخرطة .

هناك الكثير من الفنادق في المدينة ، ومنازل مشيدة بفخامة من الحجر يقيم فيها المسافرون والتجار الأجانب ، هناك الكثير من الحمامات ، وحمام منفصل لليهود والنصارى المسافرين ، إذ لا يوجد نصارى من الأهالي .

لا يشرب الأهالي الخمر ، ولا يتناول الناس في أنحاء فارس ؛ خوفاً من عقـوبات رادعـة للغاية فرضها قبل سنوات قليلة "الشاه طهماسب" ؛ لأنه كان تناول سماً تم دسه له في الخمر ، كان الناس قبل ذلك يحتسون الخمر علانية ، وكانت القوافل المحملة بالخمر تسافر في جميع أنحاء فارس .

توجد بالقرب من السوق مساحة مكشوفة واسعة ، يتجمع فيها الناس في أوقات العصر ؛ للاستماع لعظات وقصص عن أنبيائهم ، وهي تتلى عليهم بينما يلعب آخرون النرد ، وهناك الآخرون الذين يعزفون xabepas طوال اليوم من السقوف المسطحة ، وهي تشبه "الشوم" (آلات موسيقية خشبية قديمة) .

طوال الوقت الذي قضيته هنا ، لم أشاهد أبداً أي امرأة يقل عمرها عن أربعين عاماً في الطريق ، والنساء اللواتي يراهن المرء هن الخادمات ، أما الأخريات فلا يخرجن أبداً ولا يراهن أحد ، حتى النسوة العجائز من الخادمات اللواتي يخرجن لشراء الضروريات ، فيضعن شالات تغطيهن تماماً ، وتنزل إلى أسفل ، يضعن قطعة قماش على الرأس

وسراويل بيضاء تنسدل كالسراويل التحتانية ، وبناطلين قصيرة مصنوعة من القماش مع الحذاء ، أحجام النساء صغيرة كالرجال ، ولكنهن ذوات قوام حسن .

في هـذه المدينة لم أشاهد رجلاً يسير حاملاً أي سلاح خلاف المدية ، أن المرء ليندهش إذا وقع عراك ؛ إذ إنه حتى في حال حدوث عراك بالأيدي ، واكتشفت السلطات العدلية الأمر ، فإن كلا المتعاركين يجلد جلداً مبرحاً بالسوط ، هذه هي العادة في فارس وتركيا .

أما الفرسان ، فهم كثر ؛ لأن الجياد زهيدة السعر ، وتربى الخيول بأعداد كبيرة في البلاد ، وتحمل الجياد علامات على جانب واحد .

أهل البلاد جهلة ، والأتراك أشد جهلاً منهم ، ويتشابه الفرس والأتراك من حيث القوام وسمات الوجه ، ولكن الأتراك يتفوقون بدماثة طفيفة على الفرس .

من الأمور اللافتة أنني لم أشاهد إلا نادراً أشخاصاً يبدو عليهم الشحوب أو البثور أو التقرحات التي يسيل القيح منها ؛ إذ إنهم يعيشون حياة غير متمدنة ، ولا يلقون رعاية أطباء أو صيادلة ، وليس هناك إلا باعة الأدوية الزائفة من المشعوذين في الميدان ، هؤلاء الرجال تغطيهم القذارة ، وكذابون ، ومرابون ، ويقسمون كذباً آلاف المرات برأس "الشاه طهماس" ، البعض منهم طوال القامة ، والبعض الآخر قصارها ولا يحلفون إلا بـ "الشاه طهماس" ، ولديهم قلة من العبيد ؛ ولكن يخدمهم خدم من أبناء البلاد .

إلى أن وصلنـا إلـى هذه المدينة كنا نعاني من حر شديد خلال

النهار ، تصل المسافة من هرمز إلى "كاشان" إلى حوالي مائة وعشرين أو مائة وثلاثين فرسخاً ، وقد استغرق منا اجتياز هذه المسافة حوالي شهرين ونصف الشهر ، كان من الممكن قطع المسافة خلال عشرين يوماً ، لولا كسل وعناد سائقي الجمال ؛ علاوة على الخوف من اللصوص ، الأمر الذي جعل هذا الطريق مملاً ، وأسوأ من الطريق التي تمر عبر البصرة .

يتوجـه المـــرء من البصرة على نهر دجلة على متن مركب إلى بغداد ، ويصل خلال ثلاثين إلى أربعين يوماً ، وهي فترة طويلة ؛ لأن السفر يكون عكس تيار النهر القوي حتى "سيرجا" .

من بغداد إلى تبريز تتم الرحلة بأمان وفي وقت قصير يتراوح بين أربعة وعشرين وخمسة وعشرين يوماً .

تستغرق الرحلة من هناك إلى حلب مدة مماثلة ، ولكنها تظل أفضل وأقصر من الرحلة من البصرة عبر الصحراء إلى دمشق ، وهي رحلة تستغرق خمسة وعشرين يوماً .

في شهر سبتمبر تقريباً تتجمع قوافل لا تحصى ، وتتجه من هناك خلال فترة مماثلة من الوقت إلى حلب أو إلى حماة ، وهي مدينة تبعد مسيرة أربعة أيام تقريباً من حلب .

لم أتمكن من القيام بهذه الرحلة ؛ بسبب حصار البصرة ، عندما تكون هناك اضطرابات حول البصرة ، وتقرر القوافل التوجه عبر فارس تسلك الطريق إلى "لار" الذي تسافر القوافل عليه على نحو مستمر ، يستغرق هذا الطريق من "بندل جومبرون" ستة أيام عبر كثير من الأماكن الفارسية ، حيث لا تتوفر فواكه خلاف التمور الكثيرة التي

يعيشون عليها ، يصلون من "لار" خلال يومين إلى "بنانية" – وهي مدينة قديمة – ولكن معظمها مهدم حيث تنتهي مقاطعة "لار" .

يصل المسافرون من هناك خلال يوم واحد إلى "جيوم" ، وهي مدينة عظيمة ، في مقاطعة "الشاه طهماسب" ، تتوفر فيها المؤن ، وتوجد بها بساتين كثيرة ، ومجرى مائي يدفع عدة مطاحن ، ويتم إرسال كثير من الفاكهة والخمور من هنا إلى هرمز .

تستغرق الرحلة يومين من هناك إلى "جهرون" – وهي مدينة كبيرة – ومن ثم تستغرق الرحلة يوماً واحداً للوصول إلى "تادوان" ، وهو مكان كبير ، به نهر كبير يأتي من سهل شيراز ، من هناك تستغرق الرحلة ثلاثة أيام ، عبر القرى التي تتوفر فيها فواكه ولوازم كثيرة ، إلى مدينة شيراز [أ] الشهيرة .

محافظة شيراز شاسعة للغاية ، ولا تزال تحتفظ باسم فارس القديم ، مع تغيير طفيف : فرسي ، هذه هي عاصمة فارس .

أصفهان[ب] هي عاصمة منطقة أخرى ، كانت مملكة في الماضي ، وشاسعة في حد ذاتها ، وكانت المؤن ترسل من هنا ، واللحوم والأرز للجزء الأكبر من فارس .

تستغرق الرحلة من شيراز إلى أصفهان عشرة أيام عبر أماكن يسكنها كلها الفرس ، قد استولى على هذه المدينة والمملكة الشاه

(أ) يقال إن شيراز هي سيروبوليس السابقة ، وتسمى أغرا (؟) ؛ بسبب الأسلحة جيدة السقي .

(ب) تحتفظ أصفهان باسم "سباها" وكانت عاصمة الفرس .

إسماعيل من حسن باشا وحسوم حسن "حسن الطويل" ، الذي كان ملكاً طويلاً للغاية .

كانت هذه المنطقة تسمى "أصفهان أراغ سينيم" ، كانت أرض أراغ هي فارس القديمة ، وتجاور محافظتها حدود مدينة سلطانية ، تضم مدناً ، وبلدات أخرى .

من أصفهان تتجه القوافل إلى "نطنز" وهي مدينة كبيرة تتوفر فيها المؤن ، تستغرق الرحلة من "نطنز" إلى "كاشان" يومين (عبر أراض تقطنها جماعات من الأهالي ذاتهم الذين تحدثت عنهم) .

سمعت هنا بأن طاعوناً هائلاً انتشر في أنحاء "أرمينيا" وتركيا وفارس ، وهو شيء يحدث على نحو مستمر في هذه البلدان ؛ لعدم اتخاذ الاحتياطات فيها ، ولعدم لجوء الناس فيها لأي وقاية أو حماية ضد المرض ، هكذا فإن المرض يقضي على مقاطعات برمتها ، وهذا هو السبب الذي جعل التركي غير قادر بعد على إلحاق المزيد من الأذى بالنصرانية ، أن الله اللطيف ينزل عليهم هذه الكوارث .

على الرغم من الطاعون ، قررت التوجه من هناك عبر تبريز بدلاً من بغداد ؛ لأنني في حال معرفة أنني برتغالي ، فلن أتجنب الاعتقال أو التعرض لمصاعب جمة ، بقيت لمدة خمسة وعشرين يوماً في "كاشان" ، أنتظر تجمع قافلة بما أن الأولى قد وصلت للتو إلى هنا .

بند : غادرنا "كاشان" في الخامس عشر من شهر أكتوبر ، في قافلة من مائة وستين بعيراً ، كان يسافر فيها كثير من الفرس والأتراك والتركمان ، وأنا مع رفاقي و"فينيسي" و"أرمني" ، كان بعض هؤلاء

في طريقه إلى "قزوين" ، وهي مدينة كبيرة ويوجد فيها حالياً بلاط "الشاه طهماسب" ، في السادس عشر من شهر أكتوبر أكملنا سفر يومنا الأول ، وأقمنا مخيمنا في مكان صغير ، مشيد كقلعة على تل يسمى "سنسين" ، به نهر ماؤه عذب ، سافرنا في اليوم التالي من هنا إلى مكان أكبر نوعا ما ، به سكان فرس ، ويسمى "كاساماوا" "Casamawa" .

بند : يقيم في "كاساماوا" فرس يعيشون على الزراعة ، وخلال هذه الأيام الثلاثة كنا نسافر باتجاه الشمال الغربي ، بعد أن غادرنا "كاشان" في اتجاه شمالي ، في اليوم التالي وصلنا إلى مدينة "قم" التاريخية القديمة .

بند : "قم" مدينة كبيرة ، تقع إلى جنوب الجنوب الغربي ، في أرض منبسطة قريبة من جبال ، توجد بها أسوار من الطين ، مثل "كاشان" ، وبها منازل مماثلة .

توجد بها مساجد عظيمة ، مشيدة بالطوب وببلاط جميل ، من بينها ؛ مسجد فخم للغاية ، وهو مكان كبير للزيارة حيث يوجد قبر الإمام فيه .

يعيش في المدينة حوالي ألفي نسمة من الفرس والتركمان ، وتتوفر بها اللوازم والفواكه والماشية والجمال السوداء ذات الشعر الخشم ، يمر بها نهر ماؤه كثير ، وهو جارف في الشتاء ، يجري النهر تحت جسر عظيم ، به عدة أقواس ، ويشكل المدخل للمدينة .

يهوى أعيان هذه المدينة الصيد ؛ ولهذا السبب يوجد كثير من الصقور والبزاة وكلاب الصيد ؛ ولهذا السبب أيضاً يقضي الشاه

إسماعيل الشتاء في هذه المدينة في كثير من الأحيان ، يهب في المدينة نسيم عليل .

تصنع في قم أفضل السيوف العريضة في فارس ، أو ما يعرف بالسيف الأحدب ، ويشتهر لذلك وإلى درجة عظيمة السيف العريض أو السيف الأحدب المصنوع في قم .

بند : وعلى مسيرة ثلاثة أيام إلى شرق الشمال الشرقي من هذه المدينة ، توجد مدينة أخرى أكبر من "كاشان" ، ولكن سكانها أقل عدداً ، وتسمى "شهرراي" (طهران) ، وهي المدينة التي كان ملوك فارس القدماء يحتفظون ببلاطهم فيها .

تقع المدينة على حدود مملكة خراسان ، من هنا تأتي المؤن إلى "كاشان" و"قزوين" اللتين لا تملكان محصولاً لإنتاج الخبز .

بعد رحلة تستغرق عشرين يوماً عبر صحراء إلى الشرق من "شهرراي" ، يصل المرء إلى مدينة هيرات ، عاصمة مملكة خراسان التي تقع عند أربعين درجة ، من هيرات أيضاً ، وباتجاه الشرق أو الجنوب الشرقي ، توجد مملكة أفغانستان التي تحد مملكة السند وتسمى "السند" .

قد أخضع "الشاه طهماسب" السند لسلطانه بقوة السلاح ، تجاور "السند" "غوجارات" أو "كامباي" ، لاحقاً ، استأنف "الشاه طهماس" الحرب ضد مدينة عظيمة أخرى تسمى "قندهار" ، وهي عاصمة مملكة تحمل الاسم ذاته ، وتقع إلى الشمال الشرقي أو شرق الشمال الشرقي

من السند ؛ ولكنه لم يتمكن من أن يفتحها ، بيد أن المدينة استسلمت له لاحقاً بإرادتها الحرة .

إلى الشمال من المدينة يعيش "التتار" ، ويسمى هؤلاء الناس (أزار) أو "زاجاتاي" [أ] وهم من أتباع النهج السني في الدين ، كانت القرى صغيرة ؛ ولكنها كثيرة ، وتربتها خصبة .

يأتي المرء في الاتجاه ذاته على مدينة عظيمة ، تسمى غازني ، كان يحكمها ملك عظيم ، يدعى السلطان "محمد قنسوي" ، وهو من ذرية "تيمورلنك" العظيم ، يستطيع المرء أن يجتاز مسافة محيط المدنية خلال يوم تقريباً ، لكنها أصبحت أطلالاً الآن ، وبها قلة من السكان ، يحكم المدينة المغول الذين يحكمون بشكل عام جميع المحافظات التي تليها .

على مسافة تجتازها القافلة في ثلاثة أيام باتجاه أيام شرق الجنوب الشرقي تقع مدينة كابول العظيمة ، وهي عاصمة المغول ، ومقر بلاطهم ، وتحيط بها أربعة أسوار قوية للغاية من الحجر والجير ، تتوفر فيها كميات هائلة من المؤن والأشجار الوردية ، يجري نهر عظيم وسط المدينة ، وتأتي قوافل عظيمة إلى هنا من ممالك سمرقند و"هارا"[ب] وتركستان و"كاسكار" ، ويقطن جميع هذه الممالك مواطنون تتار وحلفاء المغول العظماء ، لتتجه من هنا إلى الهند إذ لا يوجد طريق آخر .

تمر القوافل عبر "لاهور" و"دلهي" و"أغرا" "Agra" ، وهي أماكن في

(أ) يسمى جميع هؤلاء الناس حالياً زاجاتال وعاصمتهم هي سمرقند ، هم يشملون الأرياني السابقين والمارجياني والأراكوسي والباستورياني .

(ب) ينتمي إليها تيمولنك ، وتعني "تيمور لنك" تيمور الأعرج لأن "لنك" تعني في الفارسية "الأعرج" .

مملكة السند ، التي تتجاور مع "كامباي" ، وتمر القوافل براً إلى مملكة الخان و"البنغال" من "كاسكار" "Caskar" .

على مسيرة أربعين يوماً إلى الشرق توجد مدينة عظيمة تسمى "هتر" (هاتار) "Hatar" ، وهي عاصمة مملكة تشترك في الحدود مع الصين ، لا يستطيع المرء أن يذهب إلى هناك دون إذن من ملكها .

بطول الطريق إلى "هاتار" توجد أبراج بها "بريجات" ، يظهر كل واحد منها من التالي ، حتى يمكن إعطاء إشارة بنيران إذا أعطى الملك تصريحاً لقافلة بالمرور .

في حال أوحت الإشارات برد إيجابي تستطيع القافلة المرور ، إذا لم يكن الرد إيجابياً ، لا تستطيع المرور ، يمكن أن يتم هذا كله خلال يوم واحد ، من المعروف أنه من مدينة سمرقند إلى (صحار) غرباً يستطيع المرء أن يذهب إلى مدينة "كافا" ، وهي ميناء على البحر العظيم (؟) وهي أيضاً أعلى بحر "قزوين" إلى الشمال ، عند منتصف نهر جارف ، يدعى "أوديل" [(؟) "أورال"] يجري مندفعاً إلى بحر "قزوين" ، قرب مدينة "استراخان" الرائعة ، وهي نقطة تجمع ومركز تجاري لكل تلك المناطق .

بند : بقينا في مدينة قم هذه يومين ، وغادرنا بعد ذلك لنقيم في فندق رائع ، قرب مكان صغير يدعى "فارفا" ، واصلنا طريقنا باتجاه الشمال الغربي ، ووصلنا في اليوم التالي إلى مدينة قديمة ، تسمى "صفية" saveh .

بند : "صفية" مدينة تقع إلى الجنوب ، وليست كبيرة مثل قم ؛ لأنها تعرضت للتدمير ، ولكنها كانت رائعة للغاية في وقت من الأوقات

كما يتضح من المباني والأسوار الطينية التي تحيط بها ، وفيها أبراج أعيد تشييدها ، يبدو أن الذين بنوها هم "الإغريق" .

يقطنها فرس ليسوا من ذوي الشأن ، المنطقة غير خصبة ، وقريبة من جبال ليس فيها إلا الصيد والغزلان ، والتي تصنع من قرونها أقواس جيدة للغاية على الطريقة التركية .

هناك كثير من الحرفيين المهرة يصنعونها ، القوس سلاح ينتشر استخدامه كثيراً وسط هؤلاء القوم ، على السهول المحيطة بالمدينة توجد كميات كبيرة من نبات يشبه القنب ، تعزز هذه النباتات "راتنجاً" تتم معالجته وتحميله لإرساله إلى أماكن كثيرة .

من هنا تبدأ صحراء يستغرق عبورها رحلة تستمر من خمسة عشر إلى عشرين يوماً ، وتمتد الصحراء حتى نهر "الفرات" إلى الغرب من بغداد ، قد شاهدت هنا أفضل خضروات رأيتها في حياتي ، ولا سيما الكرنب والفجل والبنجر الطيب المذاق والكبير الحجم ، كما هو حالها في أنحاء فارس .

في اليوم التالي - الثالث والعشرين من شهر أكتوبر - غادرنا هذا المكان ، ووصلنا إلى نزل في سهل قرب نهر عذب يسمى "دوانج" "Duange" ، دفعنا هنا نصف "داماسين" عن كل حمولة لحراس تلك السهول ، في اليوم التالي ذهبنا إلى نزل آخر ، به نافورة ، ويقوم بالقرب من بعض التلال يسمى "هسيس" ، هنا فارقتنا القافلة المتجهة إلى "قزوين" ، تقع "قزوين" على مسيرة يومين إلى الشرق من هنا .

بند : إن "قزوين" مدينة فخمة بها مبان رائعة ، وتتميز بخصوبتها وبرودتها .

أسوار المدينة ومبانيها مشيدة أساساً من الطين ، كما هو شأن المباني والأسوار الأخرى في فارس ، ما عدا منازل الملك وبعض المساجد المشيدة من الطوب .

تقع المدينة عند ست وثلاثين درجة ، يعود طابع المدينة الفخم بشكل رئيسي إلى وجود بلاط "الشاه طهماس" فيها ، وقد انتقل هذا البلاط إلى هنا من تبريز التي كان الملوك من أسلافه ، يتخذونها مقراً دائماً لهم .

يعود السبب وراء هذا الانتقال إلى الهرب من التركي الذي لم تكن تتوفر دفاعات ضده ، قد استولى التركي منه بالفعل على كثير من الأراضي في "أرمينيا" وبابل وحلب .

يحكم كل هذه المناطق الشاه إسماعيل ، سافرنا لمدة يومين آخرين نحو الشمال ووصلنا في اليوم الثالث إلى مكان يسمى "ساجزي أباد" ، تحيط بهذا المكان مزارع وبساتين كثيرة ، وبه منازل من الطين و"الوتل" ، والجص كالأماكن الأخرى ، تقع "ساجزي أباد" إلى شرق الشمال الشرقي (من الطريق) وبها نهر واسع ، ويسكنها "الفرس" .

في (الخامس والعشرين) من الشهر غادرنا هذا المكان ، ووصلنا في الصباح الباكر إلى "كيام" (خيام) .

بند : "خيام" : هذا مكان أكبر من سابقة وتقع إلى شرق الجنوب

الشرقي ويقطنه عدد كبير من الأهالي أنفسهم ، توجد بها سهول عظيمة ، وتعتمد على الزراعة وبيع المحاصيل ، تقع خيام على تل دائري إلى حد أنها تبدو من الخارج كقلعة رائعة ، توجد بها منازل جيدة من "الوتل" والجص ، لها نوافذ وسقوف مسطحة ، حيث لا يستخدم المسلمون السقوف ذات القرميد .

هناك بطول الطريق حتى هذه النقطة حقول قطن شاسعة ، ويتم من إرسال حمولات هائلة منه إلى أماكن كثيرة من هنا .

يستخدم المسلمون القطن في كثير من الأشياء مثل بطانات الأردية المحشـوة ولأغراض أخرى ، هم يزرعون هذا القطن ، ويروونه كالخضروات ، يزرعون مع القطن الكثير من شجر تين البلسم ، ويحمصون الثمار على نار ، ويطحنونها في القرميد ، ويستخرجون منها زيتاً للشموع ، في أجزاء أخرى من فارس حيث توجد منها كميات كبيرة ، يصنعون هذا الزيت في عصارات .

غادرنا هذا المكان ومررنا بأنهار وبحيرات عظيمة ، كان الجو بارداً للغاية ، وقد تجمدت المياه ، أمضينا الليل في مكان يسمى "بارساغ" "Barsag" ، يقع إلى الشمال الشرقي (من الطريق) ، المكان واسع ، ولكنه في حالة يرثى لها ، ويسكنه الأهالي أنفسهم ، ولكنه خصب للغاية .

في الليلة التالية مررنا عبر مدينة عامرة تسمى (أبار حياة) ، ووصلنا إلى مكان يسمى هير ، يسكن المكان الأهالي أنفسهم ويقع إلى الجنوب ، ويجري نهر دفاق في وسط المدينة ويدفع المطاحن .

وصلنا في اليوم التالي إلى تل عال ، حيث يبدو أن هذا الطريق

يصل إلى نهايته ؛ إذ إننا ومنذ أن غادرنا هرمز وإلى أن وصلنا إلى هنا ، كنا نسافر دائماً ، ونحن نصعد الجبال ، ولكننا بدأنا نسافر من هنا نزولاً من الجبال .

في اليوم التالي – وهو اليوم الأخير من أكتوبر – وصلنا إلى سهل واسع ، بطول نهر يرتفع في هذا السهل مسافة نصف فرسخ من "السلطانية" .

بند : تقع مدينة "السلطانية العظيمة" – والمعروفة سابقاً باسم "تيجرانوسيرتا" ، أو التي تم تشييدها على أطلال "تيجرانوسيرتا" "Tigranocerta" – إلى جنوب الجنوب الشرقي عند إحدى وأربعين درجة .

تقع "السلطانية" بطول سلسلة جبال عظيمة ، ويصل عدد السكان إلى ألفين أو ثلاثة آلاف نسمة – وهم فرس وتركمان مسلمون – ويعيش معظمهم على التجارة .

يقول البعض إن هذه أول مدينة في "أرمينيا" العليا أو العظمى ، على الرغم من أن آخرين لا زالوا يعتقدون أنها في وسط فارس ، وقد بناها "الإغريق" ، وتتم مزاولة تجارة عظيمة هنا ، ويحيط بها سور قديم .

يوجد من هنا طريق آخر إلى البحر في الخليج الفارسي ، توجد في نهايته مدينة البصرة[أ] عند اثنتين وثلاثين درجة ونصف الدرجة ، تقع إلى الغرب ، وتصل سفن القرقور ، والسفن الأخرى إلى مينائها ، وعلى متنها بضائع عبر خور ، ينتهي أسفل المدينة ، يحيط بها سور سميك من "الوتل" والخص والطين ، والمنازل مشيدة من المواد ذاتها .

(أ) البصرة هي جزيرة شكلتها الأنهار ، وكانت تسمى سابقاً (تيريدو) .

يلتقي كثير من التجار هنا ، وهم الأتراك واليهود والأرمن ، ومعهم بضائع تصل على القوافل عبر الصحراء ، وعلى سفن برج تأتي على نهر دجلة من بغداد .

هناك منطقة جيدة أسفل النهرين على مسافة ثمانية أو عشرة فراسخ إلى البحر أو أربعة أو خمسة عبر البر ، يسكن المنطقة برمتها المسلمون العرب والنصارى "اليعاقبة" ، ومنهم الشقر والسود ، ويطلق عليهم لقب الفرنجة ، البعض منهم تجار ، ويعيش البعض منهم على تربية الماشية ، ويعيشون على التمر ، هم يروون محاصيلهم من مياه هذين النهرين ، ومن المد البحري العالي عبر قنوات بنوها ، وهي الآن تحت سيطرة التركي الذي استولى عليها من العرب .

البصرة "كورفا" وجزيرة "أوراك" "Orak" ، قبالة القطيف ، هي أراضي العرب وآخرين ، عندما قمت بهذه الرحلة ، حاصر العرب البصرة ، ولكن الأتراك دافعوا عنها بشكل جيد .

بند : العودة إلى جبال "منغول" : على الجانب الآخر من هذه الجبال ، يوجد منبع نهر "أراكس" "Arax"[أ] الذي يجري باتجاه الغرب ، وهو أقوى وأسرع تدفقاً من دجلة و"الفرات" ، ويمر بطول سفح جبال سفينة نوح ، ويجري "نكيشوان" و"جاغرا" ، وهما اللتان يقال إنهما أول مدينتين سكنهما وبناهما نوح عندما غادر السفينة .

يجري بعد ذلك ليصل إلى مدينة "أردوار" "Ardwar" ، ومن

(أ) "أراكس" ، وسابقاً "أراكسس" .

ثم يجري عبر كثير من المدن والبلدان الأخرى في "أرمينيا" العليا ، وإلى أن يصل – بعد مسيرة ثلاثة أيام وقبل بحر "قزوين" – قريباً من ميناء يسمى "جواناس" ، ويتحد مع نهر آخر يأتي من "برجستان" ويسمى "لور" ، ويستقبل أيضاً مياه نهر "قارا" "Qara" ، ويصب في بحر "قزوين" ، سنتحدث عن "الفرات" .

تقفز الوثيقة هنا عن الجزء التالي من الرحلة من السلطانية إلى "بيتليس"– ملحوظة المترجم .

بند : بالعودة إلى رحلتنا :

سافرنا من هذا النزل عبر جبال تغطيها الثلوج ، وعلى طرق وعرة ، تزيد صعوبتها في بعض الأحيان المياه الناتجة عن ذوبان الثلوج ، والتربة الطينية أحياناً أخرى ، وكل شيء كان متجمداً .

كانت في الطريق صخور متفتتة وزلقة ، الأمر الذي جعل الحيوانات تسقط وتواجه صعوبة في المشي ، مررنا بنزل آخر يبعد فرسخاً عن النزل الذي غادرناه ، حيث يوجد مكان صغير بالقرب منه إلى الجنوب من الطريق يقطنه أرمن ، وبه دير آخر بالقرب من الجبال ، على الجانب الآخر (من الطريق) يوجد وادٍ يُسمى "غوزيل ديريه" "Guazil Dere" وتعني "الوادي الجميل" ؛ لأن طقسه كان بارداً .

على مسافة فرسخ من هناك مررنا بنزل آخر ، هذه الملاجئ مشيدة قـريبة بدرجـة كبيرة إلى بعضها البعض ؛ لأن القوافل تحتاجها في الشتاء ، في بعض الأوقات لا تستطيع القوافل السفر لمسافة تزيد عن المسافة بين نزل وآخر .

على مسافة نصف فرسخ من هذا النزل توجد مدينة "بيتليس" ، التي نزلنا فيها .

بند : "بيتليس"[أ] : هي مدينة مشهورة للغاية ، وتقع إلى الغرب بين سلستي جبال ، وتتألف من بيوت مشيدة من الحجر و"الوتل" والجص ، قد وصلنا إلى هنا في الرابع عشر من شهر ديسمبر .

يصل عدد سكان المدينة إلى ألف وخمسمائة نسمة ، وغالبيتهم أرمن ، يلبسون أزياء على الطريقة الفارسية كما هو الحال في الأماكن الأخرى التي مررنا بها .

يعيش هؤلاء الأرمن في حرية أكثر من الآخرين ، ولديهم كنائسهم العامة الخاصة بهم ، يعيشون على الإتجار في البضائع ، على الرغم من أن البعض يعيش على تربية الماشية والزراعة .

يوجد بينهم بعض الأكراد الذين ينتشرون في كل أنحاء هذه المنطقة ، الطريق وعر للغاية بين الجبال ، ويجري خلالها وعبر المدينة نهر كبير ، يندفع نحو نهر دجلة أو نهر "ألتونكوبري" .

قبل مسافة قصيرة من المدخل المؤدي إلى الجزء الرئيس من المدينة يوجد خط طويل من المنازل المنفصلة على سلسلة الجبال ذاتها ، مع أبراج صغيرة فوقها ، تشكل طابقاً علوياً ، وبها نوافذ وسقوف مسطحة .

يمتد جزء كبير من المدينة باتجاه الجنوب ، وتوجد على الجانب الآخر

(أ) هذه المدينة التي كان فيها ديليمنثيس (؟) وكان قائداً فارسياً ، قد دمر "الشاه طهماس" مؤخرة جيش سليمان خلال رحلة العودة من "تبريز" .

قلعة رائعة إلى الشمال على قمة وعرة ، ويحيط بها سور عال وقوي من الحجر والجير ، يتوفر لها دفاع جيد بأبراج مراقبة صغيرة ، وكثير من المدافع الصغيرة بين الشرفات المفرجة .

بدت لي القلعة منيعة ، قد استولى التركي العظيم عليها من مسلم كردي ، كان الأمر فيها ، عن طريق خيانة أحد أبناء إخوة الكردي ، كان حاكماً لمدينة تُسمى "هاسوه" ، تبعد مسيرة ثلاثة أيام من هنا ؛ ولأن التركي فشل في الاستيلاء عليها بعد محاصرتها ثلاث مرات ، فإنه يحتفظ بحامية من "الإنكشارية" داخل القلعة .

توجد حول القلعة ثلاثة أو أربعة شوارع ، عليها منازل من خشب تباع فيها الضروريات للمدينة والمسافرين ، هناك نزلان جيدان ، المنطقة جبلية للغاية دون أن يكون هناك طريق يتيح الدخول لجيوش ضخمة .

تقع إلى الشمال مملكة "جورجيا" على مسيرة يومين أو ثلاثة ، هم نصارى وبيض ، ويخضعون للأتراك ، دفعنا هنا ستة "شاين" كرسوم عن كل حمولة ، من هنا فصاعداً تختلف الرسوم وتصل إلى الضعف ، أي أن تدفع أربعة vintens مقابل كل حمولة ، بقينا هنا لمدة يومين ، وغادرنا في السادس من الشهر ، وسافرنا بمحاذاة النهر الذي يجري مخترقاً وسط المدينة ، بين سلاسل جبال شاهقة ، وعلى طرق تغطيها الثلوج ، تتسم بالوعورة .

على مسافة فرسخ مررنا ببوابة عظيمة ، طولها كطول رمح ، ومحفورة من الجبل ، ويمر الطريق خلالها .

نزلنا على مسافة فرسخ تقريباً في نزل ، توجد إلى الجنوب منه قلعة

رائعة على صخرة صلبة ، ويحيط بها سور عال من الحجر والجير ، وهي محروسة جيداً ، تسمى "كوجيموهور" .

في اليوم التالي ، كانت هناك امتدادات طويلة منحدرة ، ويمر الطريق بين غابات من أشجار السنديان ودكات ترابية ، نزلنا في نزل يسمى "خوسماكان" "Khosmakan" ، بعد أن مررنا بنزلين آخرين .

في اليوم التالي ، وعلى الطرق الوعرة ذاتها ، مررنا عبر مكان صغير يسمى "مارمورا" "Marmora" ، يسميه المسافرون بيت الحجل ؛ بسبب كثرة طيور الحجل فيه ، يقع المكان إلى الشمال على تل ، يبعد مسافة قصيرة من الطريق ، ويقطنه مسلمون أكراد .

مررنا بعد الظهر بنزل آخر ، هناك احتجزنا الحراس الذين كانوا هناك ؛ بسبب سيد كردي يقيم في قلعة تبعد مسافة نصف فرسخ إلى الجنوب من الطريق ، وتسمى "زاراجوي" ، قد تم احتجازنا لندفع الرسوم التي يتم فرضها على كل شيء يمر على ذلك الطريق .

يوجد بالقرب من هذا النزل ، منزل يعيش فيه عادة بعض الناس الذين يبيعون طيور الحجل والفواكه والمؤن ، ولكنهم غير موجودين في هذه المرة ؛ لأنهم ماتوا بسبب الطاعون .

في اليوم التالي مررنا فوق جسرين ، يقومان على مسافة قريبة على نهر "بيتليس" ، قبل ذلك المكان بقليل ، ينقسم النهر إلى فرعين ؛ بسبب سلاسل الجبال ، ويجتمعان هنا مجدداً ، وصلنا عبر طرقات رديئة في العصر إلى مخاضة عبر نهر "بيتليس" ذاته الذي كنا لا نزال نتبعه ، عند تلك النقطة أصبح النهر واسعاً ؛ بسبب النهيرات والينابيع

الكثيرة القادمة من الجبال ؛ ولهذا السبب لم نجرؤ على خوضه ، لكننا غيرنا طريقنا لمسافة نصف فرسخ ؛ لنعبر على جسر جميل .

على مسافة فرسخ تقريباً ، وصلنا إلى مدينة هاسوه ، قد سافرنا طوال الأيام الماضية باتجاه الغرب .

يحكم هاسوه حاكم كردي ، وهو شقيق الحاكم الذي قتل عمه في "بيتليس" ، تقع على مرتفع إلى الشمال الشرقي ، وتتكون من منازل جميلة من الحجر والطين ، مشيدة من طابقين ، ولها سقوف مسطحة .

يسكنها خمسمائة أو ستمائة نسمة ، ومعظمهم أرمن ، وجميعهم نصارى ، ويزعمون أنهم يطيعون البابا .

يتحدث هؤلاء اللغة ذاتها التي يتحدثها أولئك الذين قابلناهم سابقاً ، ويتصرفون مثلهم تماماً ، يحظى هؤلاء برعاية حاكم البلاد ، ويتيح لهم الحرية لكنائسهم ولأداء شعائرهم ، وتربطهم علاقات حسنة مع الأكراد الذين يوجد عدد كبير منهم في المناطق المرتفعة ، وهم يفهمون بعضهم البعض جيداً على الرغم من وجود اختلاف في اللغة .

في الأجزاء المرتفعة ، وعلى جبل شديد الانحدار ، كانت هناك قلعة حجرية حصينة ، بها نوافذ وحاجبات ضوء كثيرة ، وتبدو أشد قوة من القلعة الموجودة في "بيتليس" ، يعيش الأكراد داخل القلعة ، بينما يعيش الأرمن في الأجزاء السفلى ، لديهم حراسهم وبعض المدافع .

توجد في المنطقة كمية هائلة من الصيد ، وهناك الضأن والأبقار والماعز الوحشية ، وخنازير الجبال التي يعطيها المسلمون للنصارى ، هناك صيادون بارعون يتسلقون الجبال الوعرة التي تحيط بالمدينة .

كان "داؤود" ملك "أرمينيا" يعيش هناك ، يقال إنه كان عملاقاً ، وأنه وزوجته المسماة "هاندوت" ، أحبا العيش هنا ، كانت هي الأخرى عملاقة أيضاً ، وقد تم دفنها في مكان يبعد مسيرة يوم داخل قلعة .

مقاطعة هذه المدينة واسعة ، وتسمى "شمشمون" ، وسميت كذلك ؛ بسبب شجاعة هذا الملك ؛ ولأن السكان يزعمون أن حربة ودرعاً موجودان في قلعة صغيرة مجاورة ، تخص "شمشمون" .

قضينا يومين هنا ، ودفعنا أربعة "شاين" عن كل حمولة كرسوم ، غادرنا المكان في الحادي والعشرين من شهر ديسمبر ، وفي منتصف النهار ، عبرنا جسراً عالياً وطويلاً يؤدي من الشرق إلى الغرب ، ويسمى "ألتون كبري" "الجسر الذهبي" ؛ لأن خاتمين ذهبيين كبيرين كانا موضوعين ومثبتين على الجانب التحتي من أحد الأقواس ، وتمر قوة التيار عبرهما ، كان أحد أثرياء المسلمين قد عمل على وضعهما هناك ، وقد حرص على أن يتم ذلك حتى إذا أفلس يوماً يستطيع استعادة ثروته بهما ، لكن بقي هناك خاتم واحد فقط ؛ لأن راعياً جذب واحداً ، غير أنه غرق دون أن يستولي عليه .

هذا النهر كبير للغاي ، وهو المنبع والمصدر الرئيسي لمياه نهر دجلة ، يجري النهر منحدراً إلى مدينة سنجيف ، ويقسم هذا الجسر "أرمينيا" العليا من "أرمينيا" السفلى ، وفارس القديمة عن بلاد ما بين النهرين .

فور عبورنا نهر دجلة ، سرنا لمسافة فرسخ تقريباً ، ونزلنا في مكان صغير يسمى بطمان ، سكان المكان أناس فقراء ، وهم مزارعون أكراد .

في اليوم التالي ، مررنا عند الظهر بمدينة قديمة ، يحيط بها سوار قوي وعريض من الحجر به أبراج ، ولكن أجزاء كثيرة تداعت ، وتسمى

المدينة "ميافاراقين" ، قد عاش هناك "اليعاقبة" "الأرمن" و"الأكراد" ، ولكن الأجزاء الأكثر منها غير مأهولة ، بنى المدينة "الإغريق" ، كما يتضح من تميز المباني ، دمر المدينة "تيمورلنك" العظيم الذي حاصرها أولاً لفترة طويلة .

إلى الشمال من هذه المدينة ، وليس بعيداً تماماً ، يوجد مذبح مكرس للسيدة العذراء ، وقد شهد حدوث عدة معجزات .

قد دفع تعلق الأتراك بـ"كارا أميد" إلى هجر هذه المدينة ؛ لأنهم لم يرغبوا في تحصين مدينتين قريبتين كثيراً إلى بعضهما البعض ، حتى لا يضعوا حاميات كثيرة قريبة من بعضها البعض ؛ ولأن هذا يعد أمراً غير ضروري ، دفعنا هنا "ميديم" (maidim) واحداً عن كل حمولة – وتزيد هذه القيمة قليلاً عن نصف "فنتم" (vintem) – لكردي يملك هذا المكان ، في العصر نزلنا مجدداً في "أبيشيان" – وهي مكان صغير مأهول كالأماكن الأخرى بواسطة الأكراد .

في اليوم التالي ، بقينا في قرية أخرى تسمى "هيميت" ، يقطنها الأكراد ، في اليوم التالي ، عشية يوم الميلاد ، بقينا في قرية أخرى يقطنها أولئك الناس أنفسهم ، في يوم الثلاثاء ، وهو عيد الميلاد وصلنا في الصباح إلى "كارا أميد" .

بند : إن "كارا أميد" "[أ]Cara Amid" مدينة مشهورة وفخمة ، كنا نسافر من هاسوه إلى هنا طوال الوقت باتجاه الغرب ، لكي ندخل

(أ) أميدا سابقاً .

المدينة انقطعنا لمسافة تقارب نصف فرسخ ؛ بسبب نهر يحيط بها ، هذا هو الجزء الآخر من نهر دجلة ، الذي يختلط بالنهر الرئيسي عند مدينة "سنقيف" التي تبعد مسيرة يومين .

فور عبورنا النهر بواسطة جسر ضخم ، اقتربنا من المدينة التي تبعد مسافة عنه على تل والطريق ، الذي يصعد إليها معبد على نحو سيّئ ، كان هناك حارس قابلنا ، واصطحبنا إلى دار الجمرك ، هم يفعلون هذا عادة حتى لا تتعرض البضائع للسرقة (والنقل) لطرق أخرى ، بقيت كل البضائع في دار الجمارك ؛ للإفراج عنها .

عندما خرجنا من دار الجمرك ، فتشوا جميع عدول الخرج ، وكل الذي كان معنا كتجار وكسائقي بغال على حد سواء ، قد أخفيت أوراقي في عدل خرج جحش صغير ، توضع فيه الأشياء المتنوعة التافهة ، وفرشات سروج البهائم ، لو أنهم عثروا عليها لواجهت مخاطر كثيرة .

من هنا ذهبنا لننزل في نزل ، هذه المدينة - التي استولى عليها التركي من الصفوي - هي عاصمة هذه المنطقة ، تقوم على تلة إلى الشمال (من الطريق) ، ويحيط بها سور قوي ، عليه برج دفاعي حجري ، الجدران عالية وعريضة مع أبراج جميلة وشاهقة ، يبدو كل شيء جميلاً ، وفي حالة طيبة ، في الماضي كانت هذه المدينة تسمى "أميدا" ، المنازل مشيدة من "الوتل" والجص .

والشوارع ضيقة وقذرة ، بالمدينة أربع بوابات مستخدمة ، تعلوها أبراج رائعة وشاهقة ؛ حيث يوجد دائماً أتراك يدافعون عنها بالأسلحة وبنادق "المسكيت" ، يتم إغلاق البوابات في كل ليلة ، ولا يسمح لتاجر أو أجنبي

بالمغادرة دون مذكرة من الباشا ، وكل من لا يحمل مذكرة كهذه يتم احتجازه إلى أن تعرف هويته ، هناك الكثير من الأكواخ الصغيرة بطول الجدران ؛ لإيواء الحراس والخفر ، المنطقة خصبة للغاية ، وحجم التجارة والمعاملات كبير للغاية .

في جزء واحد من المدينة ، يرتفع نبع يتدفق خلالها ، ويدفع الكثير من الطواحين ، هناك الكثير من الحمامات والمزارع والبساتين الكبيرة ، وفيها جميع أنواع الفاكهة كتلك الموجودة لدينا ، لا شك أن تعداد سكان المدينة يصل إلى خمسة آلاف "أرمني" و"يعقوبي" و"نسطوري" و"داستيماري" (محب القديسة مريم) .

وأناس بيض يتحدثون العربية ، وقلة من "الأتراك" و"التركمان" و"اليهود" ، وأهالي المنطقة والتجار ، المدينة بيد التركي ، وهناك دائماً باشا وحامية كبيرة من "الإنكشارية" الذين يحملون بنادق "المسكيت" .

في المدينة منطقة خصبة عظيمة تنتج الفواكه واللحوم ، وتربى فيها الخيول والمهور ، في المنطقة المحيطة توجد عدة بلدات ، وقرى يقطنها النصارى والتركمان ، ويوجد في المدينة بعض المسلمين المتزوجين من نصرانيات ، ويلتزم كل واحد من الأزواج بدينه .

النساء هن بنات "النسطوريين" من أصل إغريقي ، أسوأ النصارى قاطبة ، الذين يقدمون بناتهم طواعية للأتراك بدلاً من تقديمهن للنصارى .

الأرمن هم أفضل النصارى ، هم لا يتزوجون أقاربهم ، ويلتزمون بالاحتفال بكثير من الأعياد ، وأيام الامتناع عن تناول الطعام والمسكرات ، من بينهم "اليعاقبة" ، وهم أكثر شبهاً بالأرمن من

الآخرين ، خلال صوم الأرمن لا يتناولون اللحوم والحليب والبيض والزيت والسمك ليس فقط خلال الصوم الكبير ؛ إذ إنهم يصومون أيضاً خلال أيام الأحد الأربعة السابقة للميلاد .

عندما لا يكونون صائمين ، يعشقون الأكل كثيراً ؛ إذ إنهم اعتادوا الأكل في مجموعات كبيرة ، وينقلون الأكل من منازلهم ، ويقضون اليوم بأكمله ، وهم يأكلون في بعض الأحيان ، يصبحون سكارى ، ويأكلون الطعام على حصر بيضاء على الأرض دون استخدام فرش المائدة ؛ إذ إن أحداً من هؤلاء الناس في تلك المناطق لا يتناول الطعام من مائدة ترتفع عن الأرض ، قد توفي كثير من أهل المدينة ؛ بسبب الطاعون ، كان هناك عدد كبير من الناس ؛ إذ إنهم يعتادون التجمع هناك من أماكن كثيرة حتى من قبل أن يصلوا إلى سن الرشد .

عند وصولنا إلى هناك ، لم يكن هناك أي باشا ؛ لأن التركي كان قد أمره بالذهاب إلى بغداد كقائد ومعه معونات للبصرة ، وبقي أحد أبنائه ليحل محله .

داخل دار الجمرك لم تكن هناك أي حمولة أو صندوق (كانوا يحملون القرفة داخل صناديق حتى لا تتكسر) لم يتعرض للفتح والتفتيش والقلب رأساً على عقب ، وكانوا يغرسون العصي داخل حمولة القرنفل ؛ ليتأكدوا مما إذا كانت هناك عمائم ؛ لأنهم يفرضون رسوماً عليها تفوق الرسوم المفروضة على أي شيء آخر .

كان هناك كيس لآلئ ومجوهرات صغيراً ومحمولاً في صندوق

خشبي كصدقة للرهبان في القدس ولكن ، وعلى الرغم من أنهم فتشوا كل المحتويات ، لم يشأ الرب أن يسمح لهم بالعثور عليه .

بعد أن دفعنا الرسوم - التي كانت عالية للغاية (إذ إنهم يسرقون التجار ، ولا سيما التجار النصارى) - تمنينا الرحيل قبل أن يتمكنوا من الانتهاء من تفتيش سائقي البغال ، ولذلك منحتهم "كروزادوين" ليفعلوا ذلك ، قد عمدت إلى رشوتهم بهذه الطريقة في كل مكان ؛ لأنهم أدركوا أننا خائفون ، ونريد السفر بسرعة .

كان هذا جزءاً من أجرتهم ، والتي تصل إلى ستة "كروزادوس" عن كل حمولة ، قد فعلت هذا عن رغبة ؛ لتجنب الأتراك ؛ إذ إنهم إذا عرفوا أنني برتغالي لكان القتل مصيري دون شك ، كنت أرتدي الملابس كشخص "فينيسي" من مدينة "البندقية" وكنت أقدم نفسي إلى سائقي البغال بتلك الصفة .

غادرنا هذا المكان في الثلاثين من شهر ديسمبر ؛ بسبب التعقيدات في النزل ، ولوجود الحراس ومسؤولي البوابات عند مداخل المدينة لم نتمكن من الانطلاق حتى الظهر .

غادرنا المدينة ، ونزلنا في مكان يبعد نصف فرسخ عن المدينة يسمى "عليبومات" ؛ لأن الرحلة كانت طويلة ، ولم يبق وقت طويل من النهار .

لا تشبه هذه البلاد بلاد "الشاه طهماسب" التي كان كل شخص فيها يتمتع براحة البال الكاملة ، وبالحرية عند الوصول إلى المدن أو عند مغادرتها ، ولا يتعرضون لرسوم أو تحرش أو مضايقة ، تعني "غليبومات" "نافورة علي" ؛ لأن هناك نافورة فيّاضة يقولون إن الذي صنعها نبيهم علي .

قد استولى قائد تركي يدعى "مصطفى باشا علي كارا أميد من الشاه إسماعيل" ، واستخدم والده "شمسد باشا" – من قلعة الإحساء التي تبعد مسيرة خمسة أيام من البصرة – إيرادات المكان كصدقات ، استولى هذا الرجل على جزيرة "البحرين" في عهد "دوم قسطنطين" "Dom Constantine" وتوفي هناك مع كثير من الأتراك .

في اليوم غادرنا هذا المكان ، وسلكنا طرقاً حجرية مستوية ، ولكنها موحلة ، ونزلنا في مكان صغير آخر يقطنه التركمان ، ويعيشون نوعية الحياة ذاتها ، يقع المكان إلى الشمال من الطريق ، ويسمى "ميرزا تيبي" أي "تل الأمير" .

غادرنا المكان في اليوم التالي ، ونزلنا في مكان صغير آخر يقطنه أناس كأولئك ويسمى "دامبولي" "Damboli" ودفعنا "ميدينين" عن كل حمولة .

سافرنا في اليوم التالي عن طريق منبسط ؛ ولكنه موحل للغاية ، ووصلنا إلى مكان صغير آخر يدعى "كورتش غاني" وتعني "أشر الذئاب" ، لوجود أعداد هائلة منها في المنطقة التي دفعنا فيها "ميديماً" آخر عن كل حمولة .

في اليوم التالي سرنا على طريق جيد لمكان صغير آخر ، يقع إلى الشمال (من الطريق) ، ويسمى "تاكس لوتيبيه" أو "التل الحجري" ؛ بسبب وجود تل شاهق للغاية بالقرب منه ، والمكان ذاته حجري للغاية ، يقطن المكان أناس مماثلون لسكان المناطق الأخرى ، في اليوم التالي مررنا بمكانين أو ثلاثة

أماكن ، يقطنها أناس مشابهون لسكان الأماكن السابقة ، ونزلنا في مكان آخر يسمى "كاباحيدر" .

في اليوم التالي ، وبعد السفر لمسافة فرسخين ، دخلنا وادياً يسمى "باغار سوغدير" أو "وادي الأحشاء" ، ويحمل هذا الاسم ؛ لأنه طويل وضيق ؛ ولأن عدداً كبيراً من الرجال قد عثر عليهم ، وقد انتزع أحشاءهم اللصوص الذين يعيشون هنا داخل كهوف ، قد قتل سنجك تركي من مدينة "أورفا" هؤلاء اللصوص وشتتهم .

وراء هذا الوادي يوجد نبع ماء عظيم ، يأتي من مكانين ، يسمى النبع "أضنة بوماري" "نافورة الأحد" ؛ لاكتشافه في ذلك اليوم من الأسبوع ، يدفع النبع عدة طواحين مملوكة للأرمن الذين توجد قرى صغيرة كثيرة خاصة بهم في هذه الأنحاء .

تستخدم مدينة "أورفا" التي تبعد مسافة فرسخين هذه المطاحن .

لم نجرؤ على الذهاب إلى هناك ؛ لأننا عرفنا أن الباشا هناك اعتاد الذهاب إلى "كارا أميد" ، والاستيلاء على جميع البهائم لنفسه .

نزلنا في قرية يقطنها مزارعون أرمن ، تبعد مسافة نصف فرسخ من المدينة .

بند : إن "أورفا" أكبر من "كارا أميد" ، وهي قديمة للغاية ، كانت تسمى في الماضي (.......)[أ] ، يحيط بها سور حجري عتيق به أبراج ؛ ولكنه مهدم في بعض الأماكن .

(أ) يقول البعض – وهم على حق – أن اللورد بولدوين ، شقيق جود فري ، ملك "القدس" ، جاء من هنا ، قد أصبح لاحقاً ملك "القدس" ذاتها .

قد قيل إن الذي بناها هو النمرود .

تقع المدينة إلى الغرب بالقرب من سلسلة جبال تسمى "كارادج أداغ" أي "الجبل الأسود" ، يقطنها الأرمن وبعض التركمان ، وغالبيتهم مزارعون .

قد حكم المدينة في وقت من الأوقات السلطان "شوري" من مصر ، الذي كان سيد الإقليم برمته من هنا فصاعداً ، ولا يزال هذا الإقليم جزءاً من بلاد ما بين النهرين القديمة .

استولى سليم التركي – والد سليمان – عليها منه ، وكان لا يزال يحكم هناك عندما مررت بهذا الطريق ، واستولى منه أيضاً على دمشق وحلب ، و"مالاطيا" ، وسوريا برمتها ومصر وجزيرة العرب .

لا يوجد في المدينة "باشا بل سنجك" ، وهو قائد يخضع "للباشا كارا أميد" .

يوجد في هذه المدينة الفرن[أ] ، الذي وضع فيه الشبان الثلاثة "شدراق" و"ميثاق" و"عبدنيغو" .

توجد على جانب واحد قلعة ، وأسوارها جيدة ، توجد خارج المدينة باتجاه الجبال بئر سورها أرمني قبل وقت قريب ، قد قيل إن لربنا معجزة هنا ؛ ولكن لم يخبرني أحد بالمعجزة المقصودة .

للبئر حوض يشفي المجذومين ، ويتجمع كثير منهم من أماكن عدة ؛ لأن أي مدينة أخرى لن تسمح لهم بالدخول إليها ، بعد أن

(أ) الفرن الذي وضعه نبوخذ نصر هناك .

يشفوا من مرضهم ، يبقون في المدينة في مكان مخصص لهم على مسافة من المدينة ؛ لأنهم وحتى بعد أن يشفوا مما بهم ، لا يعودون للمناطق التي جاؤوا منها ، يتم قتلهم في جميع أنحاء فارس ؛ لذلك ، يوجد الكثيرون منهم الذين يعيشون من تربية الحمير ، وينتجون أنواعاً ضخمة وجيدة منها ، ويبيعونها حسب سلالتها ، يبلغ ثمن الواحد منها أحياناً مائة "كروزادوس" وأكثر .

على مسافة قريبة من المدينة ، وبالقرب من المدخل ، توجد بعض الكهوف والخيام ، تعيش فيها مجموعة من النساء الغجريات وحدهن ، وهو أمر ليس مسموحاً به في أي مكان آخر ، يذهب إليهن جميع الرجال دون عقوبة ، يقصدهن المسلمون والنصارى ، وهم يتمتعون بهذه الميزة مقابل ضريبة يدفعنها .

هناك الكثير من الأسماك الجيدة في المدينة يتم جلبها من نهر "الفرات" الذي يبعد مسيرة يومين باتجاه الغرب ، في المدينة الكثير من المواشي والفواكه وكروم العنب والمؤن ، التي تأتي من السهول العظيمة والمقاطعات ؛ حيث توجد قرى كثيرة إلى حد أن ثمن حمولة من القمح تزن أربعة وعشرين alqueires يبلغ "كروزادوس" واحداً ، يتم إرسال كل هذا إلى مدينة حلب ومدن أخرى .

قد بقينا هنا من الخامس من شهر يناير ، وهو تاريخ وصولنا ، إلى السابع منه وصادف يوم الإثنين ، في هذا اليوم جمع مسؤولو تحصيل الضرائب في "أورفا" رسوماً قدرها خمسة "شاين" عن كل حمولة .

في الثامن من شهر يناير ، وبمصاحبة قافلة أخرى انضمت إلينا ، غادرنا

باتجاه غرب الشمال الغربي أو الغرب ، وهو الاتجاه ذاته الذي كنا نتبعه خلال الأيام السابقة . مررنا بدير أرمني مهدم ومهجور ، ولكن بدا عليه أنه كان هاماً للغاية . كانت بداخله كهوف تحت أرضية كبيرة ، يمكن إيواء ثلاثمائة فارس فيها ، ولكنها غير مأهولة حالياً ، كانت هذه الكهوف تستخدم كمكان لتجمع اللصوص ؛ لكن الطريق الآن خال منهم .

بالقرب من الدير ، يوجد سهل عرضه حوالي نصف فرسخ ، يسمى (كارا سيكو) أي "السهل الأسود" ، وهو مكان موحل للغاية ، وعندما يهطل المطر يصبح مستنقعاً يتعذر عبوره ، الأمر الذي يجبر القوافل على البقاء في هذه الكهوف لمدة خمسة عشر يوماً دون أن تتمكن من العبور .

قبل هذا السهل كانت هناك قرى صغيرة ومدينة ، وكلها كانت أطلالا ، وصلنا عصراً إلى نزل قديم ، عملت واحدة من بنات "حسن باشا" على أن يتم تشييده ، وكانت بالقرب منه بئر ماؤها عذب ، تسمى "كارا جورون" "Cara Joron" أو "الحوض الأسود" . يوجد حجر أسود لكل حوض كبير للغاية ، يتم ملؤه بالماء بواسطة عجلة ذات دواسة .

وتشرب البهائم منه . على الجانب الآخر ، يتم الحصول على الماء من حنفية يشرب منها المسافرون ، قبل عامين عمل أحد المسلمين على أن يتم تشييد مبنى حجري قوي . يوجد فيه رجل يتلقى أجوراً ؛ ليهتم بالعجلة ذات الدواسة ؛ وليضمن أن الحوض مملوء من أجل تخفيف العبء على المسافرين ، إلى جانب هذا النزل ، توجد قرية صغيرة ، شيدت منازلها من الحجر والطين ، ويقطنها مزارعون تركمان .

في عصر ذلك اليوم ، قابلنا مجموعة نقل بريد ، بها أربعة فرسان في طريقها من حلب إلى "أورفا" ، قد أخذوا جوادين منا - كما جرت العادة بالنسبة لمجموعات البريد في تركيا - وانتظرنا يومين لكي يعيدهما لنا أحد المسلمين ، وقد دفعنا له مقابل الذهاب وإحضارهما ، غادرنا المكان في الصباح الباكر ، وكنا نتجه طوال الوقت خلال سفرنا إلى الغرب ،

مررنا في منتصف النهار بمدينة تسمى "بيرويوك" "Beriock" "الممر الصغير" - ؛ لأن نهر "الفرات" ، وهو ليس نهراً عريضاً للغاية . يتم عبوره في هذا المكان ، كما أن رسوماً زهيدة تدفع ، وتصل إلى أشين واحد عن كل حمولة .

بند : إن "بيريوك" [أ] مدينة عند معبر "الفرات" أو هي في فرع لذلك النهر ، وتقع في الجانب الشرقي على صخرة فوق النهر ، على الجانب المتجه إلى البر يحيط بها سور حجري قوي ، وعلى الجانب المتجه إلى النهر مبان كثيرة من الحجر ذاته . تم تأسيسها وتشييدها في الماء ، هذا الجانب محصن بطريقة أفضل مما لو تم تحصينه بسور .

المنازل داخل المدينة مشيدة بـ "الوتل" والجص والحجر والطين ، وسقوفها منبسطة وضيقة ، والشوارع قذرة وربما بلغ تعداد سكانها ألفين من الأرمن والتركمان ، وجميعهم يتحدثون العربية .

على أحد جوانب المدينة وقريباً من النهر ، توجد قلعة جيدة التحصين عند نقطة من الصخر هي الأكثر انحداراً وقوة .

(أ) سابقاً (بيرتا) .

إلى الشرق من المدينة ، توجد صحراء شاسعة ، تمتد عبر "سوريا" و"أرمينيا" وفارس إلى مدينة أصفهان ، لهذه المدينة مقاطعة واسعة ، وسهل به قرى كثيرة ومؤن وفواكه كالتي لدينا .

عندما وصلنا إلى هنا ، كانت الخانات (وهي كهوف قرب المدينة) مملوءة بالجمال ، ولم تكن هناك خانات أخرى في المدينة ، بما أن المطر كان يهطل بغزارة ، كان يتعين علينا أن نعبر النهر على الفور ، قد سررت للغاية ؛ لأنني كنت أخاف كثيراً من هذا الميناء ، ولذلك فقد صعدنا إلى المراكب ، التي تنتظر هناك دائماً ، ونحن على ظهور الخيل ، وقد حملنا الدواب بالأحمال .

تشبه هذه المراكب تلك المراكب الريفية في "جاليسيا" ؛ ولكنها أعرض منها ولا صوالب لها ، هي ذات قاع مسطح مثل أرضية بلا أساسات ، لا توجد بها صوار ، وأما المقدمة التي يصعد الناس والدواب من خلالها إلى المركب فهي مفتوحة وكليلة ، وأما سطح المركب فهو عند مستوى الماء ، يتم دفع المراكب بالمجاذيف والأعمدة ، جعلوني هنا أدفع أشين زاعمين أنني قسيس ؛ لأنهم رأوا شعراً في لحيتي ؛ إذ إنني لم أحلق لحيتي منذ عدة أيام ؛ لأنني كنت أؤمل الوصول إلى حلب سريعاً .

ولكي أرتدي ملابسي مثل "فينيسي" بقبعة ولأترك العمائم ولبس الأرمني الذي ظللت أرتديه حتى الآن ، وأعتزم لبسه حتى الوصول إلى حلب ، وبالنسبة للقساوسة الأرمن الذين يمرون بهذا الطريق – ويمر كثير منهم عادة في هذا الطريق خلال الحج إلى القدس – فإن الواحد منهم يدفع أشين لكل .

بند : يرتفع نهر الفرات في جبال (منغول) في أرمينيا الكبرى أو العليا حيث توجد أيضاً منابع دجلة والأراكس التي ورد ذكرها من قبل ، هو يرتفع عند اثنتين وأربعين درجة ونصف قرب بلاد الجورجيين ويجري باتجاه الغرب إلى قلعة تسمى بالي ، ومن هناك لمدة يوم ونصف اليوم إلى قلعة أخرى تسمى (بيرتيو) .

من هناك (يجري) مسافة تستغرق يومين ليصل إلى مدينة "مالاتيا" "Malatia" وإلى شونجوناه ورام كاليه ومن ثم إلى بيرويك ، هذه هي المدينة التي ورد ذكرها سابقاً . يتدفق من هنا بثنيات ومنحنيات كثيرة عبر كثير من الأماكن إلى (نقطة) تبعد مسيرة يوم من بغداد ، ومن هناك في اتجاه آخر لمسافة من دجلة ودون أن يمتزج به ، ويجري دجلة قرب بغداد كما ورد سابقاً .

أسفل بغداد يجري النهر عبر عدة أماكن يسكنها مسلمون ذوو بشرة داكنة ويتحدثون العربية وهم عرب ، ويتحد مع دجلة بعد مسيرة يوم قبل البصرة .

من هناك يوجد خور يتجه إلى البصرة التي تبعد مسافة فرسخين من المجرى الرئيس للنهرين ، بالنسبة لنهر الفرات فإن عرضه عند النقطة التي عبرناه عندها يصل إلى مدى طلقة بندقية مسكيت ويصل عمقه إلى طول رمح .

النهر أشد ضيقاً في أماكن أخرى ، وفي فبراير ومارس يفيض النهر ويصبح عرضه أكبر ، قد شاهدت في النهر وبطول المدينة حوالي أربعمائة قارب . تشبه السفن الشراعية الصغيرة ذات الصاريين ، والتي يتم

تجهيزها لنقل الرجال الذخائر إلى البصرة ، قد تم صنعها بشكل قوي من خشب الصنوبر الذي يأتي من سلسلة جبال تسمى البستان تبعد مسيرة سبعة أيام إلى الشمال الغربي من هناك ويتم جلب الأخشاب بالجمال ، ومن خشب الحور إذ إن اشجار الحور توجد بكثرة في المنطقة القريبة من النهر .

في حال أمكن نقل الأخشاب بالنهر يمكن استخدامها لصنع سفن قادس من هذا الخشب ، ولكن النهر ضحل للغاية في أماكن كثيرة إلى حد أن المراكب هذه ذاتها تحتاج للدفع من قبل الناس المسافرين عليها ، ويتطلب الأمر منهم تفريغ المراكب من حمولتها .

على مسيرة يوم بعد جبال البستان توجد سلسلة جبال أخرى تسمى (إيجوجلي) "الدقل المتوسط" وسميت كذلك ؛ لأنها عالية وضيقة للغاية ، هناك يلتقي الطريقان المؤديان إلى القسطنطينية وكارامانيا وتبعد نقطة التقائهما مسيرة أربعة أو خمسة أيام عن حلب .

في كارامانية تنمو شجرة الاصطرك وهي شجرة صغيرة ذات أوراق تشبه شجرة التفاح ولكن لا يوجد لها ثمر ، توجد في جذوع تلك الأشجار قريباً من الأرض كائنات تحفر ثقوباً في الجذع يخرج منه راتنج الاصطرك ، تضرب هذه المادة بمطرقة خشبية في الشمس حتى تصبح دقيقة الحجم وتعبأ في أكياس ضيقة من القطن والقنب يصل طول الواحد منها إلى نصف braca . يزن كل كيس ثلاثة أو أربعة alqueires ويباع حسب الوزن . ترسل كميات كبيرة منها إلى مدينة البندقية حيث يباع كل كيس بمائة كروزادوس ، وهي أفضل من تلك التي تأتي من رودوس .

بند : عبرنا النهر ونزلنا في مكان صغير يسمى "تيلميان" "Telmian" يقطنه خمسون مزارعاً تركمانياً ، ويقع المكان إلى الشمال ، ويتألف من منازل مشيدة من الوتل والجص ، وتكاد المنازل تكون غير مأهولة ؛ بسبب الطاعون .

توجد في المكان ماشية جيدة ومؤن كثيرة ومرعى حسن والكثير من الكروم ، ينتج الناس هنا زبيباً جيداً ؛ لأنهم لا يستطيعون أكل العنب كله ولا يجدون الجرأة لصنع النبيذ ، يعبئون الزبيب لإرساله إلى أماكن كثيرة ، حتى في ذلك الوقت لا يستطيعون استهلاكها ؛ لهذا السبب يعصرونه كالزيتون لصنع عصير .

تبلغ قيمة المن شيناً واحداً ، بقينا هنا لمدة يومين ، وفي اليوم الثاني عشر من الشهر (عندما رجع كبير سائقي البغال ، وكان من مواطني بيريوك وقد ذهب إليها) غادرنا المكان عبر سهول تكثر فيها كروم العنب دون خنادق وأسوار وكان بمقدور الذين يمرون بجانبها أن يأكلوا من العنب أو أن يأخذوا منه ما شاؤوا .

نزلنا في خان يدعى (ساجوت) وهو الأكثر فخامة بين الخانات التي شاهدتها خلال هذه الرحلة ، هو مقسم إلى ثلاثة أقسام ، ويمكن أن يتسع لعدد لا يحصى من النزلاء ، قد أعيد بناؤه من الحجر بواسطة مسلم غني ، وقد قيل لي إن ذلك كله كلفه أكثر من ألفي كروزادوس .

في اليوم التالي سافرنا على السهل ذاته ورأيت كل مجموعة من الثيران تجر محراثين ، وكانت التربة خفيفة وخصبة للغاية . مررنا عبر عدد لا يحصى من القرى والقرى الصغيرة الخاصة بالسكان التركمان ، ووصلنا إلى بلدة تسمى "الباب" ؛ لأنها كانت بمثابة بوابة لحلب وقريبة

منها . تقع إلى الشمال ويسكنها حوالي ستمائة شخص ، وهم مسلمون عرب وتركمان ، تتوفر فيها موارد جيدة ولا يوجد حولها سور .

المنازل مشيدة من الوتل والجص كبيوت الأماكن الأخرى التي مررنا بها ، في اليوم التالي سافرنا بشكل متواصل باتجاه الغرب بطول طريق منبسط وحجري ووصلنا إلى مدينة حلب الشهيرة ، والتي كانت تسمى في السابق هيليوبوليس .

بند : إن مدينة حلب الفخمة والشهيرة – والتي كانت تسمى في الماضي "هيليوبوليس" – قديمة للغاية وهي عاصمة هذه المنطقة حالياً ، وتقع في سوريا على الجانب الشرقي من الطريق الذي كنا نسافر عليه ، يحيط بها سور جيد ، بهذا الطريق لا تبعد أكثر من ثمانين فرسخاً من تبريز ، ويمكن اجتياز هذه المسافة خلال ثلاثين يوماً .

بسبب الأمطار والثلوج والجبال وعوامل التأخير الكثيرة أمضينا سبعة وأربعين يوماً على الطريق ، لا بد أن تعداد سكان المدينة يصل إلى اثني عشر ألف مواطن منهم الأتراك والتركمان والأرمن والنصارى من الإغريق والنسطوريين واليعاقبة – الذين يسمون سوريين ، والموارنة الذين يزعمون أنهم الأكثر قرباً لكنيستنا ، وآخرين وثنيين يسمون كوستي وشمسي ؛ لأنهم يعبدون الشمس ، وآخرون اسمهم غورسي وهم كالإغريق .

يختلف هؤلاء جميعاً في بعض صفات إيمانهم واحتفالاتهم ؛ لذلك يعيش العرب هنا ويتحدثون جميعاً اللغة العربية .

هناك يهود ، وهم من مواطني البلد ، وأسبان وبرتغاليون ونصارى

فينيسيون وتجار فرنسيون يتاجرون على نطاق واسع وبكميات كبيرة من رؤوس الأموال ؛ إذ إن هناك تجارة واسعة هنا .

يتم من هنا إرسال التوابل والحرير والأقمشة المصنوعة من وبر الجمال والقطن والعقاقير والمجوهرات وأقمشة وبضائع أخرى لا تحصى تتجه إلى فرنسا ومدينة البندقية .

تأتي من هناك بالمقابل أصناف كثيرة من الأقمشة والساتان والقطيفة والدمسقي وجميع أنواع البضائع الأخرى ، ويتم استخدام كل شيء وإرساله إلى أماكن كثيرة . يوجد للنصارى قنصل يحكمهم ويحافظ على القانون والنظام لهم ، وقد عينته هنا إقطاعية البندقية .

يوافق التركي على هذا ؛ بسبب الأهمية الكبيرة لهذا الأمر بالنسبة لهم ، سواء في ما يتعلق بالإيرادات وبالمصاريف التي يتولونها في هذه البلاد والتي تتجاوز في حلب وحدها مائتي ألف كروزادوس في السنة .

على الرغم من ذلك فإنهم ليسوا بمنأى من المضايقة من قبل الأتراك في جميع الأوقات وبجميع السبل غير المعقولة ؛ إذ إن هذه هي عادتهم مع كل عرق في العالم ، في كثير من الأحيان يحتالون على الحصول على المال منهم إذ إن هذه هي العقوبة ، التي يفرضونها على كل نوع من المخالفات ، هم لا يطبقون العدالة إلا على أولئك الذين لا يملكون شيئاً يعطونهم إياه .

يتحمل الفينيسيون أي شيء في سبيل الجشع ؛ إذ إن هؤلاء الناس - ابتداء من الدوج (القاضي الأول) وحتى أكثرهم فقراً - هم الأشد جشعاً للتجارة في العالم ، يعيشون جميعاً من أجل هذا ، ويوجد

للأكثر ثراء منهم وللنبلاء الذين يحظون بأكبر قدر من الاحترام ممثلون في حلب والإسكندرية ودمشق والقسطنطينية وقبرص وأماكن أخرى كثيرة .

هـناك أسـواق عظيمـة في المدينـــة تتوفـــر فيهـــا جميـــع أنواع الضروريات ، والكثير من شوارع التجار والحرفيين من جميع الأنواع وبأعداد كبيرة ، يوجد هناك الكثير من الخانات الكبيرة والحمامات والمباني الحجرية الفخمة وكثير من المنازل الفخمة والمترفة مشيدة من الحجر ومساجد مشيدة بتصاميم رائعة .

المقاطعة خصبة للغاية وتنتج الكثير من الحنطة والشعير واللحوم وزيت الزيتون الذي يتفوق على ذلك الذي تنتجه إشبيلية وتتوفر جميع أنواع الفاكهة بكميات كبيرة ، توجد كل هذه المنطقة إلى الغرب إذ إن على الشرق توجد مساحة من الأرض يستغرق اجتيازها نصف يوم وتنتشر فيها قرى المزارعين ، أما المنطقة التي تقع وراءها فهي صحراء تعبرها القوافل جيئة وذهاباً من البصرة .

عبر منتصف المدينة يوجد نهر واسع يخدم المدينة برمتها ، يوجد هناك باشا بشكل مستمر ومعه حامية كبيرة من الفرسان ، وفي قلعة جيدة للغاية ، ويحتفظ التركي بقائد آخر ومعه ثلاثمائة من الإنكشارية المزودين ببنادق المسكيت والذين لا يخضعون للباشا ، هذه هي القاعدة العامة في جميع قلاع التركي حتى يكونوا أكثر ولاء .

تقع هذه القلعة على جانب واحد من المدينة على تل رائع وعالٍ وهناك خندق عميق للغاية حول المدينة ، يجعلها هذا الوضع مستديرة

ومنحدرة إلى حد يستحيل معه الصعود إليها من أي جانب ؛ نظراً لوجود منحدر صخري زلق للغاية من السفح حتى منتصف المسافة إلى أعلى التل .

بالقرب من البوابة التي يوجد خلالها المدخل يوجد برج رائع للغاية في كل جانب ، وقد تم تزويد كل واحد منهما بكمية كبيرة من المدافع ، ويقوم هذان على طرف الخندق عند مستوى الشارع العام ، من هناك وحتى القلعة يكون الوصول عبر ممر ضيق للغاية مشيد فوق أقواس حجرية للغاية مع بوابة أخرى عند الطرق ، يوجد إنكشارية دائماً يحرسونها وحتى على القمة حيث يدخل المرء إلى القلعة يوجد مدخل محصن تحصيناً قوياً . قد تم بناء جميع الجدران من الحجر مع وجود أبراج سميكة من المواد ذاتها .

عند منتصف المسافة إلى أعلى التل توجد أربعة أبراج قوية وجيدة التجهيز تبعد عن بعضها البعض مسافات متساوية وتحيط بها للدفاع عن طريق الصعود إلى التل .

يتحدث جميع الناس في هذه المدينة تقريباً اللغة العربية ويرتدون ملابس تركية تتكون من عباءة واسعة تنسدل حتى القدمين وليس بها ياقة أو قلنسوة ، تشبه هذه العباءات معاطف رجال الدين ولكن التنورة ليست كاملة تماماً وهناك أكمام ، يرتدي آخرون كابات ذات قلنسوات وتنكات مفتوحة من الأمام مع أزرار وجدائل تنزل أيضاً حتى القدمين وعمائم على رؤوسهم .

أما الإنكشاريين فهم استثناء : فمن أجل التعرف عليهم يضعون

على رؤوسهم قطعة فضية مع عصابة على الجبين مثل حصان منقوش ومزين بالفيروز والياقوت طبقاً لما يستطيع كل واحد منهم شراءه ، تخاط عصابات الجبين هذه على غطاءات رأس من قماش أبيض ارتفاعه بمقدار راحتي اليد ويثنى عند الظهر ، وأما chauses ، وهم كالـ corregedores ، الذين يعينهم الإنكشارية أنفسهم فيعتمرون عمائم ذات غطاء شبيه بالشاه طهماس يخرج من وسطها يصل طوله إلى طول راحة اليد وهو سميك كالذراع ويكون من قطيفة مجزأة لعدة شرائط ، جميعهم ذوو بشرة شقراء ويتمتعون بدماثة الخلق .

النساء جميلات للغاية ولكنهن مخفيات ، أما الخادمات فهن عجائز ويرتدين ثوباً واسعاً يلتف حول أجسادهن وملابسهن التي تغطيهن تماماً حتى القدمين ، وهن يرتدين هذه الملابس كما نرتدي نحن المعاطف ، يضعن على رؤوسهن قطع أقمشة كبيرة فوق غطاءات الرؤوس وتغطى وجوههن بخمارات سوداء من نسيج رقيق يستطعن الرؤية من خلاله .

يرتدين نصف جورب وحذاء وسراويل أو بناطلين من الكتان ، وترتدي كثيرات منهن أحذية نصفية مصنوعة من جلد راق وألوانها كألوان أحذية الرجال ، لديهن القليل من الرقيق وهؤلاء من الأفارقة السود والأحباش .

تسمى إحدى بوابات المدينة على الجانب الشمالي "كارالوج كابي" ، "البوابة السوداء" ؛ نظراً إلى أنه من هذه البوابة إلى البوابة الثانية يوجد سرداب منخفض مغطى يجعل الوقت ليلاً في منتصف النهار .

هناك كنيسة صغيرة هنا بها قبر يبجله كثيراً النصارى والمسلمون

على حد سواء ، ويقولون أنه قبر القديس "جورج" . يقول آخرون أنه قبر مسلم يدعى نسيم وهو فارسي تحول إلى النصرانية بمعجزة من السر المقدس ، قد حدث هذا من خلال إحدى سجيناته كان زوجها قسيساً أرمينياً ، قد ذهب ليأخذ لها القربان المقدس سراً عندما كانت تحرس القلعة في الحقول وحملت له طعاماً إذ إن كليهما كان يعيش في بيت الفارسي ، بعد أن اعتنق النصرانية ذهب وقدم عظات في أماكن كثيرة ، وفعل الشيء ذاته في حلب التي استشهد فيها .

تقع مدينة حلب عند ست وثلاثين درجة ونصف ، وتهب فيها أنسام عليلة وقد انتهى الطاعون فيها ، كان الطاعون قد انتشر بشدة هنا ، وقد قيل لي أن ستين ألف شخص ماتوا في القاهرة في يوم واحد ، عندما لم أصدق هذا قالوا لي إن ذلك العدد لم يكن كبيراً ؛ لأن هناك ستين ألف شارع في المدينة ، وكان من الممكن أن يموت شخص واحد في اليوم في كل شارع ، ولكن المزيد سيولدون ، قيل إن المدينة مكتظة بالسكان إلى حد أن الأتراك لديهم مثل مفاده أنه إذا مات الجميع في القاهرة فإن العالم لن يتمكن من تزويدها بالبشر مرة أخرى .

بند : توجد على مسافة فرسخين خارج المدينة إلى الغرب "بئر الأسود"[أ] التي كان فيها النبي "دانيال" ، في اليوم الثاني بعد وصولي هنا ، ذهبت إلى القنصل وجعلته يأخذ من "فينيسي" كان مسافراً معي المجوهرات التي أخذها من رئيسة الدير لتوصليها إلى رئيس دير القدس ، قد استبقاني هذا الأمر في حلب لمدة خمسة وعشرين يوماً ،

(أ) بئر أسود النبي دانيال .

ولكنني تمكنت من الذهاب في اليوم التالي في قافلة كانت في طريقها إلى طرابلس .

قد وصلت في الوقت المناسب للصعود إلى سفينة "غليون" فرنسية كانت متجهة إلى مرسيليا ، قد سافرت على متنها في رحلة سريعة للغاية ، لم أجرؤ على الخروج في القسطنطينية ؛ خوفاً من التعرف عليّ وبسبب الخطابات التي كنت أحملها معي من الهند .

بند : بعد أن ودعت القنصل ذهبت إلى طرابلس في قافلة لتجار فينيسين ، حتى هذه النقطة كان معي دائماً عبد هندي ذو بشرة داكنة يقوم على خدمتي ، رجوته البقاء لاصطحبه معي .

كان جميع التجار ، الذين كانوا أصدقاء لي ويعرفونني ، قد فاتحوني وأشاروا إلى صعوبة النزول في طرابلس ؛ بسبب وجود الكثير من الأتراك على الشاطئ لتحصيل الرسوم وأن ذبابة لا تستطيع أن تنجو من أعينهم ، إذا عثروا على العبد سيجعلون منه تركياً وسيكلفني هذا الكثير للغاية ؛ لأنه مختون وهو أمر لم أعرفه عنه ، كان معي خطاب عتق كتبه مستشار القنصل وقمت بتسليمه لرفيقي الأرمني الذي كان عائداً إلى الهند وأعطيته سبعة كروزادوس كنفقات له حتى يعيده ، ويجب عليه ألا يبقى في الأراضي التركية .

غادرنا حلب في العشر من شهر فبراير عام ١٥٦٦م ، وتألفت القافلة من حوالي مائة حمولة من الحرير والبهارات والبضائع الأخرى والكثير من الناس .

بسبب أنباء مفادها أن هناك لصوصاً لم تكن القوافل الصغيرة تجرؤ

على السفر ، كان يسافر في هذه القافلة أربعة أو خمسة من السادة الفينيسيين ، سافرنا عبر سهول منبسطة زرعت بطريقة جيدة ، ونزلنا في خان جيد قرب مكان يسمى سيراجيب يسكنه مزارعون عرب ، صادفنا هنا مائة جمل محملة بالبارود والذخيرة في طريقها إلى طرابلس لأسطول التركي الذي تعرض لأضرار بالغة خلال حصار مالطا .

على مسافة فرسخ من هذا الخان إلى الشمال توجد مدينة كبيرة تسمة (سرمين) يقطنها أناس كالذين رأيناهم في الأماكن الأخرى ، من هنا يتم إرسال كميات كبيرة من المكسرات الناعمة المسماة الفستق - والتي تتوفر بكثرة هنا - إلى قبرص ومدينة البندقية .

غادرنا هذا المكان في الصباح الباكر يوم الإثنين عبر السهول ذاتها ومررنا بمكان يسمى (كفرداب) يسكنه مسلمون عرب ، بعد مسافة منه نزلنا في خان ضخم يسمى خان شيخون "الخان القديم" ؛ لأنه قديم للغاية .

في اليوم التالي مررنا بسهول مماثلة ، وفي منتصف النهار عبرنا جسراً طويلاً ومنخفضاً فوق النهر الذي يأتي من حماة ، بطول النهر يوجد مكان جميل يسكنه المسلمون يسمى (ضهاريا) ، وكان به أناس آخرون كثر ، كان هناك الكثير من السواقي التي يديرها النهر ، في العصر نزلنا في حماة .

بند : حماة مدينة واسعة وقديمة يحيط بها سور حجري رائع وقوي عليه أبراج أدخلت فيها كثير من الصخور السوداء بطريقة بناء جيدة ، كانت هناك أبراجٍ أخرى مشيدة بحجارة خشنة بدت جيدة ، ولكن كل شيء كان مهدماً وخرباً .

تقع المدينة إلى الشمال في منطقة خصبة بين سلستي جبال واحدة إلى الشرق وواحدة إلى الغرب ، وواحدة متموجة ولكن الأخرى ذات قمة مسطحة ، وتتناثر عليها عدة قرى وبلدات صغيرة لنصارى نسطوريين وموارنة ، يعيشون على الزراعة .

هناك قلة من الناس في المدينة مقارنة بحجمها ، وبما يبدو أنها كانت عليه في الماضي . هناك عرب ذوو بشرة داكنة ونسطوريين أرمن ويعاقبة وموارنة وإغريق ويهود من مواطني البلد ويتحدث هؤلاء جميعا اللغة العربية وهم أناس بيض ، لديهم سنجك عينه التركي هناك .

داخل المدينة يوجد تلان صغيران مأهولان بعدد جيد من الناس ، كنا قد سافرنا من حلب إلى هنا ونحن نتجه دائماً في اتجاه الجنوب ، ومررنا عبر أماكن أخرى كثيرة مهدمة .

من هذه المدينة يوجد طريق إلى الشرق والجنوب الشرقي عبر صحراء شاسعة – يتطلب اجتيازها عشرين أو خمسة وعشرين يوماً – ، وفي كل عام تسير قوافل كثيرة في هذا الطريق إلى البصرة ؛ إذ إنه الطريق المباشر أكثر من غيره وهو الأقصر والأكثر أماناً ، تحمل القوافل الزيت والبضائع الأخرى إذ إنه يوجد في هذه المنطقة عدد لا يحصى من أشجار الزيتون التي تنتج الزيت وزيتوناً أكبر من زيتون أشبيلية .

وتسير القوافل دائماً في ديسمبر وتعود في سبتمبر والمنطقة خصبة للغاية وبها حقول قمح شاسعة ، وهناك تربية الماشية على نطاق واسع وتربى أجود أنواع الجياد في هذه الأنحاء .

على مسافة يتم اجتيازها خلال ثلاثة أيام باتجاه الجنوب الشرقي

من هذه المدينة تقع مدينة دمشق الشهيرة عند ثلاث وثلاثين ونصف درجة ، على أن يتم اجتيازها خلال ستة أيام في الاتجاه ذاته توجد القدس ، عبر أرض منبسطة خلال مدينة دمشق يسافر الحجاج من حلب إلى القدس ، هي عاصمة واسعة ومكتظة بالسكان في تلك المنطقة وبها الكثير من السياجات ومبان قديمة رائعة .

هناك بساتين مزروعة داخل المدينة وعدة أنهار وأيكات أشجار وأشجار شوكية ، وهي خصبة للغاية ، تقع على مسيرة يومين من البحر المتوسط ، الذي يقع إلى الغرب منها ، بين المدينة والبحر توجد أرض مسطحة بها عدد لا يحصى من القرى ، الغالبية العظمى من المنازل في المدينة - وهي منازل طويلة للغاية ومشيدة من الخشب - مطلية على نحو رائع من الداخل . يوجد هنا باشا دائماً ومعه حامية من الفرسان .

في المدينة قلعة جيدة تعود إلى أيام سلطان القاهرة الذي تخصه ، تبدأ الأرض المقدسة من هذه المدينة ، هناك تجارة واسعة وسط الثمانية آلاف ساكن ، من المسلمين والنصارى ، الذين يتحدثون العربية وبعض اليهود من أهل البلاد والتجار من البندقية الذين يقيمون هنا .

تحيط بها سلسلة جبال ، فإلى الغرب ، وعلى مسافة قريبة هناك جبل يسمى جبل القديسيين ، وهناك آخر قريب منه يسمى جبل شيا "الجبل الأبيض" وهو منبع أربعة أنهار ، يجري النهر الأول من الشمال إلى الجنوب ويصب في نهر الأردن الذي يقع عند اثنتين وثلاثين ونصف درجة ، يشكل نهر الأردن ثلاث بحيرات تبعد كل واحدة مسيرة يوم عن التالية بطول النهر .

يصل عرض النهر إلى عرض قطيع من الدواب ولكنه أضيق من ذلك في أماكن أخرى ، في مياه هذا النهر وفي منتصف المسافة بين البحيرة الأولى والثانية تم التعميد المقدس ليسوع ، مخلصنا ، توجد هنا كنيسة ، لم يبق منها الآن سوى الأطلال ، وهي مكان عظيم للحج ، وتم تشييدها على موقع منزل ، قيل إن الرب انعزل فيه بعد التعميد .

يقول الآخرون أن نهر الأردن يصعد على جبل يسمى "بيت الشمس" "عين الشمس" في مقاطعة الناصرة ، على مسيرة نصف يوم بعد البحيرة الأولى ، وأن النهر يجري منطلقاً دون أن يمتزج بمياه هذه البحيرات .

على مسافة ثلاثة فراسخ إلى الغرب من مكان تعميد السيد المسيح توجد مدينة القدس المقدسة عند اثنتين وثلاثين درجة .

ينتهي النهر أخيراً في بحيرة أوسع كثيراً من أي بحيرة أخرى ولا يوجد لها تدفق ولذلك يسميها البعض البحر الميت ، قد قيل لي أيضاً أن في البحيرة الثانية من هذه البحيرات كان القديس بطرس يصطاد السمك عندما استدعاه الرب .

قرب هذه البحيرة يوجد مكان به حوالي خمسين مواطناً عربياً ، وهم أشخاص بيض (حيث يقال إن مدينة أريحا كانت توجد في الماضي ، وهناك الكثير من آثار مبان حجرية قديمة هنا) ، يدفع الحجاج المتجهون إلى القدس جزية هنا ، في هذه النقطة يوجد جسر حجري عبر النهر ، وتوجد بمقربة منه بئر ، وهو مكان عظيم للحجاج ، حيث يقال إن إخوة يوسف رموه فيها ، يوجد في البئر ماء كثير اعتاد الحجاج الشرب منه

والاغتسال به ، يسميها المسلمون ماء يعقوب ، هذه المنطقة كلها صحراء ويوجد خان واحد يستطيع الحجاج أن يأووا إليه .

يقع الخان عند سفح جبل يسمى صفد ، وكانت تسمى الجليل في السابق ، تقع عند اثنتين وثلاثين درجة على قمة جبل ، على المنحدر لأسفل باتجاه الوادي ، يقطن هناك حوالي ألف من العرب واليهود وكثير من البرتغاليين ، هم جميعاً فقراء للغاية إذ لا توجد تجارة في هذه المنطقة .

بند : يتدفق نهر آخر من الأنهار الأربعة ويرتفع في هذه الجبال خلال وسط مدينة دمشق ويأتي إلى نهاية ويختفي بعد مسيرة يوم في بحيرة في اتجاه الشرق .

بند : يجري النهر الثالث إلى الغرب من مدينة بعلبك التي تقع عند سفح جبل وتبعد مسيرة ثلاثة أيام من دمشق ، يقطنها العرب والتركمان ، ويندفع من هناك إلى البحر المتوسط .

في هذا الاتجاه تتميز دمشق بخصوبة بالغة .

أما النهر الرابع ، ويسمى العاصي (ولم أتمكن من العثور على أسماء الأنهار الأخرى) فيجري حوالي نصف فرسخ من مدينة حمص ، ومن هناك إلى حماة التي يعبرها من الوسط وتستفيد المدينة برمتها منه ، وهو يدفع عدة طواحين ، يجري من هناك إلى مدينة انطاكيا القديمة إلى الشمال عند خمس وثلاثين وثلث الدرجة ، ويسميها الأتراك "أنتيوشيا" .

يدخل النهر هنا إلى البحر على الرغم من أن آخرين بدا عليهم أن

يقولوا لي الحقيقة عندما قالوا إن هذا ليس نهر انطاكيا ؛ إذ إن هناك نهراً آخر من أنطاكيا بطول ساحل البحر .

بعد مسيرة ثلاثة أيام باتجاه الشرق تقع مدينة أضنة التي يسكنها الأرمن والأتراك ، وبعد مسيرة يومين من هناك توجد مدينة أخرى تسمى "ميسيس" "Meses" حيث كان يوجد بلاط ملوك أرمينيا السفلى ، يجري خلالها نهر يصب في البحر عند أضنة .

على ساحل هذا البحر باتجاه طرابلس توجد مدينة (راماقة) ، بعد مسافة فرسخين عبر الريف وإلى الجنوب من طرابلس يوجد ميناء في يهوديا يسمى يافا حيث ينزل الحجاج الذين يتجهون إلى القدس ، يقع الميناء عند اثنتين وثلاثين ونصف درجة ، وتفصله عن القدس مسيرة يوم .

بند : بالعودة إلى موضوع رحلتنا ، فقد غادرنا حماة في الثالث عشر من الشهر ذاته وسافرنا عبر مكانين كبيرين في تلك السهول يقطنهما نصارى ويسميان (بركون) و(أفيون) ، نزلنا في مكان صغير يسكنه العرب ويسمى (تيلديبي) "جبل الذهب" موجود جبل قريب ويحمل هذا الاسم لخصوبته ومزارعه وتربية المواشي عليه .

بالنسبة للمسلمين ، الذين يعيشون في سلسلة الجبال هذه وفي سلسلة جبلية أخرى مجاورة تسمى (كوروكو) تمتد حتى تقترب من انطاكيا ، فإنهم لا يلتزمون بأي من المذاهب الخمسة التي يتبعها جميع المسلمين ويعيشون كوثنيين ، فهم يتناولون لحم الخنزير ، وهم أخطر اللصوص في العالم .

في اليوم التالي صعدنا الجبل وكانت هناك ريح قوية وأمطار غزيرة

إلى حد أن أولئك الذين كانوا على ظهور الخيل بيننا سبقوا القافلة ، نزلنا في بلدة تسمى (الكوب) تقع على قمة جبل آخر قرب قلعة رائعة تسمى (لوسين) شيدها الفرنسيون عندما حكموا سوريا ، ظلت القافلة على الطريق غير قادرة على الوصول إلى هناك على الرغم من الجهد الكثير الذي بذلناه .

أما أولئك الذين سبقوا القافلة فقد اتفقوا مع عشرة من رماة السهام لمساعدتنا على الدفاع عن أنفسنا ؛ لأنه لا تزال هنا أخطار آنذاك ، غادرنا هذا المكان ونزلنا في خان قرب مكان يسمى "بحر الملح" ؛ لأنه يبعد عن البحر مسيرة نصف يوم ، في اليوم التالي السادس عشر من شهر فبراير وبالسفر على طرق مستوية بها كثير من أيك اشجار البلوط ، وصلنا عند منتصف النهار إلى طرابلس سوريا .

بند : إن طرابلس[أ] سوريا مدينة مشهورة في أنحاء منطقة البحر المتوسط ، تقع إلى الجنوب (من الطريق) عند خمس وثلاثين درجة ، يقوم ثلث المدينة على أرض منبسطة ، تتألف من منازل جميلة للغاية مشيدة كلها من الحجر والصخر ، وبها قلعة حصينة للغاية على تل ويحيط بها سور حجري رائع إلى حد بعيد ، تبعد مسيرة نصف يوم من جبل لبنان وهو جبل شاهق وطويل للغاية .

يقيم في طرابلس حوالي ثلاثة آلاف نسمة من العرب والنصارى من الأعراق كافة وبعض اليهود من أهالي البلاد ، ويتحدث جميع السكان

(أ) طرابلس : عرفت سابقاً باسم "راتمت" .

العربية ، هناك بعض الأسبان وقليل من الأتراك ، يوجد سنجك في المدينة ، وهي تبعد مسافة تقل عن فرسخ عن البحر .

أما في الميناء الذي ينزل فيه المسافر فتوجد دار جمارك كبيرة يتم تنزيل كل البضائع والأمتعة التي تصل من الخارج فيها ، ويتم سداد الرسوم عنها لأتراك يعينهم التركي وهم موجودون هناك لتحصيل الرسوم ومراقبة البضائع ، توجد حول المدينة خمسة ابراج قوية للغاية تم تشييد نصفها في البحر وتوجد فيها مدافع كثيرة وعدد كبير من الرجال للدفاع عن الميناء .

تتوفر في المدينة كميات كبيرة من الفواكه والمؤن والمواشي ، تتوفر كميات هائلة من زيت الزيتون الذي يتم إرساله من هنا إلى أماكن كثيرة كقبرص ومدينة البندقية وغيرها ، توجد في المدينة أنواع كثيرة من السمك ولا سيما البوري الأحمر .

اكتشفت هنا أن السفينة الغليون الفرنسية غادرت الميناء إلى مرسيليا ، الذي تسبب في عدم لحاقي بها هو التأخير الذي حدث في حلب ؛ بسبب مقتنيات رئيسة الدير ، قد كانت تلك المقتنيات سبباً في كثير من التأخير خلال رحلتي .

كانت هناك سفن محملة للتوجه إلى قبرص ، وسمعت أن هناك سفينة قرقور فينيسية يجري تحميلها في قبرص .

بما أن إحدى السفن كانت ستغادر في اليوم التالي ، فقد رغبت في الإبحار على متنها دون أن أنتظر المقتنيات التي كانت ستصل لي مع القافلة ، تركت ملابسي في عهدة وكيل للفينيسيين هناك ، كانت

البضاعة ترسل إليه من حلب ، وكان يستلم البضاعة التي تصل من مدينة البندقية ، أبلغته بأن يرسل لي مقتنياتي على أول سفينة إلى ميناء سالينز في قبرص ، الذي يتم تحميل السفن القرقور فيه ، إلى منزل وكيل الفينيسيين الذي سأنزل فيه ، كنت أحمل خطاب توصية لي من تاجر في حلب تركت لديه تعليمات بأن يرسلها لي في مدينة البندقية إذا كنت قد غادرت بالفعل .

بالنسبة لي كان الأمر الأكثر أهمية هو هذا الكتاب الذي كنت أكتبه عن الرحلة حتى أسجل كل شيء ، ومن أجل أن أحمله سراً ، وضعته بين ملابسي .

*

ما حدث لـي من طرابلس حتى قبرص ومدينة البندقية

بند : غادرت طرابلس في السفينة المشار إليها أعلاه إلى جزيرة قبرص والتي تبعد مسافة مائة وعشرين ميلاً ، أربعين فرسخاً على أساس ثلاثة أميال للفرسخ الواحد ، وهي طريقة الحساب لدى الجميع .

بسبب تراجع قوة الرياح في اليوم التالي ، لم يكن بمقدورنا النزول في ميناء سالينز وتوجهنا إلى "فاماغوستا" "Famagusta" ، وهي مدينة هامة للغاية على الجزيرة على الجانب الشرقي وتبعد مسافة خمسين ميلاً بالبحر من "سالينز" "Salins" وخمسة وعشرين ميلاً بالبر ، الجزيرة برمتها ملك للفينيسيين ، وتسمى شيبريس بالإغريقية وتعني الزهرة ، المدينة الرئيسية في الجزيرة هي "نيقوسيا" على الجانب الشمالي مقابل كارامانيا .

بند : تقع مدينة "فاماغوستا" على الجانب الشرقي عند خمس وثلاثين وثلثي الدرجة في أرض منبسطة ، وتتألف من منازل جيدة للغاية مشيدة من الحجر والجير ، ويحيط بها سور قوي ، هناك خنادق وبساتين وحصن ، وهو ليس عالياً للغاية إذ إن منازل المدينة مشيدة بطريقة منخفضة ، لا توجد به شرفات مفرجة ولكنه عريض ومغطى بالجص من أعلى وبه فتحات يمكن إطلاق نيران المدافع من خلالها .

يوجد قائد دائماً في هذه المدينة يسمى "بوتستاد" "Potstad" وتعينه هنا سلطة الإقطاعية ، ويتم استبداله كل ثلاثة أعوام ومعه حوالي ألف جندي يتم الدفع لهم علاوة على الرجال المحليين ، توجد منهم أعداد كبيرة .

هؤلاء الجنود مسلحون جيداً من قبل مدينة البندقية بدروع الصدور وتنورات تدريع وخوذات والرماح وبنادق المسكيت ، وعلاوة على ذلك يوجد مخزن مزود على نحو جيد بالأسلحة والمدفعية .

في الصيف توجد ثلاث سفن قادس تقوم بأعمال الدورية وتحمي الجزيرة من القراصنة ؛ لأن الأساطيل الملكية لا يسرقونهم علانية بما أنهم ينعمون بسلام دائم مع التركي .

يتم حشد جنود الحامية حاملين للسلاح كل أربعة أيام ويقومون بمناورات حول الميدان ومنزل القائد ، فور الانتهاء من هذه المناورات يتفرق ربع الجنود ويذهبون لحراسة الجدران وبوابة المدينة ، وهؤلاء الحراس أقوياء للغاية ، يتميز الواحد منهم بقوة هائلة ، في مواجهة البحر الذي يضرب بقوة على الجدار ، وتوجد هناك قلعة قوية وضخمة في الماء

وبها مدافع ثقيلة للدفاع عن الميناء وحمايته ؛ حيث إن سفن القرقور والسفن وسفن القادس تدخل الميناء .

للمدينة ثلاث بوابات على الجانب المواجه للبر مع جسور حديدية متحركة عبر الخندق ، على الجانب المواجه للبحر توجد بوابتان ، لا يقيم هؤلاء الجنود هنا دائماً طوال مدة القائد ، ولكنه يتم إحضار مائتين أو ثلاثمائة ويعاد عدد مماثل إلى مدينة البندقية بحيث لا يبقى أي جندي لسنة كاملة ، يتم هذا حتى لا تصبح للجنود جذور وحتى تتكون لهم صداقات في البلاد .

هناك حوالي ألفي مواطن في الجزيرة ، وكلهم نصارى إغريق ، يقطنون الجزيرة برمتها ، وهناك قلة من اليهود ، تتحدث الغالبية الإيطالية وتفهمها ؛ بسبب التجارة الواسعة التي يباشرونها مع الإيطاليين .

هناك تجارة واسعة أيضاً مع الأتراك والأرمن والعرب والجنسيات الأخرى .

على الجانب الشمالي يوجد ساحل كارامانيا على مسافة أربعين فرسخاً .

بند : يصل محيط الجزيرة إلى خمسمائة وخمسين ميلاً ، في الجزيرة بلدات كثيرة وقرى والقرى الصغيرة واثنتان أو ثلاث مدن – موانئ يقطنها كلها نصارى إغريق وبعض الفينيسيين ، هم أشخاص ذوو بشرة شقراء ويتسمون بالوسامة وهم شجعان وذوو جرأة ، هم يرتدون الجركينات والرداءات الخارجية والقبعات ، مثلنا تماماً ، والأحذية ذات العنق الطويل .

أما النساء فهن عموماً ذوات بشرة داكنة إذ إن البلاد حارة للغاية ، وهن يرتدين تنورات كتانية بيضاء صغيرة مع ثنيات كثيرة فوق تنورات

أخرى مصنوعة من القطن وصداريات مخيطة عليها ، في هذه الملابس فتحة في الجزء الأمامي يماثل عرضها الكف حيث لا يلتقي طرف بالآخر ، يلبسن أيضاً بناطلين نصفية من قماش جيد وشباشب جلدية ذات نعال خشبية ، ويضعن على رؤوسهن قبعات صغيرة تغطي أعلى الرأس فقط ، ويجمعن شعرهن داخلها مع أشرطة في الجزء العلوي ، قمصانهن لا ياقات لها وتكشف صدورهن .

النسوة من الطبقة الراقية ذوات بشرة شقراء وجميلات ولا يبقين في المنازل كالنسوة التركيات بل يذهبن إلى البساتين والحدائق بغرض التسلية ويزرن بعضهن البعض داخل مركبات على الطريقة الإيطالية ، لا تغطي هؤلاء النساء وجوههن بخمار أو شال .

بند : هناك نوع آخر من انتشار الجنود في أنحاء الجزيرة وهؤلاء هم الفرسان . (تنتشر تربية الخيول بكثرة وهي كالـ tuantos) وتسمى stradiotas ، ولا شك أن عدد أولئك الفرسان يصل إلى حوالي ثلاثة آلاف ، هم جميعا ألبان وعلى استعداد دائماً ، ويمتطون ظهور الخيل دون سروج وهم فرسان بارعون ويحملون رماحاً سميكة ذات سنان حديدية كالقناة ولديهم دروع خشبية مصممة بطريقتهم الخاصة .

يضعون على رؤوسهم قبعات من اللباد ذات قمة عالية ذات حافة ضيقة مثل قدور الكسكس ، رؤوسهم حليقة من الأمام ولكنهم يتركون شعورهم تنسدل طويلة من منتصف الرأس إلى الوراء ، بالنسبة للبقية فهم يلبسون ملابس شبيهة بملابس الناس الآخرين ، لا يتغير هؤلاء الرجال ؛ لأنهم كالمواطنين أو مثل "كاسادوس" casados الجزيرة .

بإضافة الجنود المشاة ، أولئك الذين يأتون من مدينة البندقية والمواطنون ، يجب أن يكون هناك عشرة آلاف رجل على الجزيرة تدفع لهم سلطة الإقطاعية أجوراً .

علاوة على هؤلاء يجب أن يكون على الجزيرة أكثر من مائة ألف شخص قادر على حمل السلاح ، هم جميعاً إغريق يتحدثون لغة إغريقية شعبية تختلف عن الصيغة المدرسية ، هم لا يطيعون البابا .

كانت شعائر القداس الديني طويلة للغاية ، كانت للرهبان والكهنة لحى طويلة وشعر مسحوب إلى الوراء ، الرهبان الذين لا يتزوجون يعيشون في منازل قرب الكنائس (يعيش آخرون في أديرة وهي موجودة أيضاً) ولا يتناولون اللحم طوال السنة .

أما القساوسة ، فإنهم يتزوجون ، ولكن قبل أن يصبحوا قساوسة ؛ لأنه لا يحق لهم الزواج في ما بعد ، كما لا يحق لهم الزواج مرة ثانية إذا توفيت زوجاتهم ، لديهم أساقفهم وكبار الأساقفة ولديهم أربع فترات صوم هي من عيد العنصره إلى يوم القديس "أندرو" "Andrew" - ويسمونه صوم الحواريين الكبير - والثانية من أول أغسطس لمدة تسعة عشر يوماً ليوم السيدة العذراء - ويسمونه صوم السيدة العذراء الكبير - والفترة الثالثة من الخامس عشر من شهر نوفمبر حتى عيد الميلاد ويسمونه صوم المجيء .

والفترة الرابعة هي صوم السيدة العذراء (؟) ، بما أن سلطة الإقطاعة لم تخضعهم وإنما حصلت عليهم عن طريق الإرث والتنازل ، فلا يمكن إثناؤهم عن ارتكاب هذه الأخطاء (في المذهب) ، وهم أعداء للنصارى الآخرين .

بند : توجد في هذه الجزيرة فئات متنوعة من الناس : ويسمى البعض منهم "باريكوس" ، وهم كالعبيد الأسرى ، ويخدمون الأحرار الآخرين ، أو "الماتوس" ، والذين – وعلى الرغم من أنهم ليسوا عبيداً – عليهم واجبات بعينها ويتعرضون لقهر عظيم ، هناك آخرون فينيسيون وهم أحرار تماماً ، وفي وقت القديسة "هيلينا" – إمبراطورة القسطنطينية – وعبر أحداث عديدة كانت هذه المدينة غير مأهولة تقريباً .

وجاءت إلى جبل يسمى جبل الصليب ؛ بسبب قطعة من صليب تركته هناك وتوجد الآن في دير كبير على ذلك الجبل ويحظى بتبجيل عميق ، يوجد هذا الجبل بين بلدتي "لاماكا" و"ليماسول" ، قد تركت بعض الناس في الجزيرة للعيش فيها ، لكن ، ونظراً لقلة عددهم وتعرضهم في كثير من الأحيان لهجمات القراصن . ،

فقد أبرموا اتفاقاً مفاده أن أي شخص يرغب في الحضور للعيش على الجزيرة يحصل على أرض شريطة أن يخدم ويساعد السكان الأصليين في أراضيهم خلال ثلاثة أيام في العام ، قد توجه كثير من الألبان والإغريق – وهم أناس فقراء – إلى الجزيرة وتكاثروا هناك ، لكنهم بقوا جميعاً في حالة الخضوع المشار إليها للسكان الأصليين وأحفادهم . ، قد استمر هذا حتى الوقت الحاضر .

لا يعطي سادة القرية أي شيء لكثير من هؤلاء "الباريكوس" نظير عملهم ويعطون القليل الآخرين ، هم يستخدمونهم ويستخدمون أولادهم ويبيعونهم للسادة الآخرين بموافقتهم ؛ لأنهم لا يملكون بديلاً آخر .

هناك الكثيرون الذين يحررونهم ؛ لأنهم يخدمون بشكل جيد لمدة أربع أو خمس سنوات ولا يكلفون إلا القليل ؛ إذ إن الأفضل بينهم لا يكلف أكثر من عشرين "كروزادوس" ، ومن هؤلاء يوجد البعض الذي يخدم خلال الخمسين يوماً فقط ويدفع جزية محددة للآخرين وفقاً للاتفاق الذي أبرموه .

بند : جاء الماتوس الأحرار للبقاء بعد هؤلاء شريطة ألا يكونوا عبيداً ولكنهم أجبروا فقط على قطع الحطب لقلاع فاماغوستا وسالينز ، وهي قلعة أخرى قوية للغاية تقوم في البحر وتبعد مسافة خمسة فراسخ عن نيقوسيا ، وللعمل هناك خلال أربعة أيام في العام لسداد كلفة طعامهم خمس بيزنطات للواحد في كل سنة ، وكل بيزنطة تساوي نصف توستاو ، وبيزنطة إضافية للملح الذي يستخدمونه من الملاحات قرب ميناء سالينز ، ومن هنا حصلت هذه المدينة على اسمها .

في كل سنة يوضع الملح في أكوام قرب البحر ليكون جاهزاً للتحميل على سفن القرقور ، منذ ذلك الوقت لم يكن الفينيسيون البيض يتحملون واجبات ولكن فقرهم يجعلهم يعملون أكثر من العبيد .

بند : تتوفر في الجزيرة المؤن والمواشي والدواجن والنبيذ والزيوت ، وتشتهر بدرجة أكبر بالكميات الكبيرة المتوفرة فيها من الكتان الجيد الذي تصنع منه البياضات القبرصية وهناك كمية كبيرة من الحبوب ، ويوجد القطن أيضاً الذي يتم إرسال حمولات كبيرة منه إلى مدينة البندقية في كل سنة ، يوجد الكثير من السكر وحبوب الخروب والكثير من الخنازير التي تنتج أفضل الأنواع التي رأيتها من لحم الخنزير ، ويوجد التين الهندي

والسونوريس (sonoris) والكاديلييس (cadilis) والكثير من الفواكه ولا سيما الكمثرى المليئة بالشوك .

بند : توجد في مدينة "فاماغوستا" هذه ثلاث أو أربع كنائس ضخمة للغاية ، في مدخل الكاتدرائية القائمة في الميدان يوجد كثير من الصور المنقوشة بطريقة جميلة ، ويوجد بالداخل قبر رخامي رائع منحوت وطويل وبه صورة ملك قيل لي أنه الملك يعقوب ، آخر ملوك الجزيرة وشقيق دوق سافوي .

على الرغم من أن سلطة الإقطاعة في سلام مع التركي منذ أن أعطته نابولي "رومانا" و"مالفاسيا" "Malvacia" ، وهما مدينتان في موريا ، لا تزال تعاني من آلاف المشاكل التي ألحقتها الأساطيل التركية بسفن القرقور الفينيسية في انتهاك للمعاهدة والاتفاقية ، وكثير من أعمال الطغيان والإساءات ضد تجار حلب والقسطنطينية والاسكندرية ... الخ .

مدينة "فاماغوستا" غير صحية إلى حد بعيد ، ولا سيما في الصيف ؛ لأنها تقع في واد صغير وهي سبخة للغاية ولا تكاد تهب فيها أي نسمات ، على مسافة فرسخين يوجد موقع سلاميز (salamis) القديم - ويسمى حاليا "فاماغوستا" القديمة - الذي بقيت منه أساسات الجدران والقلاع فقط .

على مسافة حوالي نصف فرسخ من هناك توجد القرية والمنزل اللذين يقول عنهما الأهالي أن القديسة المباركة كاثرين أمضت فيهما سبعة أعوام كسجينة بعد إعادة أسرها في الإسكندرية ، هم يبجلونها كثيراً ويوقرون أيضاً القديس برنابا الحواري ؛ لأنه كان قبرصياً يونانياً .

في يوم الإثنين غادرت ومعي ثلاثة من الرفاق هذا المكان وذهبنا براً إلى بلدة تسمى "لارنكا" التي تقع في الداخل على مسافة حوالي نصف فرسخ من ميناء "سالينز" ، وتقع على الجانب الغربي ، ويصل عدد سكانها إلى حوالي ثلاثمائة مواطن ، وتتألف من منازل جيدة وهناك بعض الفينيسيين وحوالي مائتين أو ثلاثمائة "ستراديوتا" (stradiotas) مع قائدهم ، هناك أيضاً قائد فينيسي يحكم البلدة ويخضع لمجلس نيقوسيا .

كانت في الماضي مدينة عظيمة – كما يتضح من الأطلال – وتم العثور على قطع عملات معدنية عليها رأس هيلينا والإمبراطور قسطنطين ، يبجلها الناس ويضعونها حول أعناقهم ، ويقولون إنها تحمي من كثير من الأمراض .

على مسافة سفر لمدة يوم إلى الغرب من "لارنكا" تقع مدينة نيقوسيا .

بند : نيقوسيا هي عاصمة الجزيرة وتقع على مسافة خمسة فراسخ إلى الداخل ، توجد بها مبان رائعة ، وهي ليست مسورة أو محصنة كبلدة فاماغوستا ، ولكن يقيم فيها كثير من الإغريق والفينيسيين ، الذين ولدوا هنا ، بالإضافة إلى آخرين لا يغادرونها .

يعيش هنا أغنى أهل الجزيرة وأكثرهم تمتعا بالاحترام والنبلاء السادة القبارصة .

هناك قائم مقام هنا نيابة عن سلطة الإقطاعة كنائب ملك وثلاثة موجهين يعرفون بالمستشارين ويتصرفون كحكام ، ويحكم الموجه بناء على مشورتهم ، وهناك مشرف ورئيس أساقفة يخضع للبابا وثلاثة أساقفة آخرون تعينهم سلطة الإقطاعة ، وتحديداً في

"فاماغوستا" و"ليماسول" و"بافوس" بالإضافة لكثيرين آخرين ينظر إليهم الأهالي كإغريق .

بند : بقيت في البلدة المذكورة أعلاه حتى ٢٧ فبراير ، ولكن مقتنياتي لم تصلني من طرابلس ، السبب وراء هذا هو عدم وجود وقت لتجهيز سفينة قرقور فينيسية لنقلها .

في خاتمة المطاف صعدت إلى سفينة القرقور هذه تاركاً الفينيسي المذكور آنفاً ليتولى إرسالها لي في حال وصولها ، وفي حال كانت السفينة القرقـور فـي واحد من موانئ الجزيرة التي تبقى فيها دائماً لبعض الوقت ، في حال وصولها لاحقاً ، أن يسلمها إلى صديق لي فينيسي سيتوجه إلى فينيسيا ، لكي يحضرها لي .

غادرنا ورست بنا السفينة في "ليماسول" ، وهي بلدة تقع في شمال الجزيرة ويقطنها ثلاثمائة مواطن من الإغريق والفينسيين وفيها مبان حالتها سيئة ؛ لأن البلدة دمرها القراصنة مؤخراً ، تحمل سفن القرقور هذه من هنا كميات كبيرة من القطن والسكر وحبوب الخروب والنبيذ الأبيض والأحمر وخمر المسكات وبراندي جيد للغاية يسمى سيميسو وتعني باليونانية "وسط" .

ذلك لأن البلدة تقع بين لسانين من الأرض يمتدان داخل البحر لمسافة بعيدة ، هي مقر أسقف وفيها الكثير من أشجار النخيل وأشجار التين الهندي ، ظللنا هنا حتى العشرين من شهر مارس حيث كنا نقوم بالتحميل وانتظار طقس مؤات .

غادرنا هذه البلدة عندما تغير الطقس وتوقفنا في ميناء "سالينز" ، بعد ثلاثة ايام وصل مركب شراعي صغير من طرابلس حاملاً مقتنياتي ،

غادرت هذا الميناء في الخامس من شهر إبريل وأعطيت لربان السفينة القرقور ستة "اسكودو" إضافية لأتناول الطعام على مائدته .

قد تسبب سوء الطقس في أن نبقى محتجزين لعدة أيام دون أن نتمكن من التوقف في بافوس ، وهي بلدة تقع على طرف الجزيرة حيث ترسو سفن القرقور هذه - كما ترسو في "ليماسول" - لتحميل البضائع المذكورة آنفاً ، تبعد مسافة خمسة عشر فرسخاً من "ليماسول" إلى الغرب .

عندما كنا على مسافة أربعة فراسخ من بافوس ، وكان الطقس سيئاً إلى حد لم يسمح لنا بالرسو هناك ، شاهدنا عشرين سفينة قادس تركية كانت في طريقها إلى طرابلس لتحميل بارود وذخائر للأسطول .

بما أنها كانت بعيدة في عرض البحر وكان اليوم مظلماً للغاية فقد مرت دون أن يشاهدوننا ، ذهبت السفن إلى "ليماسول" حيث اصطحبوا النجار وسائق الجندول من سفينتي القرقور اللتين وجدوهما هناك عندما كان الرجال الآخرون على الشاطئ ، قد أعطوهما ثمانين "كروزادوس" فقط كهدية ، وقد جرت العادة أن يقدموا هدايا لسفن القرقور الفينيسية وسفن القادس والقادة الأتراك الذين يصادفونهم .

كان في سفينتنا القرقور أولئك الذين اعتقدوا أن جميع الرجال المشتبه بهم يجب إنزالهم على الشاطئ ، وعددهم كبير ، ويعني هذا جميع الأشخاص غير الفينيسيين ؛ لأن هؤلاء الأشخاص يفتشون سفن القرقور ويستولون عليها ، واعتقد آخرون أنه يتعين علينا الهرب إلى البحر ونشر قلوعنا وهو ما فعلناه ، بعد أن اجتزنا مسافة عدنا مجدداً إلى المكان ذاته ؛ لأننا شاهدنا سفن القادس تتقدم في اتجاه طرابلس .

في اليوم التالي وصلنا إلى ميناء "بافوس" ، وتقع المدينة مسافة نصف فرسخ داخل البر وتقع إلى الشرق عند خمس وثلاثين ونصف درجة ، كان بها أربعمائة مواطن مثل البلدات الأخرى ، ولكن مبانيها كانت أفضل من مباني "ليماسول" ، هي مقر أسقف ، كانت مدينة مكتظة بالسكان في وقت من الأوقات ، توجد بها كنيسة كانت في الماضي ديراً للرهبان ، وبالقرب منها توجد بعض الكهوف ، ويقال إنها كانت سجناً قضى فيه القديس بولص والقديس برنابا بعض الوقت .

على مسافة قصيرة من المدينة يوجد المزيد من الكهوف القديمة للغاية حيث قيل إن سبعة أشخاص ناموا لمدة سبعمائة عام ويؤكد الجميع عموماً هذا الأمر ، وكأنهم شاهدوا ما حدث بأنفسهم .

في الجوار في جبل ضخم يحفرون ويجدون الألماس بزوايا واضحة وألوان كاملة إلى حد أنها عندما يتم شحذها يصعب التعرف عليها ، ولا يوجد فرق سوى أنها أقل صلابة ، لهذا السبب فرضت سلطة فينيسيا عقوبة تتمثل في أن تبتر الذراع اليمنى وتفقأ عين أي صائغ يشحذها ، بافوس غير صحية إلى حد بعيد وبالتالي يعيش الأسقف والقائد الفينيسيان في مكان صحي صغير للغاية قريب من هنا يسمى كتيما .

في هذا الميناء قمنا بتحميل المزيد من القطن والسكر ، وفي الثامن والعشرين من شهر إبريل أبحرنا مع ارتفاع الشمس في السماء ، واتجهنا نحو شرق الشمال الشرقي .

في يوم الإثنين التاسع والعشرين إبريل ، وعلى مسافة ثلاثين ميلاً قبالة الجزيرة ، شاهدنا سفن القادس التركية عائدة من طرابلس .

بما أن سفينتنا توقفت لقلة الريح ولا نستطيع أن نفعل شيئاً ، فقد أنزلنا الشراع رداً على طلقة أطلقوها ، وسارع جميع أولئك الذين لم يكونوا من سلطة فينيسيا ، أي كثير من الجنود العائدين من قبرص والألمان والنابليونيين والصقليين إلى إخفاء أنفسهم ؛ إذ إن الأتراك يضمرون كراهية شديدة للملك "فيليب" ويبحثون في سفن القرقور هذه عن أشخاص من بلاده .

كان هناك مخبأ جيداً لحوالي اثني عشر شخصاً في السفينة القرقور ، كنا خائفين للغاية ؛ لأن الأتراك فتشوا السفينة تفتيشاً دقيقاً ، هم يبحثون أيضاً عن شبان ، وحتى إن كانوا قبارصة أو فينيسيين وبدوا جذابين بالنسبة إليهم ، فإنهم يصطحبونهم ليمارسوا معهم أكثر الخطايا البغيضة .

كانوا يصطحبون في بعض الأحيان أبناء السادة الفينسيين ، قد اصطحبوا ربان السفينة وكاتبها العمومي معهم من القبطان ، وأخذوا إلى سفن القادس كهدايا لأربعة قباطنة ثلاثين "كروزادوسا" لكل واحد منهم وعشرين "كروزادوسا" أخرى ليتقاسمها الربابنة وعرفاء الملاحين ، أخذوا معهم برميلي نبيذ وبرميل خل وبرميل بارود ، وقد طلبوا الحصول عليه ، أخذوا الكثير من الدجاج من أقنان الدجاج وبعض الخراف ، عادوا وهم يرددون كلمات طيبة ، ويبدون مجاملة ، واصطحبوا فتى يافعاً كان يرغب في الذهاب معهم من تلقاء نفسه .

أبحرنا بعد ذلك وبمساعدة ريح جنوبية غربية . وصلنا إلى ساحل كارامانية عند قلعة التركي المسماة ريزو وتبعد مسافة مائتين وثلاثين

ميلاً من قبرص ، وفي اليوم التالي شاهدنا رودوس على مسافة ثمانين ميلاً من هذه القلعة .

في يوم السبت التالي ، وبوجود ريح خفيفة ، وصلنا قبالة أول لسان أرض داخل البحر في كريت ، والتي ذهبنا إليها مراراً حتى الخامس عشر من شهر مايو عندما أرسلنا جندولاً إلى الشاطئ ليجلب ماء .

ذهبنا إلى الشاطئ للراحة في قرية قرب الشاطئ حيث بقينا في حديقة جميلة كحدائقنا ، الجزيرة برمتها تنعم بالمؤن والمواشي والدواجن وتشتهر فوق ذلك كله نبيذها الجيد ، يوجد بها سكان أكثر من سكان قبرص .

على الطرف الآخر من الجزيرة ، على مسافة ستين ميلاً من المكان الذي كنا فيه ، تقع مدينة كانديا (هيراقليون) .

لا يزال السكان يحملون الاسم القديم "كريتي" ، هم يونانيون يمارسون الشعائر ذاتها كالقبارصة وتختلف لغتهم قليلاً عن لغة القبارصة .

بند : وفي اليوم التالي أبحرنا مجدداً في طقس سيئ مع رياح غربية وشمالية غربية ، ومضت رحلتنا على هذا النحو ، وكنا نشاهد في بعض الأحيان ساحل برباري ، وفي أوقات أخرى ساحل الجزيرة ذاتها ، في أول يونيو ، ومع ريح شرقية ، تجاوزنا الجزيرة ووصلنا في اليوم التالي إلى جزيرة "كيثيرا" "Kithera" التي تبعد ستين ميلاً من آخر نقطة في كريت وتسمى "رأس السيف" .

في العصر تمكنا من مشاهدة قلعتي "ميثوني" "Methoni" و"كوروني"

"Coroni" على ساحل موريا على مسافة ثلاثين ميلاً من كيثيرا ، وفي اليوم التالي مررنا بجزيرة صغيرة تشبه قمة عظيمة تسمى "سابينتزا" قرب لسان أرض يمتد بعيداً داخل البحر من موريا يسمى (جالو) ، على مسافة مائة وأربعين ميلاً من كيثيرا .

على مسافة ثمانين ميلاً من "زاكينثوس" ، توجد نقطة تجمع لجميع سفن القرقور المبحرة من الشرق إلى مدينة البندقية ، مررنا بجزيرة كفالونيا على مسافة ثلاثين ميلاً من "زاكينثوس" وطولها خمسون ميلاً ، يوجد هنا قائد دائماً تعينه سلطة الإقطاعة ومعه حوالي مائتي جندي للدفاع عن الجزيرة في قلعة حصينة للغاية .

يضاف هؤلاء إلى أشخاص آخرين في الجزيرة ، عددهم كبير للغاية ، ويوجد مشرف يحكمهم ، وفي زايكينثوس ، وعلى الرغم من أن سلطة الإقطاعة لديها قائد أيضاً هناك ، لا توجد قرية مسورة أو قلعة ؛ لأنها كلها تربة وغير ملائمة .

في اليوم التالي وصلنا إلى جزيرة "كورفو" "Corfo" ، التي توجد بها أجمل قلعة في العالم ، وهي المفتاح إلى إيطاليا والخليج ، تبعد مسافة مائة وثلاثين ميلاً من "زاكينثوس" ، يبلغ طولها ثلاثين ميلاً ويوجد فيها دائماً حاكم أو مشرف ومعه خمسة قادة وخمسمائة جندي ، وقائد مع مستشارين يحكمونها .

هناك آمران في قلعتين والمدخل إليهما مقسوم بجسر متحرك ، لا يسمح لهم بأن يروا بعضهم البعض أو بتبادل الحديث خلال السنة أو

بالمغادرة إلا في عيد الفصح وعيد الميلاد ، تنفصل الجزيرة عن ساحل ألبانيا بقناة عرضها اثنا عشر ميلاً .

دخلنا الخليج في اتجاه شمالي شرقي وهو الاتجاه الذي يدخل منه المرء إليها ، يصل طولها إلى سبعمائة ميل وعرضها ستون وسبعون وثمانون ميلاً .

واصلنا الإبحار إلى "فيلونا" – وهي قلعة تابعة للتركي – على مسافة ستين ميلاً في الخليج عند الطرف الأقصى لألبانيا ، في اليوم التالي شاهدنا "كاسلنوفو" "Caslonovo" ، وهي قلعة تابعة للتركي على ساحل "دالماتيا" ، على مسافة مائة وسبعين ميلاً في الخليج ، وهي آخر قلعة تركية على ذلك الساحل ، وهو يملك الجزء الداخلي برمته .

في اليوم ذاته مررنا براغوزا (دوبروفنك) ، وهي مدينة رائعة يحيط بها سور ليس قوياً وبها قلعة صغيرة . هي تحكم نفسها وهم ينتخبون بأنفسهم "دوج" كل شهر وآمر قلعة يومياً ، هم يدفعون الجزية للتركي ولكنهم يمتثلون لمدينة البندقية ؛ بسبب السماح لهم بالعيش في سلام وحرية ، تبعد مسافة اثنين وعشرين ميلاً من "كاسلنوفو" ، لغة السكان هي السلافونية .

قد أبحرنا بسلام لمسافة خمسة عشر أو عشرين ميلاً مروراً بجزيرة ميزو ومن ثم جزيرة "ليسا" وجزيرة "سان أندريا" وجميعها قبالة ساحل دالماتيا وتفصل بينها عشرة أو اثنا عشر ميلاً ، ويصل طولها إلى ثمانية أميال ، تبعد "سان أندريا" "San Andria"– وهي الأخيرة – مسافة مائة وعشرين ميلاً عن "راغوزا" "Ragosa" .

جميع هذه الجزر بها أشخاص سلافونيون يخضعون لمدينة البندقية ، قبالة ساحل جزيرة ليسا توجد مصائد عظيمة لأسماك السردين ويتم إرسالها إلى كثير من الأماكن .

إلى الجنوب من "سان أندريا" في منتصف الخليج توجد جزيرة صغيرة غير مأهولة تسمى (بومو) ومن هنا جاء اسمها ، تتوالد نسور جيدة للغاية هناك ويمسك بها سكان الجزر المجاورة ويبيعونها ، مررنا بعد ذلك بالجزيرة الكبيرة التي تبعد ستين ميلاً عن "سان أندريا" قبالة مدينة تسمى "زارا" "Zara" في "دالماتيا" .

بالقرب من هذه الجزر يوجد كثير من الجزر الصغيرة أو قنن ، في اليوم التالي مررنا بجزيرة كبيرة تسمى "لاتيرا" "Latera" ؛ بسبب قرية صغيرة هناك تحمل ذلك الاسم – ويعيش هناك السلافيون ذاتهم ، في العصر مررنا بجزيرة أخرى تسمى "الجزار" (كارنيسيرو) ؛ لأن البحر بالقرب منها هائج للغاية .

ولسان أرض يمتد داخل البحر على البر الرئيس حيث توجد قرية صغيرة تسمى "بولا" ، مشيدة على أطلال قرية كبيرة وقديمة كانت قائمة في وقت من الأوقات هناك ، كما يتضح من مبانيها ، يبدأ من هنا ساحل "ايستريا" الذي يمتد لمسافة مائة ميل تقريباً إلى مدينة البندقية ويخضع لحكمها ، جميع السكان طليان ولكن وبسبب خشونة معينة في لغتهم يطلق عليهم اسم "بولاتشي" وهو ما يقرب من إطلاق اسم أجلاف عليهم .

في تلك الليلة جئنا إلى حصن على ساحل "ايستريا" ذاته على

مسافة عشرين ميلاً ، يسمى "روفينو" "Rovino" ، يوجد به قلعة رائعة بها قائد يسمونه "بوتيستاد" ، تعينه سلطة الإقطاعة دون أن يكون معه جنود ؛ لأن هذه القلعة قريبة للغاية من مدينة البندقية وتزورها سفن القادس التابعة لأسطولها ، هي المدينة الرئيسية لأبرشية .

رسونا هنا إذ إن أي سفينة قرقور لا تستطيع الاستمرار باتجاه مدينة البندقية دون مرشد من هذا المكان ، تماماً كما تأخذ سفن القرقور من الهند مرشداً في كاسكايس خوف غرامة قدرها مائة اسكودو ، يتم هذا ؛ لأن مدينة البندقية لها مدخل موحل وخطير ولا يمكن دخوله إلا برياح شرقية مؤاتية .

في اليوم التالي رسونا على مسافة أربعة أو خمسة أميال من مدينة البندقية في المرسى الخاص بسفن القرقور الكبيرة ، حتى هنا لا تستطيع سفن القرقور أن تتأخر كثيراً ؛ بسبب العواصف الرعدية والزوابع الكثيرة .

المدينة لا تحيط بها أسوار ولكنها تتألف من أكثر المباني روعة وأفخم المنازل التي رأيتها .

يتجول الوجهاء وهم يرتدون ملابس من قماش أسود فاخر مفتوحة من الأمام ، ولها أكمام يصل طولها إلى طول تنورة المرأة وقبعات سوداء دائرية يعتمرها الشخص منخفضة على الراس ، وتلقى على الكتف قطعة من القماش ذاته كالتوجه ، ويسير الناس الآخرون جميعاً وهم يرتدون ملابس على الطريقة الإيطالية .

ترتدي النساء ملابس باهظة الثمن ويتعلقن كثيراً باللآلئ ، هن جميلات للغاية وشعرهن أشقر إلى حد بالغ .

يعيش هنا كثير من اليهود من أهل البلاد ، ومن الأسبان ، ويعيشون في حي خاص كبير داخل المدينة يسمى الغيت أو حي اليهود ، إيجارات المنازل عالية للغاية .

قد أمضيت أربعة وخمسين يوماً في الرحلة من قبرص ؛ بسبب الطقس الرديء ، واضطررت للانتظار في قبرص لمدة شهرين لوصول سفينة القرقور ، من الأفضل كثيراً أن يحضر المرء براً من حلب إلى القسطنطينية ، وكانت الرحلة ستستغرق خمسة عشر يوماً ، أو إلى أي ميناء في فرنسا ، من الممكن التوجه براً من القسطنطينية إلى "راغوزا" ، ومن هناك خلال خمسة أيام إلى مدينة البندقية .

أما من طرابلس فيمكن أن يستقبل المرء سفن "الغليون" الفرنسية إلى مرسيليا ؛ إذ إنها تغادر ذلك الميناء في فبراير ومارس ، وهي رحلة تستغرق خمسة وعشرين يوماً ، إذا لم يتسن العثور على سفينة "غليون" فرنسية في طرابلس ، يستطيع المرء السفر عن طريق الإسكندرية حيث يمكن دائماً العثور على وسيلة نقل إلى فرنسا أو مسينا في صقلية .

بند : غادرت مدينة البندقية في السادس من شهر يوليو على سفينة بريد ونزلنا منها في "ليزافوزينا" ، من هناك توجهنا على متن "البرنتا" إلى "بادوا" ، التي تبعد مسافة ثمانية عشر ميلاً من هناك ، ومن هناك إلى "فيسنزا" التي تبعد ثمانية عشر ميلاً عن "بادوا" ، غادرناها ووصلنا لنتغذى في "فيرونا" التي تبعد ثلاثين ميلاً عن "فسينزا" .

رقدنا في قرية تسمى "لونا" ، وفي اليوم التالي تناولنا الغداء في بريستثيا ، التي تبعد خمسة عشر ميلاً عن "لونا" ، نزلنا في

"مارتينينغو" ، وهي قرية ، عبرنا نهراً كبيراً يسمى "سيريو" ، على مسافة ستة أميال من "مارتينينغو" "Martiningo" ونهراً آخر يليها مباشرة ، حيث توجد هياكل خشبية متعارضة تعين الحدود بين سلطة مدينة البندقية ودولة ميلانو .

بعد ذلك وعند نهر على مسافة منها ، يبعد اثني عشر ميلاً عن "مارتينينغو" ، دفعنا أربعة "سولدي" soldi عن كل شخص وحصان ، وفعلنا الشيء ذاته في المدن الأخرى بعد ذلك .

تناولنا الغداء في "ميلانو" ، على مسافة ثلاثين ميلاً من "مارتينينغو" وأمضينا اليوم هناك ؛ لأن التجار كانوا يطلبون من سفينة البريد حمل رسائل .

في اليوم التالي تناولنا الغداء في مكان يسمى "بوفالورا" "Bufalora" ، في العصر مررنا عبر "نوفار" (التي تخص دوق بارما حالياً على الرغم من أن بعض الأماكن الصغيرة الأخرى تخضع لميلانو) ودفعنا "سولديين" عن كل شخص ، دخلنا هنا إلى بيدمونت ومقاطعة "دوق سافوي" .

قضينا الليلة في "فيرسيللي" "Vercelli" حيث دفعنا ثلاثة "سولدي" عن كل شخص ، وتخص هذه "دوق سافوي" ، وهي المكان الوحيد في الجوار الذي يخص "دوق سافوي" ، في اليوم التالي غادرنا باتجاه الجنوب الغربي وتناولنا الغداء في "ليفورنو" "Livorno" ، على مسافة ستة عشر ميلاً من "فيرسيللي" .

تخص هذه "دوق مانتوا" ، تناولنا الغداء في "تورينو" ، وهي مدينة عليها حراسة مشددة من قبل رجال مسلحين ، حيث يجري تشييد

معقل رائع بناء على أوامر الدوق ، ولم يكتمل البناء بعد ، يكون الدوق والبلاط هنا معظم الوقت ، غادرنا المكان وتناولنا الغداء في مكان صغير يسمى "سانتامبروجيو دي ميلانو" .

وصلنا في العصر إلى سفح جبال شاهقة تسمى "مونت - سينيس" ، سافرنا بطول واد بارد وعبر مدينة غير معروفة على نطاق واسعة بها مبان متواضعة وتسمى "سوسا" عند نهاية الوادي حيث بدأنا تسلق الجبال والتي كانت مغطاة بالجليد ، على الرغم من أن الوقت كان شهر يوليو ، سافرنا على طريق معبدة وقضينا الليل في قرية تسمى "نوفاليسا" وسط تلك الجبال ، على مسافة ثمانية عشر ميلاً من "سانتامبروجيو دي ميلانو" "Sant Ambrojio de Milano" .

في اليوم التالي صعدنا بصعوبة بالغة عبر هذه الجبال القاسية ، لم يكن الطريق شديد الانحدار ؛ لأنه كان شديد التعرج ، ولكن البرد كان شديداً والطريق حجرية للغاية ، وتسلقنا لثلاث ساعات طويلة ووصلنا إلى القمة ، مروراً بقلة من منازل الرعاة الفرنسيين .

توجد على قمة هذا الجبل بحيرة "مونت - سينيس" ومحيطها نصف فرسخ ، بدأنا الهبوط من الجبل مجدداً عبر طرق متعرجة وليست وعرة إلى حد كبير ، وصلنا إلى بعض الأماكن الصغيرة في بطن الوادي ، وتناولنا الغداء في واحد منها يسمى "لانسلبورج" .

عبرنا نهر آرك بما أنه كانت أمامنا أنهار كثيرة في "لومباردي" و"بـيـدمـونت" ، تبعد لانسلبورج أربعة فراسخ عن "نوفاليسا" إذ من هنا وصاعداً يجب أن نتحدث بالفراسخ ، يقسم نهر "آرك بيدمونت"

"Arc Pedmont" عن سافوي ، يعاني معظم هؤلاء الناس في "بيدمونت" و"سافوي" من تضخم الغدة الدرقية الذي يسببه برد البلاد والماء .

استأنفنا رحلتنا بعمليات صعود وهبوط لم تكن صعبة للغابة ، ومررنا عبر تسع أو عشر قرى وأماكن يسكنها أناس فرنسيون أيضاً وفيها البيوت الحجرية والطينية ذاتها المغطاة بحجارة سوداء صغير للغاية .

قد تم تشييد بعض المنازل من خشب الصنوبر على جوانب هذه الجبال الشاهقة للغاية تغطيها الثلوج وأشجار الصنوبر الخشنة ، يستخدم الناس هذه الأشجار إذا لا يوجد لديهم حطب وقود للتسخين أو خشب .

عند الغروب نزلنا في بلدة تسمى "مودين" ، على مسافة أربعة فراسخ من "لانسلبورج" "Lanceburg" ، وفي اليوم التالي سافرنا عبر الجبال وعلى طرق وعرة حيث مررنا بأربع أو خمس قرى وأماكن عدة وقلاع صغيرة وتناولنا الغداء في قرية "مونتمليان" "Montmilian" ، على مسافة أربعة فراسخ من "أيغوبيل" ، قد تم تحصين هذه تحصيناً قوياً بواسطة الدوق ؛ خوفاً من لوثريي جنيف ، التي تبعد اثني عشر فرسخاً إلى الشمال من ذلك المكان .

تتجاور بلاد الدوق هنا مع أراضي "البيرنيز" وهم سويسريون .

كانت جنيف سبباً في تدمير فرنسا وهي العاصمة في تلك الأنحاء من المذهب اللوثري الملعون .

استأنفنا رحلتنا حيث غادرنا هذا المكان في العصر ومررنا عبر واد

ذي مزارع كثيرة تخص نبلاء "سافويارد" ، تناولنا وجبة في مدينة باردة تسمى "شومبيري" "Chomberi" يحيط بها سور قوي به بوابات ودفاع جيد ، توجد بها بعض المباني والمنازل الجميلة ، ويوجد هناك برلمان ومجلس الدوق .

على مسافة نصف فرسخ من هناك صعدنا جبلاً يسمى "ايغويبيليت" "Igobelette" على طرق معبدة جزئياً وكانت وعرة للغاية ، قضينا الليل في قرية "ايغويبيليت" ، والتي تقع على المنحدر من الجبل الذي حصلت على اسمها منه ، قبل الجبل توجد بحيرة تسمى "لو بورجيه" تلتئم مع "الرون" الذي تتجه منه المراكب وهي محملة إلى ميلانو ، هنا في "ايغويبيليت" توجد بحيرة أخرى تسمى "غييرز" تصب في الرون قرب ليون قبل أن يدخل "بورجيه" في "الرون" .

في اليوم التالي أفطرنا في قرية صغيرة تسمى "بونت دو بون فوازان" "Pont de bon Voisin" ، تبعد مسافة أربعة فراسخ عن "شومبيري" ، يجري نهر "غييرز" ليصب في البحيرات المذكورة سابقا ، يفصل هذا النهر "سافوي" عن "الدوفينيه" في فرنسا التي تقع غربها .

تناولنا الغداء في قرية صغيرة تسمى "لافيربيير" ، تبعد مسافة سبعة فراسخ عن "بونت دو بون فوازان" ، سافرنا على سهول تغطيها أشجار الجوز والكروم والمزارع وقضينا ليلة السابع عشر من شهر يوليو في ليون بفرنسا ، والتي تبعد مسافة خمسة فراسخ عن "لافيربيير" ، صادف ذلك مرور أحد عشر يوماً منذ أن غادرت مدينة البندقية وبعد تغيير الجياد مرات كثيرة في الخانات ، يقيم في ليون اثنا عشر ألف مواطن

وتقع إلى الشمال بطول نهر "الرون" ، على جانب البر - حيث تصعد المدينة منحدراً - يحيط بها سور رائع .

بند : يصل عرض نهر "الرون" في الصيف إلى مدى طلقة بندقية المسكيت ، ولكنه يفيض على ضفتيه كثيراً في الشتاء ، يتدفق النهر من الشمال إلى الجنوب ويصعد وادياً صغيراً في الأراضي السويسرية من جبل يسمى "سيمبلون" ، قرب "بريج" ، التي تقع عند سفحه ، على مسافة خمسين فرسخاً إلى الشمال من "ليون" ، يجري النهر عبر أماكن كثيرة قبل الوصول إلى "ليون" ، ومن هناك يتدفق جارياً إلى "افينون" و"آرل" ويصب في البحر عند "ايغ - مورت" .

هناك نهر آخر يسمى "ساون" ، وهو يجري في وسط المدينة ، وهو أصغر حجماً ومياهه أفضل ، يرتفع قرب "ديجون" ، وهي مدينة في "بورغوندي" ، ويتدفق عبر "شالون" "Chalon" و"ماكون" ، وهما مدينتان في فرنسا ، ويجري في "ليون" ليصب في "الرون" ، فوق نهر "الرون" يوجد جسر حجري ضخم يقسم "الدوفينيه" عن فرنسا ، وبعد هذه النقطة يعبر المرء جسراً أصغر على نهر "ساون" .

إن "ليون" مكان تجارة عظيمة وتقام فيها أربعة معارض سنوياً ، توجد بها منازل حجرية فخمة ، يوجد بها حاكم يعينه ملك فرنسا مدى الحياة ، وكان آنذاك هو "دوق أمين" ، وكان له نائب هناك .

النساء هنا شقراوات وجميلات إلى حد بعيد ولكن سمعتهن سيئة وسط التجار ، حتى النساء المتزوجات يتجولن وحدهن أو مع أخريات

ويجلسن في مجموعات أمام أبواب منازل الجيران ، وهن يقمن بأعمال التطريز ، أثوابهن أفضل من أثواب نسوة مدينة البندقية ، هن يرتدين عباءات طويلة مطرزة ومنشاة وبيضاء تماماً .

يضعن على رؤوسهن قلنسوات ذات حواش من قطيفة أو ساتان أسود ويخاط الجزء الأمامي بالذهب أو الفضة أو اللآلئ ويكون هناك شيء أشبه بالذيل من الوراء يبرز من القلنسوة ويصنع من القطيفة ذاتها أو الساتان ذاته ويصل طوله الكف ويكون مطرزاً وتثنى الواحدة منهن تلك القطعة على قمة الرأس ، يرتدين تنورات مخططة وفوقها المزيد من التنورات التي تخاط عليها أشياء صغيرة ، يرتدين بناطلين نصفية من قماش أسود مع حذاء أو شبشب قذر للغاية ، وتجعلهن هذه الشباشب يظهرن بمظهر قبيح للغاية .

بند : غادرت ليون في قافلة من الجياد متجهة إلى "لاورشيل" مقابل ستة "كروزادوس" ، وأمضينا الليل على مسافة أربعة فراسخ من "ليون" في قرية تسمى "تاليكسيون" ، في اليوم التالي سافرنا عبر قرى ومزارع كثيرة ووصلنا إلى مدينة صغيرة ، تبعد مسافة خمسة فراسخ عن هناك ، تسمى "روان" .

في اليوم التالي سافرنا مسافة ستة فراسخ من هنا إلى مكان صغير يسمى "لاندريفر" ، تناولنا وجبات خفيفة دون أن نترجل من الجياد من الصباح إلى أن وصلنا إلى المكان الذي كنا سنقضي الليل فيه ، في اليوم التالي سافرنا مسافة ستة فراسخ إلى حصن يحيط به سور وبه منازل جيدة من الحجر والطوب ، يسمى "لوزون – أون – أوفيرن" ، في

اليوم التالي سافرنا مسافة خمسة فراسخ من هنا إلى مدينة رائعة تسمى "كليرمونت" بها حوالي ستة آلاف نسمة، وفيها مبان جميلة ويحيط بها سور في حالة رثة نوعاً ما .

تبعد هذه المدينة مسافة نصف فرسخ من مدينة أخرى تسمى "مونتفيران" عند سفح جبل يسمى "بوي دو دوم" ، في اليوم التالي صعدنا الجبال دون صعوبة لمسافة ستة فراسخ إلى مكان صغير يسمى "سوفانا" .

في اليوم التالي واصلنا سفرنا من هناك لمسافة سبعة فراسخ إلى قرية تسمى "فيش" .

في اليوم التالي سرنا لمسافة ستة فراسخ إلى مدينة (يسمونها مدنا villes ويسمون الفلل vilas قرى villages) تسمى "مونستيه" ويحيط بها سور هزيل .

في اليوم التالي سافرنا على طرق بها الكثير من البساتين وأشجار اللوز لمسافة سبعة فراسخ إلى مدينة كبيرة ، بها حوالي ستة آلاف نسمة ، تسمى "ليموج" ، بها سور مهدم نوعاً ما وأجزاء واسعة متباعدة ، عند المدخل يوجد معبد القديس "سباستيان" ، وهو مبنى فخم مشيد من الحجر ، المنازل منخفضة ومشيدة من الخشب بواجهات من الطوب كالمنازل الموجودة في "روا نوفا" "Roi Nova" هذا هو أسلوب تشييد جميع المنازل في أفضل المدن في فرنسا ، وهي واسعة وجميلة من الداخل .

تخص هذه المدينة ملك "نافار" ، على الرغم من أننا سافرنا من جبال

الألب إلى هذه النقطة صاعدين وهابطين على الجبال والتلال إلا أن الطرق جيدة ، والأرض مستخدمة بطريقة حسنة ، وتوجد بلدات وقرى ومزارع كثيرة .

في اليوم التالي غادرنا هذا المكان وسرنا عبر غابة تسمى "مونتروليه" ووصلنا إلى قرية صغيرة على مسافة سبعة فراسخ من ليموج تسمى "سيجون" ، وفي اليوم التالي ، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ ، مررنا عبر مدينة صغيرة تسمى "كونغولين" ، عبرنا نهر فيين الذي يجري وراء "نانت" – وهي مدينة في بريتاني – ليصب في البحر بعد رحلة تستمر خمسة أو ستة أيام من هنا .

نزلنا على بعد سبعة فراسخ من "سيجنون" "Signon" في بلدة صغيرة تسمى "جينولبير" "Ginolier" ، في اليوم التالي ، الأول من أغسطس ، سافرنا مسافة ستة فراسخ من هنا إلى "سانت مارتن دنتريغ" (سانت مارتن داغ (؟)) وهي بلدة تخص السيد "دو بيرن" (؟) .

في اليوم التالي مضينا قدماً إلى "سورجير" ، وهي بلدة تبعد مسافة ثمانية فراسخ عن "سانت مارتن" "San Martin" ، كان كل ذلك السفر خلال بلاد مكتظة بالسكان ، في اليوم التالي وصلنا إلى "لاروشيل" ، على مسافة خمسة فراسخ من "سورجير" ، يمر الطريق كاملاً عبر أرض منبسطة ومزروعة بطريقة منظمة للغاية ، مع أراض صالحة للزراعة وغابات وكروم وبساتين وطواحين هواء لا حصر لها لقلة الأنهار .

بند : يقيم في "لاروشيل" حوالي خمسة آلاف نسمة ، وتتألف من منازل ومبان رائعة ويحيط بها سور رائع وبها بوابات ومبان رائعة ويحيط

بها سور رائع وبها بوابات محمية على نحو جيد ، عند المدخل المؤدي إلى الميناء يوجد برجان محصنان ولكنهما مزودان بمدفعية متواضعة .

من "ليون" إلى هنا كنا نسافر طوال الوقت في اتجاه الغرب .

وفي العام نفسه (١٥٦٥م)
صدور الفرمان (الأمـر) من ملك هرمز "سلفور شاه" ، بخصوص الدخل المالـي لإدارة الجمارك في هرمز ، في الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر عام ١٥٦٥م ، ويشتكي من المسؤولين البرتغاليين لتعديهم على ملكيات أجداده : [١٧]

أصدر هذا الفرمان الذي لا مثيل له في كل العالم من الشرق للغرب حتى يطيعه كل شخص ويتعرف على ما قررت ، أرغب في صداقة رائعة واتفاق والتزام مع سيدي ، أن عظمته تبلغ عنان السماء ، وتمتد قوته وسلطانه حول كل الأرض ، أنه مساو في كل شيء لملك الصين المنتصر في كل الحروب التي خاضتها الإنسانية .

ملك العدالة ، الأعظم من كل الملوك الآخرين في العالم ، أنه يمسك بمفاتيح خزائن الأرض ، التي هي الفضيلة والنبل والمسابح التي يصلي بها الناس في أيديهم ، هو يعلم كيف يحكم بأمانة على

(١٧) رقم الوثيقة والهامش.

ممالك البحار ، إنه المدافع عن الشعوب ، وهو الصندوق النفيس ، الذي خُبئ فيه الزمرد الرائع والغالي ، وهو الحصن المنيع ، الذي يحمي كل إنسان باسم العدالة والحق ، إنه النافورة الشفافة التي تغذي هذا العالم المستدير المأهول بالسكان ، الذي يعيش في الصحراء .

لقد كانت ثقتي عظيمة فيه ، إنه الإمبراطور العظيم "دوم جواو" ، الذي نسأل الله أن يحفظه في هدوء وسكينة في ملكوته ، لعل ثرواته وبركاته تفك ضيق فقراء العالم والراحة التي أنا وهبت نفسي لها ، إن حظي الطيب يكمن في أنني محاط بتشريفه وثقته ، إنه الشجرة التي تثمر ، والتي أستلقي أنا تحت ظلها ، إن مياه رحمته هي الخلاص ، وأنا على يقين من أن رحمة هذا الإمبراطور العظيم ، "دوم غواو" ، ترافقني أينما سرت .

لقد وضعتني في موقع المؤمل دائماً ، لكل تلك الأسباب أنا أعي تماماً بأنني ملزم في التعاون والتوافق مع كل أفعاله ، أعتبر القصر الملكي في مملكة "البرتغال" بأنه طبيعتي وخصالي ، وأنني لن أتخلى قيد شعرة عن طريق واجبي ، طالما أنني إنما أقوم بذلك احتراماً أدين به لنفسي في هذا الوقت .

غرضي هو العائد المالي من ميناء مملكة هرمز ، عندما قمت بسداد الأموال ، وإكراميات أولئك النبلاء في منزلي ونفقات أخرى عبر المملكة مثل المدفوعات والأرباح والضرائب التي تتعلق بالمسؤولين في مملكتي – من "البرتغاليين" والبرابرة العرب – طبقاً لعاداتنا القديمة منذ القدم ، بقية العائدات من مصلحة الجمارك تذهب لتسوية المدفوعات على الجزية التي أدين بها لملك البرتغال .

لذلك فعلى آمر بأن يلزم الوسطاء التجاريين بدفع نفقات القلعة ، وتلك التي تجلب بواسطة البحارة والجنود .

لذلك المسؤولون من مملكة هرمز أن يعوا أنه طبقاً لما ذكر في السابق ، فإن ما يتبقى بعد دفع نفقات المملكة يذهب لهذا السيد ، وسيقوم وسطاؤه التجاريون بجمعها ، يجب أن يتم كل شيء كما ذكرت أنا أعلاه ، أنني أصدر أمري لكل المسؤولين في هذه المملكة ألا يتجاهلوا أو يحرفوا أياً مما جاء في هذا الفرمان (المرسوم) ، عليهم دائماً التصرف بطريقة صحيحة ، وأسلوب نموذجي ، يحتم عليهم واجبهم القيام به .

كتب هذا المرسوم في شهر محرم سنة ٩٤٨ هجرية .

القاضي (عربي) ريس نور الدين كتب هذا ، وقد نسخ الأمر بطريقة جيدة ، وبإخلاص ، وأمانة من السجل بنفس الكلمات الموجودة في الكتاب دون إضافة أو تجاوز أي شيء ، لقد تم تأليفه ، وكتابته بواسطة "ألفارو دي بالما" لمتصرف المنطقة التجارية و"ديجو لوبيز داسيرا" ، المتصرف للخزينة ، قد وقع كلاهما هنا معي كما فعل أيضاً "بيدرو الفاريز" وهو كاتب متصرف في المنطقة التجارية بـ هرمز .

في اليوم الأخير من شهر أكتوبر من السنة الميلادية ١٥٦٥م .

"جاسبار بيريز دي ماتوس" "Gaspar Perez de Matos" ، أمين الخزانة في هذه المدينة ، أمر بنسخها ، وإرسالها لسيدنا الملك .

"ألفارو بالما" "Alvaro Palma"

"بيدرو ألفاريز"

"ديوغو لوبيز دا سيرا" "Diogo Lopes da Seira"

نسخة من الفرمان (المرسوم) الجديد الذي سلمه ، وجيه الملك فرجو شاه إلى إدارة مصلحة الجمارك في هرمز لسيدنا الملك ؛ لأن فرمان (مرسوم) "سلفور شاه" الذي يحمل النقيض لا يحدد الكلمات "يسلم" كما سنرى من فحواه .

إن المذكرة التي كتبها الملوك السابقون لـ هرمز ، ومن قبل الملك الحالي ، تكاد تكون مثل التي كتبها "سلفور شاه" ، ويذكر هنا ويبين ما يبدو حيوياً ، وهاماً من النص .

ليكن معلوماً بموجب هذا ، لجميع المسؤولين في مملكة هرمز بأنه قد عرض عليَّ الفرمان بالطريقة ، التي قدم بها الملك السابق لهذه المملكة النبيلة "سلفور شاه" ، العائدات المالية لهذه الميناء ، ومصلحة الجمارك إلى سيدي ملك "البرتغال" في سنة ٩٤٨ هـ ، في شهر محرم - الكلمات "قم بتسليم" لا تظهر بطريقة واضحة ، بمثل ما جاءت في الفرمان ، قد قام بكتابة بعض التقارير ، والتي لم تترجم بطريقة واضحة .

هذا التعليق ملائم عندما يعلن أن ما يتبقى من عائدات مصلحة الجمارك ، وبعد بيان البنود العديدة ، والنفقات كما جاء في الفرمان قد تم سدادها ، فيسلم الباقي لوسطاء السيد التجاريين حتى يتمكنوا من دفع مبالغ لأولئك الذين يعيشون تحت حماية هذه القلعة .

بما أننا في الظل ، وتحت رحمة ملوك "البرتغال" الذين ندين لهم بما نملك في هذه المملكة ، وأن الخدمات التي تقدم لهم يجب أن تؤدى بأمانة وصدق ، لا يجب أن تكون هناك أي شروط تؤدي إلى بروز تفسيرات عديدة ؛ لأن تلك قد تختلف بطريقة أو بأخرى .

بعث لي القائد "دوم بيدرو دي سوزا" تقريراً يتعلق بانتهاء صلاحية الفرمان السابق ، هو مهتم جزئياً بذلك ، لكن ليس كلياً ، أنا لي اعتبارات عظيمة للالتزاماتي تجاه سموه عما أكنه للملوك السابقين . عند وفاة الملك إيران شاه ، قاموا ضده .

أبي ، محمود شاه ، تم ترفيعه للـملكية إلا أنه توفى خلال أيام قليلة ؛ لأنه كان كبيراً في السن ومريضاً ، عند وفاة والدي قام الرئيس "دوم بيدرو" بترفيعي لمنصب الملك باسم ملك البرتغال ، سيدي ، (رافق ذلك المنصب) بإفضال ، وإقطاع أراض كان لملوك هرمز ، وملوك "البرتغال" الحق فيها أثناء حكمهم .

عند رؤية كل ذلك لمسؤولية والدي ، ولما أنيط بي من واجبات ، أدركت أنه وعلى أساس تلك التشريعات العظيمة والنعم التي منحت لنا ، نحن الملوك ، فقد نشأنا ملوكاً متحررين دون أن نملك الوسائل ، مما أدى في كثير من الأحيان إلى إضافة جزيات وضرائب جديدة ، ازدادت في أحيان كثيرة من فوق ومن تحت .

يؤكد هذا الفرمان الجديد ، حسب ما أستطيع القول ، بأن الملك "سلفور شاه" قد سلّم عائدات مصلحة الضرائب ، لكنني أرفض وأعترض على الشروط والبنود المبينة فيه من قبل الملك ، أنني ألغي ، وأنقض كل واحد منها ، كما أنني مصمم على أنه لن يكون لأي منها الصلاحية من اليوم واللحظة التي صدر فيها أول فرمان من قبل الملك "سلفور شاه" وحتى الموجود حالياً ، والذي أقوم أنا برسمه الآن .

ما يسعدني وأرغب فيه ، هو تقديم كل خدمة لسيدي ، ملك البرتغال ، عبر العائدات المالية من دائرة الجمارك ، ومنحه كل ما هو موجود في

هذه الإمبراطورية ، كونه الملك الحقيقي لمملكة هرمز هذه ، بأي وسيلة يطلبها هو ، بما أنني ملك الآن ، فإنني أعلن ، وأضع كل شيء قد أتلقاه أيّاً كان ، مما يملكه ملوك هرمز السابقون في أيدي صاحب السمو .

كل العائدات ، في السابق والحاضر ، والتي يتم جميعها من "الجزيات" من قبل مسؤولي سموه ، يجب دفعها بصورة جيدة ، لهذا السبب أعلن ، وأؤكد أنه من الآن وصاعداً وللأبد طالما أن الشمس تشرق ، فإن هذا الواجب يجب أن يتم بالطريقة والوسيلة التي يأمر بها نواب الملك ، والحكام في بياناتهم وأحكامهم .

عليه دفع المخصصات فقط التي تتعلق بالملوك واللوردات جيراني ، وأيضاً الأموال لتكلفة ملابسي التي يلبسها النبلاء والمسؤولون في إقطاعيتي من دائرة الجمارك ، لما يتعلق بتلك الأمور ، فإن الفرمان الأول للملك "سلفور شاه" سيبقى صالحاً وسارياً .

عليه ، أنت ، القاضي والمسؤولون ، عليكم العمل باتفاق ، وتناغم كامل مع فرماني الجديد هذا ، دون معارضته قيد أنملة سواء في الماضي أو في الحاضر أو المستقبل ، طالما أن الدنيا قائمة ، ألا يكون هناك أي تناقض أو أي تفسيرات أخرى لما جاء فيه .

هذا الفرمان الذي أرسل إلى "البرتغال" إلى سيدنا الملك ترجم من الفارسية بواسطتي أنا "سيماو فيريرا" "Simao Feriera" ، حيث الآن كبير مترجمي هذه المملكة بعد موت "جارسيا دي لا بنها" "Garcia de la Benha" .

لقد وصلت إلى اتفاقية صحيحة مع "أنطونيو دي كيروز"

"Antonio de Quiros" مترجم مدير إدارة الخزينة ، وأيضاً "مانويل بيرس" "Manuel Peres" المترجم في دائرة الجمارك ، و"فرانسيسكو دي ميندونسا" "Francisco de Mendonca" مترجم القاضي السابق ، و"امادور تافاريز" "Amado Tavarez" لذي يشغل الآن منصب المترجم القانوني ، كل أولئك الرجال يتحدثون الفارسية بطلاقة ويفهمونها بسهولة ، كان "جاسبار بيريز دي ماتوس" حاضراً وقد قام بالتوقيع معنا .

ستلحق هذه الترجمة مع النسخة الفارسية حتى يمكن إرسالها أيضاً إلى "البرتغال"

هرمز ، اليوم ، اليوم الأخير من شهر أكتوبر عام ١٥٦٥م .

"جاسبر بيريس"

"أمادور تافاريز"

"فرانسيسكو دي مندونسا"

"سيماو فيريرا"

"أنطونيو دي كويروس"

أحد كتاب العدل في هذا المجمع التجاري عليه أن يسجل تلك "الفرامانات" في السجل رقم (٦) ، كما يجب أن تصدر شهادة في ذيل الملف حتى يمكن إضافتها للفرمان الأصلي باللغة الفارسية الذي أرسل لسيدنا الملك .

هرمز ، في اليوم الأخير من شهر أكتوبر لعام ١٥٦٥م .

"جاسبار بيريس"

قمت بتسجيل تلك "الفرامانات" والأعمال التي تمت في السجل رقم (٦) للمحاضر بالمادة مائة وثمانية وأربعين ومائة وتسعة وأربعين طبقاً للرسالة من مدير الخزانة المذكور بأعلاه .

الجزء الأول – ماكو ١٠٧ وثيقة ٨٠

رقم ١٤٦٢٧ حسب الترتيب المتسلسل

الفرمانات التي قام بموجبها ملك هرمز بإعطاء دائرة الجمارك بالمدينة لملك "البرتغال" ، قد استعاد بعض العائدات المالية حتى يتمكن من استخدامها في سداد مخصصات النبلاء والمسؤولين في تلك المملكة .

في سنة ٩٦٨هـ هجرية الموافق الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر ، عام ١٥٦٥م .

وفي العام نفسه (١٥٦٥م)

بعث الأب "أنطونيو دي كوادرو" "الجمعية اليسوعية" أسقف "الأبرشية" رسالة إلى الرئيس العام للجمعية اليسوعية في "روما" ، "مالقة" في العشرين من شهر نوفمبر ، عام ١٥٦٥م ، يذكر أن الذين ذهبوا إلى هرمز من البرتغاليين الكهنة قد ماتوا ، فهي مقبرة مؤذية روحياً وجسدياً : [١٨]

مقتطف :

أنا لا أكتب معلومات مفصلة من أنحاء أخرى من الهند التي للجمعية مواقع فيها ؛ لأنني أولاً بعيد جداً ؛ ولأنك ستكون قد علمت بها مسبقاً من الرسائل الشخصية منهم ، وأيضاً ؛ لأن تغييراً طفيفاً قد حدث هناك هذه السنة ، فيما يتعلق بـ هرمز فقط ؛ لأنه وعندما كنت على وشك مغادرة "غوا" ، كانت قد وصلت سفينة وقتها من هناك .

(١٨) رقم الوثيقة والهامش.

جاءتني بالأخبار وأن الأب "ميسوكيتا" "Mesquita" الذي كنت قد أرسلته أنا إلى هناك ، مريض جداً منذ وصوله ، هنا تظهر التجربة مع هذا الكاهن ، ومثل الأب "توندا" في كيف أن هرمز مقبرة ومؤذية لنا روحياً وجسدياً ؛ لأنه ما من كاهن ذهب إلى هناك ولم يمت ، إما هناك أو من مرض أصابه هناك ، أو مات وهلك بصورة ما أو بأخرى .

لقد كتبت قبل الآن لفضيلتك ، وضمنتها معلومات عن هرمز ، وكيف أنها غير مناسبة لنا لأن نكون فيها ، وليس لي الكثير الذي أضيفه في ذلك الخصوص باستثناء أن التجربة برهنت على صحة ما ذكرت ، ولسماحتك أن تقوم بما تراه مناسباً في خدمة الرب ، وفيما يتعلق بإقامتنا هناك .

وفي العام نفسه (١٥٦٥م)

جاءت رسالة من اليسوعية إلى الملك حول المسيحية في هرمز ، وتأسيس قلعة هرمز ، "غوا" في عام ١٥٦٥م : [١٩]

علم ملك هرمز بأمر عقيدتنا المقدسة لعدة سنوات ، ووعد الإمام اليسوعيين بأنه سوف يتحول إلى الديانة المسيحية ، ولكنه يخشى ألا يعامله شعبه المعاملة الحسنة ، وأن يصدم الشعب بأن الأوامر التي أصدرها الملك الراحل في صالحه ، سوف لن يتم تنفيذها ، أو التقيد بها؟

يبدو أنه قد يقبل بأن التعميد (الماء المقدس) ، فإذا كتبتهم له جلالكم برضاكم عنه ، عبر المعلومات التي تستلموها من الآباء اليسوعيين وعد صدق نواياه ، وأن تطلبوا منه إنفاذ نواياه ، في نفس الوقت ، فإنه يجب أن تأمروا بأن يتم منحه كل المزايا والأفعال والحريات التي منحت لأسلافه ، كل ما يمكن أن يكون مندوباً للحفاظ على المملكة ، والحكم والقضاء والحكومة .

---

(١٩) رقم الوثيقة والهامش.

لقد تحولت إلى المسيحية ثلاث زوجات ؛ واحدة منهن بقيت في "غوا" في بيت سيدة آوتها محبة في الرب ولوجه الرب ، والأخرى والثالثة تزوجتا في الحال ، إذا كان ذلك ضروريا ، واحدة إلى "دوم جواو" ، ابن شقيق الملك في "بليز" "Plaise" .

كنا نسوة فضليات ، طلبن من جلالتكم منحهن ما يسد حاجتهن ، ويوظف أزواجهن .

أعتقد أن "دوم جواو" يمكن أن يمنح وظيف "شهبندر" هرمز ، والتي لم يعين جلالتكم فيها أي شخص بعد .

مقتطفات :

القائد	ستمائة ألف ريس
نائب القائد / سيد البحر	مائة ألف
رئيس العدل	مائة ألف
وسيط تجاري	مائة ألف
اثنان من الكتبة للوكالة التجارية كل منهم	خمسون ألف
موظف في ترسانة الأسلحة	ثلاثون ألف
كاتب في الترسانة	عشرون ألف
حاجب	أربعة وعشرون ألف

مفتش شرطة	خمسة وعشرون ألف
شرطي	ستة وأربعون ألف
رئيس حوض السفن الملكي	أربعون ألف
رئيس أعمال الحديد	سبعة وعشرون ألف
حاجب الخزانة	خمسة وعشرون ألف
رجال تحت إمرة القائد وموظفون آخرون :	
رئيس العدل	مائة ألف
وسيط تجاري	مائة ألف
اثنان من الكتبة للوكالة التجارية كل منهم	عشرة آلاف
موظف بترسانة الأسلحة	ثلاثون ألف
كاتب في الترسانة	عشرون ألف
حاجب بالقلعة	أربعة وعشرون ألف
مفتش شرطة	خمسة وعشرون ألف
شرطي	ستة وأربعون ألف
رئيس حوض السفن الملكي	أربعون ألف
رئيس أعمال الحديد	سبعة وعشرون ألف
حاجب الخزانة	خمسة وعشرون ألف

رجال تحت إمرة القائد وموظفون آخرون :	
قائد : ثلاثين من رجال الحراسة بالإضافة "لخمسين من الخدم والأقربين"	
وسيط تجاري	ثمانية رجال
كتبة بالمصنع : رجل للوكالة التجارية	
رئيس العدل	أربعة رجال
شاهبندر	أربعة رجال
الحامية	خمسة عشر من مستخدمي البنادق وثلاثمائة من الجنود
قس ومتلقي المصالح "الاكليريكية" :	
قس	أربعة وثلاثون ألف "ريس"
أربعة مستفيدين لكل	واحد وعشرون ألف
عازف أورغ مع رواتب المقاتلين أو أكثر	تسعة آلاف
موظف الميزان بمكتب الجمارك	خمسون ألف
رئيس حمالي الجمارك بمكتب الجمارك	ثمانية وعشرون ألف

وفي العام نفسه (١٥٦٥م)

صدرت يوميات ميستر "أفونسو" "Afonso" الجراح ، كبير الأطباء الذي ذهب من الهند في عهد الكونت نائب الملك والحاكم "جواو دي ميندونسا" ، عن الرحلة التي قام بها من الهند براً إلى مملكة "البرتغال" بأمر من الحاكم ذاته ، بتاريخ عام ١٥٦٥م ، وبها وصف لكل المناطق التي مر بها : [٢٠]

الفصل الأول :

عند وفاة الكونت نائب الملك في الهند[أ] ، الذي خدمته ككبير أطباء ، خلفه "جواو دي ميندونسا" في منصب الحاكم ، وعمل لمدة ستة شهور شتوية ، وهي تلك الشهور التي يتعين أن تمر ليكمل الكونت سنواته الثلاث .

(أ) "دوم فرانسيسكو كوتينهو" ، "كوندي دي ريدوندو" .

---

(٢٠) رقم الوثيقة والهامش.

في نهايــــة هذا الوقـــت وصـــــل "دوم أنطونيـــــو دي نورونها" "D . Antonio de Noronha" إلى الهند كنائب للملك ، لدى وصوله جعل الحاكم نفسه على استعداد للتوجه إلى البرتغال .

عند ذلك ، وبسبب الالتزام الذي كنت مقيداً به تجاهه بأن أخدمه بالصفة ذاتها التي خدمت من خلالها الكونت ، فقد صعدت إلى السفينة "ساو أنطونيو" "Sao Antonio" - ، وهي السفينة ذاتها التي جاء على متنها نائب الملك "دوم أنطونيو" ، وبعد تحميل السفينة ، غادرت "كوتشين" في السادس من شهر فبراير من العام [أ]٦٥ .

خلال خمسة عشر يوماً الأولى كان الطقس الذي ساد خلال إبحارنا معقولاً ، لكن ، وفور اجتيازنا خط الاستواء ، واجهنا متاعب هطول المطر ، وسكون الرياح .

في الحادي عشر من شهر مارس وعند ثلاث عشرة درجة جنوباً ، واجهنا طقساً سيئاً أجبرنا على أن نظل ثابتين في مكاننا ؛ حيث كان من المستحيل إحراز تقدم في ظل هذا الطقس الذي عصف بالسفينة .

زادت شدة الطقس حتى تحول إلى عاصفة عنيفة ، واجهنا خلالها ارتفاع أمواج البحر ، ترجحت معها السفينة إلى حد غاصت مقدمة السفينة كلياً حتى الرحوية .

عـندما زاد هيجان البحر ، انفصل دقل الصاري الأمامي عن الألواح ، وانكسر الصاري المتوسط ، في المنتصف غمرت الأمواج

(أ) الإشارة هنا إلى العام ١٥٦٥م .

مقدم السفينة ، وجرفت كلتا منصتي مؤخرة السفينة ، وحطمت الهيكل العلوي للمؤخرة من براغية .

بعد هذا الحادث المشؤوم ، بدأنا نبحر من جديد ، ولكن بشراع أمامي صغير حتى لا نعاني مجدداً من الطقس ، وحتى لا ينتهي بنا الأمر بتحطم كل شيء إلى قطع صغيرة ، وانكسار الصاري كلياً .

بما أننا لا زلنا بعيدين في البحر من أول لسان أرض داخل البحر من جزيرة "مدغشقر" ، فلم يكن بمقدورنا التقدم نحو "موزمبيق" ؛ لأنه كانت هناك جزر ومخاضات كثيرة في طريقنا ، لم يجرؤ المرشد الملاحي على المرور في ذلك المسار ، ولم يرغب في المجازفة بالسفينة .

عند هذه النقطة كانت هناك عدة آراء ، حيث كان هناك بعض البحارة الذين رأوا أن الأمر سيكون سهلاً للغاية ، ولكن رأيهم لم يلق القبول من المرشد الملاحي ، الذي لم يتخل عن رأيه مبرراً ؛ ذلك بأننا في الوقت الذي نقترب من ساحل "ماليندي" (الذي كنا بعيدين عنه للغاية ، وتفصلنا عنه بحار شاسعة) ستكون الرياح الغربية قد هبت ضدنا ، ولن تكون هناك طريقة لكي نصل إلى هناك ، وأن الوقت الذي نضيعه في القيام بذلك سيكفي لوصولنا إلى الهند .

(وقد رأى المرشد الملاحي) أننا سنتكبد خسائر كثيرة ، وأننا يتعين علينا التوجه إلى هناك (الهند) على الفور ؛ إذ إن الوقت قليل إلى حد أننا لا نزال نخاطر بحدوث هذه الأشياء ؛ بسبب موسم الرياح الموسمية ، الذي يبدأ من الخامس عشر من شهر مايو فصاعداً .

عندما توصلنا إلى نتيجة حول هذا الرأي ، بدأنا نتجه إلى الهند ، وذلك بنية التوجه إلى "غوا" مستفيدين من الطقس المؤاتي .

لكن الرب لم يشأ لذلك أن يتم ؛ إذ إننا وفور شروعنا في الرحلة ، توقفت الريح ، وكانت هناك حالات سكون كثيرة ، إلى حد أننا عندما وصلنا إلى خط الاستواء ، كان ذلك في الثامن عشر من إبريل ، لهذا السبب تشاورنا من جديد على متن السفينة ، وتم استدعاء جميع ضباطها أمام الحاكم ، أقسمنا له أن كل واحد منا سيقول بصدق ، وبضمير حي ما يراه بشأن الموقف ؛ إذ إن المرشد الملاحي رغب بأي طريقة وعلى أي نحو في الذهاب إلى الهند .

لم يوافق عريف الملاحين على هذا مطلقاً ، واحتج بشدة لديه قائلاً : "إننا أضعنا الوقت والرياح الموسمية ، وأننا إذا لم نصل إلى هناك بحلول الثامن أو الخامس عشر من شهر مايو ، فإن السفينة ، وجميع الذين على متنها سيكونون عرضة لخطر عظيم وأنه – وبسبب توقف السفينة لعدم وجود ريح – لن يفعل شيئاً سوى الذهاب بعيداً ، وأن كل المشاق والأخطار ستقع على عاتقه" ، لهذا السبب فإنه لا يستطيع الموافقة على شيء كهذا .

يجب عليهم التوجه إلى هرمز حيث سيكون الوقت صيفاً ، وهناك وقت وريح بما يكفي للوصول إلى هناك دون خطر ، وهي قلعة تابعة للملك ، ويتوفر فيها كل ما هو ضروري ، ولن نواجه مشكلة في العثور على صارٍ ، وعلى كل الأشياء التي تحتاجها السفينة ، عندما يحين سبتمبر سيكون الإبحار ممكناً بطول ساحل "ماليندي" والوصول إلى

"موزمبيق" في الوقت الملائم ، وبوجود الريح الموسمية للسفن التي قضت الشتاء هناك لكي تغادر ، بهذه الطريقة لن يضيع شيء ، وسنكسب سلامة السفينة والمال .

كان جميع الضباط الذين أدوا القسم يؤيدون هذا الرأي ، فأعد كاتب السفينة العمومي اتفاقية بهذا كله ، وقع عليه الجميع .

بعد الانتهاء من هذا ، ظهرت لنا جزيرة سوقطرة ، واتجهنا نحو المضيق ، بما أن المرشد الملاحي كان يعرف القليل عن هذه المناطق ؛ حيث إنه لم يسبق له أبداً أن قام برحلة إلى هناك ، فقد واجهنا مصاعب وتجارب جديدة ، وعقدنا مداولات في كل يوم ، إلى أن دخلناه (أي المضيق) ، واقترب "almedia" من مركب صيادي سمك من العرب المسلمين من ذلك الساحل .

لم يفهم أحد حديثهم إلا حبشي تابع للحاكم والذي ، بعد أن قضى فترة قصيرة في السجن ، تحدث لغتنا بطريقة رديئة إلى حد اقتضى إحضار شخص آخر لفهم حديثه ، هكذا ، وعن طريق الإشارة والإيماءات عرفنا من أحدهم مكان وجودنا ، وقد عرض علينا إرشاد السفينة إلى مسقط ، وهو ما فعله ، ومقابل هذا أعطاه الحاكم عشرة "برادواس" و"فاردو" أرز .

هناك صادفنا سفينة تجار في طريقها من "غوا" إلى هرمز ، وجاء مرشدها الملاحي إلى سفينتنا بناء على طلب الحاكم ، وذهب بها إلى هرمز التي وصلنا إليها في السادس والعشرين من شهر مايو .

لإشباع فضولي ، والذي تعلق دائماً باكتساب خبرات جديدة ورؤية العالم أكثر من اكتساب المال والغنى ، فقد قبلت القيام بهذه الرحلة ؛

لأن الحاكم أمرني بذلك ، (وقد فعلت هذا) دون قبول أي شيء منه كمصاريف لي ، من أجل وضعه أمام التزام أكبر بأن يخصص لي مكافأة .

قد أعطاني رسائل إلى الملك والملكة (وأخبرهما) عن وصوله بسلام ، وإلى النبلاء وكبار الناس في المملكة (البرتغال) ، ولأصدقائه وأقاربه ، وبرسائل أخرى من "دوم بيرو دي سوزا" "Pero de Susa" ، قائد القلعة ، بدأت تحضير نفسي .

عندما وصلنا إلى هرمز ، كانت الاستعدادات تجري لإعداد قافلة للسفر عن طريق فارس ؛ لأن البصرة كانت تحت حصار العرب ، ولم يكن المرء يستطيع التقدم من خلالها على الرغم من أنه الطريق الصحيح ، والقصير والسليم .

قد ذهب من ذلك الطريق "جواو جورج أرغوزيو" "Joao George Argosio" الذي اصطحب في ١٥٦٤م إلى الهند من القاهرة حوالي عشرين سجيناً برتغالياً ، كانوا قد اعتقلوا في مسقط ومعهم "جواو دي ليسبوا" "Joao de Lisboa" ، قائد القلعة ، وهو رجل طيب ، ورجل يدعى "جالياسو دي لابالا" "Gliaso de Lapala" ، وهو من "البندقية" ، وقد اعتمدت عليه .

قد مدحني الحاكم أمامهم ، ووعدني بتقديم كل العون والمساعدة التي يستطيعون تقديمها ، كانت هناك أيضاً كبيرة رئيسات "الدير" ، "ميسيا" "Mesia" ، من "جوس" وكانت تنوي السفر إلى القدس ، وهي تحمل مبلغاً من المال لإعالة بيت لحم ، وهي صدقات أعطاها إياها الكونت نائب الملك وأشخاص أتقياء آخرون ، كان يرافقها أرمني يدعى "سيماو فيرنانديز" .

غادرت هرمز في قارب صغير في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر يونيو إلى "بندر عباس" ، وتسمى هكذا بالفارسية والتركية ، وتعني دار الجمرك أو المكان الذي يتم فيه دفع الرسوم ، تقع على الجانب الفارسي من البر الرئيس على مسافة ثلاثة فراسخ تقريباً من هرمز ، انتظرت هناك الانتهاء من تجميع القافلة ، وتألفت القافلة من كثير من الفرس المسلمين ، والأرمن ، وثلاثة أو أربعة يهود ، وقليل من المسلمين الأتراك والعرب .

عندما تجمعوا جميعاً ، وأصبحت الجمال جاهزة بعد استئجارها لحمل الأحمال (إذ إنني كنت أحمل حمولة من القرنفل من أجل المرور باعتباري "سودلغر" (Sodagar) ، وهو الاسم الذي يطلق على التجار في تلك المناطق .

بدأنا الرحلة في يوم الأحد الثامن من شهر يوليو والشمس تشرق عند شرق الجنوب الشرقي وتغيب عند غرب الجنوب الغربي ، وقد انقضى كل ذلك الوقت والتجار يحاولون الوصول لاتفاق مع سائقي الجمال ؛ إذ إن قائد القافلة كان قد غادر مع جزء كبير منها إلى هذا الميناء ، وقد حددوا سعر التأجير على هواهم .

وصلنا إلى نهر يسمى بالفارسية (أبارك) ، وتعني بلغتنا الماء الضيق ، في اليوم الثامن عشر من الشهر آب بعد رحلة استغرقت ثلاثة أو أربعة أيام من بندر ؛ ويعود سبب هذا إلى أن سائقي الجمال هؤلاء ، هم أسوأ الكلاب ، وأشد الناس الذين شاهدتهم وضاعة ، لهذا السبب وافق

التجار على أن يدفعوا لهم كل الذي طلبوه ، لم تكن هناك طريقة لإبرام اتفاق معهم ، بأنه يتعين عليهم السفر .

وكانت هناك نزاعات في كل يوم ، وكانوا يعمدون إلى فك أربطة الحمولات ، ويرتكبون أفعالاً شريرة إلى حد لا يصدق ، ويرفضون الوفاء بالاتفاق الذي أبرموه في بندر ، والذي نص على دفع ستة وخمسين "شاين" عن كل حمولة حتى "كاشان" (كانت قيمة كل حمولة اثنين "فنتين" vintens وتصل قيمة الحمولات القادمة من تركيا إلى ضعف هذا المبلغ) .

بعد أن رأيت هذا التقدم البطيء ، والطبيعة الشريرة لهؤلاء الناس ، والسرعة التي كان يتعين عليّ السفر من خلالها ، فقد نفد صبري ، وتملكني اليأس ، وعزمت عدة مرات على العودة أدراجي ، كنت سأفعل ذلك بالفعل ، لولا الخدمة التي رغبت في أدائها للحاكم ، وهي أن أصل إلى "البرتغال" ، ومعي رسائله قبل سفينته وقبل وصوله .

أمضينا وقتنا بهذه الطريقة حتى يوم الإثنين التالي ؛ وذلك انتظاراً لقائد قلعة مجاورة أيضاً ، والتي كانت تتبع لسلطان ملك هرمز ، ليحصل رسومه ، والتي تبلغ ثلاثة "فنتين" vintens عن كل حمولة ؛ بسبب هذا التأخير والبطء سقطنا جميعاً مرضى ؛ بسبب حر منتصف النهار الشديد ، والذي كان مرتفعاً إلى حد لم تكن معه طريقة للعيش بما أن الخيام غير كافية .

ولم يكن غمر الرجال أجسامهم في الماء طوال النهار والليل مجدياً ، قد سمعت بعض أولئك التجار - ولا سيما الأرمني الذي كان يرافق

كبير رئيسات الدير "ولم يكن هناك مكان في العالم لم يزره" أنه لم يسبق له أبداً أن شاهد شيئاً كهذا .

لقد تقشر وجهي وساقاي ، وبدا وكأن بهما جروحاً ؛ نتجت عن هذه الأوضاع السيئة ، وفي هذه الحال من المشقة ، بقينا حتى يوم الإثنين ، حينما غادرنا المكان ، وكان ذلك في الثالث والعشرين من يوليو ، (وكان ذلك بعد أن) دفعنا الرسوم ، وقدمنا هدية إلى قائد القلعة تمثلت في قارورة من ماء الورد ، ومخروطي سكر وعمامتين .

كان معظمنا مصابين بالحمى ؛ بسبب حر النهار ، وأصيب آخرون "بالدسنتاريا" ؛ بسبب نزولهم إلى الماء ، لكي أحمي نفسي من الريح المهلكة كالنار – وهي أكثر ما ألحق الأذى بنا ، والتي يسمونها في هرمز بالشمال– ويقولون إنها تهب من البصرة وتلك الجزر المجاورة ، الجزائر .

ارتديت تنورة كتانية واسعة ، تغطي أطرافي السفلية ، ووضعت على وجهي فوطة مبللة بالماء ، وجعلني هذا أشعر ببعض البرودة ، وشعرت ببعض الراحة في جسدي ؛ لأن طبيعة هذه الريح تجعلها إذا تخللت القماش ، أو تعرضت لتخفيف جراء مادة غير ملتصقة بالجسم ، فإنها تكون أخف تاثيراً ، ولا تسبب حروقاً .

بعد أن غادرنا المكان ، أمضينا الليل في سهل واسع تحيط به سلاسل جبال هائلة ، وهناك نمنا تحت حراسة جيدة ، وكنا نطلق النار طوال الليل من ثلاث بنادق "مسكيت" كانت معنا إذ إن المكان كان يعج باللصوص .

في اليوم التالي ، وفي الصباح ، سافرنا خلال تلك الجبال بطول نهر ، ماؤه

مالح يجري بين الجبال ويستمر حتى نهايتها تقريباً ، يقال إنه (أي هذا النهر) يأتي من لسان يشكله البحر من مضيق هرمز في ذلك الجانب من فارس .

واصلنا طريقنا بين الجبال (التي استمر صعودها حتى السماء في بعض الأماكن ، وفي أماكن أخرى ، كانت توجد منخفضات ، وكهوف كبيرة ، تشكلت جراء النشاط الهائل للطقس ، مع فيضانات المياه الجارفة التي تنحدر متدفقة فيها خلال الشتاء ، في حين كانت بعض الأماكن الأخرى منبسطة ؛ نتيجة جريان الماء ذاته .

وبدت وكأنها من صنع الإنسان) خلال النهار وحتى الليل حيث أقمنا مخيمنا وسط الجبال على منطقة مستوية صغيرة تشكلت هناك ، وعرضنا لنقص في المياه خلال تلك الليلة ، وواصلنا المراقبة كما فعلنا سابقاً .

في اليوم التالي ، وقبل شروق الشمس بنصف ساعة ، غادرنا المكان (إذا لم يكن هناك مرعى للجمال أيضاً) بين الجبال والنهر ، وكان اتجاه بوصلتنا يتغير ، ولكننا كنا نتجه أساساً نحو الشمال .

عند حلول الليل أقمنا مخيمنا في سهل عريض عند سفح جبل ضخم ؛ حيث قضينا الليل ، ولكن الماء كان رديئاً للغاية ، وحرصنا على القيام بأعمال الحراسة ذاتها ببنادق "المسكيت" ، على الرغم من كل هذا نجح اللصوص في سرقة كيس نيلة وكيساً آخر به ملابس قطنية مصبوغة ذات نوعية متدنية يتم إحضارها من تلك الأنحاء إلى الهند .

كنت دائماً أؤيد الرأي القائل إن سائقي الجمال كانوا على علم

بالسرقة ، وأتاحوا الفرصة لها ؛ لأنهم جعلوا القافلة تخيّم في مكان يعج باللصوص ، مع توزيع كل مجموعة من التجار على مسافة طلقة بندقية "مسكيت" عن الأخرى ، وكل حمولة من الحمولات التي كانوا ينقلونها ، ومقسمين القافلة إلى سبعة أو ثمانية أقسام ، كان من غير المجدي للتجار أن يشتكوا ، ويقولوا إن عادة القوافل دائماً أن تخيم معاً في دائرة .

بما أنني ورفاقي كنا الأقرب إلى الجبل ، وفي المكان الأخطر بوجود حوالي ثلاثين حمولة ، لم يجرؤ اللصوص على الحضور إلينا ؛ خوفاً من بنادق "المسكيت" التي كنا نتسلح بها ، وكنت أحمل واحدة منها وكان رفيقي "أراغوزيو" يحمل واحدة أخرى .

في اليوم التالي ، وفي العصر وقبيل حلول الظلام ، فككنا مخيمنا ، وواصلنا المسير بين جبال ليست شاهقة كالجبال التي مررنا بها سابقاً ، ودون أن يكون هناك نهر بما أن النهر ينتهي عند مكان التوقف ذاك .

بعد ساعة من شروق الشمس ، وصلنا إلى قلعة تسمى "ثيزير" ، وكان قائدها مسلماً ، وهو صهر آخر ملوك هرمز ، ولهذا لا يزال سلطانه قائماً ، بالقرب من القلعة توجد قرية بها حوالي خمسين مواطناً ، وبيوتها من الطين ، ويقطنها مسلمون فرس ، وهم قوم فقراء يعيشون على التمر من أشجار النخيل ، التي يوجد الكثير منها ، وعلى تربية الدواجن والأغنام ، وكانوا يحصلون منها على الحليب ، ويصنعون الجبن ويبيعون منتجاتهم للمسافرين ؛ إذ إن هذا طريق يكثر عليه المسافرون في طريقهم إلى أجزاء كثيرة من فارس .

أقمنا معسكرنا على قمة تل عريضة قبل القرية بقليل حيث نظمنا حراسة في تلك الليلة أيضاً ، وعملنا على إطلاق النار من بنادق "المسكيت" التي نحملها ، سرعان ما جاء أهل القرية لبيع الكثير من العنب تكاد جودته تصل إلى جودة ما لدينا من أعناب ، وقد اشتريت منه بالطبع ؛ لأنني كنت أتوق للفاكهة .

صبيحة اليوم التالي حصلنا على عنب أيضاً ، وتين أبيض رائع ، كالتين الموجود لدينا ، وعلى دواجن وماعز ورمان أخضر ولبن رائب أنعشنا أنفسنا به ، وعوضنا الأيام الماضية التي تناولنا فيها طعاماً رديئاً ؛ إذ إن هذه كانت طرقاً يعيش عليها قليل من الناس .

حصلنا على أفضل ماء حتى ذلك الوقت من نهر يجري أسفل التل بقليل ، كنا نتمتع دائماً بوجود الفواكه هناك ، ولكن كانت هناك حرارة منتصف النهار وريح الشمال التي تكاد تفتك بنا ، وكانت تبدأ دائماً في منتصف النهار ، وتخف حدتها مع مغيب الشمس .

في عصر يوم الأحد التالي ، بعد يوم الخميس الذي وصلنا فيه إلى هنا ، والذي كان يصادف السادس والعشرين من شهر يوليو ، توفي رفيقي "جواو جورج" ، وكان معه ثلاثة أتراك كانوا يخدمونه ويساعدونه وقد وضع نفسه في أيديهم إلى حد كبير ، ولا سيما في يدي المدعو "الخواجا بيرم" ، الأمر الذي جعله لا يفعل أي شيء سوى الذي أراده هذا التركي ، أو قاله له ؛ إذ إن "جواو" كان ضعيفاً نوعاً ما في حكمه على الأمور .

نظراً إلى أنه قد تم نقله على نحو مفاجئ في يوم السبت – على الرغم

من أنه لم يكن في حالة سيئة للغاية قبل ذلك - وتوفي في يوم الأحد ، فقد افترضت أن التركي قد أعطاه شيئاً في قليل من اللبن الرائب ، وجعله يتناوله عندما كنت خارج الخيمة ، بعد ذلك بدأ يتقيأ ، ولم تستقر حالته حتى لحظة وفاته ، كان هو مالك كل البضائع التي كان يحملها معه ، والتي كانت قيمتها تقدر بأربعة أو خمسة آلاف "كروزادوس" .

على الرغم من أنه كان يريدني أن أتصرف كمنفذ لوصيته ، علاوة على التركي ، ورجاني كثيراً لأفعل ذلك ، إلا أنني لم أرغب في القبول ؛ لأنني خفت من أن يفعل التركي الشيء ذاته بي - كما أنني لم أشأ الموافقة على أن يتولى رفيقي الآخر - "جالياسو" - القيام بذلك ؛ لأنه لم يرغب أبداً في أن نقوم نحن فقط بهذه المهمة .

بل يتعين علينا دائماً أن نقوم بها مع التركي ، لهذا السبب أصبح "الخواجا بيرم" منفذ وصيته ، والسيد المطلق لكل شيء ، وتولى على الفور مسؤولية كل البضائع والمال وغيَّر ديانة جاريتين ، كان "جواو جورج" يصطحبهما ، إلى الإسلام وغير اسميهما ، وفعل الشيء ذاته بعبد ذكر ، وأعتقهم جميعاً .

لم يرد قائد القافلة أن يتم دفن "جواو" إلى أن جاء قائد القلعة ، وأرسل له على الفور ، وفور إعطاء التصريح أمرت اثنين من الأرمن من الذين كانوا في القافلة بحفر قبر له ، لم يضع أي مسلم أو التركي أو ورثة ممتلكاته يداً عليه ، ولذلك وبمساعدة الرجل من "البندقية" لففناه في كفن ، وذهبنا لندفنه في تلك الليلة .

قد رغب قائد القلعة في إرسال كل ممتلكاته إلى هرمز بما أنها كانت

ممتلكات خاصة بنصراني ، وقد ذهبت سراً لأطلب منه القيام بذلك ؛ لأن "جواو" توفي في منطقة تابعة لملك هرمز ، ولكن ومقابل مائة "لارين" أعطاه إياها الأتراك (ويساوي كل واحد منها أربعة فينتن) ، أخفق في أن يفعل ذلك ، علاوة على بندقية "المسكيت" الخاصة به وأشياء أخرى قليلة أخذها منه .

في اليوم التالي – والذي صادف الثلاثاء الأول من أغسطس ، وفي الساعة الثامنة صباحاً ، نزعت القافلة ، وواصلنا السير بين سلاسل جبال متباعدة ، وأقل ارتفاعاً عن الجبال السابقة .

في العصر ، نصبنا مخيمنا في سهل عند سفح جبل قرب بحيرة ، كونتها مياه الأمطار ؛ حيث تعرضنا لعاصفة ، تخللتها أمطار غزيرة ، في هذه المناطق كنا نشهد القليل من فترات العصر الشتوية التي يسببها طقس الهند التي يصل الشتاء فيها إلى نهايته في هذا الوقت ، وينتقل إلى طقس هرمز الآخر ، ولم نكن نشعر بالأسف على ذلك ؛ إذ إنه كسر إلى حد ما قسوة الرياح الرهيبة التي تسبب لنا في عذاب شديد ، ثم وصل أحد أشقاء قائد قلعة "ثيزير" مع اثنين من الفرسان وحوالي أربعين أو خمسين رامي سهام من المشاة الذين جاؤوا لمرافقتنا ؛ لأن هذا الطريق خطير للغاية ؛ بسبب اللصوص .

قد قاموا بالمرافقة هذه مقابل مائة وخمسين "شاين" دفعها لهم المسلمون والمسافرون في القافلة ، في تلك الليلة قاموا بحراستنا بطريقة جيدة مع إشعال بعض النيران التي شاهدناها في الجبال .

غادرنا المكان في اليوم التالي قبل الفجر ، بعد أن قطعنا مسافة

فرسخين ، نصبنا مخيماً في الساعة العاشرة صباحاً في سهل حيث تناولنا الطعام ، في الليل فككنا المخيم مجدداً ، بعد ساعة من الغروب (فقد كنا نسافر خلال هذين اليومين باتجاه الشمال) وصلنا إلى مسافة قريبة من سلاسل جبال صغيرة في سهل غير مأهول .

في اليوم التالي ، وبعد ساعتين من شروق الشمس ، ومن خلال السفر باتجاه الشمال الغربي ، وصلنا عند الظهر إلى نهر ، ماؤه عذب للغاية بالقرب من منطقة لزراعة الخضروات ، تسمى "كاكان" "Cacan"(أ) التي كانت فيها خيمة ، عاش فيها مسلم فارسي عمل بالتعاون مع زوجته على تنظيم وبيع المؤن للمسافرين ، هذه هي بداية أراضي "الشاه طهماسب" ، وجدنا هنا بطيخاً رديئاً للغاية ، ولكننا وجدنا دجاجاً وديوكاً صغيرة ، وأغناماً جيدة كانت لنا تعويضاً عن الأيام الثلاثة الماضية التي أمضيناها ، ونحن نتناول الأرز والزبد فقط لعدم وجود أي مكان يبيع أي شيء .

في عصر ذلك اليوم ، ودعنا الحراس الذين رافقونا إذ جرت العادة على ألا يرافقوننا أبعد من ذلك بما أن الطريق أمامنا كان آمناً ، أعطيت رسالة إلى القائد ليسلمها إلى الحاكم ورجوته أن يرسلها إلى هرمز مع جندي مشاة كان سيرسله ؛ لأنه (أي الحاكم) كان سيدفع بسخاء مقابل الرحلة ، في هذه الرسالة قدمت تقريراً عن وفاة رفيقي ، والاستياء الذي شعرت به إزاء بطء القافلة ، وخوفي من أن يداهمني الشتاء في الطريق ، وأن هذا يشكل عقبة كبرى أمام العجلة والاستعجال اللذين أوصاني بهما .

(أ) كاكان : مدينة أراضي "الشاه طهماسب" .

من هنا فصاعداً ، بدأنا نشعر ببعض البرودة في الصباح الباكر ، كان الاختلاف طفيفاً خلال النهار ، وكانت الرياح تهب في وقتها المعتاد ، من هنا توجه سائقو الجمال إلى منازلهم التي تبعد مسافة مسيرة يوم واحد ، لهذا السبب تأخرنا عن يوم جمعة وصولنا ، الذي كان يصادف الرابع من شهر أغسطس ، حتى يوم الإثنين التالي السابع من أغسطس .

عندما انطلقنا في الساعة التاسعة صباحاً ، عندما اجتزنا مسافة فرسخ ونصف نصبنا مخيمنا بطول نهر ، ماؤه عذب للغاية ، قرب بستان يسمى "دشتيبار" ، وهو كبير وبارد ، وبه فواكه كثيرة ؛ حيث كان يوجد مسلم فارسي كقائد لتلك المنطقة ، تألف المكان من منازل صغيرة قليلة من النوع الموجود هناك ، ويسكنه مسلمون فرس وفقراء ، مع ثلاثة أو أربعة فرسان وحوالي عشرين إلى ثلاثين من رماة السهام المشاة .

كان وجهي محروقاً ، وقد أنهكتني حرارة منتصف النهار ، وهددتني عدة أنواع طيف من الحمى .

عندما ترجلت من الجمل ، سقطت مغشياً عليّ على الأرض ، وقد ألمت بي أشد أنواع الحمى في العالم ضراوة ، وبقيت على هذا الحال حتى العصر ، كان الطقس حاراً وجافاً إلى حد أن الطريقة الوحيدة لتبريد نفسي هي بشرب الماء البارد ، ومن ثم أدخل يدي في فمي لأتقيأ الماء مجدداً .

في اليوم التالي ، كنت مستلقياً تحت شجرة ، وعلى مسافة قريبة من القافلة ، عندما جاؤوا مسرعين ، ورفعوني لأتصرف ؛ لأن بعض رماة السهام التابعين للقائد استولوا على بندقيتي "المسكيت" ، عندما

اقتربت منهم كانوا يسكون بها بالفعل داخل البستان ، وكانوا يسيئون معاملة تركي كان يحاول التشبث بها .

ذهب باشا القافلة (وتعني قائد القافلة) - والذي كان مسلماً فارسياً يُدعى "الخواجا حيدر" - والأتراك والفرس الآخرون المسافرون مع القافلة للتحدث إلى القائد ، وليقدموا شكوى بخصوص الجريمة التي تم ارتكابها بحضورهم ، وطلبوا منه إعادة بندقية "المسكيت" لي ؛ إذ إنني برتغالي مرسل من قائد هرمز برسائل "للشاه طهماسب" ، وأنهم قد تلقوا تعليمات بعدم السماح بتعرضي لأي اعتداء .

كان لديهم الكثير من الأقارب في هرمز ، وهو أمر يستطيع القائد من خلال تبديد شكوكه ، ولهذا السبب توسلوا له العمل على إعادة بندقيتي دون مزيد من الهرج ، وأن "البندقية" تخص قائد هرمز نفسه ، وقد أعارني إياها لقيامي بهذه الرحلة .

ورد القائد بأن عليهم أن يبرزوا له الرسائل مغلقة وخاصة ولا يمكن إخراجها ، قال إن في القافلة مسافرين يهود ، وبرتغاليين ، وأرمن لا يملك السلطة للسماح لهم بالمرور ، قال إنه سيرسل رسالة إلى قائد آخر يبعد مسيرة ثلاثة أيام ، وأنه إذا أمر بالموافقة على مرورهم ، فسيسمح لهم بالمرور ، إذا لم يوافق ، فسيستولى على كل ممتلكاتهم ، وسيعيدهم إلى هرمز .

تم تبادل كثير من الحديث حول هذا الأمر ، وبما أن قائد القافلة والآخرين كانوا على علم بأن هذا كله ليس سوى مساومة للحصول على شيء منهم ، وهو ما فعله (القائد) لكل القوافل التي تمر بذلك

الطريق ، وقد أعطوه خمس عمائم ، وأربعة أحزمة ومخروط سكر ، عند إعطائه هذه الأشياء تملكه الرضا ، وأصبح أكثر ليناً ، وأبلغهم بأن عليهم الذهاب إلى حيث تم الاستيلاء على "البندقية" "المسكيت" ، وهو مكان كان يبعد مسافة قليلة من هناك ، وأن مسلماً فارسياً آخر يعيش هناك ، وعليهم أن يطلبوا منه إعطاءهم "البندقية" .

انطلق باشا القافلة وتركيان آخران وأرمني وقضوا معه الليل كله تقريباً ، وتبادلوا هناك مع الرجل الآخر الأحاديث والمناقشات ذاتها ، في خاتمة المطاف (وبسبب وجود ثلاثة آخرين في طريقهم برسائل إلى مناطق نائية في الأقاليم ، وكانوا يخافون من أن يتم اكتشافهم ، وأنه في حال وصول ذلك إلى مسامع "الشاه طهماسب" فسيسيء معاملة القوافل والتجار) فقد وافقوا أخيراً على السماح لنا بالذهاب ، وعلى إعادة بندقية "المسكيت" لنا ، ولكن يجب إرسال هدية له .

عندما تمت الموافقة على هذا ، عادوا إلى القافلة عند الساعة الثانية صباحاً ، أرسلوا إليه بعد ذلك عن طريق أحد الأرمن عمامتين وحزامين ، وأخذوا منه ما أحضره فور وصوله ، وأبلغوه بأنه إذا عاد في الصباح سيرسلون بندقية "المسكيت" .

لهذا السبب أدرك باشا القافلة والآخرون الذين كانوا في القافلة ، أنهم لصوص وأنهم أرادوا تطويل الأمر حتى يتمكنوا من الاستيلاء على مال منه ؛ وليسرقوا fardo ملابس كما فعلوا مع القافلة السابقة .

صمموا على الانطلاق في الصباح دون انتظار أي أخبار جديدة ، قالوا لي أنهم رأوا بوضوح الأمر ، الذي كان يتم التآمر بشأنه ، وأنه يتعين عليّ

أن أكتب إلى قائد هرمز ، التي لم تكن بعيدة تماماً ، سائلاً إياه عما إذا كان يستطيع الحصول على تكفير عن الجريمة .

في اليوم التالي ، وعند الاستيقاظ ، وبعد أن تم تحميل الجمال ، انطلقنا وواصلنا السفر طوال اليوم حتى حلول الليل ، حيث أقمنا معسكرنا في سهل قريب من نهر آخر .

في اليوم التالي ، والذي كان يوم خميس ، وفي الساعة التاسعة صباحاً ، واصلنا سفرنا مجدداً حتى الليل ، وقد وصلنا إلى سهل آخر غير مأهول ، به ماء رديء للغاية ، في صباح الجمعة ، أحسست ببرد شديد إلى حد أنه جعلني في حال سيّئ للغاية ، وألمت بي حمى لم تفارقني أبداً ، اضطررت في الحادية عشرة صباحاً إلى أن أجعل الشاب الجاوي الذي اشتريته يفصدني ؛ إذ إنه كان بارعاً للغاية في ذلك .

بعد ساعة من ذلك الوقت ، غادرنا ذلك المكان ؛ خلافاً لرغبتي ؛ بسبب الحمى الشديدة التي ألمت بي ، على الرغم من أنني كنت أسافر داخل سلة من أغصان لدنة (هودج) ، تشبه هذه السلة منزلاً صغيراً ، مشيداً من عصي ، ومغطى من أعلى بأقواس للحماية من الشمس ، وبها مكان لشخص ، وتوضع على أحد جانبي ظهر الجمل ، في حين توضع على الجانب الآخر حمولة أو سلة أغصان أخرى .

عندما يسافر شخصان على سلتين محمولتين على ظهر جمل ، يسمى المسلمون هذه السلال (قصبات) cassavas ، شعرت ببعض الراحة ؛ إذ إن حرارة الشمس لم تصلني ، سافرنا حتى العصر ، وعند ذلك أقمنا مخيماً في سهل غير مأهول .

كنت عندئذ قد بلغت درجة شديدة من الضعف ؛ بسبب الحمى ومصاعب الرحلة والصوم (لم أتناول أي شيء لمدة أربعة أيام خلافاً للسكر والكعك والماء) إلى حد أن الهزال بدا واضحاً عليّ ، عندما وجدت نفسي في هذه الحال ، استدعيت رفيقي ، وقلت له إنه يستطيع أن يرى بوضوح ما وصل إليه حالي ، وأنني لا أتوقع أن أبقى على قيد الحياة ، ويجب أن نفتح أحد أحمالي حتى أتمكن من أن أستخرج أشياء قليلة ذات قيمة وأسلمها له .

متى توفيت فسيواجه خطورة عدم التمكن من إنقاذ أي شيء ؛ لأن عادة المسلمين أن يأخذوا للملك كل ممتلكات الأجانب الذين يموتون على أراضيهم ، ناولته أشياء قليلة ، وحلي صغيرة عليها ياقوت ، ورجوته أن يحاول الذهاب إلى "البرتغال" وأن يأخذ الرسائل المرسلة من الحاكم والقائد .

سلمته هذه الرسائل أيضاً بما أنه سيحصل على مكافأة جيدة مقابل تسليمها ، طلبت منه أن يصحب الفتى معه ، وأن يعتقه فور وصوله إلى بلاد النصارى ؛ إذ إن الأمر الأكثر أهمية هو أن ينقذه ، وإذا لم يفعل ، فإنني لا أدري ما أفعله به .

طوال الليل كنت أشعر بكرب شديد ، وكنت أدعو السيدة العذراء ، ودموعي تنهمر بغزارة ، أن تسمع توسلات ابنها المبارك ، ولا تجعلني أموت متخلياً عني في تلك الأماكن المهجورة .

في صباح يوم السبت ، شعرت بتحسن كبير إلى حد أنني اعتقدت أنني شفيت ، وتناولت جزءاً من دجاجة في طعامي ، وهو أمر لم أتمكن من الإقدام عليه لعدة أيام ، هكذا أثبت ليسوع أنني أتحسن إلى حد أنني

شعرت خلال يومين أو ثلاثة أيام أنني قد شفيت تماماً ، ولم أعد أشعر بالحمى بفضل كرمه ، ومجده ، وكرم ومجد السيدة العذراء ، والدته .

فككنا معسكرنا من هنا مع ارتفاع الشمس في السماء ، وواصلنا السفر حتى منتصف النهار ؛ حيث أقمنا مخيمنا في سهل ، كان به ضريح عظيم ، مشيد كمنزل مربع ، وله أربعة مداخل من الطابوق ، ولكن لم يكن فيها أبواب ، وكان به برج على قمته كما هي عادة جميع المسلمين الذين يستطيعون تشييده .

واجهنا طقساً رديئاً للغاية ، وفي منتصف الليل واصلنا مسيرنا من جديد ، وخلال النهار نزلنا لنخيم قرب قرية حيث أمضينا اليوم كله فيها ، هنا أصيب جميع الذين كانوا في القافلة بالمرض ؛ بسبب تغير الطقس ؛ إذ إن الطقس بارد للغاية خلال الليل وأما خلال النهار فهناك الحرارة العادية ، تم فصد الجميع هنا بعد ذلك ، وقد كان ذلك مفيداً لهم .

في الساعة الثامنة من صباح يوم الإثنين ، واصلنا سيرنا حتى الليل ، عندما وصلنا إلى مكان صغير يسمى "سرجاو" (وكنا نسافر خلال هذه الأيام باتجاه غرب الشمال الغربي وسط سلاسل جبلية عريضة) ، يقع إلى الغرب ، على أرض منبسطة ، ويقطنه حوالي خمسين أو ستين شخصاً (وكان هناك أيضاً) ، كثير من المنازل المهدمة ، الأمر الذي أوضح بجلاء أن هذه كانت قرية عظيمة وقديمة ، كان يحكمها ملك قوي ، استولى عليها منه "الشاه إسماعيل" وتدهورت ، وأصبحت أطلالاً خلال حكمه .

يسكـن القريـة مسلمون فرس ، ذوو بشرة شقراء ، ويتسمون بالوسامة ، في المدخل يوجد جسر مغطى ، ومسجد به ماء عذب للغايـة ، يمتد من هنا شارعان ، تقوم على جنبيهما أشجار الصنوبر التي تعطــي ظــلاً رائعاً للغاية ، يصل طول الشارعين إلى طول مساري الجياد ، اللذين ينتهيان عند مدخل المكان ، وجدنا هنا الكثير من الانتعاش ؛ بفضل العنب الأسود وعنب أبيض آخر طويل لا بذور فيه ، وطعمه لذيذ للغاية ، ووجدنا الدجاج والديوك والأرز والدقيق ، وجميع اللوازم الأخرى .

في عصر ذلك اليوم جاء عدد كبير من مسلمي القرية إلى القافلة ، وبدأ واحد منهم نقاشاً مع تركي من القافلة ؛ لأنه رفض الإشادة بعلي وطائفته ، وسَبَّ عمر وأبا بكر ، كان سيتعرض لمعاملة سيئة لولا تدخل آخرين ، قاموا بتهدئته .

بعد وقت قصير من ذلك جاء آخر ، وهو مسلم عجوز ، يستند إلى عصا ، ووجه عظة للجميع بصوت عالٍ بأنه يتعين عليهم ، أن يشيدوا ، ويمجدوا طائفة عليّ ، وأن يسبّوا الآخرين جميعاً .

هؤلاء الفرس أكثر تعصباً لعقيدتهم من المسلمين الآخرين ، كما سيتم ذكره لاحقاً .

بقينا هنا من يوم الإثنين عندما وصلنا – وكان يصادف الرابع عشر مـن شهر أغسطس – وحتى يوم الأربعاء حيث غادرنا المكان عند الظهر ، قد تم هنا أيضاً فصد عدد كبير من المسافرين .

كانت كبيرة رئيسات الدير مريضة لعدة أيام ؛ ونظراً لتقدمها في

السن قمت حتى الآن بتأجيل عمليات الفصد ، لكن هذه العملية أصبحت (الآن) ضرورية ؛ لأن الحمى التي ألمت بها كانت تزيد بدرجة كبيرة (كما هو الحال بالنسبة) لواحدة من المرأتين اللتين كانت تصحبهما معها من الهند .

حيث إننا بدأنا المسير ودرجة الحرارة في منتصف النهار أقل شدة والبرد شديد بالليل ، فقد سافرنا لمسافة فرسخ ، ووصلنا إلى مكان يسمى "بيني" "Bini" ، وهي قرية صغيرة بها الكثير من الحدائق والكروم والبساتين التي تحتوي على كل أنواع الفاكهة وكثير من أشجار السرو ، وبقينا هناك طوال يوم الخميس .

هنا جاءني رجلان وامرأة ، وهم من الفرس ، يقطنون ذلك المكان ، كانوا يعانون من مرض في العيون ، وجاء آخرون يعانون من أمراض أخرى ، وطلبوا مني أن أعالجهم ، قد حدث هذا لي في كل الأماكن المأهولة التي وصلنا إليها ، فور وصولنا وإقامة مخيمنا ، أجدهم معي ، وهو أمر أصابني بالتوتر أكثر من بطء تقدمنا ، أعتقد أن هذا نتج عن اثنين من سائقي الجمال ؛ بسبب واحد عالجته في "أربارك" ، كان يعاني من مشكلة في كتفه الذي قطعه آخرون ، وأزالوا قطعة كبيرة من العظم ، ولكنه شفي خلال سبعة أو ثمانية أيام .

هكذا قمت بمعالجة جميع الذين كانوا في القافلة ؛ إذ إن الغالبية تم فصدهم مرة أو مرتين ، وقمت بمعالجة القروح ؛ لأنني كنت أسافر ، وأنا أحمل معي مراهم ، وأشياء أخرى لأي مشكلة ، كان الجميع في

القافلة ينادونني ولا يعرفونني إلا باسم "الحكيم" ، والتي تعني الطبيب بالفارسية والتركية والعربية .

لهذا السبب كان جميع الذين بالقافلة يتعاملون معي باحترام ، بمن فيهم سائقو الجمال الذين لم يكونوا يحترمون أي واحد من التجار ، بل إنهم كانوا في معظم الأيام يعتدون عليهم بالضرب ، ويهينونهم .

في يوم الجمعة التالي ، الثامن عشر من الشهر ، وعندما كان القائد يتلقى هديته (إذ إنه كان هناك "قادة" في جميع هذه الأماكن ، وقد اعتادت القوافل التي تمر عليّ تقديم هذه الهدايا) فككنا مخيمنا ، بعد وقت قليل من منتصف النهار (وكنا قد قطعنا حوالي فرسخين ؛ إذ إننا نادراً ما كنا نقطع مسافة أطول من ذلك ، وفي بعض الأحيان أقل من فرسخين) ، أقمنا مخيمنا في سهل قريب من طاحونة ؛ حيث أمضينا ما تبقى من اليوم .

في يوم السبت كانت كبيرة رئيسات الدير ضعيفة للغاية ؛ بسبب مرضها ؛ ومن مشاق الرحلة ؛ وعمرها المتقدم ، والذي لم يساعدها أيضاً (إذ إنها كانت قد تجاوزت الخامسة والستين من العمر) ، وكنت أدرك من قياسي نبضها أنها ما كانت ستبقى على قيد الحياة في اليوم التالي ، جعلتها تقوم بجرد لجميع المجوهرات واللآلئ والأحجار الكريمة ، وقطع الذهب التي احتفظت بها سراً في خيمتها .

أصبح صديقي "جاليسو" و"سيماو فيرنانديز" ، وهو الأرمني الذي رافقها ، وأنا منفذين لوصيتها ؛ حيث احتفظ كل واحد منا بنسخته من الجرد والوصية ، وقد وافقت على هذا .

قد أوضحت (في هذه المستندات) أن كل شيء يجب تسليمه في حلب إلى كبير رؤساء الدير في القدس إذا كان هناك ، وإذا لم يكن موجوداً ، يجب علينا أن نذهب إلى موضع الذخائر ، والآثار المقدسة لتسليمها هناك ، وأن كل شيء يجب إنفاقه على المبنى في بيت لحم ، قد كانت هذه هي نيتها عندما طلبت ذلك ، ونية أولئك الذين وهبوا تلك المجوهرات .

تم كل هذا بيد "جالياسو" ، وعملت على أن يتم تسليم كل شيء له داخل كيس ، كانت كبيرة رئيسات الدير تحمل المجوهرات فيه ، قد ختمت الكيس بخاتمي أولاً ، وأقر في المستندات ذاتها أنه استلم كل شيء ، وأصبحت هذه الأمانات بحوزته ، ووقعنا جميعاً على ذلك ، قد فعلت هذا ؛ لأن كبيرة رئيسات الدير لم ترغب في أن يكون الكيس في عهدة الأرمني ، الذي كان يرافقها ، لم يكن هذا الأرمني يرتاح لي .

قد أبدى اعتراضات كثيرة ، وصاح داخل الخيمة ؛ ولكنني قمت بتهدئته لتفادي سماع باقي المسافرين في القافلة للحديث ، واكتشاف كل وضياع الأمانات ، قد فعلت هذا بأكثر الكلمات رقة ، وأكثر الأساليب لطفاً ؛ إذ إنني لم أرغب في أن تكون هذه الأمانات بحوزتي للأسباب التي قدمتها وهي أنني برتغالي ، وكنت أخشى من أن أضل الطريق في تركيا ، كما حدث للكثيرين .

وكان ذلك سيهدد بفقدان كل شيء (على الرغم من أن كبيرة رئيسات الدير أرادت بكل الطرق أن تكون الأمانات بحوزتي ، وليس في عهدته بأي حال من الأحوال) ، كنت أريد منها أن توافق على أن

يتولى رفيقي رعاية الأمانات ؛ إذ إنه رجل أمين للغاية ، ويستحق ائتمانه على تلك الوصايا كأي واحد منا .

حيث إنه أقر في قائمة الجرد أنه يحتفظ بتلك الأمانات ، كنا جميعاً رفاقاً لا نرغب في أن نجعل تلك الممتلكات - التي حصلت عليها وجمعتها تلك السيدة العجوز الطاهرة - تتعرض للضياع ، قلت أشياء أخرى كثيرة ، جعلتها بواسطتها توافق ، وتذعن لضرورة وضع الأمانات في عهدة "جاليسو" .

قد سبب له هذا قلقاً كبيراً خلال الرحلة ، وقد استحق ذلك ؛ لأنه لم يكن يثق بي ، قد رتبت كل شيء بتلك الطريقة بحيث لا يسمع أي أحد من الذين كانوا في القافلة بما جرى ، بهذه الكلمات الرقيقة ، تمكنت من تهدئة الأرمني ، وقد كلفني هذا الأمر جهداً كبيراً ؛ لأنه كان يريد بكل الوسائل أن تكون كل هذه الأشياء في عهدته .

إنني أعتقد حقاً أنه لو لم يرتب الرب رحلتي هذه بحيث أشارك في هذه المفاوضات ، فإن هذا الكنز كان سيضيع ، ولن تكون هناك وسيلة لاستعادته ، ولظهرت فقط ملابس قليلة وأشياء بسيطة لإعطائها للكنيسة ، إنني أؤمن بهذا ؛ بسبب موقف الرجل الأرمني المتشدد ، وعدم ثقة كبيرة رئيسات الدير به ؛ إذ إنها قالت إنها كانت تفضل وضع تلك الأمانات في مكان بحيث لا يتم العثور عليها أبداً ، على أن تتركها في عهدته .

قد كانت على حق تماماً ؛ إذ إنها عرفته جيداً في مناسبة أخرى ، رافقها خلالها ، فور وصولنا إلى "أرمينيا" - التي يتوفر فيها النبيذ بكثرة - لم

يتوقف عن السكر ، وقد سبب لي هذا قلقاً شديداً ، قد كان "الفينيسي" أكبر لص في العالم – طبقاً لما تم اكتشافه لاحقاً – ولذلك كان الكنز سيقع في أيد أمينة لو لم أتدخل على نحو صحيح ، بصعوبة بالغة توليت مسؤولية الرجلين .

فقد جعلتها تجري جرداً علنياً لحمولة من جوزة الطيب ، ونصف حمولة من الفلفل وبضائع أخرى ، وأثاث مذبح ، وزخارف للكنيسة كانت تحملها معها أيضاً ، وذلك بحضور جميع الأتراك والمسلمين الذين كانوا في القافلة ، وجعلتها تقول وتقر أمامهم أنها لم تكن تملك أو تحمل أي شيء آخر خلاف ذلك ، وأنها جعلتنا نحن الثلاثة منفذين لوصيتها ، وسنحمل الصدقات إلى القدس التي كانت تحمل الأشياء لتوصلها إلى القدس بنفسها .

في تظاهر آخر أعطيت هذه الوثيقة لتركي بارز في القافلة ، يُدعى "الخواجا راباداو" ليحتفظ بها ، كانت تدور داخل القافلة ، فقد اختلق الإشاعة ثلاثة يهود ، كانوا ضمن المسافرين في القافلة ، وكان ذلك أسوأ أمر رأيته في حياتي ، وجاء في الإشاعة أن كبيرة رئيسات الدير تحمل مجوهرات قيمتها خمسة أو ستة "كروزادوس" ، وأنهم يعرفون ذلك جيداً ، وقد سمعوا بها مرات كثيرة ، وأن أفضل إجراء يمكن الإقدام عليه هو أن نؤخذ كأسرى ، وأن يتم تسليمنا إلى التركي ، وإلا استولينا عليها كلها لأنفسنا .

كتبت عن كل هذا إلى قائد هرمز وعن الهرطقات الكثيرة الأخرى التي قيلت ضد عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة ، والفظاظة ضد كبيرة

رئيسات الدير ، والكلمات النابية ، طلبت منه (إذ إن شخصين من "كاشان" كانا سيعودان إلى هنا) . أن يعاقبهم بما يستحقون ، نصحته بعدم السماح ليهودي واحد بدخول القلعة ، وأنه سيقدم خدمة جليلة للرب والملك عندما يكشف لهم ما سمعه بشأنهم ، هم أشد الناس خيانة في العالم ، ولا يقولون الحقيقة ، ولا حياء لديهم أو فضيلة أو أي خصال حميدة .

قد كانوا يمثلون لنا أعداء أكثر من الأتراك أنفسهم ، إنني أحتفظ بعلاقات طيبة للغاية مع المذكور أخيراً ومع المسلمين في القافلة ، قد أخبرتهم بشكل احتفالي كبير أن كبيرة رئيسات الدير لم تكن تحمل معها ، على حد علمي ، أكثر مما أعلنته علانية وبحضورهم ، لم يقولوا شيئاً ، وصدقوا ما قلته أكثر من تصديقهم ، ما قاله اليهود ؛ إذ إن الرب لم يشأ أن يضيع كل شيء جمعته تلك السيدة العجوز الفاضلة والورعة ، خلال مصاعب جمة أثناء حياتها عبر تلك الرحلات وعلى مدى تلك الفترة الطويلة من الزمن .

أخبرت القائد أن المجوهرات التي كانت تحملها في كيسها تساوي أكثر ثلاثة آلاف "باردواس" ذهبي من النوع الذي يتم تداوله في الهند ، طبقاً لما أعلنته كبيرة رئيسات الدير في قائمة الجرد ، وأنني رأيت هذا لاحقاً في المذكرات المرفقة مع كل بند عند تسليمها ، بالإضافة للقطع الأخرى التي كانت تساوي حوالي ألف "باردواس" أخرى .

في يوم الأحد التالي ، وفي حوالي الساعة الثامنة ، فككنا مخيمنا المقام عند تلك الطاحونة ، وبعد السفر لمسافة قصيرة ، نصبنا مخيمنا

في سهل غير مأهول ، تحت طقس رديء للغاية ، هنا أسلمت كبيرة رئيسات الدير - التي وصلت حالتها إلى نقطة حرجة للغاية - الروح إلى خالقها ، الذي كان يناديها ، دون معاناة ، وبكلمات تتوافق مع الحياة الطاهرة التي عاشتها ، وتتماشى مع شخصيتها ، والخطوات التي اتبعتها ، داخل خيمتها ، وبوجود واحدة من تابعينها من النسوة تساعدني (إذ إن الأخرى كانت مريضة إلى حد لم تكن تدري معه عن أي شيء) .

جهزتها للتشييع والدفن ، إذ لم يكن أحد يعرف كيفية عمل ذلك ، ولم أكن أريدهم أن يفعلوا ذلك ، فور تجهيزها ، وبعد إلباسها رداءها ، وبمساعدة اثنين من الأرمن ، كانا يسافران في القافلة ، حفرت قبراً عميقاً وواسعاً (على مسافة قصيرة من الطريق) ، ودفناها في الساعة الثانية ليلاً حتى لا نحدث جلبة ، ووضعنا صخرة ضخمة فوق القبر .

في ذلك اليوم كتبت (مع قافلة كانت متجهة من "كاشان" إلى هرمز) رسالة إلى القائد عن كل الذي حدث ، غادرنا هذا المكان في الوقت ذاته يوم الإثنين ، قطعنا مسافة مماثلة ، وخيمنا في مكان مهجور آخر ، وكان ماؤه سيّئاً للغاية أيضاً .

في ساعة مبكرة نسبياً من يوم الثلاثاء ، فككنا مخيمنا مجدداً ، وبعد وقت قصير من منتصف النهار وصلنا إلى قرية صغيرة تسمى شبابيك ، يقطنها حوالي أربعين أو خمسين مواطناً ، وبها فاكهة كثيرة للغاية ، ومياه عذبة وماشية ، ودواجن متنوعة ، وتقع شمال الشمال

الشرقي ، ويسكنها مسلمون فرس ، وسيمون وذوو بشرة شقراء يشبهون "البرتغاليين" ، وكذلك نساؤهم أيضاً .

يعيش هؤلاء الناس على بيع جميع الأشياء المذكورة آنفاً ونوع من الرداء الخارجي (يشبه الأثواب العريضة ، والبطانيات التي يصنعونها من صوف الخراف ، التي يملكون منها الكثير ، مع قلنسوات مخططة بالجلد) إلى القوافل التي تمر على ذلك الطريق .

بقينا هناك خلال ذلك اليوم واليوم التالي ، وقد توافد عليّ بعض المرضى ، الذين لم أتمكن من التخلص منهم ، وهم يشكون من مرض في العيون (وهو مرض شائع للغاية في هذه الأنحاء ؛ تسببه الحرارة الشديدة الناتجة عن القلنسوات الجلدية التي يعتمرونها دائماً على رؤوسهم) ، وأمراض أخرى .

الأمر الذي سبب لي ضيقاً أكثر هو أنهم كانوا يبحثون عن ترجمان ليخبرهم بالأدوية التي أطلعهم عليها ، ولكنه لم يكمل أبداً اطلاعهم على تلك الأدوية ، صادفت هنا جندي مشاة تابع لقاضي هرمز كان عائداً إلى هناك من مدينة يزد ، بردود على رسائل نقلها إلى رئيسه ، كتبت رسالة إلى الحاكم .

قدمت له فيها تقريراً عن كل الذي حدث حتى ذلك الوقت ، وعن استيائي الشديد الذي شعرت به إزاء بطء تقدمنا ، أبلغته أيضاً بوفاة كبيرة رئيسات الدير ، وبما تركته ، وبأني خائف أيضاً من أن يكون الشتاء وبما تركته عقبة كبيرة أمام وصولي إلى "البرتغال" قبل وصوله (بسبب ضياع وقتي خلال الرحلة) .

في هذه الأيام كنا نسافر في اتجاه غرب الشمال الغربي ، وفي يوم الخميس التالي ، والذي صادف الرابع والعشرين من شهر أغسطس ، وفي الساعة الثامنة ، غادرنا ذلك المكان ، وعند حلول الليل نزلنا ونصبنا مخيمنا قرب نهر ، ماؤه عذب للغاية ، وكانت هناك ثلاث أو أربع خيام رعاة كانوا يحتفظون ببهائمهم هناك .

غادرنا المكان في الوقت ذاته من يوم الجمعة ، وعندما حل الظلام ، أقمنا مخيمنا في مكان مهجور لا ماء فيه ، واصلنا مسيرنا عند منتصف الليل باتجاه الشمال الغربي وشمال الشمال الغربي ، وبعد حوالي ساعتين من شروق الشمس .

وصلنا إلى مكان صغير آخر يسمى "حاور" ، يقع إلى الغرب من الطريق ، قرب نهر ذي ماء عذب للغاية ، وبه بساتين كثيرة ، وجوز جيد للغاية ، وكان ليناً إلى حد بعيد في هذا الوقت من الموسم ، وكان أفضل جوز شاهدته ، وكان هناك لوز وعنب رائع للغاية ، كان هناك حوالي عشرين أو ثلاثين منزلاً ، مشيدة من الحجر والطين ، ويسكن المكان بعض الفرس الفقراء ، ويشبهون في سحناتهم وطريقة عيشهم أولئك الذين يقطنون في شبابيك .

خلال العصر ، مر مسلم فارسي قرب خيمتي ، وهو يحمل ثلاثة من طيور الحجل يعرضها للبيع ، عندما سألته عن الثمن الذي يتقاضاه ليبيعني واحدة - وبدا لي أنه سيطلب ثلاثة أو أربعة "داماسين" أجابني بأنه بإمكاني أخذها كلها مقابل "داماسين" واحد (وهو ما قد يساوي خمسة عشر ريساً بعملتنا) .

هكذا اشتريتها منه ، وسألته إن كان لديه المزيد ؛ ليحضرها لي في

اليوم التالي ، قد فعل هذا وأحضر لي خمسة عشر طائراً ، وحصلت عليها برمتها منه مقابل ثلاثة "داماسين" ، وهو سعر زهيد للغاية ، ولكن بدا لي في الحقيقة أن تلك الطيور ليست طرية ولذيذة كتلك الموجودة في منطقة "لشبونه" .

بقينا في هذا المكان يومي السبت والأحد ، وفي يوم الإثنين ، الثامن والعشرين من الشهر ، وفي الساعة العاشرة من الصباح ، واصلنا رحلتنا مجدداً ، بعد وقت قصير من حلول الليل ، أقمنا مخيمنا في مكان غير مأهول ، قرب نهر ، ماؤه جيد ، وفي صباح يوم الثلاثاء غادرنا المكان ، ووصلنا خلال العصر إلى مكان آخر غير مأهول لا ماء فيه ولم نقض فيه وقتاً طويلاً ؛ إذ فككنا مخيمنا بعد ساعة واحدة من حلول الظلام .

قبل ساعتين من شروق الشمس ، وصلنا إلى سفح سلسلة جبلية غير مأهولة أيضاً ، وتبعد مسافة عن بئر ، ماؤه عذب للغاية ، وهناك قضينا اليوم كله ، في التاسعة من صباح يوم الخميس ، واصلنا رحلتنا ، ووصلنا خلال العصر إلى مكان آخر غير مأهول ، ليس به ماء .

عند منتصف الليل ، استأنفنا رحلتنا مجدداً ، وبعد أن أمضينا بقية الليل ، ونحن نسير وصلنا (علماً بأننا كنا نسافر خلال هذه الأيام باتجاه الشمال ، وفي بعض الأحيان باتجاه الشمال الغربي ؛ بسبب المنحنيات الكثيرة في الطريق ، لوجود سلاسل جبلية كثيرة هنا) قبل ساعة من الفجر إلى مكان يدعى "ريسكو" ، وهو مكان تكثر فيه الفاكهة والحدائق والبساتين ، ولكن المكان به مبان مبعثرة ومهدمة ، ويسكنه الفرس أيضاً كالأماكن السابقة ، ويعيشون حياة مشابهة للتي يعيشها الآخرون .

في عصر ذلك اليوم جاء مسلم عجوز من قبيلة بدوية إلى القافلة يرافقه آخر ، وكلاهما مسلح تسليحاً جيداً بسيف وقوس وسهام ، كان هؤلاء الناس يجوبون تلك السهول الشاسعة في مجموعات ، تضم الواحدة حوالي أربعين شخصاً ، والبعض منهم على ظهور الخيل ، وكانوا يعيشون على نهب المسافرين .

لكيلا يسبب هؤلاء القوم متاعب للقافلة قدم لها قائد القافلة – على حساب كل واحد منا (وهي العادة عند تقديم جميع الهدايا) – ثلاث أو أربع عمائم (وهي قطع من كتان ناعم ، ويسميها المسلمون هكذا ؛ لأنهم يستخدمونها لهذا الغرض) وأحزمة وقطعتين أو ثلاث قطع من قماش مصبوغ ، وهكذا ذهب الرجلان وهما راضيان .

في صباح السبت ، وعندما كنا نوشك على تحميل رواحلنا ، جاء ابن ذلك الرجل العجوز ، وكان داكن البشرة وبديناً وقبيحاً للغاية ومسلحاً بأسلحة كثيرة ، وكان معه اثنان آخران على ظهور الخيل وخمسة أو ستة من الراجلين ، وتوجهوا إلى قائد القافلة وللأتراك والفرس الآخرين الذين كانوا معه ، وقالوا له أن ما أعطاه لوالده كان مخجلاً ووضيعاً ، قال إنه يجوب ذلك المكان مع كثير من الأشخاص ، وبتكاليف كثيرة .

يحرس تلك السهول ضد اللصوص حتى لا يهاجمون القوافل ، ويجب أن يعطوه تعويضاً ، وإلا أقدم على كسر الحمولة التي يرى أنها الأفضل في نظره وحمل منها أي شيء يريد ، وجد القائد ومن معه ، أنه يعني ما يقول دون شك (إذ إن القافلة ليس لديها دفاع ضد قومه إذا انضموا إليه) ، وراعوا ضرورة الموقف ، ورحبوا به بكلمات رقيقة ،

ونصبوا خيمة وضعوا فيها طاولة ، وزودوها بكثير من الخبز والعنب ، ولحم الضأن المسلوق ، وتناولوه .

عندما أنهوا طعامهم ، قدموا له خمس أو ست عمائم ، وعدداً مماثلاً من الأحزمة ، وست أو سبع قطع قماش ملون ، وكمية كبيرة من "الشادور" (شالات نسائية) ، ومخروط سكر وثلاث أو أربع فوط بيضاء مزينة برسوم ، تمكنوا بواسطة هذه الهدايا ، وبالكلمات الرقيقة من تهدئته ، فغادر المكان وهو راضٍ ، وقال لقائد القافلة أنه من هذا المكان فصاعداً لا يوجد ما يجعله يخشى شيئاً ، ولن يجرؤ أحد على إلحاق الأذى به .

استمر هذا حتى العاشرة صباحاً ، ثم عادت الجمال ، كنا نوشك على التحرك مجدداً ، عندما جاء هذا البدوي مرة أخرى مع ثلاثة آخرين على ظهور الخيل ، وأمسكوا بتركي كان يسافر في القافلة ، وضعوه في مدفن صغير هناك مشيد من الطوب ، كذاك الذي ذكرناه من قبل (إذ إن هذه هي الطريقة التي يشيد بها من يملكون المال مدافنهم ، وأما الذين لا يستطيعون ، فيحفرون قبوراً في الأرض كقبورنا .

ويضعون حجارة كثيرة حولها) ، كانت هناك قبور كثيرة من النوعين على الطريق بما أنه قاس وبطيء وغير صحي ، خصوصاً في الصيف ، وهو الوقت الأساسي للقوافل .

الرجل الذي غادر "بندر" قبلنا بسبعة أو ثمانية أيام – ؛ لأن جميع التجار وسائقي الجمال أصابهم المرض إلى حد لا يستطيع أحد حمل أحماله – غادر طريق "كاشان" وذهب إلى "يزد" ، وهي مدينة مكتظة

بالسكان وتجارتها نشطة ، ويتم نقل الماء المنقى ، والأغذية المحفوظة منها إلى هرمز ، تستغرق الرحلة من "كاشان" خمسة عشر يوماً في منطقة "شاه طهماسب" التي يسكنها الرجال المسلمون الفرس ، الذين يتسمون بالوسامة وبالبشرة الشقراء ، وأجمل نساء فارس .

وضعوا هذا التركي في المدفن ، وقال بعض البدو إنه من بابل (التي يسميها المسلمون بغداد) حيث قتل التركي - وهو قريب له - أحد أقاربهم ، واستولى على حصانه ، وأنهم ما داموا عثروا عليه هنا ، فيجب أن يدفع ضمن ذلك العمل ، عند ذلك ، اجتمع المسافرون في القافلة مع بعضهم البعض ، وسألوهم عن مسؤولية التاجر المسافر ببضائعه عما فعله شخص آخر لهم .

في خاتمة المطاف ، ونتيجة للكلمات الرقيقة ؛ وبعد تقديم ثلاث عمائم مخططة فاخرة أعطوهم إياها - وكانت قيمتها تساوي ستة "كرازادوس" على الأقل - أطلقوا سراحه ، زعم التركي أنه بريء تماماً في هذه القضية ، وأقسم أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر ، بدا من هذا أن هذه كانت حيلة أخرى ابتكروها لارتكاب هذا العمل الشرير الآخر .

عند منتصف النهار تقريباً ، غادرنا ذلك المكان ، ووصلنا عند العصر إلى قرية صغيرة أخرى شبيهة بالقرى السابقة ، ويعيش فيها أناس مماثلون لسكان القرى الأخرى ، وتسمى هذه القرية "كاتو" ، وهي حافلة بالحدائق والكروم والبساتين ؛ حيث حصلنا على خبز شديد البياض ، مصنوع من دقيق جيد للغاية ، ويفوق في جودته الخبز الذي حصلنا عليه سابقاً خلال الرحلة ، وتباع السبعة أو الثمانية أرغفة

مقابل "داماسين" واحد ، وهي مصنوعة مثل الكعك ، شأنها في ذلك شأن الأرغفة كلها في فارس .

تباع الديوك الصغيرة مقابل نصف "داماسين" ، والدجاج مقابل "داماسين" واحد ، ويباع عنقود ضخم من العنب بدامسين واحد ، ويباع الخروم ذو الذيل الرائع للغاية مقابل عشرة "داماسين" ، والماعز الضخمة مقابل ستة "داماسين" وتباع ستون حبة ممتازة للغاية من الخوخ مقابل ستة "داماسين" واحد ، و"درزينة" الرمان مقابل نصف "داماسين" ، وعدد كبير من التين الأبيض مقابل نصف آخر .

يباع كل شيء بالوزن ؛ إذ إن الأشياء تباع بهذه الطريقة في أنحاء فارس ، وتباع العشرون أو الثلاثون بيضة مقابل "داماسين" واحد ، وهذه هي أسعار البيع خلال الجزء الأكبر من رحلتنا .

في صباح السبت ، الذي صادف الثالث من سبتمبر ، واصلنا رحلتنا ، ومررنا بقلعة بناؤها جيد ، وقد تم تشييدها من "الوتل" والجص على الطريقة الفرنسية ، أقمنا مخيمنا على مسافة طلقتين أو ثلاث طلقات بندقية "مسكيت" ، أمام القلعة بجانب نهر ، ماؤه عذب للغاية .

في المساء ، عندما حل الظلام ، جاء سائقو الجمال ، ليقولوا لنا أن عدداً من اللصوص ، جاءوا إلى المكان الذي ترعى فيه الجمال ، وأنهم يخشون من أن يهجموا علينا في تلك الليلة ، نصحونا بأن نكون يقظين ، وعلى استعداد تام ، ولكننا ظللنا نراقب طوال الليل دون أن نشاهد أحداً ، في اليوم التالي رفض سائقو الجمال المغادرة ؛ لأن الجمال منهكة ، وكان هناك مرعى جيد هناك .

غادرنا المكان في وقت مبكر من صباح الثلاثاء ، وتوقفنا لنخيم عند حلول الظلام في سهل غير مأهول ، غادرنا السهل في الساعة ذاتها من يوم الخميس ، ووصلنا بعد منتصف النهار إلى مكان آخر مهجور به نهر ، ماؤه كريه .

في صباح الجمعة ، وعندما كنا نهم بتحميل الدواب ، وصل بدوي مسلم على صهوة جواد ، وقد تسلح بسيف وقوس وسهام ، بعد أن أوصلناه إلى باشا القافلة ، الذي سأل عنه ، قال له إن هناك وراء سلسلة جبال أشار إليها خمسة عشر من فرسان "الشاه طهماسب" المتمردين .

قد طلبوا منه أن يطلب هدية له تناسب رتبته ؛ حيث إننا أمضينا ساعة تقريباً قبل أن نعطيه إياها ، فقد وصل آخر من شاكلته ، ويمتطي جواداً ويعتمر قبعة الشاه "إسماعيل" الحمراء ، وقد أعطيناه عمامتين وكمية جيدة من جوزة الطيب التي طلبها ، رحلا بعد ذلك ، وكذلك فعلنا نحن أيضاً .

انطلقنا باتجاه الشمال الغربي والشمال ، خلال الأيام الثلاثة الأخيرة كنا نسافر باتجاه الشمال الغربي ، وفي بعض الأحيان باتجاه الشمال ؛ بسبب الثنيات التي في الطريق ، والناتجة عن وجود الجبال ، بعد انتصاف النهار ، نصبنا مخيمنا في مكان أكبر مساحة ، وأكثر اكتظاظاً بالسكان من الأماكن الأخرى ، ويسمى ذلك المكان "نودوكسان" .

يقع إلى الشمال من الطريق والشمال الغربي ، كان بالمكان الكثير من الكروم والبساتين ، ومنازل جميلة للغاية ، مشيدة على طريقتهم الخاصة من "الوتل" والجص ، وبها مساحات مكشوفة مثل فناءاتنا ، مكشوفة من

أعلى ، وبها وقاءات ذات أقواس فوقها على جدران المنزل ، وعلى الأضلاع الأربعة الأخرى (إذ إنها ذات ثمانية جوانب) ، أربعة مبان ذات أبواب مغلقة صغيرة ، ومجموعات من درجات سلالم ترتفع إلى سقوف مسطحة في السطح ، وللمنازل نوافذ تطل على الفناءات .

النساء هناك أجمل من أولئك اللواتي شاهدناهن من قبل ، على الرغم من أن أولئك كن جميلات أيضاً ، وكن كالنساء البرتغاليات في سمات الوجه ، لكن تمثل الفرق في أنهن كن ذوات بشرة شقراء على نحو أكثر وجميلات بدرجة أكبر .

كن يرتدين ملابس طويلة ، مثل تنوراتنا ، مغلقة من الأمام ، ودون تنورات تحتانية ، وهي مصبوغة باللون الأزرق ، ومصنوعة من القطن الذي كن يغزلنه ، وينسجنه بأنفسهن ، ومع سراويل طويلة ، تنزل حتى القدمين من القطن ذاته ، ولكنها بيضاء وضيقة ، وبها تطريزات ، هن ينتعلن أحذية ، ويلبس البعض منهن بناطلين نصفية ، وقطع قماش بيضاء طويلة على رؤوسهن .

يستطيع جميع الأولاد والبنات قراءة اللغة الفارسية جيداً ؛ إذ إنهم يحرصون على تعليم أولادهم ، ويهتم الآباء كثيراً بهذا .

يرتدي الرجال أردية طويلة ، مخيطة وواسعة تنزل حتى القدمين ، ويعتمرون عمائم على الرؤوس ، وفي الصيف يلبسون أردية بيضاء ، مصنوعة من قطن راق .

ينتعلون أحذية يبيضونها ، وبها نعال كثيرة ، يلبس البعض الآخر أحذية ذات عنق يتم تثبيتها بأشرطة .

وجدتهم لا يختلفون عن "البرتغاليين" إلا في السلوك واللغة ، أما في

الهيئة وسمات الوجه ، فلا يوجد فرق ، هم يعيشون كالآخرين على بيع مصنوعاتهم وحليهم للمسافرين .

رأيت أرضية درس الحنطة (إذ إن هذا هو موسمهم في أنحاء فارس كما هو الحال عندنا في أوروبا) ، يركب اثنان من المسلمين على عربيتين صغيرتين منخفضتين ملحقتين من الوراء بحصانين على أساس حصان لكل عربة ، وواحد يلي الآخر ، ويمسك كل واحد بسوط ، لنخس الحصان به ، على الجزء السفلي من العربيتين الذي يكاد يلمس الأرضية .

تم تثبيت صفين من العجلات الفولاذية ، وستة صفوف ، على كل عربة مصفوفتان على أساس كل عجلتين معاً ، وبها أسنان كالمنشار تدور ، مع سرعة عدو الجياد (إذ إن الرجلين ينخسان الجياد بقوة ،) يتم تقطيع سنابل الحنطة ، والتي تشبه حنطتنا من "غاليشيا "Galicia" صنع تبن أشد نعومة من تبننا ، وتتم دراسة الحنطة ، وتنظيفها خلال وقت قصير للغاية .

شاهدت هنا فاكهة تشبه اللوز الصغير ، ولها قشرة رقيقة للغاية ، ونواة ذات نكهة ممتازة ، ولونها أخضر ، وتشبه في شكلها جوزة الصنوبر لدينا ، ويسمى الفرس هذه الفاكهة "الفستق" ، وتوجد بكميات وفيرة للغاية في فارس .

من مدينة في "سوريا" تسمى سرمين ، والتي تبعد مسيرة يوم من حلب ، تذهب كمية كبيرة إلى جزيرة "قبرص" وإلى "البندقية" ، ويوجد الفستق في "روما" أيضاً ، وهو مرتفع الثمن ، ويحظى بإعجاب كبير من علية القوم و"الكاردينلات" الذين يسمونه "الفستق" .

قد وجدت أن كل الفواكه المتوفرة بطول هذا الطريق تفوق في جودتها فواكهنا ، ما عدا البطيخ ، وهو أبيض وسيّئ للغاية ، هناك أيضاً نوع آخر يسمونه (البطيخ) ، و"كاربوز" (الشمام) ولها نواة كبيرة مثل القرع ، وبعضها أسود والبعض أبيض ، وطعمها حلو للغاية ، وهي تذوب في اللعاب داخل الفم (لا يمكن أكلها أبداً) ، وقد تركها المسلمون وأفراد القافلة ، وقالوا لي أنها تُعطى في فارس وتركيا إلى الأشخاص المصابين بالحمى .

في يوم السبت ، التاسع من الشهر ، وفي ساعة مبكرة من الصباح ، استأنفنا المسير مجدداً ، وبعد ساعتين من الفجر أقمنا مخيمنا في سهل غير مأهول ، قرب منازل متداعية ، ونبع ماء سيّئ للغاية .

في يوم الأحد ، وفي الساعة ذاتها تابعنا السير ، وخلال العصر ، وصلنا إلى منازل أخرى متداعية ، ونبع ماؤه كريه للغاية أيضاً .

في يوم الإثنين ، وبعد انقضاء وقت من النهار ، فككنا مخيمنا ، ووصلنا بعد حلول الليل بقليل إلى قرية صغيرة مهملة تسمى "بينويت" "Benuit" ، تقع إلى الشرق من الطريق ، تسكنها قلة من الناس وبها ماء عذب للغاية .

هنا رأيت الكثير من أشجار البطم السميكة للغاية والقصيرة ، ولها أوراق كأوراق أشجار "المصطكاء" التي يطلق عليها المسلمون اسم "شاتالاغوش" ، هي تثمر فاكهة بيضاء للغاية ، ومستديرة كالعناب ، توجد بداخلها نواة يمكن أن تؤكل ، وزيت "التربنتينة" الذي تنتجه أبيض للغاية ، وصافي إلى حد بعيد ، ولذلك يبدو كالبلور .

يجد الكثير للغاية من هذه الأشجار في أنحاء فارس ، وهم يستخدمونها لصنع حبوب ، يتناولونها في الصباح من أجل تعزيز النشاط الجنسي .

في يوم الثلاثاء في تمام الساعة التاسعة ، غادرنا المكان ، في المساء نصبنا مخيمنا في قرية صغيرة ، بها سبعة أو ثمانية منازل ، وماؤها عذب للغاية ، ولكننا لم نجد شيئاً نأكله ، سوى جزر جيد للغاية .

في يوم الأربعاء ، وخلال النهار ، فككنا مخيمنا ، وبعد منتصف النهار بقليل ، وصلنا إلى مكان واسع ، موقعه جيد يسمى "باغ" ، ويقع إلى شرق الشمال الشرقي من الطريق بالقرب من نهر ، ماؤه عذب للغاية ، وتحيط به حدائق كثيرة ، وكروم وبساتين ، بها فواكه كثيرة .

قد اشتريت هنا أربع عشرة جوزة رائعة وطازجة وممتازة ، وقشرتها رقيقة كالورق ويمكن قضمها بالأسنان ، وستين ثمرة خوخ ، يصل حجم الواحدة تقريباً إلى حجم "الميلاكوتون" (melactoon) ، لدينا (وهو نوع من الخوخ) ، ولها اللون والمذاق ذاته ، ومقابل "داماسين" واحد .

يسكن المكان مسلمون فرس ، كالأماكن التي مررنا بها سابقاً ، ويعيشون بالطريقة ذاتها .

كنا نسافر في هذه الأيام باتجاه شمال الشمال الشرقي ، بقينا هنا حتى ليل الخميس ، وعند شروق صباح يوم الجمعة ، غادرنا المكان ، وسرنا بقية ذلك اليوم ، وأقمنا مخيمنا قبل ساعة من المغيب في مكان آخر يسمى "جانجان" "Gangan" ، يقع إلى غرب الجنوب الغربي من الطريق ، ويسكن المكان عدد كبير من السكان ، لا يختلفون عن الذين شاهدناهم من قبل في الأصل ، وطريقة العيش .

كانت النساء أكثر سذاجة نوعاً ما ، من اللواتي رأيناهن سابقاً .

كانت المنازل سيئة للغاية ، ومشيدة من الطين ، وينخفض معظمها عن الأرض كالخيام .

تتوفر لديهم فواكه كثيرة ، وهناك قناة ، بها ماء وفير عذب للغاية عند مدخل المكان ، وقلعة صغيرة مشيدة من "الوتل" والجص .

في الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ، غادرنا ذلك المكان في الاتجاه ذاته ، وبعد حلول الليل ، وصلنا إلى مدينة واسعة تسمى "اردیستان" ، بعد أن اتجهنا نحو الشمال لمسافة نصف فرسخ قبل أن نعثر عليها ، وكانت تقع في اتجاه الشمال الشرقي ، هي واسعة للغاية ، ولكنها مهدمة ، ومخربة منذ عهد "التتار" ، شأنها في ذلك شأن غالبية فارس في الوقت الذي فتح فيه "التتار" فارس ، قبل ذلك كانت جميلة للغاية ، ومكتظة بالسكان كما يظهر من حجمها وأحجام مبانيها .

يقطن المدينة أناس من الفرس ، ومعظمهم من ذوي القبعات الحمراء (الخاصة بالشاه إسماعيل) ، وهم رجال يتسمون بالوسامة ، تتشابه جميع النساء مع بعضهن البعض ، تتوفر في المدينة جميع الفواكه والمؤن والأشياء الضرورية ، وبها سوقان كبيران فيهما الطعام النيء والمطبوخ ، وبها شوارع يمارس فيها الحرفيون جميع الحرف .

في يوم الأحد التالي ، وبينما كنا لا نزال هناك ، تم وزن كل أقمشة التجار ، قد جرت العادة أن توزن الأقمشة في هذه المدينة ؛ لأن إيجار الجمال يدفع على أساس الوزن .

كنا هناك في يوم الإثنين ، وفي يوم الثلاثاء الموافق للتاسع عشر من الشهر ، غادرنا المدينة بعد منتصف الليل ، باتجاه شمال الشمال الشرقي ، وسرنا خلال الليل وحول المنحنيات التي على الطريق ، وفي الساعة الثامنة أو التاسعة صباحاً – وبعد أن مررنا عبر مكانين – أقمنا مخيماً قبل مسافة قصيرة من مكان آخر يسمى "موحوباد" في سهل منبسط بالقرب من نهر ، ماؤه عذب للغاية ، يسكن المكان الأهالي أنفسهم ، ويعيشون الحياة ذاتها ، ويتمسكون بذات العادات ، ويقع المكان إلى شمال الشمال الغربي .

قد رأيت هنا أفضل رمان خلال الرحلة ، وكان طعمه حلواً للغاية ، ويصل حجمه إلى حجم الليمون الكبير ، ورأيت سفرجلاً حلواً كالتفاح .

في الليلة التالية ، تلقينا أنباء عن وجود كثير من اللصوص بطول الطريق ، ولم نجرؤ على المغادرة حتى نهار اليوم التالي ، في العصر ، وبعد أن مررنا عبر مكانين ، أقمنا مخيماً قبل مكان آخر ، وقريباً منه ، وكانت به منازل أفضل ، مشيدة من "الوتل" والجص ومن طابقين ، وكانت السقوف مسطحة ، وتوجد حاجبات ضوء على النوافذ ، ويسمى المكان "حلتاباد" .

يقع هذا المكان إلى الجنوب الغربي من الطريق ، وباتجاه الجنوب الغربي ، ويوجد عند مدخل المكان نهر ، ماؤه عذب للغاية .

في تلك الليلة ، وعلى الرغم من التقارير الواردة عن تعرض قافلة للنهب على مسافة من المكان قبل أيام قليلة ، لم نتردد في الرحيل ، سرنا حتى أشرقت الشمس ، بعد ساعتين أو ثلاث من الشروق ، أقمنا مخيماً في سهل قرب نهر ، به ماء عذب ، ومكان يسمى "بوشدافا" ،

يقع إلى الشمال والشمال الشرقي ، وتتوفر فيه الفواكه ؛ إذ إن عملاً كبيراً يجري في أنحاء فارس ؛ لتشجير الحدائق والبساتين ، ويفوق عمل التشجير أعمال بناء المنازل أو المباني الرائعة .

في عصر ذلك اليوم دفعنا ستة ريساً ، كرسوم لبعض الرجال ، الذين كانوا يحرسون المكان من اللصوص الذين ينهبون القوافل ، غادرنا المكان عند منتصف الليل ، وسرنا متجهين نحو غرب الشمال الغربي .

خلال الأيام السابقة ، كنا نسافر باتجاه الشمال الغربي والشمال ، في حال وجد الذين يقومون بهذه الرحلة بعض الاختلاف في النقاط التي أحددها عن البوصلة ، يجب عليهم ألا ينزعجوا ؛ إذ إن من المستحيل على المرء أن يصف رحلة برية ، بالدقة ذاتها التي يصف من خلالها رحلة بحرية .

هذا هو الوضع تحديداً في هذه الرحلة ، حيث تحيط الجبال والتلال بالطريق الذي نسلكه ، الأمر الذي يؤدي إلى تغييرات في الاتجاه ، ولهذا السبب يستحيل على المرء أن يفصل الساعات التي يمضيها في السفر وفق كل اتجاه تحدده البوصلة ، لكن يجب على كل من يقرأ هذه الصفحات أن يتأكد من أنني أسافر دائماً ، وسأعطي المعلومات وفقاً لاتجاه البوصلة .

هكذا سرنا طوال الليل ، وفي اليوم التالي – وكان يصادف الثاني والعشرين من سبتمبر – وصلنا في الساعة الثامنة صباحاً إلى مدينة "كاشان" العريقة ، والمكتظة بالسكان ، رغبنا في الدخول عبر البوابات ، ولكننا لم نستطع لفترة من الوقت دامت ساعتين على الأقل ؛ بسبب

حشود الناس الخارجين والداخلين ، سواء مشياً على الأقدام أو على ظهور الخيل .

السبب هو أن هذه مدينة كبيرة للغاية ، ويسكنها عدد لا يحصى من السكان ، وخصوصاً المسلمون الفرس والتركمان (وبعض اليهود المولودين في هذه البلاد) ، معظم السكان من الشرطة ورؤوسهم حليقة (كما هي عادتهم) ، وآخرين شعر طويل ينسدل حتى الخصر ومضفور إلى ضفيرتين تسقطان خلف الأذنين ، يقال إن هؤلاء من عشيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

تحيط بالمدينة أسوار من "الوتل" والجص ، مشيدة على الطريقة الفرنسية ، وقد تهدمت أجزاء منها ، ولكن المدينة ليست رائعة للغاية فيما يتعلق بمبانيها العامة ؛ إذ إن معظم المنازل مشيدة من "الوتل" والجص ، ما عدا مساجد قليلة ، وحمامات واستراحات القوافل ؛ إذ إنها مشيدة من الطوب) .

لكن المدينة تشتهر كمنفذ لـ فارس برمتها وتركيا فيما يتعلق بجميع أنواع البضائع والأقمشة كالحراير والملابس من الهند ، والبهارات أيضاً ، هناك كثير من التجار الأثرياء للغاية الذين يتاجرون في جميع الاتجاهات ، وتأتي إلى المدينة أشياء أخرى كثيرة ؛ إذ إن الكثير من الحراير و"الساتان" و"التفتة" والعمائم والمنسوجات المقصبة يتم نسجها هنا .

لا شك أن تعداد سكانها يصل إلى خمسة أو ستة آلاف نسمة ، ولكن أراضيها المحروثة قليلة ، لهذا السبب تأتي غالبية إمدادات

المحاصيل من أماكن أخرى ؛ إذ إن الفلاحة قليلة باستثناء مساحة صغيرة قرب المدينة ، باقي الأراضي رملية .

تقع المدينة إلى شرق الجنوب الغربي ، من الطريق بالقرب من سلسلة جبلية عظيمة ، وما تفتقر إليه من حقول الذرة يتوفر بكثرة في الحدائق والكروم والبساتين التي تحبط بها إحاطة كاملة ، توفر هذه البساتين كميات هائلة من الفاكهة ، وتحديداً "الميلاكوتون" (melacotoons) الجيد (وهو نوع من الخوخ أصفر اللون) يشبه الخوخ الموجود لدينا ، ولكنه أكبر بكثير ، ومذاقه أجمل أيضاً .

وهناك التفاح الحلو ، وهو أفضل تفاح رأيته ، وسفرجل حلو كالتفاح ، وهي تؤكل كما هي ، وهناك كمثرى لا نظير لها ، وجميع أنواع الفاكهة الأخرى بكميات كبيرة ، وسعرها زهيد للغاية ، وهو أمر تلقى فارس الإشادة بسببه ، وهي تستحق ذلك أكثر من أي منطقة أخرى في العالم .

تنعم المدينة بنسيم عليل ، يفوق ما تنعم به أي مدينة أخرى في فارس ، بها سبعة أو ثمانية شوارع طويلة للغاية ، والبعض منها تقوم عليه مبانٍ شاهقة للغاية ، وأقواس مقنطرة فوقها بناها الملوك السابقون ، قد أقام هؤلاء الملوك هنا في معظم الأوقات ؛ بسبب درجة الطقس المعتدل .

يوجد في هذه الشوارع كثير من الحرفيين الذين يمارسون جميع الحرف ، يوجد أيضاً الكثير من الطباخين الذين يبيعون أنواعاً من الطعام الجاهز ، ابتداء من خراف بذيول سمينة كالخنازير ، علماً بأن لحم الضأن هو اللحم الأكثر استهلاكاً في فارس ، وخصوصاً في هذه المدينة ، حيث لا يؤكل لحم آخر ، ولا حتى السمك ، بما أنه لا يوجد

ميناء في كل البلاد التي فيها صيد السمك . ، أعني ، أن الخروف برمته يشوى في أفران ، ويسلق مع أنواع من حساء الخضار ، وكرات اللحم ، والفطائر والرؤوس والأقدام والكرش المحشوة بالأرز والبهارات ، وآلاف الأصناف الأخرى ، والمأكولات المبتكرة .

هناك الكثير من هؤلاء الطباخين ؛ لأن معظم التجار في هذه الأنحاء اعتادوا تناول الطعام الذي يجهز في الأسواق ، وألا يتناولوا الأكل في المنزل .

من عادة الأجانب أيضاً أن يتجمعوا في المدينة ؛ إذ إنها هامة للغاية ، ولذلك يوجد فيها أجانب يفوق عددهم عدد الأهالي .

هناك الكثير من الحرفيين الآخرين الذين يصنعون حلويات متنوعة ، وآخرون لديهم خيام فيها فواكه لا مثيل لها حتى في منطقة نهر "لشبونه" ، والآلاف غيرهم الذين يبيعون آلاف الدمى ، والأشياء التي أدهشتني كثرتها ، وكل شيء اشتريته بوجود عدد لا يحصى من البشر في كل الأوقات ، لم يكن بمقدور أحد أن يسير عبر هذه الأسواق في النهار دون أن يحتك بأناس عديدين أناساً على الرغم من طول الأسواق ، واتساع حجمها الذي يصل إلى حجم بلدة كبيرة .

في منتصف هذه الأسواق يجد المرء منطقة ميدان مربعة ، وشاسعة ، مشيدة بأقواس ضخمة كدار الجمارك في "لشبونه" ، لها خمس أو ست بوابات يمكن إغلاقها ، وحواجز تبرز من الأسوار لتمنع الخيول من الدخول ، يباع في هذه المنطقة الحرير وجميع أنواع البضائع ، وتتم المفاوضات ، وإبرام العقود بأنواعها المختلفة .

توجد أرائك كثيرة حجرية ، ومبان صغيرة مستديرة حيث يجلس الناس ويبيعون ، وهناك أناس دائماً هنا بأعداد كبيرة في جميع الأوقات ، يستحيل على المرء أن يسير عبر هذه الأسواق دون صعوبة كبيرة .

لا يستطيع المرء أن يحصي أعداد الحرفيين ؛ بسبب كثرتهم ؛ وتنوع حرفهم ، وهناك من يصممون أردية من نوع وشكل واحد ، وآخرون يصممون نوعاً وشكلاً آخر ، وهناك الذين يخيطونها ، والآخرون الذين يبطنون أردية ذات أسلوب تركي ، وآخرون يجهزون قلنسوات ، ذات فراء من أنواع مختلفة ، مثل فراء الثعالب ، وغيره من الفراء المتوفر في المنطقة .

هناك فراء ممتاز من "روسيا" ، وحلب وتبريز ، يصنع آخرون القلنسوات ، في حين يصنع أخرون قلنسوات نسائية مخميلة وحريرة ، وهناك الذين يجهزون بطانات قطن ، وفراء للعمائم ، ويجهز آخرون البناطلين القصيرة (إذ إن الجميع يرتدونها مع أحذية ، يفوق عرضها عرض الأحذية ذات العنق وقصيرة ، ولها كعوب جلدية مثبتة بأشرطة تحت الركبة) .

يصنع آخرون أحذية من أنواع وأشكال كثيرة ، ويتم تثبيت جميع النعل بمسامير صغيرة ، في حين يضع الآخرون قطع حديد على الكعوب على طريقتهم .

هناك أعداد كبيرة من الحرفيين الذين يصنعون مواد نحاسية ، يعمل آخرون معهم بالمنقاش ، بينما يعمل آخرون في تشغيل المخرطة حيث يصنعون أباريق وأحواض الماء ، ذات الأيادي والكؤوس ، وجميع الأشياء الأخرى ؛ إذ إن كل الأشياء يتم صنعها على المخرطة .

يصنع آخرون الأقواس ، بينما يصنع غيرهم السهام ، وآخرون

السيوف على طريقتهم ، هناك عدد لا يحصى من الحرفيين ، يصنعون الكثير من الأشياء ويطبقون حرفها المختلفة ، وكل هذا يثبت الكمية الهائلة للتجارة .

هناك الكثير من استراحات القوافل ، وهي مبان تتألف من إنشاءات كبيرة من الحجر ، يستضاف فيها المسافرون والتجار الأجانب .

هناك كثير من الحمامات يذهب الرجال والنساء إليها للاستحمام ، هناك حمام منفصل لليهود الذين ينتمون للمنطقة ، وللمسيحيين الذين يمرون بالمنطقة حيث لا يوجد منهم من يقطن في هذه المنطقة .

هم لا يشربون الخمر في أنحاء فارس ؛ بسبب العقوبات المشددة التي سنها "الشاه طهماسب" قبل سنوات قليلة ، بعد أن تم تقديم السم له ممزوجاً بالخمر ، كما سيتم ذكره لاحقاً ، قبل ذلك كان الناس يشربون علانية ، وكانت القوافل والجمال المحملة بالنبيذ تجيء من "أرمينيا" عبر أنحاء فارس برمتها ، وكأنها بضائع حقيقية .

رأيت هنا الكثير من الخراف لها أربعة قرون وأخرى لها ذيول – ونسميها "ذات الخمسة أرباع" ؛ لأن الذيل ضخم كالربع ، رأيت أجمل أسد في الوجود قاطبة ، وهو مروّض ، في ميدان واسع قرب الأسواق ، حيث يجتمع في عصر كل يوم حشد من الناس ؛ للاستماع لمن يلقون عظات ، وللآخرين الذين يقرؤون قصصاً عن أنبيائهم ، والآخرين الذين يراهنون ، والذين يعزفون في عصر كل يوم على سقف مسطح حتى الليل على طبول كتلك التي نستخدمها في لعبة "كاناس" canas ، وعلى xabepas تشبه المزامير .

طوال الوقت الذي قضيته هناك ، لم أر في الشوارع أي نساء تقل أعمارهن عن أربعين عاماً ؛ إذ إن الأخريات لا يخرجن ، ولا يراهن أحد ، أما أولئك (اللواتي شاهدتهن) ، فهن خادمات يخرجن لشراء الضروريات المنزلية ، الأخريات اللواتي بلغن هذا العمر يخرجن ، وقد غطين أجسامهن بقطع كبيرة للغاية من القماش تغطيهن كلياً بما في ذلك وجوههن ، وتضع المرأة تحت هذا الغطاء خماراً من "الفلانيل" ، ويرتدين سراويل تحتانية ، كملابس تحتية وبناطلين قطنية ، وينتعلن أحذية كالرجال ، أحجام النساء صغيرة ومظهرهن جميل .

لم يسبق أن رأيت رجلاً ماشياً يحمل سلاحاً خلاف المدية ، وهذه هي العادة في أنحاء فارس وتركيا ، كما أنني لم أر أي شخص يتشاجر مع آخر ؛ إذ إنه في حال حدوث مشاجرات - حتى وإن استخدمت فيها القبضات - فإن السلطات القضائية تحكم على الطرفين بالجلد إذا اكتشفت الأمر .

بالنسبة للذين يركبون الخيل فقط (وهناك الكثير منهم ؛ إذ إن هناك خيولاً في المنطقة ، وهي زهيدة الثمن للغاية ، ويتم إرسال البعض منها إلى هرمز والهند) فإنهم يحملون سيوفاً عريضة قصيرة تكون شفرتها الحادة من جهة واحدة فقط ، هم ليسوا أناساً أصحاب دماثة ولطف علماً بأن الأتراك أكثر منهم غلظة ، هم يفتقرون للأناقة ، ويشبهون في قاماتهم ، ومظهرهم وسمات الوجوه "البرتغاليين" ، هم أصحاء إذ لم أشاهد أبداً واحد منهم يبدو عليه مرض التهاب غدد ، أو إفرازات على الرغم من أنهم يعيشون كالبهائم دون أي أطباء أو صيادلة .

هناك فقط قلة من المشعوذين في الميادين ، والذين يبيعون أدوية زائفة للمرضى ، هم كذابون ، وغشاشون ولا يؤدون عموماً أي قسم سوى قسم "الشاه طهماسب" بأن يقول الواحد منهم : أقسم برأس "الشاه طهماسب" ، استناداً إلى هذا يطلقون أكاذيب كثيرة ، لديهم قلة من العبيد ، ويقومون بتشغيل الأهالي .

طوال الوقت الذي دامت خلاله هذه الرحلة - منذ اللحظة التي توقفت عنا ريح الشمال ، وإلى أن وصلنا هنا إلى "كاشان" - كنا دائماً نتعرض للحرارة نهاراً ، وإن كانت أقل مما كانت في البداية ، والبرد الشديد ليلاً ، قد أدهشني هذا الأمر كثيراً ؛ لأن هذه البلاد تشبه بلادنا في كل شيء ، ولكنها تختلف في هذا الأمر عنها كثيراً .

لهذا السبب ، فإنني سأنصح كل شخص يرغب في القيام بهذه الرحلة ألا يسلك هذا الطريق ؛ بسبب المصاعب الهائلة التي تواجهه عليه ، والأمراض وقسوة الطقس والبطء ، وسوء طبع سائقي الجمال ، وخطر اللصوص ، لم يبد الأمر صعباً للغاية عندما قيل لنا أننا نستطيع أن نجتاز مسافة مائة وعشرين أو مائة وثلاثين فرسخاً خلال عشرين إلى خمسة وعشرين يوماً ، ولكن الأمر استغرق منا شهرين ونصف ، ولا تجتاز قوافل الجمال المسافة في مدة أقل منها .

من الأفضل أن يسافر المرء عبر البصرة ؛ لأنه يستطيع من هناك أن يذهب إلى بغداد بالقوارب في نهر دجلة ، خلال ثلاثين أو أربعين يوماً ، تكون القوارب مسحوبة بالحبال ؛ لأن السفر يتم عكس التيار ، وهي رحلة سريعة ؛ إذ إنها تستغرق عشرة إلى اثني عشر يوماً .

من بغداد إلى تبريز يعد السفر آمناً ، وتستغرق الرحلة من ثلاثة وعشرين إلى خمسة وعشرين يوماً ، وتستغرق مدة مماثلة من هناك إلى حلب ، لكن الطريق الأفضل والأقصر هو الطريق التي يمتد من البصرة عبر الصحراء ، وتمر القوافل بهذا الطريق في سبتمبر من كل عام ، وفي أوقات أخرى ، وتستغرق خمسة وعشرين إلى ثلاثين يوماً إلى دمشق ، وحلب ، وحماة ، وهي مدينة تبعد مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام من حلب ، هذا هو الطريق الأقصر ، والمأمون أكثر من غيره .

تتجه قوافل كثيرة أيضاً من هذه المدن إلى البصرة في كل عام ، كان هذا هو الطريق الذي يتعين عليّ أن أسلكه لو أن البصرة كانت تنعم بالسلام كما قلت ، وإذا لم يكن بالإمكان السفر على هذا الطريق ؛ بسبب بلية ما ، وكنت مضطراً إلى القيام بالرحلة عبر فارس ، عليك أن تسلك الطريق إلى "لار" ، التي تبعد مسيرة ستة أيام من "بندر عباس" (تتجه القوافل من هنا طوال الوقت ولا تتوقف أبداً) عبر أماكن يسكنها أهالي من الفرس ، ولا توجد لديهم فواكه خلاف التمر ، الذي يتوفر بكميات هائلة .

من "لار" ، تذهب القوافل إلى "بينارو" "Binaro" ، وهي مدينة قديمة ، ولكن معظم مبانيها مهدمة ومتداعية ، وتستغرق الرحلة يومين ، حيث تنتهي مقاطعة "لار" ، من هناك تتجه القوافل إلى "جويوم" "Goyum" ، وهي مدينة كبيرة ، وكانت تقع سابقاً في مقاطعة شيراز ، توجد فيها قنوات مياه عظيمة ، حيث تعمل عدة مطاحن ، تتوفر فيها بساتين وفواكه كثيرة ، من هنا يتم إرسال كميات هائلة منها إلى هرمز ، هناك أيضاً كروم عنب .

من هذه المدينة تذهب إلى "جاهروم" ، وهي بلدة واسعة ، تبعد مسيرة يومين ، ومن هناك إلى "تدوان" ، وهي بلدة كبيرة أخرى ، بها نهر عريض ، يأتي من سهل شيراز ، وتتوفر في البلدة فواكه كثيرة جيدة للغاية ، وتبعد مسيرة يوم واحد عبر أراض مأهولة ، بها قرى توجد بها فواكه ، ولوازم كثيرة .

تسمى محافظة شيراز برمتها - وهي شاسعة - فارس ، ومن هذه المحافظة تحصل البلاد وأهلها على اسمهم ، وأصبحت البلاد تحمل اسم فارس ، وأصبح أهلها يحملون اسم الفرس .

من مدينة شيراز العظيمة والعتيقة هذه ، وهي عاصمة فارس ، تتجه القوافل إلى مدينة أخرى تسمى أصفهان ، وهي عاصمة محافظة أخرى ، وكانت في الماضي عاصمة مملكة أخرى ، وهي مدينة كبيرة للغاية ، وتتوفر فيها جميع اللوازم والمؤن والفواكه واللحوم والأرز ، والتي تتجه من هنا إلى جميع الأماكن في فارس . هي تبعد مسيرة عشرة أيام عبر أراض وقرى ، يسكنها الأهالي الفرس ، كان سيد هذه المحافظة في الماضي ملكاً يدعى "هاكان باشا" و"هوزون هاكان" ، يعني "هاكان" طويل ؛ وذلك لأنه كان طويل القامة للغاية .

قد استولى الشاه إسماعيل - والد الشاه الحالي "طهماسب" - على المملكة منه ، قد كانت هذه المحافظة تحمل اسم "اراغسمين" وتعني (أرض أراغ) ، وهي تمتد حتى محافظة السلطانية ، وهي مدينة عظيمة وعتيقة ، والتي سيتم وصفها لاحقاً .

من مدينة أصفهان هذه تتجه القوافل إلى "نتافش" ، وهي مدينة

أخرى تتوفر فيها المؤن بشكل جيد كالفواكه ، وتوجد فيها الكروم واللوازم ، تستغرق الرحلة يومين عبر أراض مأهولة ، من هناك تتجه القوافل إلى "كاشان" ، وتستغرق الرحلة يومين عبر أراض مأهولة ، ويقطنها أناس ينتمون إلى الجنس الفارسي ذاته .

في مدينة "كاشان" هذه ، سمعت عن تفشي طاعون هائل في أنحاء "أرمينيا" وتركيا (وهو شيء يحدث طوال الوقت ، ولكن هؤلاء البؤساء لا يفتحون عيونهم ولا يفهمون أن المشكلة تنتج عن عماهم البغيض) ، ولكن الوباء أصبح أقل حدة ، وأن هناك مدناً كثيرة لم يبق فيها شخص واحد على قيد الحياة ، وهي مدن "أرزنجاو" "Arsingao" و"توجيت" "Tojit" و"كراهيمايت" حسبما سيرد وصفه عند الحديث عنها .

على الرغم من هذه الأنباء فقد رغبت في أن أخاطر بالذهاب عبر تبريز وتلك الأماكن ، وأن أقنع رفاقي بأن الوضع سيكون تماماً ، كما لو أننا نسافر عبر بغداد ؛ بسبب النزاعات في البصرة ، فقد خشيت من أنني في حال التعرف عليّ كبرتغالي ، فسيلحق بي بعض الأذى .

كنت أخشى أيضاً ، وبسبب إبداء أحد اليهود الذين كانوا في القافلة ، الرغبة في أن يراني في الأراضي التركية ، أن يبلِّغ السلطات عني ، وأن يشوّه معلومات وفاة كبيرة رئيسات الدير ، والممتلكات التي خلفتها بعد وفاتها ، وأن يسبب لي كل الضرر الذي يستطيع إلحاقه بي ، يعود هذا لي أن اليهود هم كما قيل سابقاً عنهم ؛ ولأنني كنت قد تبادلت في بداية الرحلة كلمات قاسية للغاية معه ؛ بسبب الأشياء الشريرة التي قالها هو والآخرون عن "البرتغاليين" وما تمناه لهم .

إذا سمعتم عن شخص سيطر عليه الضجر ، ويقول إن هذه الفصول تبدو طويلة ، فما عليكم إلا أن تلقوا المسؤولية على الموضوع الذي أدى إلى ذلك ، قد بدا إن من الأفضل بالنسبة لي أن أكتب الفصول من قافلة إلى قافلة ، بدلاً من الكتابة من مكان إلى مكان ليست له أهمية جوهرية .

الفصل الثاني : حول ما حدث لي بعد ذلك في هذه الرحلة من "كاشان" إلى تبريز

اليوميات :

كنا في هذه المدينة من يوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر ، عندما وصلنا ، وحتى يوم الأحد الخامس عشر من شهر أكتوبر ، لانتظار قافلة متجهة إلى تبريز ليتم تجميعها وتكوينها ، قد تجمع الأشخاص الذين عزموا على السفر في تلك القافلة ، وتم تجميع الجمال ، وأصبح كل شيء جاهزاً ، قد أكد رفيقي "جاليسو دو لاباك" قول سليمان الذي يشير إلى عدم وجود حيوان أسوأ من الإنسان .

فقد بدا لي في البداية أنه الأفضل الذي رأيته في حياتي كلها ، (وكان ذلك هو السبب الذي جعلني أرغب في أن أعهد إليه بممتلكات كبيرة رئيسات الدير) ، فور تسليمها (الممتلكات) له بدأ لطفه الزائف يتضح ، وانكشف الخبث الذي كان يتمتع به ، وبدأ يساوره الجشع والرغبة في أن يحصل على كل شيء لنفسه .

رأيت أنا والأرمني هذا الأمر بوضوح ، ولكننا أخفينا ما اكتشفناه ، لم يكن الوقت ملائماً لكي نبلغه باكتشافنا ؛ لأننا لم

نكن سنحقق فائدة كبيرة من ذلك ، إذ لم تكن هذه البلاد نصرانية يمكن فيها إقامة العدالة .

إلى أن حانت اللحظة التي أصبحت فيها القافلة جاهزة للتحرك ، لم يظهر عجلة بالمرة ، ولم يبحث عن جمال لحمولاته ، ولكنه تصرف كرجل يريد أن يبقى هناك ، كان يعلم - ؛ بسبب استعجالي على السفر (وهو ما كان يعرفه تماماً) - أنني سأجازف بفقدان كل شيء على عدم السفر ، كان هذا سيبدو سليماً تماماً لو أنني كنت وحدي مع الأرمني .

لهذا السبب شعرت باليأس ونفذ صبري ، في إحدى الليالي ، وداخل النزل ، تبادلنا كلمات حادة حول هذا الموضوع إلى حد أنني تناولت سكيناً كبيرة كنت أحملها في حزامي لأقتله بها ، سحب خنجراً ، ولولا أنني لم أدرك أن تلك كانت أرض مسلمين - حيث يمكن فقدان كل شيء - لما امتنعت عن قتله ، مهما كانت العواقب ، (إذ إنه قال إنه يريد أن يبقى هناك ويصبح مسلماً) ، لم يكن يعير أي اهتمام لحياتي ، ولم يكن ليتردد في قتلي لخوفه من الموت .

تولى الأرمني ، الذي رأى وعلم أنه (أي "جالياسو") هو المسؤول عن كل شيء ، تحقيق الصلح بيننا ، وقال إنه سيساعده بالعثور على جمال له ، وبمائة "كروزادوس" أيضاً يحتاج إليها ليدفع ليهودي كان قد أقرضه مالاً بفائدة ، فعل هذه الأشياء بعد ذلك في اليوم التالي وأقرضه خمسين "كروازادوس" أخرى ، تبقت من بيع جوز الطيب ، والفلفل الخاص بكبيرة رئيسات الدير ، كان ذلك بعد النفقات والمصاريف

والديون الأخرى التي وجهت بضرورة سدادها ، هكذا ، فقد ساعده بكل طريقة ، وكان يمكن للمرء أن يخطئ ، ويعتقد أنه كان عبداً له .

لم يبد "جالياسو" إزاء كل هذه المساعدات أي عرفان ؛ لأنه كان يعرف أننا يجب ألا نتركه وراءنا ؛ بسبب الممتلكات التي يحتفظ بها ، لم يجرؤ الرجل البائس (أي الأرمني) على الانفصال عنه على الرغم من أنه قدم له أسباباً كثيرة ليفعل ذلك ، على العكس .

حرص الأرمني على أن يساعده أكثر وأكثر ، وأخفى مشاعره تجاهه ، وهو أمر لم أتمكن من فعله ، على الأصح ، وفي معظم الأيام ، كان هناك غضب وتبادل كلمات قاسية بيننا ("جاليسو" وأنا) ، قد عانى الأرمني من عذاب كبير من هذا الرجل طوال الرحلة ، كانت هذه هي المثوبة العادلة جزاء جريرته ، إذ كان من المستحيل أن يتم التوصل لاتفاق معه بأن يضع الممتلكات في عهدتي ، قد ندم كثيراً على ذلك فيما بعد .

من جانبي ، فإنني أستطيع فقط أن أعلن ذلك بكل صدق لو أن الممتلكات كانت تخصني ، كنت سأفضل فقدانها مائة مرة على أن أعاني من صحبته (أي "جاليسو") ليوم واحد ، ولكن الأمر كان موضوع شرف ، وكنت قد كتبت بالفعل للحاكم ولقائد هرمز عن وفاة كبيرة رئيسات الدير .

قد أصبحت منفذ الوصية الخاصة بكل الممتلكات ، وكنت الشخص الذي سيطلب مني ، أكثر من أي أحد آخر ، تقديم بيان عنها ، لهذه الأسباب صممت على أن أتحمل هذه الصعوبات ، التي كانت هائلة بالنسبة لي ولوضعي الاجتماعي ، بدلاً من التخلي عنها (أي الممتلكات) .

حالما أصبح رفيقنا الطيب جاهزاً بفضل جهود الأرمني ، قرر - بدافع من الخجل أكثر منه حسن نية - أن يتحمل صحبتنا ويسافر ، إدراكاً منه أنه لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً آخر .

عندما أصبحت القافلة جاهزة ، وأصبح جميع الأشخاص الذين سيسافرون عليها مستعدين - وكان كثير منهم من المسلمين الفرس ، والأتراك والتركمان وحوالي مائة وثمانين جملاً (وكان هناك قليل من الأشخاص المسافرين إلى "قزوين" - وهي مدينة كبيرة فيها بلاط "الشاه طهماسب") ، غادرنا هذه المدينة "كاشان" في يوم الإثنين الموافق السادس عشر من شهر أكتوبر .

سافرنا طوال الليل ، وأقمنا مخيمنا في مكان صغير مجهز ومشيّد ، وكان هناك نهر ، ماؤه عذب للغاية يجري عند سفح التل ، وهناك أمضينا ذلك اليوم ، في اليوم ذاته وكما حدث سابقاً ، فككنا مخيمنا ، ووصلنا في الصباح تقريباً إلى مكان آخر أكبر نوعاً ما ، ومشيد على أرض منبسطة ، يسمى "كاسوماوا" ، وكان سكانه أولئك المسلمون الفرس ، الذين يعيشون على الزراعة ، وأمضينا اليوم هناك أيضاً .

بعد ساعتين من حلول الليل ، استأنفنا المسير مجدداً ، كنا نسافر خلال تلك الأيام الثلاثة في معظم الأحيان باتجاه الشمال الغربي ، كنا غادرنا "كاشان" باتجاه الشمال ، وصلنا في الصباح إلى مدينة "قم" العتيقة ، التي تقع جنوب الجنوب الشرقي من الطريق بالقرب من بعض الجبال ، على أرض منبسطة ، وتحيط بها جدران مشيدة "بالوتل" والجص على الطريقة الفرنسية مثل "كاشان" ، وبها منازل من النوع ذاته .

يوجد في المدينة مساجد عظيمة ، مشيدة من الطوب ، وبها بلاطات رائعة للغاية (ولا سيما مسجد فخم وضخم للغاية ، يوجد فيه مدفن والدة علي ، الذي ينظر إليه المسلمون الفرس بكثير من التبجيل) .

ربما بلغ عدد سكان المدينة ألفين من الفرس والتركمان ، وهي غنية للغاية بالمؤن والفواكه ، وتربى فيها أعداد كبيرة من المواشي والجمال ، ذات الشعر الطويل الأسود .

يجري بجانب المدينة جدول ذو ماء عذب للغاية ، يمتلئ بالماء في الشتاء كالنهر ، يتسنى الدخول إلى المدينة بواسطة جسر فوقها به عدة أقواس ، يوجد هناك الكثير من الصقور والنسور والكلاب التي يذهب بها النبلاء باستمرار للصيد ؛ إذ إن النبلاء ألفوا كثيراً هذه الرياضة ، توجد كميات كبيرة من الطرائد هناك ، كان الشاه إسماعيل - والد "الشاه طهماسب" ، الذي حكم في هذا الوقت - يقضي فصل الشتاء في هذه المدينة في كثير من الأحيان ليمارس هواية الصيد ، التي كان مدمناً عليها ؛ ولأن المدينة تهب عليها نسمات معتدلة .

السيوف المصنوعة هنا (وهي قصيرة وعريضة على الطريقة المحلية) أفضل مما في أي مكان آخر في فارس وتركيا ، حيث تشتهر سيوف "قم" على نطاق واسع .

من هذه المدينة ، وعلى مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق ، توجد مدينة أخرى كبيرة للغاية ، تفوق "كاشان" في حجمها ، ولكن تعداد سكانها لا يصل لعدد سكان "كاشان" ، وتسمى "كيشهر" ، وكان ملوك فارس القدماء يحتفظون ببلاطهم فيها ، ويقيمون بها دائماً ، هي بوابة مملكة

خـراسـان ، وتتوفر فيها المؤن بكثرة ، وتتزود بها مدينتا "كاشان" و"قزوين" ؛ لأن هذه الأشياء – وكما قلنا من قبل – لا تزرع هناك .

من هناك يحتاج الأمر للسير لمدة عشرين أو خمسة عشر يوماً عبر صحاري كثيرة إلى "حيرات" – وهي مدينة أخرى قديمة وعظيمة – عاصمة وبلاط مملكة خراسان ، التي تقع عند الدرجة أربعين ، ومنها يتجه المرء نحو الشرق إلى مملكة سيستان (التي تجاور السند) التي أخضعها "الشاه طهماسب" لحكمه بقوة السلاح .

واصـل الشاه الحرب ضد مدينة أخرى عظيمة تجاورها تسمى قندهار ، وكان يرغب بشدة في أن يحكمها أيضاً ، ويسيطر عليها ، (وعلى الرغم من أنه أمضى وقتاً طويلاً في هذا العمل ، وبذل كل جهد ممكن من خلال حرب مستمرة) ، إلا أنه لم يتمكن مطلقاً من تحقيق ذلك الهدف ، لاحقاً ، استسلمت المدينة له من تلقاء نفسها .

من هذه المدينة وباتجاه المنطقة الشمالية يأتي المرء إلى مكان ليس بالمملكة ، ويسميه الناس هناك "هزارا" ، هم كـ "التتار" ومن الطائفة السنيـة ، ولا توجـد لديهم أي مدن كبيرة بل توجد قرى صغيرة كثيرة ، وهي غنية للغاية بالمؤن والماشية .

من هنا ، وفي الاتجاه ذاته ، يأتي المسافر إلى مدينة قديمة وعظيمة تسمى غازني ، وكانت تتبع ملكاً عظيماً ، يسمى السلطان "محمد غزنوي" من أسرة "تيمورلنك" العظيم الذي سمي بهذا الاسم ؛ لأنه كان يعاني من العرج ، تعني "لنك" بالفارسية "الأعرج" ، كانت القرية الرئيسية في هذه البلاد تبعد مسيرة يوم واحد ، ولكنها مهدمة برمتها

تقريباً الآن وأصبحت أطلالاً ، وهي صغيرة للغاية الآن ، وبها قلعة صغيرة ، هي تتبع لنفوذ المغول .

من هناك ، وبعد مسيرة ثلاثة أيام في الاتجاه ذاته ، ومروراً بأماكن كثيرة يسكنها أولئك الناس أنفسهم ، يصل المرء إلى مدينة عظيمة أخرى تسمى كابول ، وهي عاصمة بلاط المغول ، وتحيط بها أربعة أسوار قوية للغاية من الحجر والجير ، وتتوفر فيها بكثرة المؤن والفواكه وكروم العنب ، وأشجار ورد ضخمة كثيرة ، بها ماء عذب للغاية ، يحصل عليه من نهر كبير يجري وسط المدينة .

يتجمع في هذه المدينة الناس من مملكة "سمرقند بخارى" ، ومن مملكة "تركستان" و"كشغر" – وهم من "التتار" – وبني جلدتهم ، ورفاقهم للذهاب إلى الهند ؛ إذ إنه لا يوجد هناك طريق آخر ، يذهبون من هناك إلى "لاهور" ، و"دلهي" ، و"أغرا" ، وهي بلاد "السند" ، وتجاور على الحدود "كامبايا" التي يمكن أن يصلوا منها براً إلى مملكة "خان" ، للذهاب من هناك إلى "البنغال" .

من "كشغر" ، وباتجاه الشرق يوجد طريق يتجه إلى مدينة عظيمة تسمى "خوطان" – بعد مسيرة أربعين يوماً – وهي عاصمة مملكة تتجاور في الحدود مع الصين ، ولا يستطيع المرء الذهاب إليها دون تصريح من ملكها ، عندما يرغب التجار في الذهاب (إذ إنه طريق لا يسمح بالسفر عليه أو ارتياده) يتجمع كثير منهم ، ليشكلوا قافلة وجماعة بحيث يتم تعيين واحد منهم قائداً ورئيساً .

يزعم هذا القائد أنه يريد الذهاب في مهمة إلى "كاثي" "Cathy"

وبتصريح من الملك ، يعلنون ذلك في أحد الأيام ، على الرغم من أنها مسيرة أربعين يوماً ، وقد تم بناء كثير من المنارات الشبيهة بالأبراج بطول الطريق على تلال مرتفعة على فترات ، بحيث يمكن مشاهدة الواحد منها من التالي ، يتم إيقاد نيران على هذه التلال ، ويجرى اتصال بهناك في يوم واحد ، عندما يريد الملك لهم أن يذهبوا ، يوقدوا نيران أخرى هناك ، وعندما لا يوافق ، لا يفعلوا أي شيء .

يتجه المرء من مملكة "سمرقند بخاري" نحو الغرب إلى مدينة كافا ، وهي ميناء على البحر الأعظم ، كانت المدينة تابعة للتتار ، وأما الآن فهي تخضع لنفوذ الأتراك ، ولكنهم احتلوا البلاد المكشوفة فقط ، كانت هذه المدينة نصرانية في السابق ، وقد بناها "الجانوي" (Januese) ، على الطريق من "سمرقند بخاري" .

إلى كافا يأتي نهر "موسكوفي" من مملكة "روسيا" – ويسمى "إديل" – ويجري ليصب في بحر "قزوين" .

هناك الكثير من الطرق الأخرى في هذه البلاد يمكن من خلالها الوصول إلى كثير من المدن والأماكن في مناطق متعددة ، لكن ، ونظراً إلى أنها غير ذات صلة بهذه الرحلة ونبتعد قليلاً عنها ، فسأمتنع عن وصفها .

كنا في مدينة "قم" هذه يوم الخميس ، وفي ليلة الجمعة ، انطلقنا باتجاه غرب الشمال الغربي ، في الساعة الثانية قبل الفجر ، أقمنا مخيمنا في نزل جميل ، قرب مكان صغير يسمى "جفاروا" كان بها نهر ، ماؤه عذب للغاية .

في الوقت ذاته من يوم السبت ، انطلقنا مجدداً باتجاه الشمال

الغربي ، ووصلنا قبل ساعتين من الفجر إلى مدينة قديمة للغاية تسمى "ساوا" "Sawa" ، تقع إلى الجنوب من الطريق ، ولا تساوي مساحتها مساحة "قم" ؛ لأنها تعرضت لدمار وخراب كبيرين ، لكنها كانت رائعة وواسعة للغاية ، كما أوضحت مبانيها العامة ، قد قيل لي أن الذين بنوها هم "الإغريق" .

كان يحيط بها سور من "الوتل" والجص ، وقد أعيد بناء بعض الأبراج ، كان يسكن الجزء الأكبر من المدينة المسلمون الفرس ، كانت هناك تجارة قليلة وزراعة محدودة ؛ لأنها كانت تقع قرب بعض السلاسل الجبلية العظيمة ، وفي منطقة مجدبة للغاية ، وكان هناك الكثير من الصيد والغزلان التي يصنعون من قرونها أقواساً تركية الطابع ، وهي أسلحة يستخدمها المسلمون على نطاق واسع ، توجد هنا ورش كبيرة .

ينمو في الحقول نبات بكميات كبيرة ، ويشبه القنب ، ويصنع من نسغه "راتنج" بكميات هائلة إلى حد أنه ينقل إلى أماكن كثيرة ، عندما يجف النبات ، يشبه القش ، ويكون مخلوطاً بالقش ، ويحصد معه ، قيل لي إنه أكبر كمية من الفاكهة كل سبع سنوات .

إلى الغرب من هذه المدينة ، تمتد صحراء تصل إلى نهايتها قرب نهر "الفرات" وبابل ، على مسافة سفر لمدة خمسة عشر أو عشرين يوماً ، هنا شاهدت الكثير من نباتات "كريسب كول" - الذي يوجد أيضاً في فارس - ونباتات ضخمة أخرى مثل الأترجة دون أوراق ، والفجل ، وله رؤوس ضخمة كالسفرجل ، والبنجر المماثل ، ودون أوراق ولونه أحمر ، ومذاقه لذيذ ورائع للغاية .

أمضينا يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر أكتوبر الذي فيه ، بطوله في هذه المدينة ، عند حلول الظلام ، فككنا مخيمنا مجدداً ووصلنا قبل الفجر بساعتين إلى نزل يقع في واد مكشوف بالقرب من نهر ، ماؤه عذب للغاية يسمى "دونغ" .

في يوم الإثنين ، وقبل المغيب مباشرة ، غادرنا هذا المكان بعد أن دفعنا أولاً نصف "داماسيم" لكل "فاردو" (Fardo) لحراس تلك الأودية ، بعد وقت قصير من منتصف الليل ، وصلنا إلى نزل آخر .

يقوم قرب نبع آخر أيضاً ، وسط بعض الروابي تسمى "هجز" ، هنا انفصلت عنا القافلة المتجهة إلى "قزوين" ؛ إذ إنها تقع على مسيرة يومين من السير على الطريق من هناك باتجاه الشرق ، هي مدينة عظيمة وفخمة بمبانيها العامة ، وبوفرة كل الضروريات فيها ، بالطريقة ذاتها مثل سائر مدن فارس الأخرى ، ومعظم تلك المباني مشيدة على الطريقة الفرنسية من "الوتل" والجص والأسوار كذلك ، تمثلت الاستثناءات في منازل الملك وبعض المساجد ، حيث شيدت من الطوب .

تقع المدينة عند ست وثلاثين درجة ، ويعود الجزء الأكبر مما تتمتع به من فخامة إلى وجود بلاط "الشاه طهماسب" فيها ، تتم مباشرة جميع أعمال الحكومة وشؤونها هنا ، حيث قدموا من تبريز التي ظلت دائماً المقر الرئيسي والبلاط للملوك من أسلافه ، قد تم هذا لينأى بنفسه عن التركي إلى مكان لا يستطيع أن يلاحقه فيه ، عندما كان في تبريز ، فعل التركي هذا .

وقد ظل يخشاه دائماً ؛ لأنه لم يكن يملك الرجال أو الدفاع أمام

قوة التركي ، قد استولى التركي بالفعل على كثير من الأراضي منه في "أرمينيا" السفلى وبابل وعلى أراضي بابلية أخرى أيضاً تقرب من حلب ، وقد حكمها كلها "الشاه إسماعيل" .

في ذلك اليوم غادرنا المكان عندما حل الظلام ، ووصلنا في الصباح إلى مكان يسمى "سيكوهاباو" (كنا نسافر خلال الأيام الثلاثة السابقة نحو الشمال والشمال الغربي) حيث عثرنا على طعام هزيل ؛ لأن المكان كان مهدماً ، ولا يكاد يوجد به ناس ، تحيط به حدائق وبساتين كثيرة ، والمنازل مشيدة من الطين و"الوتل" والجص كالمباني في المدن الأخرى ، ويقيم فيها مسلمون فرس ، وتقع البلدة إلى شرقي الشمال الشرقي من الطريق ، وبها نهر عريض ، ماؤه عذب للغاية ، وكان يتدفق عبر المدخل .

في يوم الأربعاء هذا الذي وصلنا فيه ، وكان يصادف الخامس والعشرين من الشهر ، غادرنا المكان بعد ثلاث ساعات من حلول الليل ، بعد أن اتجهنا نحو غربي الشمال الغربي ، وصلنا عند الفجر إلى مكان أكبر يسمى "هيارا" "Hiara" ، ويقع في اتجاه شرقي جنوب شرق الطريق ، ويقطن المكان عدد كبير من السكان أنفسهم ، وكانوا يعيشون على تربية الدواجن وزراعة المحاصيل ، وتتوفر فيه بكثرة المؤن الضرورية حيث توجد فيه حقول واسعة ، يزرعون فيها الذرة ، وتوجد هناك بساتين فواكه كثيرة .

يقع المكان على رابية مستديرة إلى حد أنه يبدو من الخارج ، وكأنه قلعة مشيدة تشييداً جيداً ، المنازل جيدة مشيدة من "الوتل" والجص ، وبها

نوافذ وسقوف مسحطة مثل كل منازل المسلمين ؛ إذ إنهم لا يستعملون سقوفاً ذات بلاطات ، قد شاهدت هنا عدداً كبيراً من حقول القطن ، كما هو الحال بطول الطريق من هرمز إلى "كاشان" ، وتوجد القرى هناك بكثرة ، وبالقرب منها حقول القطن في أنحاء فارس .

كانوا يرسلون القطن إلى أماكن أخرى ؛ إذ إن المسلمين يرتدون أردية التنك المحشوة بالقطن ، هم يبذرون ، ويروون هذا القطن مثل أي محصول آخر ، تطلع البذرة برعماً قصيراً ، ارتفاعه راحتان وجذعاً ، سمكه كإصبع صغير ، لهذا النبات ورقة ذات زغب ، ولونها أصفر ، ولها أشواك ، وذات خمسة أجزاء ، وتنتج ثمرة تشبه التفاحة الصغيرة ، ولونها أصفر أيضاً بأجزائها الأربعة ، وعندما يكتمل نموها تنفتح الأجزاء الأربعة ويخرج القطن .

يبذر المزارعون مع بذرة القطن كمية كبيرة من بذور أشجار التين ، ويصنعون من الثمرة ، بعد تحميصها في النار ، وعصرها إلى أقراص ، زيتاً يستخدمونه في المصابيح ، في أنحاء أخرى من فارس ، حيث توجد كمية كبيرة من القطن ، يستخدمونه في المعاصر .

قضينا في هذا المكان يومي الخميس والجمعة ؛ لأن أحد عبيد رجل تركي ، هو قائد القافلة ، هرب ، في الساعة الواحدة بعد حلول الظلام ، في يوم السبت ، غادرنا المكان باتجاه الشمال الغربي ، وسافرنا طوال الليل بمحاذاة جداول مياه عظيمة ، وتجمعات مياه ، وكنا نلف عبر انحناءات كثيرة بسببها ، كنا نشعر ببرد شديد بالفعل في تلك المنطقة ، وكانت المياه تتجمد تماماً عند الفجر ، وتصبح جليداً صلباً .

بعد شروق الشمس بساعة ، وصلنا إلى مكان يسمى "بارساج" ، يقع شمال شرقي الطريق ، وهو واسع ، ولكنه مهدم للغاية ، كان هذا المكان مدينة عظيمة وشهيرة ، كانت هناك حدائق وبساتين كثيرة تتوفر فيها فاكهة كثيرة ، ومياه عذبة للغاية ، وتوجد بها كل الأشياء الضرورية ، ويسكنها الأهالي ذاتهم ، ويعيشون بالطريقة المألوفة ذاتها .

غادرنا المكان في تلك الليلة في الوقت المعتاد ، ووصلنا في الوقت ذاته من الصباح إلى مكان صغير آخر (وكنا قد مررنا بمدينة عظيمة خلال الليل) يسمى "أوهار" ، وبه عدد كبير من السكان الذين شاهدنا أمثالهم من قبل ، وتتوفر فيه اللوازم بكميات كبيرة ، ويسمى المكان هيا ، يقع إلى الجنوب من الطريق ، وبه نهر كبير ، يتدفق وسط البلدة ، ويشغل عدداً قليلاً من المطاحن .

في يوم الإثنين ، وبعد ساعتين من حلول الظلام ، فككنا المخيم ، ووصلنا عند منتصف الليل إلى تل ، حيث يصل هذا الطريق إلى نهايته ، من هرمز إلى هنا يتجه الطريق صعوداً على الجبال ، وأما من هنا فصاعداً ، فإنه يتجه نزولاً مجدداً .

بعد أن واصلنا رحلتنا ، وصلنا عند الفجر من يوم الثلاثاء - وكان اليوم الأخير من شهر أكتوبر - إلى واد عريض وطويل بجوار نهر ، يرتفع في الوادي لمسافة نصف فرسخ من مدينة السلطانية العظيمة والعتيقة ، والتي تقع إلى جنوب الجنوب الغربي من الطريق ، بطول سلسلة عظيمة من الجبال عند إحدى وأربعين درجة ، يصل عدد سكانها على الأرجح إلى حوالي ألفين أو ثلاثة آلاف من الفرس والتركمان ، ويعيش معظمهم على التجار .

حسب رأي أهالي تلك الأنحاء تعتبر هذه المدينة الأولى في "أرمينيا" العليا ، يرى البعض الآخر أن تبريز هي البادية بالنسبة لها ، الحقيقة هي أنهم يطلقون على البلاد حتى ذلك الجزء (المنطقة الوسطى) ؛ لأنها تقع بين فارس و"أرمينيا" ، يحيط بها سور عتيق .

قد قيل لي إن الذين بنوه هن "الإغريق" ، ولكن السور مهدم ومتداع ، كما هو الحال في معظم مدن فارس ، يعود هذا إلى أن "الشاه طهماسب" ليس مولعاً بالحروب ، وليس ميالاً لإعادة بناء الأسوار ، ولا يرغب في زيادة أملاكه ؛ بسبب ذلك ، حاول أحد أبنائه أن يقتله ، وعندما تم اكتشاف ذلك ألقى به في السجن حيث كان مسجوناً لمدة سبع أو ثماني سنوات عندما مررت بذلك المكان .

خلال هذه الرحلة ، سمعت حديثاً متحمساً له بدرجة عظيمة ،

يعقد عليه البعض آمالاً عريضة ، كان "الشاه طهماسب" عجوزاً للغاية آنذاك ، ولكنه متى توفي ، كانت هناك آمال بأن يسترد جميع المدن والأماكن التي استولى عليها التركي منه .

في جميع المدن التي مررت بها ، شاهدت منارات مهدمة ومتداعية ، وأردت أن أعرف السبب إذ إنه مادام الأمر يتعلق بمساجدهم ، فقد أدهشني أكثر مما أدهشتني أطلال المدن والأماكن الأخرى ، بعد أن سألت الفارسي ، أجابني بأن هذه كانت آخر عهود العالم ، ولهذا السبب لم يرغبوا في ترميم أي شيء ، أو في إضاعة الوقت في شيء لن يدوم طويلاً .

من هذه المدينة وفي اتجاه بحر "قزوين" ، توجد منطقة تسمى "تاروم"

"Tarum" ، يحكمها "الشاه طهماسب" ، وتتوفر فيها كل أنواع الفاكهة ، وتمتد حتى مدينة "دردوبل" ، وبعد ذلك ، وبعد مسيرة ثلاثة أيام تستمر مملكة "جيلان" "Jilan" في اتجاه الشرق .

من هناك وبعد مسيرة يومين يصل المرء إلى بحر "قزوين" ، يطلق الفرس عليه اسم بحر "جيلان" ؛ لأن "جيلان" تجاوره ، وتحيط بها سلاسل جبلية مجاورة .

عند حلول الظلام غادرنا هذا السهل ، وبعد سفر باتجاه غرب الجنوب الغربي والجنوب الغربي ، كما في اليوم السابق ، وصلنا في يوم الأربعاء أول نوفمبر بعد ساعة من الشروق إلى مدينة أخرى عظيمة ، وعتيقة مهدمة ، ومتداعية كالمدن التي سبقتها ، وتسمى "زانجان" .

تقع هذه المدينة في أرض منبسطة إلى الشمال الشرقي من الطريق ويقطنها الفرس والتركمان أيضاً ، هناك قلة من التجار ، ولكن غالبية الناس تعيش على الزراعة وتربية الماشية ، هي خصبة للغاية ، وبها مناطق شاسعة ، تكثر بها قرى المزارعين ، وتتوفر فيها لذلك السبب كل الضروريات ما عدا الماء الذي توجد منه كميات قليلة للغاية فيها ، ولكن تأتي كمية كبيرة منه من نهر السلطانية ، وهو نهر واسع للغاية .

عند حلول الليل ، فككنا مخيمنا ، وواصلنا المسير طوال الليل بين سلاسل جبال وروابٍ ، ومررنا بكثير من جداول المياه والأراضي الوعرة ، ووصلنا في الصباح إلى مكان صغير يسمى "نيسبة" .

في يوم الخميس غادرنا المكان في الوقت المعتاد ، وسرنا كذلك على طريق وعر بين تلال ومرتفعات وجداول مياه ، بمحاذاة نهر

السلطانية الذي يتدفـق في ذلك الاتجاه ، ويصل إلى منطقة قريبة من مدينة "مــيانة" ، وصلنا عند الصباح إلى نزل كبير يسمى "سيرشاو" "Sirchao" ، يقع على النهر ذاته .

غادرنا المكان في يوم الجمعة بعد ساعتين من شروق الشمس ، وسافرنا باتجاه الشمال بين التلال ، بعد أن اتجهنا نحو غرب الشمال الغربي خلال الأيام القليلة الماضية ، في الحادية عشر ليلاً ، مررنا بنزل جمـيل يسمـى "جمــالاوا" ، والذي يتوقف فيه المسافرون خلال الشتاء ، وأولئك الذين لا يستطيعون الوصول إلى المدينة ، مررنا فوق كثير من الطرقات الوعرة ، والمنحدرات الحادة وعبرنا جسراً عالياً وضخماً للغاية ، يقال له "تشازيلوسان" يجري تحته نهر السلطانية ، ويعبره المرء دائماً ، ويزيد حجم النهر في الشتاء ؛ ليصبح نهراً عظيماً .

واصلنا السير على الطرقات الوعرة ذاتها ، بين سلاسل جبلية شاهقة الارتفاع وقريبة كثيراً إلى بعضها البعض ، وتسمى "كافيكانتون" "Cavicanton" ، تنتهي السلسلة الجبلية عند سهل مكشوف ، مررنا بعــد ذلك فوق سلسلة جبلية أخرى أطول وأعلى ، يمر عبرها نهر "ميانة" ، يتحد النهران (السلطانية و"ميانة")

معاً على مسافة فرسخ من هناك ، ويجريان مندفعين إلى بحر "قزوين" بعد مسيرة خمسة أيام من مكان توحدهما .

عندما أشرقت الشمس ، وصلنا إلى مدينة "ميانة" ، وهي بلدة صغيرة تقع إلى غرب الجنوب الغربي من الطريق بمحاذاة سلسلة جبال ، والمنازل فيها مشيدة بـ"الوتل" والجص ذاتهما ، ويسكن المدينة

الأهالي ذاتهم ، ويعيشون على التجارة وتربية الماشية والزراعة ، كانت المدينة واسعة للغاية ومشهورة في الماضي .

تتوفر فيها المؤن بكثرة ؛ إذ إن أرضها جيدة في جهة الشرق ، حيث يزرع كثير من الذرة ، وتحصل كثير من المدن على إمداداتها منها ، تكثر تربية الماشية والجاموس ، هم لا يستهلكون لحم البقر بل يشربون لبنه فقط ، ويستخدمونه لصنع الجبن والزيد ، لا توجد هناك أي فواكهه لعدم وجود الحدائق أو البساتين ، هي باردة للغاية في الشتاء ويكثر فيها الجليد .

إلى الشمال الشرقي من هذه المدينة ، توجد سلسلة جبلية عظيمة تسمى "ماراو" "Marao" ، ويمر المسافر ، ويعبرها على طريق ، في الاتجاه الآخر توجد مدينة واسعة وعتيقة ، يسكنها المسلمون الفرس ، وقليل من التركمان واسمها "أردبيل" ، وتقع في اتجاه شمال الشمال الشرقي ، وتبعد عن تبريز مسافة ، يجتازها المسافر خلال عشرة أو اثني عشر يوماً ، وفيها مبان عامة ومنازل جيدة من الحجر و"الوتل" والجص .

يعيش جميع السكان تقريباً على التجارة ، وبيع بضائع الحرير الخام ، الذي توجد منه كميات كبيرة في البلاد ، وبضائع أخرى ؛ إذ إنها تجاور مملكتين أو ثلاث ممالك أخرى ، مناخ هذه المدينة أكثر اعتدالاً من مناخ تبريز ، وهي غنية للغاية ، وتتوفر فيها المؤن والماشية وبساتين فاكهة كثيرة والسمك الذي يؤتى به من بحر "قزوين" بعد رحلة تستغرق يومين ، يوجد في المدينة مسجد مهيب للغاية ، مدفون فيه والد "الشاه طهماسب" (الذي كان من أهل هذه المدينة) ، وجده وجميع أسلافه ، تقع المدينة في النهاية ،

وعلى الطرف الأقصى من مملكة "جيلان" التي توجد عند الدرجة اثنتين وأربعين في الاتجاه ذاته ، وعلى نقطة البوصلة ذاتها .

قبل هذه المدينة توجد مملكة تسمى "شروان" ، وقد كانت "أرمنية" في السابق ، وتعتبر حدود "أرمينيا" العليا ، يوجد فيها كثير من المدن والبلدات ولاسيما مدينة كبيرة ، هي عاصمة المملكة ، وتسمى "شماهي" ، بالقرب منها توجد قلعة ضخمة وقوية ، تسمى باللغة التركية "جالا جوستان" ، يعني هذا الاسم بلغتنا "قلعة الزهور" ؛ لأنها رائعة للغاية وطقسها لطيف للغاية في الصيف .

قد استولى التركمان في وقت من الأوقات على هذه المملكة من الأرمن ، بعد مضي فترة من الوقت ، خلف الملك ولد صغير له ، يسمى "شاروت باشا" ، استولى عليها "الشاه طهماسب" منه ، وأخذه إلى تبريز ؛ حيث قتله هناك حتى لا يسبب اضطرابات عندما يكبر .

إلى الشرق من هذه المملكة ، يوجد بحر "قزوين" ، وإلى الغرب منها يوجد "الجورجيون" ، وهم شعب نصراني ، يشبهون "الإغريق" تقريباً في طقوسهم واحتفالاتهم .

إذا سلك المرء طريقاً بحرياً يجد مدينة في هذه المملكة تسمى "باكو" ، هناك ثلاث نوافير ، تنفث النفطة التي تشبه النفط الثقيل .

تنتج واحدة منها النفطة السوداء التي تؤخذ لتباع في تبريز ، وفي كل منطقة "أرمينيا" العليا ، ويستخدمونها لإشعال المصابيح .

تنتج النافورتان الأخريان النفطة البيضاء التي تحرق ، وتستخدم في

كثير من الأدوية المنزلية ، وهي تعطي حرارة عالية ، يتم نقلها من هنا إلى تركيا ، وتعد ذات قيمة عالية ، لا يسمح التركي بتصديرها ، أو نقلها إلى أي أماكن أخرى خارج ممالكه .

يفرض التركي غرامات قاسية ، والغاية في فرضها لمراقبة مرتكبي هذه الجريمة ؛ وسبب هذا هو أنه يستخدمها أيضاً في صناعة البارود ؛ إذ إنها تشبه النار ، وتشتعل فيها النار من مسافة بعيدة ، ولهذا السبب يتم نقلها في قوارير جلدية مكسوة بالصلصال ، ومدهوة برؤوس الثوم المهروسة .

بالنسبة للقوافل التي تنقلها ، وتنصب مخيماتها ، وهي تنقلها ، فإنها تفعل ذلك عادة على مسافة بعيدة عن أهالي هذه المملكة ، تتجه كمية كبيرة من الحرير الخام إلى فارس ، وتركيا ، و"سوريا" ، ومدينة "البندقية" من مدينة تابعة للتركي تسمى باللغة التركية "ديميركابي" ، وتعني بلغتنا "البوابة الحديدية" ؛ لأن فيها أربع أو خمس بوابات .

هناك طريق يتجه إلى "روسيا" ، وبلاد "التتار" ، و"القوقاز" .

تنفصل مملكة شروان هذه عن مملكة فارس بنهر عظيم ، يأتي من جورجيا ، يسمى "كورا" ، ويصل عرضه إلى مدى طلقة بندقية "مسكيت" تقريباً في بعض الأماكن ، يعبر الناس النهر بواسطة جسور ، تتألف من مراكب "برج" مثبتة مع بعضها البعض بسلاسل حديدية عند نقطتي عبور أو ثلاث نقاط ، قد أمر "الشاه طهماسب" ببنائها ؛ إذ إن العبور قبل ذلك ، كان يتم بمراكب برج متحركة ، يتحد مع هذا النهر نهر "أراكس" ، الذي ينبع من جبال في "أرمينيا" العليا ، ويجري كلاهما ليصبان في بحر "قزوين" ، وسيتم وصف ذلك لاحقاً .

أقمنا مخيمنا في سهل مكشوف بالقرب من مدينة (ميانة) هذه ، وقرب نهر كبير ، ماؤه عذب ؛ حيث أمضينا يوم السبت ، في يوم الأحد ، الخامس من نوفمبر ، غادرنا المكان باتجاه غرب الشمال الغربي عند حلول الظلام .

بعد أن سرنا مسافة فرسخين تقريباً على مرتفعات ومنحدرات وعرة وجداول مياه وطرق مغلقة ، صارت الأمطار غزيرة والعاصفة قوية إلى حد لم نتمكن معه من التقدم ، اضطررنا إلى أن نتوقف على تل صغير ، احتمينا به بمشقة كبيرة ، وبكثير من المطر والبرد استمرا طوال الليل .

فور حلول الصباح ، واصلنا المسير مجدداً ، ووصلنا في حوالي الظهر إلى مكان واسع ، ويقطنه كثير من التركمان ، يقع إلى غربي الشمال الغربي من الطريق ، ومشيد من "الوتل" والجص ، ويسمى "توركمان" ، وتعني بلغتنا أرض التركمان .

توجد في المكان سهول شاسعة ومنطقة أراضٍ ؛ ولهذا السبب تتوفر في المكان المؤن والمواشي بجميع أنواعها .

في يوم الثلاثاء ، وبعد نصف ساعة من شروق الشمس ، غادرنا المكان باتجاه الشمال الغربي ، بين كثير من التلال والمرتفعات ، والمنحدرات الوعرة ، قد انفصل عنا أولاً التجار ، الذين كانوا في طريقهم إلى "أردبيل" ، في الصباح أتينا على نزل كبير ، يسمى عباس ، يقع النزل جنوبي الطريق ، وقد بني بالحجر والجير ، وبه برج ضخم ، يشبه منارة من الطوب ، ولكنه مهدم ، ومتداع من أجزاء كثيرة .

خلال الليل ، مررنا عبر مكان آخر يسمى "ديويتار" "Diwitar" ،

وهو بارد للغاية ، وبه فواكه قيل لي إن زوجة "الشاه إسماعيل" زرعتها ، وإنها كانت تقضي فصل الصيف هناك في كثير من الأحيان ، السبب في هذا هو أن المكان تهب فيه نسائم معتدلة ، وبه سهول شاسعة ، وطقسها لطيف للغاية ، تسمى "دوشان" ، هنا لا يشعر المرء بعد ذلك بحرارة منتصف النهار ، قد اعتاد "الشاه طهماسب" أيضاً ، قضاء شهور الصيف هنا ، أما فصل الشتاء ، فهو بارد للغاية ، وتكثر فيه الثلوج .

غادرنا المكان في يوم الأربعاء بعد ساعة من شروق الشمس باتجاه الشمال الغربي ، ومررنا بنزل آخر يسمى "هاجياجا" ، على الطرق الوعرة ذاتها ، بين بعض سلاسل الجبال التي تسمى "شيبليج" "Shiblige" ، قد قيل لي إن هذا الطريق بني بالمعاول ، وصلنا قبل الفجر إلى نزل آخر ، مشيد هو الآخر بالحجارة ، يسمى "شيداوا" "Shidawa" ، ويقع شمال الطريق ، وكان مهدماً ومتداعياً مثل المكان الأخير ، ويحيط به جبال سوداء عالية للغاية .

كنا نسافر خلال الرحلة من السلطانية إلى هنا طوال الوقت عبر أراضٍ جبلية ، ومرتفعة ، ومنحدرة ، تسمى جبال "أرمينيا" ؛ بسببها ، تكون هذه الطرق باردة للغاية في الشتاء ، كان هذا ما لمسناه فور دخولنا هذه المنطقة .

كان البرد شديداً إلى حد لم نحتمله ، وتجمد الماء ، وتحول إلى ثلج داخل أكياس جلدية صغيرة ، كنا نحملها ، ويسميها المسلمون متارات ، قيل لي وسط هذه الظروف إن الرجال كانوا يموتون في كثير من الأحيان ، وهم على ظهور جيادهم من البرد ، وإنه وبسبب العواصف الثلجية العنيفة

التي يمكن أن تغطي الرجل تماماً على هذا الطريق من تبريز ، على الطريق من تبريز إلى "كاراهيمايت" ، لقي مسافرون في قافلة حتفهم ، كما سيتم بيانه لاحقاً .

لم يسبق أن مر علينا يوم طوال سفرنا في هذا الطريق دون أن نقابل خمسا أو ست قوافل آتية ، ومغادرة بين جميع الأماكن في فارس ، ولاسيما إلى "قزوين" ، بلاط "الشاه طهماسب" ، كانت القوافل تحمل الكثير من المؤن ، والبضائع الأخرى من مكان إلى آخر ؛ إذ إن غالبية أهل فارس و"أرمينيا" كانت تعيش على التجارة .

وكانت تلك القوافل تتألف من كثير من الجمال ، وهناك قوافل أخرى تتألف من خيول وبغال وحمير ، وعندما سألت أحد المسلمين عن عدد الجمال التي توجد في القوافل أجابني بأن عدد الجمال التي تعمل في القوافل التي تنتقل من مكان لآخر في فارس و"أرمينيا" يزيد عن ثلاثين ألفاً ، علاوة على جمال الحرب الخاصة بـ"الشاه طهماسب" وهي كثيرة .

هناك عدد لا يحصى من الخيول التي يتم أخذها إلى هرمز والهند وخيول أخرى كثيرة ، يتم أخذها من أماكن أخرى على ساحل الجزيرة العربية ، هذا واحد من مصادر الدخل الجيدة المتاحة لمولانا الملك ، هي كثيرة إلى حد أن ثمن أفضل فرس يصل إلى خمسمائة "باردواس" في الهند ، وربما ألف في بعض الأحيان ، لا يتجاوز عشرين "كروزادوس" ، هناك أيضاً عدد لا يحصى من البغال والحمير ، لا يتجاوز حصان السفر عادة أكثر من سبعة أو ثمانية "كروزادوس" ، البغال أغلى ثمناً من الخيول .

غادرنا هذا النزل في يوم الخميس ، بعد ساعتين من الغروب ، حتى نجعل السفر نهاراً أقصر ، في فجر يوم الجمعة الذي صادف العاشر من نوفمبر ، وصلنا إلى مدينة تبريز المهيبة ، والشهيرة ، والعتيقة ، بعد أن أمضينا أربعة وعشرين يوماً في الطريق من "كاشان" إلى هنا ، كنا نطوي في كل مسافة خمسة أو ستة فراسخ على أكثر تقدير ، كنا نسافر ليلاً دائماً ؛ إذ إن هذه هي العادة ؛ بسبب البرد ولقلة النوم .

تقع عاصمة "أرمينيا" العليا - وهي الأكبر والأغنى في مملكة "الشاه طهماسب" برمتها - عند ثمان وثلاثين ونصف درجة ، غربي شمال غرب الطريق ، بين سلستي جبال تتسعان أكثر ، وتمتد واحدة شمالاً والأخرى جنوباً) في سهل مكشوف ، ليس للمدينة أسوار ، ولكنها مشيدة على نحو متقارب للغاية بين بواباتها .

الأمر الذي يجعلها أكثر قوة ، فيها قليل من المباني المشيدة بالحجر والجير ، ولكن غالبية المباني مشيدة على الطريقة الفرنسية من "الوتل" والجص من طابقين ، وسقوفها مقنطرة ، في المباني نوافذ قليلة ؛ لأن الطقس بارد للغاية في الشتاء .

كما أن المسلمين اعتادوا على تشييد المنازل دون نوافذ ، في المباني فتحات فقط ذات ألواح زجاجية تسمح بدخول الضوء ، وهناك بعض الرسومات الملونة ، توجد منازل كبيرة كثيرة ، ذات حدائق وبساتين واسعة ، والكثير من المساجد ، مناراتها طويلة للغاية ، ومشيدة من الحجر والحجارة المنقوشة ، والكثير من البلاطات ذات الحجم الكبير .

كل شيء مهدم تقريباً ومهمل ؛ لأن "الشاه طهماسب" - الذي

اعتاد الإقامة هناك دائماً – غير موجود ، في المدينة أسواق واسعة كتلك الأسواق الموجودة في "كاشان" ، وهي مغطاة من أعلى ، ولكن عددها أكبر ، وتتوفر فيها لوازم أكثر .

هناك ميدان واسع حيث يقرأ البعض وآخرون يقدمون عظات ، ومراهنون وأشخاص يعزفون طبولهم والشابيبة (xabepa) كما هو الحال في "كاشان" .

هناك ميادين أخرى أكبر حجماً ، ومناطق مغطاة يعيش فيها كثير من التجار ، ويتساومون على أدواتهم .

بما أنها مكان تنتشر فيه التجارة ، فإن الفنادق الضخمة تكثر فيها ، ويقيم فيها التجار مع بضائعهم والمسافرين ، هناك خانات أخرى ، ينزل فيها سائقو البغال والجمال مع حيواناتهم ، هناك الكثير من الشوارع التي توجد بها جميع أنواع الورش ، والدمى ، والحلي الرخيصة ، كخلاصة ، فإن المدينة يتوفر فيها كل شيء بكميات أكبر مما في "كاشان" ، وبأسعار أقل بكثير .

يذبح الناس هنا الأبقار والجاموس ، ويتناول النصارى لحومها ، كنت أمشي في أحد الطرقات عندما شاهدتها (لحوم البقر) في محل جزارة ، وكانت جميلة وسمينة إلى حد أنني اشتهيتها ، طلب مني الجزار دفع "داماسيم" واحداً مقابلها ، بدت لي وكأنني في "لشبونه" ، ساعدوني ؛ إذ إنني احتجت صبياً ؛ ليحملها لي بما أن وزنها كان يزيد عن تسعة ونصف من وزن الأرطال (arratel) عندنا ، يعود هذا إلى أن أحداً خلاف النصارى لا يتناول لحم البقر ، النصارى هناك قلة .

في أحد أجزاء المدينة ، توجد منطقة تشتمل على كثير من الحدائق والبساتين حيث كان الصفوي وأسلافه يقيمون فيها ، هنا هاجم التركي الكبير "الشاه طهماسب" قبل عشرين عاماً تقريباً ، بنى قلعة عظيمة على قلعة أخرى كانت قائمة عندئذ ، تسمى هذه القلعة "شانغازان" ، وقد حصنها بسور وكثير من المدافع .

(وحيث إن الذي بناها ملك سابق لـ "أرمينيا" العليا ، وهو عملاق يسمى غازان باشا ، فقد حملت اسمه) ، لم يستول فقط على هذه المدينة ، بل على كل شيء آخر حتى السلطانية ، تراجع "الشاه طهماسب" بمكر حتى تلك المنطقة حتى يحتجزه بمكر ، وسط سلاسل الجبال على الطريق ويقضي عليه ، بقي (أي "الشاه طهماسب") على جانب واحد ، وبقي أحد قادته - الذي كان قد أبرم معه اتفاقاً - على الجانب الآخر ، هاجم هذا القائد التركي هناك ، ولذلك لم يكن لخطة "الشاه طهماسب" أي تأثير .

في اليوم الثاني (وبما أن الوقت كان شتاء) ، كانت هناك ثلوج كثيرة إلى حد أن كثيرين من رجال التركي العظيم سقطوا وماتوا ، إما بالاختناق في الجليد أو من شدة البرد ، قطع البعض منهم الجمال ودخلوا فيها ، وماتوا داخلها ، لذلك السبب توجه التركي من هناك إلى بغداد ؛ لأنها بلاد دافئة ، بعد أن حكم هذه المدينة لمدة ستة شهور أخرى ، وترك قائداً في هذه القلعة مع كثير من الناس و"الإنكشارية" .

عاد "الشاه طهماسب" مع رجاله ، واستعاد كل الذي فقده ، وهذه المدينة أيضاً ، وحبس الأتراك أنفسهم داخل هذه القلعة ، وحصنوا

أنفسهم ، ولكنهم عندما رأوا أنهم لا يستطيعون إعالة أنفسهم ، ولكيلا يموتوا جوعاً ، سلموا أنفسهم "للشاه طهماسب" ، ووضعوا أنفسهم تحت رحمته ، وفتحوا البوابات أمامه ، وتوسلوا إليه الإبقاء على أرواحهم ، ضمن لهم الشاه هذا ، وأبلغهم بأن كل من يرغب في أن يصبح تابعاً له ، فسيكرمه إلى حد بعيد ، وأما من لا يرغب في ذلك ، فيجب عليه أن يغادر مملكته .

أعطى كل واحد منهم سهماً كعلامة على العفو والحرية ، وحتى لا يتعرض أي واحد منهم لأذى أينما ذهب ، غادر البعض منهم ، وبقي البعض الآخر ، أمر "الشاه طهماسب" بهدم القلعة وتسويتها بالأرض ، وأمر بصهر المدافع الكثيرة التي وجدها داخل القلعة ، وتحويلها إلى قطع نقدية حتى لا يتم استخدامها في مملكته برمتها .

كانت هذه المباني على هذه الحال عندما مررت بهذا الطريق ، ووجدتها مهدمة ومتداعية ، ولا تخدم أي غرض ، وأما القلعة فقد تم هدمها ، كانت بالمباني منحوتات من المرمر ، والرخام الرائع للغاية ، والكثير من الزجاج المشغول بشكل مدهش ، كانت هناك داخل هذه المنطقة أشجار حور ، كثيرة مصفوفة في صفوف ، وفي بعض الأماكن كانت هناك برك ماء حيث جلب "الشاه طهماسب" بعض طيور البجع ، والطيور الأخرى المتنوعة ، ولكن جميع هذه المنشآت مهدمة الآن أو متداعية .

توجد في هذه المدينة حمامات رائعة كثيرة تجعل الناس يتمتعون ببشرة فاتحة ووسامة لافتة .

بالمدينة جميع اللوازم الضرورية والمختلفة ، وتشمل القمح والشعير

والأرز وأنواعاً كثيرة من اللحوم ، ويباع كل شيء بسعر زهيد للغاية ، وتتوفر كميات كبيرة من الفواكه المتنوعة ، وتشبه فاكهتنا ، ولكنها أكثر جودة منها ، هناك سمكة تشبه السلمون المرقط ، ومذاقها لذيذ للغاية ، وتباع مقلية في الأسواق ، تصاد هذه السمكة من نهر قرب المدينة ينبع من سلسلة جبال ، تسمى "كاراجادا" "Caragada" ، تقع في المنطقة الشرقية من مملكة "الشاه طهماسب" .

توجد هنا قرى كبيرة يسكنها كلها مسلمون فرس وتركمان ، لدى هؤلاء الناس عادة تقديم أبنائهم وبناتهم هدايا "للشاه طهماسب" ، كان يأخذ الذين يروقون له ، ويرى أنهم يتمتعون بالوسامة .

النهر ليس كبيراً جداً ، وهناك جسر يعبره المرء ، وفي الصيف تجري تحته مياه قليلة للغاية ، يصب النهر في لسان للبحر ، توجد فوقه مثل بحيرة عظيمة ، تستغرق الرحلة لاجتيازها طولياً ثلاثة أيام ، ولاجتياز عرضها يوماً واحداً ، ليس لهذه البحيرة أي فرع يتدفق خارجها إلى أي مكان ، وتسمى بحر أورومية لوجود مكانين ، يحملان هذا الاسم على طرف مملكة "الشاه طهماسب" في اتجاه الغرب .

يستغرق الوصول إليها يومين من هنا ، يتدفق نهر ، ماؤه عذب للغاية عبر المدينة ، ويستخدم جميع السكان مياه هذا النهر للشرب عبر أنابيب ، تمتد تحت الأرض في كل الشوارع ، وفي بعض الأماكن توجد حنفيات ، يتم الحصول من خلالها على الماء ، في الشتاء تخرج المياه دافئة ، ولكنها ، وفور تعرضها للهواء ، تتحول إلى ثلج ، تكون هذه البلاد حارة للغاية في الصيف إلى حد جرت معه العادة أن يحفظ الثلج تحت الأرض .

يستخدم الأثرياء الثلج مع الماء ، ويأمرون بإحضار الثلج من الجبال ، لابد أن تعداد سكان هذه المدينة يصل إلى تسعة أو عشرة آلاف نسمة ، وجميعهم من المسلمين الفرس ، وقلة من التركمان ، وهم أناس ذوو بشرة فاتحة ، ويتمتعون بوسامة وحسن مظهر واضحين .

يرتدي النبلاء والأعيان أردية التنك المحشوة المصنوعة من الساتان ، والمخمل والحرائر الأخرى ، وعباءات قماش من طراز تركي فوقها ، وبه زركشات بخيوط من الذهب والحرير ، ومبطنة بفراء رائع مجلوب من "روسيا" وتركيا ، يرتدي معظم الناس هذه الملابس محشوة بقماش قطني أزرق ، مع عباءات "لندن" ، ومبطنة بفراء الثعالب وجلد الحملان ؛ إذ إن من المستحيل للمرء أن يعيش دون ملابس كهذه ؛ بسبب الطقس البارد في تلك البلاد .

النساء جميلات للغاية ، ويشبهن البرتغاليات إلى درجة كبيرة ، ويتركز الشبه في السمات والمحيا ، بالنسبة للنساء اللواتي ينتمين لطبقة الأعيان والأثرياء ، وعندما يخرجن من بيوتهن ، وهو أمر نادر ، فإنهن يمتطين الخيول ، ويجلسن على السروج منفرجات السيقان كالرجال ، ملابسهن ضيقة وطويلة ومفتوحة من الأمام إلى الخصر .

يلبسن بناطلين حريرية بيضاء ، وجميلة للغاية ومزركشة من أعلى إلى أسفل ، حسب قدرة الواحدة منهن على تحمل نفقات ذلك ، بالذهب والشذر – أي صغار اللؤلؤ – في حين يزركش البعض الآخر منهن البناطلين بالحرير .

يرتدين فوق البناطلين الحريرية بناطلين قصيرة من قماش قرمزي ، وقماش بنفسجي أو أبيض مع حذاء صغيرة أنيقة من الحرير والجلد .

يرتدين فوق هذه معاطف ذات أكمام طويلة ضيقة مبطنة بفراء "القاقم" أو "الدلق" أو "الحملان" أو "الثعالب" ؛ وذلك وفقاً لقدرة كل واحدة على شراء نوع الفراء .

يضعــن على رؤوسهن ضفائر ، بعضها مع خمار ، والبعض الآخر مع قطع قماش كبيرة ، يعتمر جميع المسلمين هنا سواء كانوا من سكـان هـذه المدينة أو كانوا من مدن أخرى في مملكة "الشاه طهماسب" ، قلنسوات ما عدا الذين لهم صلة قرابة بآل محمد الذين يطيلون شعورهم ، ويضفرونها ، ويعتمرون عمائم .

تصنع القلنسوات من قماش أحمر - مثل القلنسوات الدائرية - وواسعة ومبطنة بالقطن ، ومن منتصف الرأس ، يبرز قرن مستقيم إلى أعلى مصنوع من القماش ذاته كالقبعة ، يسمون هذه القلنسوات "كارابساو" ، يصل طولها إلى شبرين ، وهي سميكة كالذراع ، ومقسمة طولياً إلى اثنتي عشرة ثنية ؛ لإحياء ذكرى ولتبجيل أبناء (علي) الاثني عشر الذين يمثلون حراس طائفته ، حماستهم لها شديدة إلى حد أنهم متى التقوا أي مسلم أو تركي من طائفة أخرى ، يعظونه ، ويحثونه على الدفاع عن طائفته .

نشأت عن هذا الوضع غالبية النزاعات والحروب التي خاضها "الشاه إسماعيل" مع التركي والحروب التي خاضها "الشاه طهماسب" معه ، يعود السبب وراء هذا إلى أن الشاه إسماعيل أرسل إليه ، خلال

عهد ازدهاره ، قلنسوة حمراء ، وكتاباً تضمن المذهب الخامس الذي بدأ يتبعه قبل وقت قريب آنذاك ، قد نقله أحد أبناء عليّ - صهر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) - وأكد مذهب والده ، ولكنه أضاف عدة أشياء أخرى .

أرسل هذه الأشياء عن طريق رسول ورجاه أن يقبل سريعاً شريعته هذه ؛ لأنها الأفضل والأكثر صدقاً من جميع الشرائع ، رجاه أن يلعن عمراً وأبا بكر ، وأن يعتمر تلك القلنسوة كما يفعل هو ، أدى ذلك إلى حروب وصراعات طاحنة ، تعرض "الشاه إسماعيل" للخراب ، وخسر "كارهيمايت" ، ومدناً أخرى ، وأماكن كثيرة في "أرمينيا" السفلى .

لكن هذا ليس هدفنا ؛ إذ إنها قصة طويلة للغاية ، جميع أولئك الذين كانوا يبيعون أشياء تؤكل ، أو أي أشياء أخرى في الميادين لا يصيحون منادين على بضاعتهم ، وإنما يصيحون قائلين "يا علي" منادين عليه .

على الرغم من هذه الغرابة والحماسة لمذهبهم ؛ إلا أنّهم يمثلون أكبر المحتالين والكذابين في العالم ، ويفتقرون للتهذيب والتعلم ، وثيابهم قذرة ، وكذلك طريقة حياتهم ، ويبالغون في المساومة ، وهو أمر يمارسه الجميع ، ويمارسون الربا كما يفعل الأتراك واليهود .

هم لا يستخدمون أسلحة سوى الأقواس ، والسهام في حروبهم ، وكذلك سيوفهم القصيرة والعريضة ، والقليل من بنادق "المسكيت" ولا يستخدمون مدافع ، لدى هؤلاء المسلمين الفرس تعاليم أخرى علاوة على مذهبهم الفاسد ، هم يؤمنون ، ويلتزمون بفكرة أن المسيح

الدجال سيولد في فارس وسيحكم العالم من هناك ، سينتصر وينفذ جميع الأشياء الواردة في مذهبهم .

لهذا السبب ، اختار "الشاه طهماسب" أربعين جواداً رائعاً للغاية مكسوة بأغطية حريرية مزركشة خاصة بالسروج ، أمر بوضعها في مكان يسمى "مشهد علي ، " ويعني ضريح علي ؛ إذ إن ذلك هو المكان الذي دفن فيه ، ويبعد عن بغداد مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام .

يقول آخرون أنه يحتفظ بها في مكان يبعد مسيرة ثلاثة أيام عن شيراز ، في اتجاه أصفهان ، حيث يوجد دائماً بلاط ، ومقر إقامة الملك "هاكان باشا" ، حيث تلقى معاملة كريمة للغاية ، وتكون في حالة ممتازة ، ويوجد رجال يشرفون على تدريب هذه الجياد ، يقال إنه يهتم بهذا اهتماماً خاصاً ، وإنه في حال وفاة واحد من تلك الجياد يرسل آخر ؛ ليحل محله على الفور .

كانت لدى "الشاه طهماسب" شقيقة رائعة الجمال ، وكان يحبها كثيراً إلى حد أنه كان يفعل فقط ما ترغب فيه ، كانت المملكة برمتها تخضع لرغبتها وأوامرها ، ولم يشأ أن يزوجها لأي أحد ، قائلاً إنه ينتظر تزويجها للمسيح الدجال ، تقول إشاعات أنه سيكون على علاقة بها ، وأنه في وقت اتصاله الملعون بها ، سيجعلها مغطاة تماماً بملاءة ، وسيترك لها فتحة صغيرة فوق جسدها ، يقولون إنه ما دام لم يلمس جسدها ، فلن يرتكب خطيئة .

كان أحد أبناء التركي العظيم – وهو الابن الأكبر – ويدعى سلطان بايزيد (وكان ذلك قبل سبع أو ثماني سنوات قبل أن أمر بهذا الطريق)

في "غوفيا" ، وهي مدينة في "كرامانيا" "Carmania" ، وتبعد مسيرة خمسة أو ستة أيام عن القسطنطينية ، قد أعطاه والده إياها ، وأعطى لأحد أشقائه ، ويدعى سلطان سليم ، مدينة أخرى تسمى "ماناسيا" "Manacia" ، وهي ميناء ، يبعد مسيرة يوم واحد عن القسطنطينية ، وكان يقيم هناك .

خاف التركي من أن يرتكب ولده هذا خيانة ، ويضع سراً بعض الناس في هذه المدينة ، بما أنها ميناء ، ويقتله ليصبح ملكاً ، لم يرد أن يحتفظ به قريباً أكثر من اللازم منه ، فطلب منه الذهاب إلى "غوفيا" "Govia" ، حيث يوجد شقيقه الآخر ، وأبلغ شقيقه ذاك بالذهاب إلى "ماسيا" ، وهي مدينة أخرى بعيدة عن هناك ، إزاء هذا استشاط سلطان بايزيد ، وقال إن والده يريد أن ينفيه ، وأنه يرسله بعيداً هكذا حتى لا يراه من أجل أن يتمكن من توحيد شعب المملكة ؛ وفقاً لرغبته بأن يطيعوا شقيقه ، افترض أن والده أراد أن يجعل (شقيقه) ملكاً .

مع سيطرة هذا الهاجس وهذه الفكرة على عقله ، قرر أن يثور ضد شقيقه ، مستعيناً بالقوة العظيمة للذين ساندوه ، قد فعل هذا وهاجمه .

عندما رأى الأب أن سلطان "بايزيد" ثار ضد شقيقه دون سبب ، ساعد ابنه الآخر بإرساله كثيراً من الرجال ، و"الإنكشارية" إليه ، كان هذا هو سبب هزيمة سلطان "بايزيد" .

عندما رأى هذا الوضع اصطحب ثلاثة من أبنائه الصغار معه ، وذهب معهم إلى "الشاه طهماسب" الذي بالغ في تكريمه ، واستقبله بحفاوة ، بعد ستة أو سبعة شهور من وصوله ، شاهد شقيقة "الشاه

طهماسب" رائعة الجمال هذه ، فأحبها وأغرم بها ، وكذلك أحبته هي ، حتى ينعم بعلاقته الغرامية ، بشكل أفضل وبحرية أكثر قرر أن يقتل "الشاه طهماسب" ؛ ليتزوجها فيما بعد ؛ وليصبح سيداً للمملكة معها ، أسر بهذه النية لمسلم عربي كان يعمل في خدمته يدعى (عرب محمد (صلى الله عليه وسلم)) ، والذي ذهب على الفور ليحذر "الشاه طهماسب" ، ويبلغه بكل ما قرر سلطان "بايزيد" أن يفعله .

عرف سلطان "بايزيد" سريعاً بهذا من مسلم آخر كان خادماً "للشاه طهماسب" ؛ حيث إن (عرب محمد (صلى الله عليه وسلم)) هذا أصبح ذا وجهين ، واعتقد أن أحداً لم يعرف بالتحذير الذي أبلغه "للشاه طهماسب" ، فقد قتله سلطان "بايزيد" بخنجر ، أكد هذا الأمر "للشاه طهماسب" ما أبلغه به (عرب محمد (صلى الله عليه وسلم)) ، فأمر على الفور بإلقاء سلطان "بايزيد" في السجن .

عندما رأت شقيقة "الشاه طهماسب" أنه ألقى به في السجن ، خشيت أن يصيبه مكروه ؛ وذلك لأنها أصبحت تحبه حباً جارفاً ، رتبت تقديم سم "للشاه طهماسب" ، سرعان ما شرعت في تنفيذ خطتها ، ووضعته له في النبيذ (إذ إن "الشاه طهماسب" كان شديد الثقة بها إلى حد أنه لم يكن يتناول أي طعام أو شراب إلا من يدها) .

قد أوصله السم إلى حافة الموت ، أرسل له ملك "جيلان" طبيباً ، تمكن بالاستعانة بكثير من الأدوية من علاجه بعد فترة طويلة ظل خلالها مريضاً ، عندما شفي وعلم بالحقيقة قتل شقيقته على الفور ، بعد أن فقد كل الحب الذي كان يشعر به تجاهها ، منع تناول النبيذ في مملكته ،

وهدد من يتعاطى العمل في بيعه ، أو يتناوله بإخضاعه للعقوبة قائلاً إنه يرى أنه سيلقى حتفه مقتولاً بالنبيذ .

عندما سمع التركي عن هذه الأحداث ، أرسل إلى "الشاه طهماسب" قائلاً بأن عليه إرسال ابنه له حياً ، أجابه "الشاه طهماسب" أنه لا يستطيع أن يرسله حياً ؛ بسبب الخيانة التي دبرها ضده ، ولكنه لن يقتله (ولم يجرؤ على ذلك ؛ لأنه لم يعرف ما إذا كان هذا هو الذي يريده والده فعلاً) ، كان ذلك على الرغم من حقيقة أن شقيقه سلطان سليم أرسل له سراً في مرات كثيرة ، يطلب منه أن يقتله ، وأنه سيهبه "كاراهيمايت" بكل حدودها وأراضيها ، وهي المنطقة التي استولى والده عليها منه .

أرسل التركي العظيم مرة أخرى ، يطلب منه أن يرسل ابنه عاجلاً ، وأنه إذا لم يكن يرغب في إرساله حياً ، فيجب قتله (إذ إنه لم يرغب أو يشأ إبقاءه حياً بما أنه ثار ضده ، وخشي ألا يكون أبداً صديقاً طيباً لشقيقه) .

ورد "الشاه طهماسب" على هذا بأنه لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يرسله إليه حياً ، وأنه سيرسله إليه ميتاً ، ولكن يتعين عليه أن يرسل أحداً ليقتله .

قد فعل التركي هذا وأرسل اثنين من قادته لهذا الغرض ، وكان أحد القائدين يدعى "هكاناجا" "Hacanaga" – وهو قائد حرسه الملكي – ونائب الملك في عموم "كارامانيا" ، ويدعى "بيجلر بيجوي" "Bigar Bijoui" .

لم يوافق "الشاه طهماسب" على هذين الرجلين ، وقال إنه لا يعرف ما إذا كانا مرسلين على نحو زائف بواسطة شقيق سلطان "بايزيد" ، أراد

أن يرسل أحد قادته إلى التركي ليسمع منه شخصياً ، فأرسل قائده المدعو "جعفر سلطان" ، وذهب معهما (أي مع رسولي التركي العظيم) .

عندما سمع "جعفر سلطان" من التركي شخصياً ، عاد مع الرسولين اللذين أرسلهما التركي لهذا الغرض ، ومعهم هدية فخمة "للشاه طهماسب" ، قتل الرجلان سلطان "بايزيد" وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه ، وذلك بخنقهم بأوتار الأقواس ، وحملوهم موتى داخل صناديق إلى القسطنطينية .

زعم البعض أن مسلماً فارسياً كان شبيهاً به إلى درجة كبيرة ، هو الذي تم قتله ، وأن سلطان "بايزيد يختبئ" ، وينتظر وفاة والده لكي يهاجم شقيقه بقوة كبرى ، كان التركي قد فقد ولدين أو ثلاثة ، لقوا مصرعهم .

لكن بما أن هذه قصة خارج – موضوعنا ، فلن نرويها ، هو يفعل الشيء ذاته للأتباع ، والباشوات الذين يخدعونه .

لكي نستأنف الحديث أقول إنه يكفي أن نعرف أن هذه طبيعة المذهب الذي يؤمنون به ويعتبرون حراساً له ، هذه هي طبيعة شؤونهم كلها ، سيسمح ربنا بدمارهم وهلاكهم من خلال رحمته الواسعة وبواسطة الأمراء المسيحيين بما يتفق مع المبدأ العادل الذي طبقوه – بعون من الرب – ضده (أي ضد التركي) في هذا العام في الحرب في "مالطا" .

في مدينة تبريز هذه يعيش أيضاً قليل من النصارى ، هم مزارعون ، وحرفيون أوروبيون ، يعملون في حرف صناعية ، وهناك تجار أرمن ، يعملون في تجارة واستثمارات واسعة النطاق ، يصنع آخرون النبيذ الذي يشربونه ، ويبيعونه سراً للمسلمين ، هذه المدينة هي عاصمة "أرمينيا" العظمى .

حيث كانت توجد في الماضي أربعون كنيسة هامة وضخمة ، وكان في البعض أربعون مذبحاً ، تحولت جميع تلك الكنائس - عندما استولى عليها التركمان في الزمان القديم ، وبسبب خطايانا - إلى المساجد الفخمة التي نراها الآن ، لم يعد لدى النصارى إلا كنيسة واحدة صغيرة في المدينة .

يوجد فيها قسيسان يؤديان الصلاة لهم ، يرتديان ملابس كالتي يرتديها الناس العاديون ، وهي الأردية والعمائم ، ويطلقان لحيتيهما وهما متزوجان ، يقولان إن الرب يسمح لهما بذلك ، في حال وفاة زوجة أحدهما لا يتزوج مرة أخرى ، ولكن يصبح راهباً ويحلق شعره ، يترك الآخرون شعيرات قليلة في المنتصف ، ويصفوفها إلى الوراء .

أصل عقيدتهم النصرانية كالآتي :

في الزمان القديم ، وعندما كان ملك عموم "أرمينيا" عملاقاً وثنياً ، ذهب القديس المبارك "جريجوري نازايانزينو" "Gregori Nazayanzeno" إلى تلك الأنحاء ، وأدى مهمته كنصراني حقيقي ، وقدم عظاته عن مذهب يسوع وآلامه ، وشجب الملك أيضاً ، وردد أشياء كثيرة كخادم مخلص للرب ، وكقديس شجاع دون خوف من الموت أو الشهادة التي ربما يتعرض لها .

لهذا السبب أمر الملك بوضعه في بئر عمقها أربعون قامة ، حيث بقي القديس المبارك لمدة سبع سنوات ، كان يقتات على رغيف من الشعير ، وكوب من الماء كانت امرأة عجوز من أتباعه المخلصين تحضرهما إليه في كل يوم .

بعد أن مرت تلك السنوات السبع ، سمعت أربعون عذراء مؤمنة بمعجزة هذا القديس المبارك ، وعن بقائه على قيد الحياة هناك بعد هذه السنوات ، وقررن الذهاب لرؤيته .

بعد أن غادرن بلدهن ، ذهبن للبلاد التي كان هذا الملك موجوداً فيها ، لكنه عندما سمع بوصولهن ، والسبب من حضورهن ألقى القبض عليهن ، بما أنهن ما كن ليمتنعن عن الاعتراف بعقيدة يسوع وقداسة القديس المبارك ، فقد عمد الملك إلى قتلهن .

حيث إن هذا استغرق معظم اليوم ، فقد حملت المرأة العجوز الطعام إلى القديس المبارك متأخرة عن الموعد ، وكانت اعتادت دائماً أن تحضر مبكرة ، عندما سألها القديس عن سبب تأخرها أخبرته العجوز بكل شيء ، تساءل القديس عن السبب الذي جعل هذا الخنزير يفعل هذا الفعل ، عندما تفوه بهذه الكلمات تحول الملك فجأة ، وبتدخل إلهي ، إلى خنزير ، وفر إلى الغابة بالقرب من نهر "أراكس" .

في مكان يسمى "أهار" "Ahar" – وهو أول مكان عثر عليه نوح بعد خروجه من السفينة ، كما سيتم وصفه لاحقاً – كان يعيش شقيق الملك ، عندما سمع بتحوله إلى خنزير ، بكي بمرارة ونتف شعر لحيته ، قد تفطر قلبه حزناً ؛ لأنه لم يستطيع العثور على علاج لشقيقه ، ولا يعرف سبب تحوله إلى حيوان متوحش كهذا ، أو تفسير لهذا اللغز .

عندما علمت المرأة العجوز ، التي كانت تأخذ الطعام "للقديس جريجوري" المبارك ، بأنه يعاني من هذه الحال ، ذهبت وتحدثت إليه ، وأخبرته بأن الرجل الذي حبسه شقيقه داخل البئر ، هو السبب وراء

المعجزة التي رآه فيها ، إذا رغب في أن يصحح الأمور يجب أن يذهب ، ويتحدث إليه إذ إن أحداً لن يستطع تصحيحها سواه .

سألها شقيق الملك عن المكان الذي يمكنه أن يعثر فيه على القديس إذ إن عظامه ذاتها لن تكون موجودة ، وأجابته العجوز بأنه حي ، وأنه داخل البئر التي أمر شقيقه الملك بإلقائه فيها .

توسل إليها عندئذ بأن تذهب معه ، وترشده إلى الطريق والمكان ، ذهب معاً ، وتحدث إلى القديس المبارك ، وأبلغه بأن عليه إذا كان يستطيع إنقاذ شقيقه أن يفعل ذلك ، وعد شقيق الملك بأن يفعل كل الذي يأمره القديس به ، وأرسل بعد ذلك لإحضار سلة ، وأنزلها إلى القديس ليخرج من البئر .

ملأ القديس المبارك السلة أولاً بالحشرات والثعابين التي كانت معه في قاع البئر ، والتي ساعدته على أن يصلي يومياً للرب ، خرج بعد ذلك ، وأبلغ شقيق الملك بأن من اللائق به أن يصبح نصرانياً ، وأن يصبح شعبه نصارى أيضاً ، حتى يستطيع أن يخدم الإله الحقيقي ، الرب وخالق كل الأشياء ، فنفذ له هذا الطلب ، وتم تعميده ، هو وعدد من أفراد شعبه .

ذهبا بعد ذلك إلى الغابة ، حيث كان الملك يتمشى هناك ، بدأ القديس المبارك يصلي ، وجاء الخنزير ، ووقع عند قدميه ، عند ذلك سأله القديس عما إذا كان يريد أن يصبح نصرانياً ، فأحنى رأسه كعلامة على الموافقة ؛ إذ إنه كان يفهم كل الذي يقال إليه ، ولكنه لا يتحدث ، جذبه القديس بعد ذلك من إحدى أذنيه ، وقال : ستبقى

هذه الأذن كما هي كعلامة على أنك لا تستطيع أن تتوب ، وأنت في هذه الحال ، عادت جميع أعضاء جسمه كما كانت سابقاً ، وتم تعميده بعد ذلك مع كل شعبه .

أصبح القديس المبارك لاحقاً ناسكاً ، وتوفي في سلسلة الجبال التي ينبع منها ذلك النهر العظيم ، ظل الملك نصرانياً وشعبه كذلك ، وكل البلاد التابعة له ، من هنا جاء جميع الأرمن والنصارى في هذه الأنحاء .

هذا هو ما قاله لي قساوسة الكنيسة ، وقد كتبته ، وأنا أخضع نفسي لحقيقة كنيستنا المقدسة .

الفصل الثالث : عما حدث لي في هذه الرحلة من تبريز إلى حلب

كان لي في مدينة تبريز هذه المزيد من المشاجرات مع الرجل "الفينيقي" ، تتعلق بمغادرتنا ؛ لأنه هو أيضاً حاول البقاء بادعاء المرض ، لكن الأرمني وشخصي دخلنا في مشاكل رهيبة معه ، كنا سنستأجر وحوشه ، ونتعهد على أنفسنا (بالمسؤولية) عن الأموال التي أضاعها في محاولة صفقة تبديل مالية ، حتى يسدد الديون التي عليه (لأنه لم يكن يريد بيع أي شيء هنا) حتى يكون مجبراً على المغادرة .

في القافلة التي تم تجميعها هناك ، كان فيها اثنان أو ثلاثة أتراك من بين الذين جاؤوا معنا من هرمز ، وبسبب بعض الأشياء التي كان اليهود (يقولونها) والضجة (التي قاموا بها) (كما جاء ذكر ذلك) ، لم يتمكنوا من محو الانشغال والتفكير في الأمر من عقولهم ، والذي بدا لهم أنه وبسبب موت الأم الرئيسة إن خمسة أو ستة آلاف "كروزادوس" قد بقيت ، والتي عن طريقها سنغتني نحن الثلاثة جميعاً ، ونصبح أثرياء .

هددونا بصورة مستمرة حتى إننا عندما دخلنا الأراضي التركية كانوا سيعتقلوننا ، ويتم الاستيلاء على كل ما معنا ، هذا ما لم يكن ممكناً القيام به في أراضي "الشاه طهماسب" ؛ لأنه لم يستول على كنز المتوفية (كما هي العادة) في أرض الأتراك ، وهو يقول إنه تلقى إشارة ليدمجها مع ما يمتلكه .

كان هذا بالرغم من علاجي لهم ، وإعطائهم طوال الوقت في كل الرحلة كل ما كنت أحمله معي ، ليست لهم مشاعر صداقة مع أي أحد ، ويعتقدون أن كل الأعراف الأخرى في العالم عليها منحهم الحق في كل ما يملكون دون أن يبدو لهم أي نوع من الفضل والامتنان عن ذلك .

لهذا السبب اتفقنا ، ألا ننتظر القافلة ، وأن نذهب قدماً مع ما نحمل من متاع ، هذا كان يعني أن أربعة عشر أو خمسة عشر بغلاً ، بما فيها من أحمال ودابة للركوب ، بالإضافة ؛ لأن الطريق من هنا وقدماً ليس فيه مخاطر ؛ بسبب اللصوص ، والقوافل الصغيرة عادة ما تسافر حيث هناك فنادق ونزل .

من غير الممكن التخييم خلال الشتاء في الأماكن المفتوحة ، وعليه حالما كنا مستعدين مع بغالنا ، (لأن الطريق من هنا وحتى الخليل لا تسير الجمال فيه لوعورة الطرق) ، غادرنا هذه المدينة في يوم الأربعاء عند الساعة الثامنة في صباح الثامن والعشرين من شهر نوفمبر ، والشمس تشرق من الجنوب الشرقي وتغرب من الغرب .

تحركنا في سفرنا نحو الشمال الغربي ، وبعد أن قطعنا مسافة فرسخ

ونصف ، شاهدت في منتصف الطريق قبراً ضخماً طوله بقدر ثلاثة من أطوال قبورنا ، وكان عريضاً جداً ، وعلى بعد قليل كان هناك آخر ، قيل لي أنها قبور قديمة جداً من أيام الملوك ، وحيث عاش الكثير من العمالقة عبر "أرمينيا" .

توقفنا قبل نحو ساعتين من الغروب عند خان (فندق) ، يبعد قليلاً عن مدينة صغيرة تقع في غرب الجنوب الغربي (من الطريق) ، تزودنا تماماً بالفواكه والمواد التموينية والماشية بكل الأنواع ، تسمى المدينة "سفيان" ، التي كانت في السابق مدينة عظيمة وكثيفة السكان ، بنيت من مواد "الوتل" والقصب والفروع الملطخة بالطين ، يسكنها مسلمون من الفرس والتركمان .

غادرنا يوم الخميس قبل ساعة من الفجر ، سافرنا في نفس الاتجاه ، وعبرنا معظم الوقت سلاسل عالية من الجبال والتلال كانت بجانب الطريق ، كانت تغطيها الثلوج وبدت كجبال ضخمة من الملح .

دائماً عند حلول الليل كنا نخيم في مكان مأهول بالناس ، كان المكان مناسباً في حجمه ، ويتكون من بعض منازل الطين والقصب ، ويسمى بالفارسية (hosque sarai) ، والتي تعني في لغتنا "قصر من طابقين" ، وهي مخلفات من بعض التي كانت للإمبراطور هناك . كان دائماً ما يذهب إلى هناك من تبريز للراحة ؛ لأنها منطقة مليئة بالصيد ، وتقع في شمال الطريق ، تتوفر فيها الفواكه والمؤن .

شاهدت هنا الكثير من كلاب الحراسة ، ويعتبر السكان تربيتها نوعاً

من الشرف ، ويحتفظون بها في منازلهم ، وعند موتها ، يضعونها في قبور بنيت من طوب الطين المجفف في الشمس ، وعليها اللون الأبيض .

رافقنا أحدها من هنا ، وواصل مسيرته معنا حتى مدينة "فان" ، وقدم لنا خدمة جليلة في الطريق بحراسته للقافلة في بعض الليالي عندما نقوم بالتخييم في الأرض المكشوفة .

غادرنا المكان في صباح الجمعة ؛ وحيث إن البغال كانت مرهقة ، وكان الخان بعيداً توقفنا عند منتصف اليوم بالقرب من بعض خرائب المنازل ، عند تحركنا واصلنا السفر في نفس الاتجاه عبر سلاسل جبلية تسمى بالتركية Cazan Guirva والتي تعني "رجال المرجل" ، لم أتمكن من إيجاد أي شخص يستطيع إطلاعي على السبب لهذا الاسم ، لكن قيل إنه كان اسماً قديماً .

تحركنا في صباح اليوم التالي في نفس الاتجاه ، وعند هبوط الليل ، وصلنا إلى قرية كبيرة ، تقع غرب الطريق تسمى Seidavar ، يسكنها الأرمن وقلة من التركمان ، وتقع في سهل مفتوح ، خصب جداً ، وتزرع فيه الذرة ، وتتوجد هنا كل أنواع الماشية والكثير من بساتين الفاكهة ، هناك أيضاً العديد من القرى الصغيرة الواقعة على نفس السهل الواسع والكبير جداً .

كما أخبرونا هنا ، إنه في مدينة تقع على بعد فرسخ أمامنا ، توجد آخر مستوطنه تابعة لسلطة "شاه طهماسب" ، ولن يسمح لنا بالمرور دون أن نلاقي مشقة كبيرة ، جرت العادة دائماً ، التحرش بالقوافل العابرة ، حتى يقوموا بإعطائهم بعض الأشياء ، قد اتفقنا مع أحد المواطنين المحليين

لقيادتنا ، وإرشادنا للعبور بسلام ؛ لأن سائقي البغال لا يعرفون الطريق جيداً ؛ كونهم لم يسافروا من هنا قبل ذلك .

تحركنا في منتصف الليل ، وسرنا باتجاه الغرب ونحن نعبر المدينة التي تسمى Hoi ، وهي عبارة عن مستوطنة ضخمة ، بها الكثير من المؤن ، والمواد ، والمنتوجات والماشية ، (مررنا عبرها) في مشقة وصعوبة ، وذلك بسبب الظلام ، وقنوات المياه التي عبرناها مما أدى لسقوط بعض الأحمال .

على بعد فرسخ تاه مرشدنا ، وبدأ عليه عدم الإلمام بالطريق وأين نسير ؛ وهذا هو السبب الذي جعلنا نحس بالضياع ، استمر ذلك حتى قبل طلوع الفجر ، (عبرنا) الكثير من مجاري المياه ، وأكواماً من الحجارة والتراب ، والتي سببت لنا الكثير من المشاق ، وأخيراً بعد أن أصابنا التعب والقلق ، توقفنا على تل في انتظار الصباح ، حتى نتعرف على الطريق .

للشمال من مدينة Hoi (على خط طول اثنين وأربعين درجة) هذا ، وبعد مسيرة يومين أو ثلاثة توجد بعض الجبال العالية الضخمة ، حيث رست سفينة نوح ، لا أحد يذهب إلى هناك في أي من أوقات السنة ؛ بسبب الثلوج التي تغطي قمم الجبال دائماً ، ويصعب على الجميع الصعود إليها .

الذين يقولون إن الكهنة والرهبان يصعدون إلى هناك ، ويأتون بأرغفة من السفينة لا يدرون ما يقولون ، وهذا ما أكده لي العديد من المقيمين هناك لمدة طويلة في تلك الأنحاء ، كما أخبروني ، أن القديس "جيمس" الجليل ذهب لتلك الجبال بغرض رؤية سفينة نوح ، حاول الصعود لثلاث مرات ، لكن الليل كان يداهمه في الطريق ، وعند الصبح يجد نفسه مرة أخرى عند سفح الجبال .

في المناسبة الأخيرة ، وهو في منتصف الطريق ، وفي غاية التعب في مكان لم يصله من قبل في المرات السابقة ، بدأ بالبكاء ملتمساً من الرب بكل إخلاص أن يسمح له برؤية سفينة نوح التي رغب كثيراً في رؤيتها . ، في تلك اللحظة ظهر ملاك وسأله عما يريد ، فأجابه بأنه يريد رؤية السفينة ، وأن يكمل حجه الذي نذره على نفسه .

أخبره الملاك باستحالة ذلك ، وأن عليه التوقف عن محاولاته البائسة تلك ؛ وذلك لأنه لا مخلوق خرج من رحم أمه ، يستطيع العودة إليه ، ثم جاء له بلوح من الخشب من السفينة ، وأخبره إن كل ما بها على تلك الشاكلة ، وأخبره أن يقنع بذلك وأن يعود من حيث أتى .

بالرغم من ذلك قام القديس الجليل ، وفي نفس المكان بعمل مذبح صغيرة ، حيث تلا القداس . الآن شيدت هناك صومعة صغيرة يعيش فيها كاهن . كل سنة ، وفي نفس ذلك اليوم ، يذهب العديد من المسيحيين والأرمن وآخرون إلى هناك للحج ، يقوم كهنتهم بإجراء القداس لهم .

عند حلول الصباح ، وبعد أن تعرفنا على الطريق ، قمنا بتحميل البغال ، وسرنا خلفها عبر سهل واسع وجميل ، مليئ بالمزارع والحقول ، وبه الكثير من القرى التي يسكنها الأرمن ، وقلة من التركمان ، ليفهم كل من يقرأ بيان رحلتي هذه ، أنني كلما ذكرت جنسيات الناس الذين يسكنون تلك الأماكن عليهم أن يعرفوا أنهم بيض البشرة ؛ لأنني لا أستطيع أن أذكر ذلك في كل مكان .

توجد الكثير من بساتين الفاكهة والعديد من الماشية بأنواعها .

يجري عبر هذا السهل نهر كبير ، عذب المياه ، يتفجر وينبع من

بعض الجبال أمامنا ، ويمر عبد مدينة Hoi ، ينحدر وينساب من هناك حتى يلتقي نهر "أراكس" ، ويصب الاثنان في بحر غزوين . سافرنا في محاذاة ذلك حالياً ، وفي منتصف النهار تقريباً وصلنا إلى وادي يسمى باللغة التركية Goturdere والتي تعني "وادي الجرب" ؛ وذلك بسبب وعورة ، وحجم سلاسل الجبال التي تحيط به .

سافرنا عبرها على طول نفس النهر الذي يتدفع عبرها ، ويرتفع لأعلى مستوى له عند نهايتها (السلاسل الجبلية) ، ومعه ينابيع أخرى وخيران صغيرة تلتقي معاً .

يذوب الكثير من الجليد في تلك الجبال ويكون ذلك (النهر) ، ويصبح ضخماً وسريع التدفق . سافرنا بمحاذاته بين جبال عالية ، وقريبة وتلال كثيفة ، على بعد فرسخ داخلها ، وصلنا إلى جرف صخري شديد الانحدار ، والذي تقع أسفله حفريات تبدو كمنزل صغير ، شديد السواد ويلطخه الدخان من النيران ، التي قام بإشعالها الجنود المشاة ، ووكلاء محصلي الضرائب من تبريز و"Hoi" في ذلك المكان .

كانوا هناك يراجعون وثائق القوافل العابرة التي تبين المستحقات التي دفعوها ؛ وذلك لأن المنطقة حدودية تتبع لسلطة وأراضي "شاه طهماسب" وعظيم الترك .

في هذا الوقت لم يكن المنزل مسكوناً لسنتين أو ثلاث سنوات ؛ لأن "شاه طهماسب" من أجل روح والده ، قام برفع كل حقوقه ، وإيقافها عن أراضيه ومناطق نفوذه التابعة له ، واعتقد أنه بهذه الطريقة سينقذ روح والده .

حقاً ، إن كله ما كان ملكاً مسيحياً ، فيه تلك الفضيلة ، ولكانت من صفاته ، وذلك بسبب الكرم والأمان الذي عبرت به القوافل في أسفارها أراضيه دون أن يسبب لها أي مخاطر أو يطلب منها شيئاً .

الأتراك وآخرون يعلمون تماماً ضخامة العائد المادي الذي تنازل عنه ؛ لأن في تبريز وحدها وبفوائد الحرير الذي يأتي من "شيروان" (وهي كمية هائلة) كان يجلب له بئراً من الذهب ، وهو غير قانع بما فعل ، بل بعث لعظيم الترك بأن يرفع ، ويتنازل عن حقوقه على "فان" و "Carahemite" .

وعن الأراضي الأخرى التي استولى عليها عظيم الترك منه ، ومن والده ، (طلب منه) أن يطلع على ما تحصل عليه كعائد مالي ، وأنه على استعداد لسداد ذلك المبلغ ، أو منحه كتعويض مدينة وأراضي ذات قيمة مادية كبيرة ، لكن عظيم الترك لم يرغب بذلك .

حالما عبرنا ذلك المنزل ، واصلنا مسيرتنا بين تلك الجبال عبر طرق وعرة جداً ، وممرات حجرية تعبر بين حين وآخر بعض الأنهار ، كان علينا القيام بذلك مرات عديدة ؛ لأن الطرق كانت تمر عبر منحنيات كثيرة .

عندما بقي على ضوء النهار ساعة واحدة ، بقينا تحت سفح جبل عال ومنحدر ، شكل لنا ملجأ جيداً ، قد أعددت نفسي لتسلقه ؛ لأنه بدا لي عالياً جداً ، وأستطيع من قمته رؤية كل العالم ، مرتد أرميني مسلم كان مسافراً معنا ، أخبرني بعدم القيام بتلك المخاطرة ؛ لأن الوقت قد تأخر وأن الهبوط سيكون شاقّاً بالنسبة لي ، على أية حال لن أشاهد أكثر مما شاهدت الآن ، وهو عبارة عن سلاسل جبلية وتلال عليها ، وهي ضخمة تصل إلى عنان السماء على مدى البصر .

في صباح اليوم التالي ، واصلنا رحلتنا على طول نفس النهر الصغير عبر الجبال وعلى طرق وعرة ، تضيق في الكثير من المناطق (لأنها فتحت عن طريق الفؤوس من خلال الصخور) ، حتى إننا نقلنا الأحمال من ظهور البغال لعدم وجود سبيل لمرورها .

واصلنا سفرنا مع تلك المشاق حتى حلول الظلام ، حيث صعدنا إلى أعلى الجبال ؛ لأن تلك كانت طبيعة الطريق ، وهنا لم أشاهد سوى ما أطلعني عليه الأرمني والثلوج التي تغطي تلك الجبال .

واصلنا سفرنا حتى بعد انقضاء ساعتين أو ثلاث ساعات بعد هبوط الظلام ، حيث وصلنا إلى "خان" بالقرب من مكان صغير ، به منازل من الطين ، تقع شمال الطريق ويُسمى بالتركية Inguizevia ، والتي تعني "الدير الجديد" ؛ لأن الملك حسن باشا الذي حكم "أرمينيا" منح هذا المكان لمسلم كردي مجاناً ، لكن دون أي منحة مالية أو مخصصات ؛ شريطة أن يقدم الطعام للمسافرين المتعبين الذين يمرون عبر هذا الطريق ، وقد أخذ اسمه من هذه الصفة ؛ وذلك لاستخدام وعادة الناس في الأديرة على منح الطعام للفقراء .

هنا قابلت أحد أحفاد هذا المسلم الذين قام عظيم الترك بجعله سيداً على كل تلك الأماكن في نفس الموقع ، يسكنه مسلمون أكراد ، والذين أخذت كل تلك الأراضي اسمها منهم ، وحتى حدود Carahemits ، وتسمى كردستان ، وتعني "أرض الاكراد" ، وهم قوم بيض البشرة ، يعيشون على الزراعة وتربية الماشية ، غير متحضرين

نوعاً ما ، ولكنهم أهل شجاعة ومحاربين ، يعيشون دائماً على التلال وسلاسل الجبال .

بما أنهم يطيعون عظيم الترك ، فإنهم يعاملون بطريقة جيدة من قبله ، ويقدرهم جداً ، في حصونهم وقلاعهم يقبلون فقط قادة من نفس جنسهم ، وكانوا في السابق سادة في كل هذا الجزء من "أرمينيا" التي استولوا عليها بالقوة ، أما عن أصولهم ومن أين جاءوا ، فلم يتمكن أحد أن يطلعني أكثر من أنهم من القوم القدماء .

قد احتلوا تلك المناطق منذ سنوات طويلة ، من عادتهم لبس العمائم المصبوغة باللون الأحمر الفاقع مما يجعل التعرف عليهم سهلاً ، أما بقية ملابسهم فمثل التي يلبسها المسلمون الآخرون .

الأرمن والمسيحيون من أي طبقة يلبسون العمائم المصبوعة باللون الأزرق أو أي ألوان أخرى ؛ لأنهم لا يلبسون بيضاء اللون ، فقط الأتراك والمسلمون هم الذين يلبسون العمامة البيضاء ، إذا وجدوا أحد المسيحيين لابساً عمامة بيضاء ، يعاقب بشدة ، اليهود عبر كل الأراضي التركية ، وحيث يقيمون ، يلبسونها (حتى يتم التعرف عليهم) وتصبغ باللون الأصفر أو الأصفر البرتغالي لون الزعفران .

قضينا تلك الليلة في ذلك "الخان" ، وقد عزمنا على المغادرة في صباح اليوم التالي (بالرغم من التعب الذي أصاب حيواناتنا في اليومين السابقين) إلا أن ثلوجاً كبيرة هطلت حتى أننا لم نتمكن من رؤية الطريق ، وكان من المستحيل التحرك مما أجبرنا على قضاء كل اليوم هناك .

في اليوم التالي ، الذي كان الأربعاء ، الموافق للخامس من شهر ديسمبر ، غادرنا في الصباح ، واتخذنا طريقنا غرباً عبر سهل منبسط ، كان مغطى كله بالثلوج ، ولم نتمكن من رؤية الطريق ولا إلى أين يقود .

بعد مدة قليلة من منتصف النهار ، وصلنا إلى "خان" آخر بالقرب من قرية أخرى تسمى Muhalacan ، بنفس نوعية المنازل والسكان الذين يعيشون على تربية الماشية بكل أنواعها ، والخيول والأفراس أيضاً ، كان بها الكثير من المحصولات كما في كل المحافظات ؛ لأن فيها سهول الخصبة الواسعة التي تزرع فيها كل المحاصيل ، وأحياناً تغطي الثلوج البقول ، والمزروعات التي تواصل نموها تحتها ؛ لأن الأمطار عادة لا تهطل إلا في فبراير ومارس .

في اتجاه شمالي غربي بالقرب من هذا المكان ، بعض السلاسل الجبلية العالية الضخمة ، والتي يجري بمحاذاتها مجرى مائي ، يسمى Amargos ، والذي يتدفق من الشمال إلى الجنوب لمسافة فرسخين ، ويبلغ عرضه مسافة طلقة بندقية ، هذا يشكل مصباً ، يتدفق داخل بحر "فان" والذي سنصفه فيما بعد .

في يوم الجمعة ، وقبل ساعتين من طلوع الفجر ، بدأنا مسيرة رحلتنا أيضاً في اتجاه الغرب عبر طرق ، وأماكن وعرة مغطاة كلها بالثلوج .

على بعد فرسخ للأمام ، وعلى مسافة فرسخ آخر من الطريق في اتجاه للجنوب ، توجد سلسلة من الجبال العالية الضخمة ، تسمى Galilea ، والتي يقع في أسفلها ثنتان من الأديرة للرهبان الأرمن ، أحدها ضخم ، ويعرف بـ Varec حيث يعيش ثلاثون منهم ، وآخر صغير به بعض الأساقفة .

على قمة تلك الجبال ، يوجد دير آخر ، حيث لا يوجد أكثر من اثنين أو ثلاثة من الرهبان ، ويسمى Varec الصغير ، صلنا تقريباً عند هبوط الليل إلى مدينة "فان" .

تقع تلك المدينة ، شمال الطريق على جبال ، ومحاطة جيداً بأسوار وحصن أمامي بتحصينات من الأبراج الجيدة المشيدة من القصب ، والطين بأسلوب فرنسي .

أساسات المباني حتى المنتصف لأعلى مشيدة من الحجارة والجير . هناك الكثير من الحصون الخشبية في أجزاء عديدة من السور ، لوقوف الحراس عليها مع أسلحة المدفعية .

يحيط بالمدينة خندق مائي واسع ، وقد أعيد بناؤها كلها من قبل الأتراك ، بعد انتصارهم واستيلائهم عليها من "شاه طهماسب" ، وهناك حراسة ليلاً ونهاراً عليها ؛ خوفاً من الفرس الذين يتحسرون كثيراً على المدينة ، وآخرين في "أرمينيا" السفلى على مسافة منها .

استولى عليها مدينة "فان" الأتراك من "شاه طهماسب" ، هنا يعيش بصورة دائمة قديس (Jacques) وضع هنا كقائد بواسطة عظيم الترك ، وله حامية من الحرس والجندرمة "الإنكشارية" والفان أو ثلاثة آلاف من المواطنين ، معظمهم من الأرمن ، والأتراك والأكراد ، وتقع الحامية في منتصف سهل عظيم ، حيث العديد من البساتين والحدائق ومزارع العنب ، لها بوابات كثيرة ضخمة ، حيث يتواجد دائماً الحرس ، يراقبون الخارجين والداخلين إليها .

قضينا قرابة الساعتين في انتظار أن يفتحوا لنا البوابات ؛ لأن اليوم

كان جمعة ، وكل الأتراك في المساجد يؤدون الصلاة ، وهم يغلقون البوابات في تلك الأوقات ، ولا يفتحونها إلا عند عودتهم .

وضعنا أحمالنا ، ولجأنا إلى "خان" جميل ، كان الثلج يتراكم على جوانبه بطول رجل ، جراء تساقطه من السطوح . هناك فنادق أخرى على طول الطريق أمام البوابات ، وبالقرب منها ، وهناك دائماً أشخاص يحملون الجاروف ، يزيلون الثلج من أمام المداخل ، والممرات التي تقود إلى البوابات ، يشكل الجليد مشكلة عند الدخول والخروج من هذه المدينة التي تقع أسفل الجبل .

كل مباني السلطة تقع في الأعلى ، على مناطق الصعود والهبوط لا توجد سوى منازل صغيرة للحرفيين ، والأشياء الضرورية ، التي تخص المسافرين ومكتب الجمارك ، حتى يتم تحصيل الرسوم ("كروزادوس" واحد عن كل حمولة) .

يذوب الجليد بعد ذلك ، ويتحول إلى مياه طينية ، تملأ كل الشوارع ، ولا يجد الشخص أي حل سوى السير عبرها ، وغسل حذائه في ينابيع المياه من الطين الذي علق بها ، إذ لا سبيل إلى تنظيفها بخلاف ذلك .

كان الطاعون قد انتشر بشدة هنا ، ويتوفى العديد من الناس كل يوم ، في اليوم الذي أعقب وصولنا ، خرجت للسوق للشراء ، وشاهدت خمس عشرة جثة تحمل بعيداً ، وقد أخبروني أن أكثر من ستة آلاف شخص ، قد توفوا خلال الشهور الثلاثة التي انتشر فيها المرض .

في الخان الذي كنا نقيم فيه يوجد منزلان مغلقان ممتلئان بأغراض ، وممتلكات تجار توفوا هنا .

شاهدت بعض ثمار البندق الجيدة المقشرة (لأنها تباع هكذا) ، وبعض الإجاص التي تأتي من مدينة Aglat ، وتموراً رائعة وحلوة المذاق جداً ، تأتي من بغداد ، وكلها رخيصة الثمن ، وأيضاً عناقيد ممتلئة من العنب ، تتدلى من الكرمة ، قد اطلعت أنه في أماكن أخرى في "أرمينيا" باتجاه الشمال ، هناك الكثير من كروم العنب التي تستمر طيلة السنة .

بالقرب من هذه المدينة ، باتجاه يميل نحو الغرب ، هناك ذراع واسعة من البحر مثل مياه Amargos ، والذي يسمى "بحر فان" ، يبلغ أقصى عرض له ثلاثة فراسخ ، وفي أقل اتساع ، يبلغ فرسخاً واحداً ، يتدفق أكبر جزء منه في اتجاه الغرب على طول بعض السلاسل الجبلية ، حيث يشكل ذراعاً أخرى ، تتدفق من الشمال إلى الجنوب ، قد تستغرق الرحلة حول ذلك من أربعة إلى خمسة أيام .

يحيط بهذا المكان العديد من المدن والقرى ، والتي سنقوم بالحديث عنها ، ووصفها في يوميات الرحلة ، بالرغم من تدفق العديد من الأنهار الضخمة من جميع النواحي إلا أنها تظل دائماً كما هي جسماً واحداً من المياه ، تم اصطياد سمكة كبرة فيها ، بحجم سمكة السردين ، وبكميات ضخمة ، يتم كل سنة اصطياد آلاف الحمولات من الأسماك من خارج تلك المياه ، ويتم تدخينها ، وحملها إلى تبريز ، وإلى أماكن أخرى من "أرمينيا" ، لذيذة الطعم ، ولا يوجد نوعية أخرى غيرها ، يتم ذلك بواسطة قوارب قليلة ضخمة ، تقوم بمهمة الصيد .

تؤخذ الأخشاب إلى مدينة "فان" وأماكن أخرى من العديد من الغابات التي تنمو بكثافة حول ذلك البحر .

بقينا في تلك المدينة حتى يوم الإثنين التالي ، عندما سددنا مستحقاتنا "للخان" ، غادرنا في صباح العاشر من شهر ديسمبر ، وانطلقنا على طول ذراع البحر في اتجاه جنوبي عبر طرق طينية ، على بعد فرسخين للأمام ، مررنا بمدينة كانت كلها عبارة عن خرائب كانت في السابق مستوطنة تسمى "Ardamiat" ، منحت من قبل ملك سابق لـ "أرمينيا" لامرأة أعطته جرة من الخمر وكان هو محباً للخمر وفي حاجة ماسة لها دائماً .

واصلنا رحلتنا على طول نفس امتداد البحر ، وبعد حلول الظلام ، عبرنا جسراً ضخماً ، فوق نهر واسع ، شديد الجريان ، يتدفق في ذلك البحر ، على مسافة قصيرة ، أماكن تظللها أشجار ، تقع على طول ذراع البحر ، ويسكنها الأرمن والأكراد إلا أنها كانت في هذا الوقت غير مأهولة ، وهجرها السكان ؛ بسبب الطاعون .

مررنا بامرأة تسير في تلك السهول ، وقد أصابها الجنون ؛ بسبب وفاة زوجها وأربعة أو خمسة من أبنائها وبناتها والخدم الذين عندها ، ولم يبق غيرها في المنزل .

استقرّ بنا المقام في مدينة تسمى "Vastan" ، تقع غرب الطريق ، ويقطنها مسلمون أكراد وأرمن ، يتعيشون على زراعة المحاصيل ، هي مدينة أقدم من مدينة "فان" ، وكانت مستوطنة ضخمة ، لها شهرة واسعة ، لكنها دمرت ، وتحولت إلى خرائب ؛ حيث توفي جميع ساكنيها نتيجة لمرض الطاعون .

دخلت أحد المنازل بحثاً عن دجاجة للعشاء ، ورأيت فتاة مجروحة

وتئنّ بشدة ، وخرجت مسرعاً ، وذهبت إلى "الخان" دون أن أفكر مرة أخرى في الطعام تلك الليلة .

في نهاية امتداد البحر هذا ، وفي منتصفه ، توجد جزيرتان ، إحداها أكبر من الأخرى ومأهولة بعدد لا بأس به من السكان الأرمن والأكراد ، يسمون "Ahtamar" ، وبها قلعة وقائد عيّنه الأتراك هناك ؛ لأن كل هذا البحر والمستوطنات التي حوله تم الاستيلاء عليها من "شاه طهماسب" ، في الجزيرة الأخرى لا يوجد سوى دير به رهبان أرمن أجلاء ، والذين كما علمت أنهم يقومون بالكثير من المعجزات .

في يوم الثلاثاء قبل ساعتن من شروق الشمس ، غادرنا المكان باتجاه الغرب بمحاذاة البحر الذي يلتف من هنا للامام ، حيث توجد بطول الشاطئ ثلاث أو أربع قرى ، يسكنها نفس السكان ، ونفس أسلوب الحياة .

عند بزوغ الشمس ، دخلنا في واد ضيق ، تحيط به جبال عالية ، حيث عبرناها على ممرات وعرة ، وطرق طينية ، وحتى وصلنا إلى منطقة مرتفعة شديدة الانحدار ، تسمى "Cabud Coag" .

في الطريق لأعلى باتجاه الشمال ، في واد حاط من كل الجوانب بجبال وتلال عالية جداً ، يوجد دير للرهبان الأرمن ، رائع وجميل مع بعض المنازل التي يسكنها أيضاً الأرمن ، يسمى الدير في لغتهم "Surpagup" ، وهذا يعني القديس "جيمس" ؛ لأنه كرس له .

واصلنا الصعود لأكثر من ساعة ؛ بسبب الارتفاع الشديد ، ومن هنا وعلى مد البصر لا يرى المرء سوى التلال والجبال إلى ما نهاية ،

عالية جداً وشديدة الانحدار من كل جوانبها ، بيضاء من الكميات الكبيرة من الثلوج التي تغطيها .

في الحقيقة إن العدد الأكبر من تلك التلال والجبال العالية التي تغطي "أرمينيا" العليا كان شيئاً لا يصدق ، أن تراها شيئا وأن تقرأ عنها شيئا آخر ؛ لأنها تبدو وكأن الرب قد قرر أن يجمع كل الجبال التي في العالم هناك .

من فوق القمة التي هنا ، واصلنا التحرك ، عبر أكوام الجليد حتى إن أرجل الحيوانات انغرست داخلها حتى الركب ، وكان أمراً شاقاً إخراجها من هناك ، على مسافة ما ، وفي اتجاه الشمال ، وعلى منطقة منخفضة بين بعض الجبال ، شيّدت صومعة صغيرة لنفس الأرمن .

واصلنا سفرنا عبر ذلك الجليد حتى بعد منتصف النهار ، وعند هبوطنا ، وصلنا إلى نهايته . في الجنوب الغربي ، كانت هناك قرية صغيرة ، شيّدت منازلها من الطين تسمى "Palu" ، يقطنها الأرمن ، الذين يعتمدون في حياتهم على الزراعة ، وتربية الماشية ، وكان الوباء يفعل فعله هنا أيضاً .

قضينا تلك الليلة هناك ، وفي اليوم التالي ، سلكنا الطريق مرة أخرى في نفس الاتجاه على سبل وعرة صعوداً ونزولاً ، مع وجود نفس الجليد الذي وصل حتى ركبنا .

بعد أن قطعنا مسافة فرسخ ، وصلنا إلى طريق شديد الانحدار ، يطل على البحر ، مما جعل الحيوانات تنزلق إلى عمق في الجليد ، واصطدمت ببعضها البعض بأحمالها ، وهي تهبط للأسفل .

بما أنني كنت على ظهر بغل جيد عليه سرج ، كنت قد اشتريته من تبريز ، فقد بدا لي وكأن الحمل كان خفيفاً (لعدم وجود أي شيء على ظهره غيري) ، مما جعله يتحرك بي دون أن أترجل من على ظهره كما فعل الآخرون .

كنت خائفاً من الطريق على أساس الجليد الكثيف ، وعلى ظهري الكثير من الملابس ؛ بسبب البرد ، عندما بدأ البغل في الهبوط ، وانزلق على الجليد مثل الرمح ، واتجه بي ناحية اليمين من شاطئ البحر ، حيث كان جانب الجبل أملساً مع انحدار شديد ، لكن وبأعجوبة لم نسقط نحن معاً ، وتتمزق أشلاؤنا .

لاحظت أن البغل يحاول الوقوف مرة أخرى ، وكانت قدمي ما زالت في الركاب ، وساقي يتدلى من أعلى السرج ، تمسكت بقوة في اللجام بيدي اليمنى ، ونجحت في منعه من الوقوف باليد اليسرى ، وبصعوبة شديدة ، دفعت برجلي عن الركاب ، كان الحذاء الذي انتعله ضخماً جداً ، وألبس بداخله اثنين من الجوارب ؛ بسبب البرد الشديد .

كنت ألبس أيضاً "Capaneques" (يشبه العباءة الصوفية) ، وعليه فراء ، وقفازات وقبعة ضخمة تتدلى حتى الأكتاف ، وفراء يغطي العنق أيضاً ، كل هذا كان ضرورياً لمقاومة البرد القارس والجليد في هذه الرحلة ، لو لم أبذل ذلك الجهد الكبير لنزع الركاب ، ولكان من الصعوبة أن يتمكن قادة البغال من التقدم ، وذلك لشدة الظلام .

بالإضافة لانشغالهم بالأحمال التي كانت تسقط من على

ظهورها ، ولم يتمكن البغل من الوقوف على قدميه ، ولكانت كسرت ساقي أو حدثت لي أضرار كبيرة .

واصلنا السير في طريق الهبوط لمدة نصف ساعة ، ووصلنا لامتداد آخر على قمة بعض الجبال كان يشرف على البحر ، ثم هبطنا على منحدر آخر مثل الأول ، حيث ترجلت في الحال من البغل ؛ متجنباً مخاطر السقوط مرة أخرى .

عند أسفل الجبل يوجد سهل واسع ورائع بحجم الـ "Alvalade" ، محاطاً كلياً بالجبال التي على جوانبها العديد من المنازل الصغيرة التي يقطنها الأرمن الذين يعيشون على الزراعة ، وتربية الماشية .

شيدت المنازل من الحجارة ، والطين لوجود الكثير من الحجارة في المنطقة .

ذهبنا بعد ذلك في اتجاه غرب الشمال الغربي إلى واد ضيق ، يبلغ طوله فرسخاً ونصف ، عند خروجنا منه ، عبرنا سهلاً مفتوحاً يمتد حتى البحر ، بعد منتصف النهار ، وصلنا إلى مكان واسع يسمى "Sorp" ، يقع شمال الطريق بمحاذاة ذلك السهل ، خصب التربة والتي زرعت بالفواكه وخاصة التفاح .

تنقسم المنطقة إلى مستوطنتين ؛ تلك التي على الشرق ، يسكنها أكراد مسلمون ، والتي في الغرب يقطنها الأرمن .

يعتمد الجميع على الزراعة ، في عصر ذلك اليوم ، بما أن الطاعون كان منتشراً هنا ، فقد أصاب إحدى المرأتين اللتين كانتا في رفقتنا ،

واللتين غادرتا الهند برفقة رئيسة الدير ، وعادت الأخرى من "كاشان" للذهاب إلى هرمز .

في اليوم التالي ، قبل ثلاث ساعات من طلوع الفجر ، واصلنا الرحلة باتجاه الشمال الغربي (بمحاذاة ذراع مائي شكّله البحر في ناحية الجنوب الغربي) بين سلاسل جبلية ، حتى اكتمل هبوطنا نحو الشاطئ ، حيث توجد مستوطنة أخرى من الأرمن ، واصلنا عبر سلسلة جبلية أخرى نحو الغرب ، على مرأى من البحر ، بمحاذاة ذراع مائي آخر ، عند نهاية ذلك يوجد نهر رائع به الكثير من الحقول المزروعة والبساتين ، ونهير صغيرة ، ومستوطنة من الأرمن .

كان اليوم جيداً ونحن نواصل السفر على قمة سلسلة جبلية بمحاذاة ذراع مائي آخر ، يقع باتجاه غرب الشمال الغربي ، ويبلغ اتساعه فرسخاً ، وطوله فرسخان ، رأيت عليه سفينة من تلك التي تعبر هذا البحر عادة أكبر حجماً من السفن الفرنسية العادية ، التي لها شراعان ودفة رباعية الشكل .

عند منتصف النهار تقريباً ، أنزلنا الرحال في مكان واسع يسمى "Taduan" ، يقع شمال الطريق ، ويعيش فيه الأرمن في منازل من الحجارة والطين ، تغطيها أسطح منبسطة مثل المباني الأخرى .

استقر بنا المقام في "خان" كبير عند مدخل لمكان ، يستخدم كملجأ للمسافرين ، ويوجد مثلها الكثير في كل مكان آخر ، ومدينة عبر كل فارس ، "أرمينيا" وتركيا ، قد قام ببنائها المسلمون والمسيحيون ، يوجد

بعضها في الأراضي التركية ، حيث يقدم الطعام للمسافرين من العائد المادي الذي تركه أولئك الذين قاموا بتشييدها .

من مدينة "فان" ، يوجد طريق آخر للوصول إلى "Beltiz" بمسيرة يوم آخر من هذا المكان ، بمحاذاة ذراع مائي آخر من البحر ، يتدفق نحو الغرب .

في منتصف الشتاء ، لا يسافر الناس عبر الطريق الذي يمر بمدينة "Vastan" الذي اتخذناه نحن ، وهم يذهبون من "فان" بمحاذاة البحر ، مروراً بمكان واسع ، يقع باتجاه الشمال يسكنه الأرمن وقلة من الأكراد ، ويسمى في اللغة الفارسية "Bandemahi" ويعني "ميناء السمك" ؛ لأنه الميناء الرئيسي التي يتم فيه صيد الساردين في بحر "فان" .

حيث يتدفق فيه نهر بمياه عذبة ، يبدأ من سلسلة جبلية في "أرمينيا" العليا ، ويسمى في اللغة التركية "Aladar" ، والتي تعني "الجبال الملونة" ؛ لأنها في غاية الجمال وباردة في فصل الصيف ، وتنشر فيها الزهور والورود والأعشاب ذات النوعيات المختلفة .

يقع هذا النهر في الشمال ، ويتدفق نحو البحر ، وهو نهر كبير ، يتم عبوره في الشتاء بواسطة جسر ، كما يمر أيضا عبر مدينة أخرى ضخمة ، تبعد مسيرة نصف يوم من "Bandemahi" وتسمى "Bargueri" ، تقع بمحاذاة هذا النهر ناحية الشمال ، ويسكنها نفس النوعية من السكان ، في منازل جيدة ، سقوفها مسطحة ، ولها حصن منيع جداً ، قام ببنائها عظيم الترك ، عندما استولى على كل تلك المناطق من "شاه طهماسب" .

يستطيع المرء الوصول إلى مدينة كبيرة تسمى "Argis" على مسيرة يوم من مدينة "فان" ، وهي تقع بمحاذاة البحر ، ويسكنها الأرمن

والأكراد ، الذين يعيش معظمهم على التجارة التي يجيدونها تماماً ، وكذلك سكان "Bandemahi" و"Bargueri" ، هي بلاد تتوفر فيها الخمور ، والفواكه والكثير من إنتاج القطن وقليل من الذرة ، وذلك لعدم وجود حقول شاسعة .

المدينة منبسطة بلا أسوار مثل المدن الأخرى ، وللمنازل أسطح مسطحة ، كما أن لها حصناً آخر ، أعاد بناءه عظيم الترك .

يمر نهر آخر بالقرب منها ، يتدفق من نفس الجبال مثل الآخر ، الذي يتجه نحو Bandemahi ، ويتم العبور من فوقه بواسطة جسر .

يمكن للمرء أن يسافر من هذه المدينة إلى أخرى في رحلة يوم قصيرة ، وتسمى تلك المدينة Adiljauz ، تقع أيضاً بمحاذاة البحر ، وحولها سور وحصن آخر أعاد بناءه عظيمُ الترك ، يقطنها أيضاً الأرمن ، والكثير من الأكراد المسلمين الذين يعيشون بنفس أسلوب الحياة ، وفي نفس المنازل مثل الآخرين .

تتم صناعة العديد من السفن هنا ، والتي تعبر ذلك البحر كما أشرنا سابقاً ، وتبحر لكل المدن ، وعلى مسيرة يوم يسافر المرء إلى بلدة تسمى "Aglat" ، وتقع إلى الشمال كانت في السابق مدينة عظيمة ، وذات شهرة ، دمرت بواسطة ملك سابق لـ "أرمينيا" يسمى "ديفيد" ، عندما استولى التركمان على تلك الأنحاء ، حتى لا يستفيدوا منها ، صل عدد سكانها إلى ثلاثمائة أو أربعمائة من المستوطنين ، معظمهم من "المسيحيين النيسطوريين" ، الذين يعتمدون على زراعة القطن ، وتربية الماشية .

بها مبان جميلة ، كلها ذات أسقف مسطحة مثل المنازل الأخرى ،

كما توجد هنا العديد من بساتين التفاح ، الذي يؤخذ من هنا إلى "شاه طهماسب" ولبلاط عظيم الترك ، وهو تفاح مشهور في تلك الأنحاء ، وهي تشبه كثيراً ثمرة الكمثرى ، ولها نكهة طيبة .

بالقرب من هناك ، حصن شيد على الصخور مع أبنية مستديرة مرتفعة جداً وقديمة ، يقال إنها شيّدت بواسطة "شمسون" ، وهو مواطن من هذه الناحية ، يتدفق بالقرب منها نهر آخر شاسع ، يعبر عن طريق جسر .

من هنا وبمحاذاة نفس البحر يستطيع المرء السفر حتى Taduan ، لكن الذين يذهبون إلى هناك لا يسلكون هذا الطريق ، لكنهم يسافرون من Aglat .

يمر المرء غرباً إلى قرية ، يسكنها الأرمن تشبه منازلها الأكواخ ، شيّدت تحت الأرض ؛ بسبب برودة الشتاء وكثرة الثلوج ، لهذا السبب لجأنا إلى هنا ؛ وذلك لأنها فقط على مسيرة قصيرة لا تتعدى اليوم ، حيث من الصعوبة الوصول إلى Beltiz .

أحياناً من الضروري على القوافل أن تتجنب الجليد ، وتترحل بالقوارب . هناك رجال يعيشون على هذا العمل ؛ لأن الحيوانات لا تستطيع السير عبر الجليد ، وعليه ، فإن في هذه القرية مثل كل الأماكن الأخرى الذي ذكرتها سابقاً ، فإن الماشية تجمع داخل المنازل مع الناس ؛ بسبب البرد القارس في مدينة Taduan هذه .

غادرنا في اليوم التالي ، بساعتين قبل طلوع الفجر ، في نفس الاتجاه ، عبر سهل عظيم مغطى بالثلوج ، يرتفع حتى الركبة ، ومع الجليد المتساقط من السماء كانت الرؤية صعبة جداً حتى في ضوء النهار ... ، يسمى

هذا السهل Rauha ، وهو اسم مخيف لأولئك الذين يسافرون عبر هذا المكان ؛ بسبب القوافل العديدة التي فقدت هناك نتيجة الهطول الشديد والمستمر للثلوج ، التي تسد كل الطرق والمنافذ ، وتلك طبيعة لا يرى المرء فيها سوى البحار العظيمة من الثلوج ، ولا يعلم الناس في أي اتجاه يسيرون ، ويتيهون دون أن يجدوا الطريق .

تنتهي العاصفة دائماً بعد سبعة أو ثمانية أيام ، يضيع الناس خلالها ، ويموتون هناك بسبب البرد والجوع ، وكمساعدة في تلك الظروف ، فإن القوم الذين يعيشون في تلك المناطق ، يضعون أعمدة خشبية ضخمة ، كل منها يكون قريباً من الآخر حتى لا يفقد المسافر الطريق ، لكن الجليد خلال شهور يناير ، وفبراير ، ومارس يجعلها بلا قيمة حيث يغطيها في ارتفاع أعلى من تلك الأعمدة ، أحياناً يجرفها الجليد ، كما يضطر المسافرون لترك الأمتعة والمتابعة مع الحيوانات فقط ، عند انقضاء العاصفة ، يعودون مرة أخرى لحملها .

يقع خلف هذا السهل العديد من المستوطنات والأماكن ، التي يعيش فيها الأرمن والأكراد ، وعندما يرغبون في السفر من مكان لآخر أو أن تتنقل القوافل من موقع لآخر ، فإنهم يفعلون ذلك على معدات وأجهزة ، صنعت من الخشب خصيصاً لهذا الغرض ، ويسافر عليها الناس ، وتنقل عليها البضائع ، ويجرها الرجال على الجليد الذي يصبح جامداً وصلباً بفعل الرياح ، وتصبح الحركة سهلة عليه ، ويساعدون أنفسهم في المشي عليه ، بلف أرجلهم بالكثير من القماش حتى لا يسقطوا عليه .

تصنع تلك العربات من أعمدة خشبية ، تشذب أطرافها في شكل منحني حتى تشبه الزلاجة .

سافرنا عبر هذا السهل لمسافة فرسخ ونصف ، ووصلنا بصعوبة إلى "خان" ، ومنه ، وعلى مسيرة يوم باتجاه الشمال ، توجد مدينة عظيمة تسمى Mux ، يسكنها الأتراك الأرمن وقلة من الأكراد ، من هذه المدينة ، ولمسافة مسيرة يوم ، وفي نفس الاتجاه يوجد دير رائع للرهبان الأرمن ، ويقال إنه يحتوي على رأس المبجل القديس جون المعمدان ، كما أن له سور كالقلعة مع العديد من المنازل الصغيرة داخله ، يلجأ إليها الناس الذين يأتون للحج هناك كل سنة في يوم "القديس جون" ، وهم كثيرو العدد .

كما يأتي الكثير من الصم والعميان ، والمقعدين بعد تلقي العلاج ؛ لتجنب المنازعات والاضطرابات ، فإن قاضي عظيم الترك الذي منحه لهم عندما ذهب مرة إلى هناك في مواجهة "شاه طهماسب" ؛ لأنهم أخبروه أن في تلك البلاد الكثير من اللصوص الأكراد الذين كثيراً ما يهاجمون ، وينهبون ، ويسيئون إليهم فتصعب الحياة معهم ، (فطلبوا منه) أن يعطيهم الإذن حتى يتمكنوا من تحصين أنفسهم بالطريقة التي لا يسبب لهم اللصوص الأكراد معها أي ضرر ، نتيجة لذلك قاموا بكل ذلك العمل .

من هذا الدير ، ولمسافة مسيرة يومين ، في اتجاه الشمال توجد سلاسل جبلية عالية وضخمة تسمى Mingal باللغة التركية ، والتي تعني "ألف بحيرة" ، وهي المنبع الذي يتدفق منه ثلاثة أنهر مشهورة ، دجلة ، "الفرات" والأراك (Araks) .

دجلة يتدفق من أقرب سلسلة جبلية على خمس وثلاثين ونصف درجة باتجاه جنوبي ، ويصل حتى جسر Altun Copri ، وهو المجرى الرئيسي للنهر ، ويجري من هنا إلى مدينة تسمى Assinquif ، بالقرب من هنا ينضم إلى نهر Carahemite وخور Betliz (وكلّها تنبع من نفس سلسلة الجبال) ، سأقوم بوصف كل تلك المدن وتشكل تلك الأنهار مع خيران أخرى صغيرة ، تتجمع مع بعضها ، تشكل نهراً عظيماً يتدفق من مدينة Assinquif إلى جزيرة Jijara ، تبعد هذه الجزيرة على مسيرة يومين ، ومن هناك يستمر في الجريان حتى يصل إلى مدينة تسمى "الموصل" (Mosul) ، تبعد نحو مسيرة ثلاثة أيام .

هنا يوجد الكثير من قوارب الجلود منتفخة بالهواء وفتحاتها إلى أعلى ، وهي تشبه في شكلها الأطواف التي تصنع من ألواح الخشب ، ولهذا فهي آمنة جداً ، وتحمل العديد من الناس والبضائع حتى مدينة بابل ، التي تقع في مملكة عظيم الترك على خط طول ست وثلاثين ونصف درجة وعلى مسيرة ثمانية أيام من الموصل .

يمر النهر أيضاً عبر مدينة أخرى قديمة عبارة عن خرائب ، وتقع في منتصف الطريق ، بها حصن يسمى Tigret ، وهناك دائماً قوم من الأتراك والحراس في هذا المكان ، تقف تلك المدينة القديمة على مكان عال ، ينحدر نحو النهر ، ولذلك سميت بهذا الاسم "Tiger" ، تمر تلك القوارب أسفل المدينة ، يتدفق النهر من بابل عبر أماكن كثيرة ، يسكنها البدو المسلمين ، بشرتهم داكنة ويتحدثون العربية .

على بعد مسيرة يوم من البصرة يلتقي مع نهر "الفرات" ، هنا يوجد

حصن يسمى Qurnah ، يمر النهران عبر مصب يجري متجاوزاً البصرة ، على بعد مسيرة يوم آخر للأمام ، يتدفق النهران من بحر الخليج الفارسي ، ونهاية مضيق هرمز أو البصرة ؛ لأن هناك بعض المدن تأخذ نفس الاسمين ، وتقعان على خط طول اثنتين وثلاثين ونصف درجة .

في نهاية هذا المضيق يوجد ذراع مائي من المحيط ، يقع بين فارس والجزيرة العربية ، يبلغ طوله حوالي مائتي فرسخ ، وعرضه بين عشرين وخمسة عشرين فرسخاً . هناك القليل من الجزر التي يسكنها العرب المسلمين الذين يعيشون على التمور وصيد اللؤلؤ ، مثل "البحرين" التي تقع في نهاية المضيق مقابل مدينة القطيف ، وهي جزيرة أخرى يـحكمها عظيم الترك ، كان قد استولى عليها من عرب البصرة ، Douiaque ، Corva وآخرين .

تقع في نهاية هذا المضيق ناحية الغرب على بعد فرسخين أو ثلاثة من تلك "الأهار" ، التي تدخل عبر مصب داخل البحر ، وعبر هذا المصب تأتي المراكب والسفن ، محملة بالبضائع ، وتحيط به أسوار من الطين والقصب ، للمنازل أسطح مستوية ، ويتجمع هنا العديد من التجار العرب والأتراك ، واليهود ، والأرمن مع بضائعهم ، التي تأتي عبر الصحراء ، وعلى ظهور الزوارق التي تبحر على نهر دجله من بابل .

تمتد حدود تلك المنطقة لسبعة أو ثمانية فراسخ بمحاذاة تلك الأنهار وحتى البحر ويسكنها قوم من المسلمين العرب و"اليعاقبة" ، الذين يعتمدون على التمور وتربية الماشية ، ويقومون بريها من نفس الأنهر

عند المد ، ويجمعون مياه الشرب أيضاً ، أما عند الجزر ، فإنهم يرمون بفضلاتهم التي يحملها النهر .

من الناحية الأخرى لتلك السلسلة من الجبال يبدأ تدفق النهر الآخر الذي يسمى "أراكس" Araks ، الذي يجري في اتجاه الغرب ممتداً بطريقة مستقيمة وسريع الجريان أكثر من دجلة و"الفرات" ، ويتدفق عبر أسفل الجبال التي عليها بقايا سفينة نوح ، يجري حتى Nakichevan وJugan ، وهما أول مدينتين شيدهما نوح ، عندما خرج من السفينة .

من هناك إلى مدينة تسمى Arduar مستمراً عبر مدن عديدة أخرى ، وأماكن في "أرمينيا" العليا ، وحتى مسافة مسيرة ثلاثة أيام من بحر غزوين ، حيث يصل إلى ميناء يسمى Javas ، حيث يلتقي بنهر آخر يأتي من Gurjistan يسمى "كور" ، الاثنان معاً بالإضافة لنهر Hoi الذي ينضم إليهما يصبان في بحر "غزوين" .

سيتم وصف نهر "الفرات" فيما بعد في مكان مناسب من الأحداث .

غادرنا من هذا "الخان" ، وسافرنا عبر سلسلة جبلية مغطاة بالجليد على طرق وعرة جداً في بعض الأماكن ذات التربة الطينية ، يذوب الثلج ، وتصبح الأرض زلقة ، يصعب سير الحيوانات عليها ؛ مما يؤدي لسقوطنا وسقوط الأحمال التي عليها ؛ مما تسبب لنا في كثير من المصاعب ، حتى بلغنا "خاناً" آخر على بعد فرسخ واحد من الأخير عبر جسر آخر وخور .

من هنا وباتجاه جنوبي ليس بعيداً ، توجد قرية صغيرة للأرمن ، بها

دير آخر بالقرب من سلسلة جبلية ، في الاتجاه المقابل توجد قرية أخرى ، تسمى باللغة التركية Gulzeldere ، والتي تعني "الوادي الجميل" ؛ وذلك لطقسها الرائع وخضرتها الزاهية .

خلف هذا "الخان" ، وعلى بعد نصف فرسخ على نفس الطرق الوعرة ، مررنا "بخان" آخر ، كانت كلها شيّدت بالقرب من بعضها البعض ، كملجأ لتلك القوافل ، حيث يصبح من المستحيل في منتصف فصل الشتاء أن تستمر الرحلة لمسافة أكثر من بين كل خان والآخر .

بعد هذا الخان الأخير ، ولمسافة نصف فرسخ وصلنا ، في يوم الجمعة الرابع عشر من شهر ديسمبر إلى مدينة تسمى Betliz ، تقع غرب الطريق بين سلسلتين جبليتين ، تتألف من منازل رائعة ، ومبان على الطراز الفرنسي من القصب والطين بأسطح مستوية ، يقطن فيها حوالي ألف وخمسمائة مستوطن ؛ معظمهم من الأرمن .

الذين يلبسون الزي الفارسي ، مثل كل الأماكن الأخرى السابقة ، ويعيشون أكثر حرية من أولئك الذين في تبريز ، وكنائسهم أكثر شعبية وجمهوراً ، ويعيش معظمهم على التجارة ، وآخرون على تربية الماشية والزراعة ، يوجد بعض الأكراد الذين يعيشون هناك أيضاً ، لها طرق مواصلات وعرة بين الجبال ، وخور يمر في وسط المدينة ، وهو الخور الذي يلتقي بنهر Altun Copri ونهر دجلة ، كما ذكرت سابقاً ، ويستمر حتى الجزء الرئيسي من المدينة .

من الموقع الذي يدخل منه المرء إلى هناك ، يوجد امتداد من المنازل منفصلة عن بعضها البعض ، وتقع على نفس الجبل شيّدت من

الحجارة والقصب والطين تشبه الأبراج الصغيرة ، تتكون من طابقين بنوافذ وأسطح مسطحة .

جزء كبير من المدينة يمتد جنوباً ... ، في الاتجاه الآخر يوجد حصن جيد على مرتفع وعر ، محاط بسور عال جداً ومتين ، شيد من الحجارة والكلس بأبراج جيدة البناء ، وتحصينات للحراس ، وتعزيزات تجعل الاستيلاء عليها من الصعوبة بمكان .

بما أن عظيم الترك هو سيد هذه المدينة ، فقد هوجم من قبل كردي مسلم ثلاث مرات دون أن يتمكنوا من الدخول أو التسبب له في أي أضرار ، لكنه تقهقر في المحاولة الأخيرة ، وقام الأكراد بملاحقته ، موقعين أضرارا عظيمة على قومه ، في الهجوم المعاكس جرح في صدره بطلقة بندقية ؛ نتيجة لذلك .

وفي نفس ميدان المعركة ، كان له ابن أخ ، كان زعيماً في مدينة أخرى تسمى Hizu ، تبعد مسيرة ثلاثة أيام ، تم استدعاؤه ليحل محله سيداً على قومه ، وعند وصوله ورؤية موقفه ، وليكسب المزيد من المواقع من عظيم الترك ، قطع رأس الكردي المسلم ، وأخذه ليشاهده عظيم الترك ، وفرح عظيم الترك ، كثيراً بذلك ، ومنحه كمكافأة له أراضي ذلك الكردي ، هو وورثته ومن يخلفه ، كونه أبدى كل هذه الطاعة والوفاء .

عاد لمهاجمة الحصن الذي حاول أهله المستحيل للدفاع عنه ، لكن بما أنهم كانوا قوات بلا قائد أو ضابط ، فقد انهزموا ، وتم الاستيلاء على الحصن ، يبدو من خارجه استحالة الاستيلاء عليه ، وذلك نسبة لعلو

الأسوار والأساسات المنيعة ، سور آخر يحيط به ، له بوابتان يدخل عبرهما الناس ...

يبدو أن قلة من الأشخاص يمكنها الدفاع عنه ، وحوله أيضاً العديد من النوافذ التي تطل من منازل الأتراك والجندرمه "الإنكشارية" ، وخدم الملك الذين يعيشون بالداخل يحرسونه ، ويقومون بالمراقبة .

يوجد خلف هذا الحصن ثلاثة أو أربعة شوارع ، ومحلات صغيرة ، شيدت من الخشب ، والتي يوجد بداخلها كل الضروريات التي تحتاجها المدينة والمسافرون ، هناك أيضاً "خانان" يقيم فيهما المسافرون ويلجأ إليهما الناس .

تلك أرض جبلية ذات سلاسل بلا طرق أو مسالك تدخل عبرها الجيوش ، في الجانب الآخر ، باتجاه شمالي ، على بعد مسيرة يوم ، تقع مملكة "الجورجيين" ، وهم مسيحيون بيض البشرة ، وأتباع لعظيم الترك ، بعد أن دفعنا مستحقات السكن التي كانت ست "شاين" عن الحمولة (هناك رسوم أخرى من هنا وصاعداً تسدد عبارة عن أربعة "فنتين" لكل فرد) عن يومين قضيناهما هناك .

غادرنا في يوم الأحد التالي ، بتاريخ السادس عشر من الشهر ، وسافرنا بمحاذاة جدول كبير ، يتدفق عبر وسط المدينة ، ويمر أيضاً عبر العديد من السلاسل الجبلية العالية ، حيث الطرق وعره شديدة الانحدار نحو الأسفل .

كان هناك الكثير من الجليد المنهمر حتى لم نعد نرى بعضنا البعض ، ولم نستطع التعرف على الطريق أو حتى لون الملابس

التي نرتديها ، نحو فرسخ للأمام ، مررنا عبر مدخل عظيم بطول رمح ، تم حفره بالمعاول والفؤوس في الهضبة ، حتى يمر عبره الطريق .

على بعد فرسخ آخر ، وضعنا أحمالنا ؛ بسبب الثلوج الكثيفة التي أعاق تقدمنا ، عند "خان" ، يقع بالقرب من حصن رائع باتجاه الجنوب شيد على صخرة ضخمة ، يحيط به سور عال من الحجارة والطين الجيري ، وعليه حراسة شديدة ، يسمى "الحصن" Cofundur .

غادرنا في اليوم التالي صباحاً على نفس الطرق الوعرة الزلقة عند الهبوط ، وعليها غابات عظيمة من أشجار البلوط ، واصلنا تحركنا لمسافة فرسخين تقريباً (لوجود قافلة أخرى أمامنا تحمل الحرير ، وكان الخان الذي سنقضي فيه الليل صغيراً جداً ليسع القافلتين) ، وحطينا الرحال في "خان" آخر ، ممتاز ، يسمى باللغة التركية Coxahan التي تعني "الخانان" ، بما أن هناك آخر يجاوره .

في اليوم التالي ، وقبل الفجر ، واصلنا سيرنا على نفس الأرض الوعرة في الصعود والهبوط ، مررنا في الساعة الثامنة أو التاسعة صباحاً بقرية صغيرة تسمى Marmora ، يسميها المسافرون "أرض طائر الحجل" لأعدادها التي لا تحصى في تلك المنطقة ، يسكن تلك القرية مسلمون أكراد وتقع شمال الطريق ، على هضبة بعيدة قليلاً عن الطريق .

وصلنا إلى "خان" آخر ، بعد قليل من منتصف النهار ، وهنا لم يتركنا بعض حراس سيد من الأكراد بالعبور ، كان السيد يسكن في حصن على بعد فرسخ من الطريق باتجاه الجنوب يسمى Zaraguy ، كان علينا أداء رسوم ، كان يتحصلها على كل شيء يمر عبر ذلك الطريق .

يجاور هذا "الخان" مبنى ، يعيش فيه دائماً أشخاص يبيعون طيور الحجل التي يصطادونها في "أرض الحجل" البعيدة ، وأيضاً الفواكه ، ومؤن للمسافرين ، كان الخان في هذا الوقت خالياً ، ولا يشغله أحد ؛ لأن الوباء اجتاحهم ، ولم يترك أحدا .

بعد أن دفعنا أربعة "شاين" عن كل حمولة ، غادرنا قبل الفجر بثلاث ساعات ، وعبرنا جسرين بالقرب من هذا الخان ، كانا على نهر صغير يسمى Betliz ، والذي ينقسم إلى جزئين لمسافة ما ؛ بسبب بعض الجبال ، ثم يلتقيان مرة أخرى بعد ذلك .

واصلنا السفر على نفس الطرق والهبوط الوعر من جبال شديدة الانحدار والكثير من العوائق ؛ بسبب الأرض الطينية ، صلنا بعد قليل من منتصف النهار عند معبر على خور Betliz ، حيث واصلنا رحلتنا بمحاذاته كل الوقت ، وهو يجري بطول تلك الجبال ، مع ينابيع أخرى كثيرة ، تلتقي معه في النهاية ، مما يشكل خوراً عميقاً وكبيراً ، وخشينا أن نخوض فيه ؛ خوفاً من أن تقع فيه الأحمال والأمتعة ، فانحرفنا لمسافة نصف فرسخ نحو جسر عال ورائع ، قمنا بعبوره .

لمسافة نصف فرسخ للأمام وصلنا لمدينة تسمى Hizu ، وكنا مسافرين كل تلك الأيام باتجاه الغرب ، كان يحكم تلك المدينة في هذا الوقت شقيق الكردي الذي قتل عمه ، كما ذكرت سابقاً ، كان سيداً شجاعاً ، ويُخشى بأسه عبر كل البلاد .

قد اغتصب هذه المدينة وحصناً آخر على مسافة بعيدة من أحد أبناء أخيه ، كان يملكه يقع في الشمال الشرقي من الطريق على هضبة

عالية ، ويحتوي على مبان جميلة ومنازل من طابقين من الحجارة ، شيّدت حسب الطراز الفرنسي ، عبارة عن أسوار من القصب والطين مع أسطح مسطحة ، وبه ما يقارب الستمائة مواطن ، معظمهم من المسيحيين الأرمن (لأنهم جميعاً كانوا مسيحيين ، يطيعون البابا ، ولا آتي لذكر ذلك في كل مرة تأتي سيرتهم) ، لهم نفس اللغة والملابس ، مثل الآخرين الذين ذكرناهم في السابق .

يعتمدون في حياتهم على الزراعة وتربية الماشية وبعض التجارة ، وهم مفضلون عند سيد البلاد ، ويسمح لهم بالعيش بحرية ، والذهاب للكنائس بصورة علنية ، ويمارسون عاداتهم ، وقوانينهم .

هناك أيضاً بعض المسلمين الأكراد الذين يتواجد منهم الكثير في حدود هذه البلاد ، لهم علاقات طيبة مع الأرمن ، ويفهمون بعضهم البعض بالرغم من وجود اختلافات في اللغة ، أعلى المدينة في نفس الاتجاه وعلى منحدر جبل وعر ، يوجد حصن مشيد بطريقة جيدة ، صامد وأكثر قوة من الحصن الذي في Betliz ، عال ومحاط بسور ضخم من الحجارة ، به الكثير من النوافذ والستائر في منازل الأكراد الذين يعيشون في الداخل ، ويسكن الأرمن بالأسفل ، لهم حراسهم وتحصينات أيضاً .

يوجد الكثير من حيوانات الصيد هنا عن أي مكان آخر خاصة الأغنام ، الخراف ، البقر الوحشي ، وخنزير الجبل ، الذي نادراً ما يقتله المسلمون ، ويعطونه للمسيحيين .

يوجد الكثير من الصيادين في المدينة ، ويتسلقون الجبال الوعرة التي تحيط بالمدينة ؛ بحثاً عن جحور الطرائد التي تعيش فيها ، عند فشلهم في

الحصول عليها هناك ، يقومون بمتابعة آثار أقدامها في الثلج والطين وعندما تجف ، يصعدون إلى الأعلى بواسطتها ، ومن هنا يقذفون بها أحياناً ، وقرونها عليها ، قد تم التأكيد لي أن الماعز والخراف كبيرة السن ، قد قتلت في مناسبات وكانت قرونها تصل حتى مؤخرة ظهورها ، حيث تعمل منها الأقواس ، وترسل من قبل سيد البلاد إلى عظيم الترك كهدية .

عاش الملك "ديفيد" في هذه المدينة معظم وقته (لأنه كان من المتحمسين جداً للصيد) ، كان عملاقاً وسيداً لـ "أرمينيا" كما ذكرنا سابقاً ، وقد دمر مدينة "أغلات" (حيث كان يعيش مع زوجته ، والتي كانت عملاقة أيضا وتسمى "هاندوت" ، كانت تلبس خواتم من الذهب على ساقيها (لأنها كانت العادة) ضخمة جداً ، وواسعة حتى إن اتساعها كان يسمح بدخول رأس وجسم رجل ، دفنت في حصن يبعد مسافة يوم من هذه المدينة .

الكردي المسلم سيد هذه المدينة ، وهو الذي قتل عمه كما ذكرت ، أخذ الخواتم التي دفنت معها ، وصليباً من الذهب من قبل الملك ، كان هذا يسمى بالأرمينية Surpnixan ، والتي تعني "العلامة المقدسة" ؛ لأن لها فضيلة وميزة ، وذلك عندما لبسها في الحرب لم يسبب له السلاح أي أذى ، لكن الرب أراد له أن يتوفى بصورة بشعة حيث تعفن كل لحمه وفسد .

عندما رأى شقيقه ذلك ، أظهر الكثير من التقديس والإجلال لذلك الصليب ، وأمر بوضعه في كنيسة الأرمن التي تقع على قمة

جبل علي مسيرة نصف يوم من مدينة Hizu في اتجاه الشمال ، ويقدم له مبلغاً من المال كل يوم لزيت الإضاءة الذي يبقى مضاء دائماً .

الملك "ديفيد" هذا كان سيداً عظيماً وقوياً ، وحكم بخلاف أرمينيا العديد من الأنحاء الأخرى التي تصل حتى تركيا ، كما كان سلطان القاهرة يدفع له الجزية .

كل هذا الإقليم الكبير الذي تقع فيه هذه المدينة يسمى "شمشون" ، وقد أخذ الاسم من القوة العظيمة لهذا الملك ، الذي أقام دائماً في هذا المكان ، وأيضا لوجود رمح ودرع شمشون هذا في حصن صغير قديم بالقرب من هنا .

في اليوم الذي وصلنا فيه إلى هذه المدينة ، توفت المرأة المرافقة لنا ، والتي كانت قد أصيبت بالوباء ، قمت بعمل وصيتها بيدي وتركتها مع الأرمني ليكمل مراسم وفاتها ؛ خوفاً من أن يصيبني المرض ، وقد تركت له حوالي المائتين "كروزادوس" كانت تحملها في حقيبة صغيرة ، قد سلمته المبلغ بيدي حتى يقوم ببيعه في حلب ويستخدمه عند "سانتا كاسا" في القدس لإقامة القداس ، ويتصدق بالباقي على الفقراء على روح الفقيدة وعن زوجها ، قد تسببت وفاتها لنا في الكثير من المشاكل ؛ لأننا حاولنا عدم كشف أمر وفاتها .

في منتصف ليل اليوم التالي ، وضع الأرمني جثمانها على ظهر دابة جاء بها شخص آخر وسافرا (الاثنان) لدفنها في وادٍ يقع لمسافة معقولة من المدينة ، دفع كل الأجرة للأرمني وأعطيناه كل ملابسها وألبستها (لأن الناس في تلك المناطق يلبسونها دون خوف ، ولا يكترثون لأمر

الوباء ، أو يتجنبون الملابس ، وكأن لهم ثلاثة أرواح ، يبدو لي أنهم فطروا على ذلك ؛ لأنهم اعتادوا عليه) حتى لا يظهر أمر اختفائها وسط القافلة ، أطلعت رفيقي الأرمني "سيماو فيرنانديز" أن يواصل السير ، وينتظرنا في Carahemite والتي تبعد مسيرة أربعة أو خمسة أيام .

جعلت القوم الذين في القافلة والرجل في "النبدقية" أن يعتقدوا (لأننا أخفينا حقيقة وفاة المرأة عن الآخر ، وخفنا منه تحسباً من غيرة لطبيعته المخادعة ، وسوء الضمير والنية التي يتحلى بها ؛ لأنه لو عرف بالأمر لطالب بنصف ممتلكات المرأة حتى يبقى صامتاً) أن الأرمن قد أخذوها لدير في منطقة قريبة ؛ لعلاجها حتى لا يصاب بقية الناس الذين في القافلة .

كان كل هذا المجهود ضرورياً ؛ لأن الأتراك لو علموا سيأخذون كل ممتلكاتها وأغراضها إن لم يكن أكثر من ذلك ، ظل القوم الذين بالقافلة و"الفينيقي" يتشككون دائماً في الأمر ، إلا أنهم لم يتمكنوا أبداً من معرفة الأمر .

في نفس ذلك اليوم أصاب الوباء ، فتاة بنغالية سوداء صغيرة السن كان "الفينيقي" قد اشتراها من هرمز ويأخذها معه ، وبما أنها أصيبت بالوباء (لأن هذه المشكلة كانت لا تغيب أبداً عن القافلة) ، فقد غادرنا المدينة بعد قضاء يومين هناك ، دفعنا مستحقاتها أربعة "شاين" عن كل حمولة ، وكان هذا في يوم الجمعة التالي ، بتاريخ الخامس والعشرين من الشهر قبل الفجر بساعة ... ، سافرنا هابطين على طرق وعرة مع قليل من الثلج والبرودة والمطر .

بعد منتصف النهار بوقت قليل ، عبرنا جسراً عالياً جداً وطويلاً ، يمتد من الشرق للغرب يسمى في اللغة التركية Altun Copri ، والتي تعني "الجسر الذهبي" ، ذلك لأن له حلقتان سميكتان من الذهب ، وضعتا ، وثبتتا على قوس بمحاذاة الجانب الأسفل .

حيث تتدفق قوة اندفاع المياه ، وقد وضعها هناك أحد الأثرياء المسلمين الذي قام ببناء الجسر قائلاً إنه إن تكسر في وقت ما أو تهدم فسيعاد بقيمتها بناؤه من جديد أو إصلاحه ، أحد الرعاة الذين يذهبون لرعي ماشيتهم هناك ، والذي أراد أن يغير من حظوظه ، وأحواله الفقيرة (التي يحسده عليها الكثير من الأغنياء) ، وينعم بالثراء ظل ولوقت طويل يرمى إحدى الحلقات الذهبية بالحجارة .

والتي كانت قريبة من الأرض ، وبإصراره الشديد ، ومع مرور الوقت أسقطها في وسط المياه الهائجة ، أراد أخذها من تحت المياه ، لكنه فشل في ذلك لارتفاع المياه ولشدة التيار ، فحملته المياه إلى داخل النهر وغرق ، مازالت الحلقة الذهبية الأخرى في الجانب الآخر من القوس ، ولم يحاول أحد الأثرياء بأخذها أيضاً .

هذا الخور أكبرها وهو الفرع الرئيسي لنهر دجلة ، ويتوسع في الشتاء ، ويصبح مثل نهر عظيم ، ويتدفق حتى مدينة Assinquif ، حيث يلتقي مع الجزء الآخر الذي يأتي من Betliz كما ذكرت سابقاً .

هذا الجسر علامة تقسم "أرمينيا" العليا التي تصل حتى هذا المكان و"أرمينيا" السفلى التي تبدأ من هنا ، بعد عبورنا له ، وعلى بعد فرسخ ،

وضعنا رحالنا في قرية تسمى Batman ، يقطنها أكراد مسلمون ، وهم قوم فقراء ، يعيشون على الزراعة ، وتربية الماشية .

في صباح السبت أخذنا الطريق مرة أخرى ، وفي منتصف النهار تقريباً مررنا بمدينة قديمة ، يحبط بها سور قوي وعريض ، وعليه أبراج جيدة ، لكنها مهدمة ، وتبدو كالخرائب في أماكن عديدة من السور ... ، تسمى المدينة Murfagum ، يسكنها "الأرمن" و"اليعقوبيون" ومسلمون أكراد ، وهم قليلون بالنسبة لحجم المدينة ؛ لأن معظمها قد دمر .

بنى هذه المدينة "الإغريق" ، وتبدو على مبانيها سمة النبالة ، وقد دمرها "تيمورلنك" العظيم بعد أن حاصرها لمدة طويلة ، على مسافة قصيرة باتجاه الشمال من تلك المدينة ، توجد صومعة لسيدتنا العذراء ، حيث حدثت العديد من المعجزات .

الشغف والمحبة الشديدة التي كان يكنها الأتراك لمدينة Carahemite ، هي السبب الذي أدى لتدمير هذه المدينة ؛ لأنهم كانوا يعتقدون باستحالة الاحتفاظ وتحصين مدينتين بهذا التقدير والروعة ، وهما قريبتان من بعضهما البعض ، عندما أغار عظيم الترك على فارس ضد "شاه طهماسب" اتخذ طريقاً آخر دون أن يمر بهذه المدينة ، لكنه لو كان قد شاهدها ، وموقعها الرائع ، وقوة وسماكة أسوارها ، لما سمح بإهمالها وتجاهلها ، يقول المسلمون عنها أن الزمن سيأتي حين يهجر الأتراك Carahemite ، ويعظمون ويحصنون مدينة Murfagum مرة أخرى .

بعد أن أدّينا "ميدياً" واحداً عن كل حمولة ، و"الميدم" عمله معدنية تساوي أكثر قليلاً من نصف (vintem) ، وهو الآخر الذي

يذهب للكردي المسلم قائد هذه البلاد ... ، انطلقنا وحطينا رحالنا في قرية أخرى تسمى Bician ، يسكنها مسلمون أكراد ، يعيشون مثل الآخرين الذين ذكرناهم في السابق ، هنا توفيت فتاة "البندقية" السوداء الصغيرة التي كانت مع "الفينيقي" .

غادرنا في اليوم التالي ، قبل الفجر ، ودفنا الفتاة بعد مسافة قليلة ، وقد جفلت عند رؤيتها متراجعاً للوراء ، مما جعل سائقي البغال والأرمن يضحكون مني ، وسخروا مما فعلت ، فعبر كل فارس و"أرمينيا" وتركيا لا يهرب أحد من الوباء ، وهم لا يغلقون المدن والأماكن ولا يفحصون الناس الذين يأتون من أماكن مشبوهة عندما يصابون بالمرض ، ويقولون بعدم لمسها ، ولذلك يموتون جميعاً كالحيوانات ...

هذا هو شأنهم في جميع الأمور .. ، يتصرفون انطلاقاً من جهلهم ، لذلك بعد أن تم دفن الفتاة ، تشاجر سائقو البغال والأرمن على أغراضها وخرقها والتي لم تكن تساوي فلساً .

أحد الأرمن الذي كان يحمل عني على ظهره بعض الحقائب الجلدية ، التي بها بعض المأكولات ، كسب نتيجة لاقتراع تم بينهم على جلابية مزينة بالفراء تخص الفتاة السوداء ، والتي قام بلبسها فيما بعد ، ومنعته من الاحتكاك بي .

ما أبقاني على قيد الحياة كل هذا الوقت ، هي قطعة صغيرة لحصى من أمعاء الحيوانات (ترياق)[أ] أحملها معي ، وأكسر منها قطعة صغيرة

(أ) الترياق : حجر من ترسبات توجد في أمعاء الحيوانات ، ويعد علاجاً ناجحاً للطاعون .

كل يوم وأذوبها في قليل من الماء وأشربها وآكل كل صباح رأساً من الثوم ؛ لأن ذلك الوباء لشخص مثلي يعني الموت .

في عصر ذلك اليوم وصلنا إلى قرية أخرى تسمى Hiemet ، يسكنها أيضاً أكراد مسلمون ، في اليوم التالي ، الإثنين الموافق لليلة "الكريسماس" ، وحيث يعيش الناس كما في المدن السابقة ، وكانت القرية تبعد مسافة فرسخ من Carahemite ، وكان الوقت متأخراً ، والطقس عاصف وماطر ، فلم نتمكن من الوصول إلى هناك ، قضينا الليل في "خان" صغير مبني من الطين ، وسقف ضعيف مليئ بالطين ، قد بدا الخان كزريبة للخنازير .

كان يوماً حزيناً بالنسبة لي أن أجد نفسي في يوم كهذا في مثل هذا المكان ، والوباء يحيط بي من كل جانب ، فتذكرت أياماً أخرى قضيتها في راحة ، واحتفالية عظيمة كنا نحتفل بها في العالم المسيحي .

في صباح يوم الثلاثاء يوم "الكريسماس" ، وصلنا إلى المدينة بعد مغادرتنا Hizu إلى هنا سالكين اتجاه الغرب ، وللدخول إليها انحرفنا مسافة نصف فرسخ ؛ بسبب خور كبير يتدفق حولها ، وهو عبارة عن رافد آخر لنهر دجلة ، وينضم للروافد الأخرى في مدينة Assinquif ، وكل تلك الروافد تكون جسم ذلك النهر الذي كما ذكرت سابقاً على مسيرة يومين من مدينة (Carahemite) .

حالما عبرنا هذا الرافد على جسر ضخم وطويل ، وصلنا إلى المدينة التي تقع على مسافة ليست قصيرة ، حيث نزل المرء على طريق مرصوف بطريقة بائسة ، وغاية في السوء .

الحارس الذي جاء معنا من مدينة "فان" (كانت العادة أن يبعث حارس

مع كل قافلة حتى لا تنهب البضائع في الطريق) ، أخذنا جميعاً إلى مبنى الجمارك حيث تم إنزال كل الحمولة والأمتعة ؛ لفحصها وتخليصها .

عند خروجنا قاموا بتفتيشنا جميعاً حتى سائقي البغال وحقائب الجلد الصغيرة ، وكل الأشياء التي كنا نحملها ، حتى أنهم قاموا بفك خيوط وسادة كانت معي وفتحوها ، وكنت قد خبأت الرسائل التي أحملها معي من الحاكم ، وقائد هرمز في حقيبة جلدية في خرج سرج صغير ، كانت عليه أحمال ، ومعدات سروج ، لو كانوا وجدوها ما كنت لا تمكن من إرجاعها مرة أخرى ، وأنا واثق من عدم وجود أي شخص في أراضي الترك يستطيع قراءتها أفضل مني .

بعد أن وضعنا رحالنا في "الخان" بعد ساعتين من ذلك المكان ، قضينا الليلة ، لحق بنا الأرمني الذي كان برفقتنا ، قد أسعدني ذلك كثيراً ؛ لأنني فهمت من "الفينيقي" أنه كان ينوي خيانتي مع الأتراك (لو لم يأت) ، ويكشف لهم عن شخصيتي حتى يصبح مالكاً لكل أغراضي التي رغب فيها دائماً ، لم يجرؤ مع وصوله لفعل أي شيء وقام هو "سيماو فيرنانديز" وبدبلوماسية شديدة ، وأطلع "الفينيقي" وسائقي البغال بأنه ترك المرأة في دير الأرمن مع أرمني آخر حتى تتماثل للشفاء ، وهي حالياً قد تحسنت صحتها لحد بعيد ، وعندما تستعيد عافيتها ستلتحق بنا ؛ لأنني كنت قد أخبرتها بذلك .

تشبه هذه المدينة عاصمة المملكة ، وقد استولى عليها عظيم الترك ، وكل المناطق المحيطة بها من الإمبراطور والد "شاه طهماسب" الحالي ، تقع تلك المدينة على هضبة شمال الطريق ، وتحيط بها أسوار عظيمة ، وحصون

طويلة ، ومبان واسعة من الحجر المنحوت ، ومحصنة بأبراج عالية ، ومنيعة كلها في حالة ممتازة ، تلك بناها "الإغريق" .

المنازل التي بالداخل شيّدت من أسوار القصب والطين ، ولها شوارع ضيقة جداً وقذرة ، لها أربع بوابات ، يدخلها منها الناس ، وفي أعلاها أبراج جيدة البناء ، يعيش فيها بعض الأتراك الذين يقومون بالحراسة الدائمة ، حاملين أسلحتهم وبنادقهم ، ويقفلونها كل ليلة ، ولا يستطيع أي شخص أجنبي أو تاجر الخروج دون أن يحصل على تصريح من الباشا ، كل من يقبض عليه ، وليس معه تصريح يبقى في الحجر حتى يتم التعرف عليه ، ومن يكون .

لذلك توجد في معظم الأماكن وعلى قمة الأسوار أكواخ يبقى فيها أولئك الذين يلجؤون لها ليلاً للقيام بالحراسة ، وأخذ الحيطة والحذر ، هذا بسبب الخشية من الفرس ، كما ذكرت سابقاً ؛ لأن المدينة ذات أراض خصبة ، وتمارس الكثير من التجارة والأعمال .

في أحد أجزائها ، يتدفق نبع به الكثير من المياه ، يجري مخترقاً لها ، وبها مطاحن كثيرة وحمامات ، وبساتين ضخمة ، بها كل أنواع الفاكهة كما في أوروبا ، لابد أن بها أربعة أو خمسة آلاف من المواطنين "الأرمن" و"اليعاقبة" (أنصار "جيمس الثاني" ملك "إنجلترا") و"النسطورين" والـ Distimarias ، الذين يدعون أنهم من أنصار القديسة ماري ، وكلهم مسيحيون ، بيض البشرة ويتحدثون اللغة العربية .

هناك أيضاً أتراك وتركمان ، وقلة من اليهود الذين ولدوا هنا ، وآخرون يأتون بتجارتهم وبضائعهم .

يحكم هذه المدينة عظيم الترك ، ويوجد دائماً أحد الباشوات مع الكثير من الفرسان "الإنكشارية" عبيد عظيم الترك أبناء المسيحيين من الممالك التي يحكمها ، بها منطقة واسعة تحيط بها ذات تربة خصبة ، توفر الكثير من المحاصيل ، واللحوم من الماشية والفواكه ، كما يربون الخيول والأفراس ، بها العديد من البلدات ، والقرى التي يقطنها أولئك "المسيحيون" و"التركمان" .

في هذه المدينة قلة من المسلمين المتزوجين من نساء مسيحيات ، ويعيش كل منهم حسب دينه وتعاليمه ، النساء هن بنات "النسطوريين" Nastorians ، الذين هم في الأصل من "الإغريق" ، وأسوأ نوعية من المسيحيين ؛ لأنهم يقدمون بناتهم بكل رغبة للأتراك دون ذلك للمسيحيين ، "اليعقوبيون" أكثر شبهاً للأرمن (وهم أفضل المسيحيين) ويتزوجون بنات أخواتهم وأقربائهم من النساء ، لكن الأرمن لا يفعلون ذلك منذ جيلهم السابع ، هناك أيضاً الكثير من ممارسة الصوم ، والتقشف .

وبعض من كهنتهم ورهبانهم لا يأكلون لأسبوع كامل ، عندما يصومون لا يأكلون السمك والجبن ، والبيض ، والزبد ، وزيت الزيتون ، ولا يشربون الحليب ، ويصومون خلال الصوم الكبير مبكرين بأسبوع تقريباً كما يصومون خلال أيام الأحد ، الأربعة السابقة للميلاد ، لهم أيضا ممارسات مسيحية أخرى رائعة أفضل من "النسطوريين" و"اليعقوبيين" وكل الآخرين ، لكن بما أن هذا ليس هدفنا ؛ لأنه طويل وممل إلا أننا سنصف عادات وتعاملات والاحتفالات التي يقيمها كل منهم .

عندما لا يصوم أولئك الأرمن ، فإنهم يثأرون لأنفسهم عن التقشف

الذي مارسوه ؛ لأن من عادتهم الأكل معاً ، على كل منهم أن يأتي بطعام من منزله ، يقومون بالآتي :

يفرشون الأرض بالسجاد ، ولا يضعون مفارش وأغطية على الطاولات (لا يوجد قوم في كل تلك الأنحاء يأكلون من على الموائد) ، ثم يجلسون معاً في دائرة على الأرض ، ويبدأون الأكل منذ الصباح ، ولا يتحركون ، ويظلون كذلك حتى الليل واليوم التالي ، يأكلون ويمضغون الطعام ببطء ، ويشربون بكميات كبيرة ، كلهم حتى الصبيان والفتيات يشربون الخمر ، ولا يغادرون حتى يسقط كل منهم في مكانه ، وبجانبهم أحواض وأوعية يتقيؤون فيها .

هذه دائماً هي العادة فيما بينهم ولا يعتبرون ذلك أمراً مذلاً أو يستحق التعليق عنه .

منذ الشهر من الآن قد بدأ الوباء في التراجع من المدينة ، قد قيل لي أن أكثر من اثنين وثلاثين ألفاً من الأرواح قد حصدها الموت خلال الثلاثة شهور الماضية ، أي حوالي مائتي يوم ، بالرغم من عدم ضخامة العدد إلا أن هناك أعداداً هائلة من الناس تتواجد دائماً ؛ بسبب التجارة الواسعة التي لها مع العديد من البلاد .

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى هناك لم يكن بالمدينة باشا ؛ لأن عظيم الترك قد أمر الباشا الذي كان بها بالذهاب إلى بغداد كقائد عام للجنود المتحركين من هناك لمساعدة البصرة ، وظل ابنه في مكانه دون تعيين باشا آخر .

عندما ذهب لدار الجمارك لتخليص الأمتعة لم يكن هناك ولا

صندوق واحد من القرفة (جرت العادة على حملها في صناديق خشبية اثنين لكل حمولة حتى لا تتكسر قطع القرفة) تم فتحه دون أن تكون كلها قد انقلبت رأساً على عقب ، كما أدخلوا بعض عصي حادة داخل أكياس القرنفل في أماكن مختلفة حتى يتأكدوا من عدم وجود عــمائم بداخلها ؛ لأنهم يتحصلون على رسوم أكثر عليها دون غيرها من البضائع .

عند مغادرتنا تبريز ، وكنت أخشى عندما أخبروني بأن كل شيء يتم فحصه هنا وبطريقة سيئة ، لذلك بدا لي من الجيد وأيضاً لزملائي ، أن نضع حقيبة رئيسة الدير التي بها الحجارة الكريمة والمجوهرات التي كان يحملها Galeaco في قاع صندوق من الحلبة ، يخصه ؛ لأننا ظننا أنهم إن قاموا بفتحه ، فإنهم سيتركون الصناديق الأخرى .

وهذا ما أخبرنا به ، يبدو أن الرب أراد أن يظهر قدرته لنا في أسلوب واضح ؛ لأنهم فتحوا ذلك الصندوق أولاً كان على وشك التكسر وقلبوه آلاف المرات وأدخل أحد الحراس من الأتراك يده داخل الحلبة مرات عديدة في كل الجهات ، ثم غرز العصا الحادة حتى إن كانت هناك إبرة لكانت ظهرت ، لكن الرب أخفى كل شيء عنه ، وأعمى بصره ، فلم ير حتى ما كان في يده .

بعد أن تم فحص كل البضائع ، وسددت مستحقاتها التي بلغت مبلغاً كبيراً (لأنهم لا يضعون أي اعتبار لأي شيء ، ويأخذون ما يريدون) خاصة من المسيحيين ، أردنا المغادرة لكننا لم نصل لاتفاق مع سائقي البغال ، وحتى يوافقوا منحتهم اثنتين من "كروزادوس" ، كل

هذا كان بسبب اعتقادهم ، أننا نخشى الأتراك القادمين في قافلة أخرى خلفنا ، دون أن ندري سبباً لذلك ، باستثناء أننا أخبرناهم بتبادلنا لكلمات جارحة وحادة مع أحدهم ، من الذين كان دائماً يهددنا .

وفي كل مدينة أو مكان نصل إليه يجلسون ، ويمتنعون عن التحرك حتى نعطيهم المزيد من المال ، وكل ما يطلبون ، بخلاف الأجر الذي يبلغ ستة "كروزادوس" للحمولة ، فإن جميع من معنا أعطاهم خمسة أو ستة زيادة على ذلك ؛ لأن "الفينيقي" لم يعطهم أياً من ذلك .

لكنني وخلافاً للرغبة التي تتملكني لرؤية أغراض وممتلكات رئيسة الراهبات في أمان أود أن أرى نفسي بعيداً عن قبضة الأتراك ، كنت على استعداد لإعطائهم المزيد ؛ خوفاً من أن يتعرف عليّ أحد ، إن كان ذلك قد حدث لكنت ضعت دون أي أمل في إنقاذي ؛ لأنني كنت دائماً أدعي بأنني تاجر من "البندقية" ، حتى سائقي البغال لم يكن فيهم من يعلم أنني برتغالي ، لذلك عندما منحنا ورشونا سائقي البغال .

غادرنا في صباح الأحد الثلاثين من شهر ديسمبر ، مع كل المعوقات التي نجدها في الخان والحراس وخفراء البوابات عند بوابات المدينة ، وما كنا سنخلص أنفسنا حتى منتصف اليوم ، وحتى لا نبقى كل نهار ذلك اليوم ، فقد بذلنا جهداً مع سائقي البغال ، وقدمت لهم الرشوة مرة أخرى (لأنهم أرادوا البقاء حتى اليوم التالي) ؛ حتى نتمكن من المغادرة .

بما أن الرحلة كانت طويلة ، فقد توقفنا في مكان على مسافة نصف فرسخ من المدينة ، يتألف من منازل الحجارة والطين مع مائتين من السكان من "الأرمن" و"اليعقوبيين" ، الذين يعيشون على الزراعة

وتربية الماشية ، يسمى ذلك المكان باللغة التركية Alimongar ، والتي تعني "نافورة علي" ؛ بسبب النافورة ذات المياه الكثيرة هناك ، ويقول المسلمون الذين يعيشون في تلك المناطق أن علياً نبيهم قد شيّدها .

ضابط من الأتراك يدعى "مصطفى باشا" استولى على مدينة Carahemite من "شاه إسماعيل" ، وأيضا هذا المكان ، استخدم العائد المالي منه كصدقات على روحه ، قد أصبحت تنفق حتى اليوم بنفس الطريقة ، لا أحد ينفقها على نفسه ولا يدخل أي باشا إلى هذا المكان .

أحد أبناء "المصطفى باشا" ويدعى "أحمد باشا" كان باشا على Losso ، وهي قلعة تقع على مسيرة خمسة أو ستة أيام من البصرة ، وطمعاً في رفع منزلته وتعظيم نفسه ، ورغبته في تقليد والده الذي حاز على شهرة عظيمة بينهم ودون أن يتلقى أي أوامر من عظيم الترك أو أي مسؤول ، قرر الاستيلاء على جزيرة "البحرين" ، قد قام بذلك خلال عهد نائب الملك "دوم كونستانتينو" ، الذي توفي هناك بطلقة بندقية مثل العديد من الأتراك والسادة النبلاء "البرتغاليين" .

"دوم انتاو دي نورونها" الذي كان يعمل في ذلك الوقت قائداً لـ هرمز ذهب ووضع نهاية لتلك الحرب ، ليؤمن القلعة ويحافظ عليها ، الكثير من الأحداث تمت في ذلك المكان ، لكن بما أن ذلك ليس من اختصاصنا هنا ، فسنترك ذلك لمن يريد وصف عهد نائب الملك هذا .

غادرنا هذا المكان يوم الإثنين عبر طرق سهلة ومستوية ، إلا أنها طينية وكثيرة الحجارة ، ووصلنا عصر ذلك اليوم ، وحطينا رحالنا في مكان آخر صغيرة ، يقع شمال الطريق ، يسكنه التركمان في نفس

المنازل ، ونفس أسلوب الحياة مثل الآخرين ، ويسمى المكان باللغة التركية Mirzetepe وتعني "هضبة الأمير" وهو اسم قديم ، إلا أنني لم أعرف لماذا سميت الهضبة بهذا الاسم .

من هنا وفي الصباح التالي تابعنا نفس الطرق المتعبة ، واسترحنا في قرية صغيرة أخرى بها نفس السكان ، ويمارسون نفس أسلوب الحياة ، وتسمى القرية Dumbuli ، في نفس الوقت من اليوم التالي ، غادرنا المكان بعد أن دفعنا اثنتين من "ميدين" عن كل حمولة ، على نفس الطرق ، إلا أنها كانت أكثر صعوبة وطينية حتى أن الحيوانات في كثير من الأماكن غرزت في الطين ، وسقطت الأحمال والأمتعة عن ظهورها ، قد تسببت لنا في كثير من المشقة ؛ لأنه تكرر كثيراً .

قضينا كل اليوم نعاني من ذلك الطريق الوعر ، بالرغم من أن طوله لم يكن يزيد على فرسخين أو ثلاثة ، رغم كل تلك المشاق ، خرجنا سالمين ؛ لأن الأمطار لم تكن قد هطلت طيلة ثمانية أو عشرة أيام ، وصلنا بعد ثلاث ساعات من هبوط الظلام ، إلى قرية صغيرة أخرى تسمى باللغة التركية Curt Chegani ، وتعني "آثار الذئب" ؛ بسبب الأعداد الهائلة من تلك الحيوانات في كل تلك المنطقة .

في صباح الثلاثاء ، بعد أن سددنا مستحقات الأمتعة ، وهي عبارة عن "ميديم" واحد ، عن كل حمولة غادرنا المكان ، وسافرنا عبر طرق رائعة حتى وصلنا إلى قرية أخرى تقع شمال الطريق وتسمى بالتركية Taxlutepe ، والتي تعني "الهضبة الحجرية" لوجود هضبة عالية حجرية على الطريق ، يسكنها نفس القوم ، ويمارسون نفس أسلوب الحياة .

كان هذا بعد أن مررنا بقريتين أو ثلاثة ، في يوم الجمعة بدأنا نسير على نفس الطريق مرة أخرى ، بعد منتصف النهار بقليل ، وضعنا رحالنا في قرية أخرى تسمى Cabahidar ، من حيث انطلقنا مرة أخرى في يوم السبت قبل ثلاث ساعات من شروق الشمس .

بعـد مسيرة فرسخين تقريباً ، دخلنا إلى واد يسمى بالتركية Bagarsug Dere والتي تعني بلغتنا "وادي الاحشاء" ؛ بسبب طوله الشديد وضيقه ؛ ولأنه في الماضي قد وجد الكثير من الرجال فيه ، وقد طعنوا ، وخرجت أحشاؤهم بواسطة اللصوص الذين يسكنون هنا .

توجد قبور كثيرة هنا للصوص الذين قتلوا قبل أربع عشرة أو خمس عشرة سنة بواسطة تركي ، القديس "يعقوب قديس" مدينة Urfa ، وقد وجد بداخلها كمية كبيرة من الممتلكات التي سرقوها .

بعد عبور ذلك الوادي ، وعلى بعد مسافة منه ، يوجد نبع مياه عظيم ، يخرج من فتحتين كبيرتين وعريضتين ، يسمى بالتركية Adua Mongari ، وتعني "ينبوع الأحد" ؛ لأنه وجد واكتشف في ذلك اليوم ، يقوم النبع بتشغيل العديد من طواحين الأرمن الذين لهم مستوطنات كثيرة عبر هذه المنطقة التي تقع أسفل الينبوع ، يستخدمون مياهها ، وكذلك تفعل مدينة Urfa ، هذه والتي تعتبر ضخمة جداً بل أكبر من Carahemite ، وأقدم كثيراً يحيط بها سور قديم من الحجر المنحوت ومجهزة جيداً بأبراج ، إلا أنها مهدمة في كثير من الأماكن .

قد بنى هذه المدينة Nembrot ، وتقع في الجهة الغربية بالقرب من سلسلة جبلية تسمى بالتركية Cara Dag ، والتي تعني "الجبال

السوداء" ، ويقطنها الأرمن ، وقلة من التركمان ، معظمهم من المزارعين ، ويحكمها عظيم الترك الذي استولى والده عليها من سلطان Chaori الذي حكمها في السابق .

لا يوجد "باشاوات" في دمشق وحلب وMalatya باستثناء Saint-Jacques ، وهو وسط "الباشاوات" أكثر من قائد مساعد لباشا مدينة Carahemite .

في مدينة Urfa هذه يوجد الفرن الذي وضع داخله ثلاثة من الشباب ، هم "شادراك" ، و"ميشاك" ، و"ابيدنيجو" .

في جانب من المدينة حصن رائع ، ومحصن بطريقة ممتازة .

على بعد قليل خارج المدينة باتجاه الجبال ، توجد بئر أحاط بها قبل مدة قصيرة أحد الأرمن بحوض كبير ، قيل لي أن سيدنا المسيح قد قام بمعجزة في هذا المكان إلا أنهم لم يخبروني أي واحدة كانت ، لكن ؛ بسبب تلك المياه وطبيعتها ، فإن كل مجذوم اغتسل بها شفى من مرضه ، لذلك هناك دائماً أعداد كثيرة منهم من المدينة الذين يأتون في جماعات من كل مكان ؛ لأنهم طردوا من الأماكن التي يعيشون فيها مع الآخرين .

بعد شفائهم ، يبقون هناك في مكان خصص لهم على مسافة قصيرة من المدينة ، هذا ؛ بسبب إذا عادوا إلى أماكنهم وأراضيهم حتى بعد شفائهم خاصة عبر كل فارس فسوف يقتلون ، لهذا يوجد الكثير منهم في هذه المدينة ، ويعيشون على تربية الحمير التي غالباً ما تستخدم للنسل بأكثر من مائة "كروزادوس" .

على مسافة قليلة من المدينة ، وبالقرب من مدخلها ، توجد بعض

الكهوف التي يقطنها الكثير من الغجر ، وهم يعيشون هنا لاعتبارات خاصة بهم ، وكنوع من العطف والشفقة ، وتلك أمور غير موجودة ، حيث يذهب آخرون مسلمون ومسيحيون دون أن يفعل لهم أي شخص أي شيء ، لهم هذا التميز ؛ لأنهم يدفعون جزية لـ Saint-Jacques .

توجد في هذه المدينة أنواع جيدة من الأسماك يتم صيدها من نهر "الفرات" ، الذي يبعد مسيرة يومين ، وهي مليئة بلحوم المواشي ، وحدائق الفاكهة ، والكروم والعديد من المنتوجات لوجود الحقول الشاسعة بها ، والأماكن الكثيرة التي يقطنها أولئك الأرمن والتركمان ، ولهذا فإن حمولة من الذرة هنا لا تساوي أكثر من "كروزادوس" واحد وتحتاج لإنتاجه عندنا مساحة كبيرة عن تلك التي تزرع فيها هنا ، تؤخذ الذرة إلى مدينة حلب وأماكن أخرى .

مكثنا في هذا المكان منذ السبت الخامس من شهر يناير ، عندما وصلنا وحتى يوم الإثنين التالي ، عندما جاء محصلو الضرائب من Urfa لجمع المستحقات التي عبارة عن خمسة "شاين" عن كل حمولة .

في يوم الثلاثاء ، وقبل الفجر بثلاث ساعات ، ومعنا قافلة أخرى انضمت إلينا ، غادرنا في اتجاه غرب الشمال الغربي ، وكنا قد سافرنا في الأيام الماضية في نفس الاتجاه ، وأحياناً في اتجاه الغرب ، عند الفجر وصلنا إلى دير للأرمن ، مهجور ، ومهدم ، ويبدو من الأساسات التي تظهر أنه كان كبيراً جداً ، في الداخل توجد بالأسفل أقبية ضخمة ، والتي يبدو أنها كانت من المحتمل تتسع لمائتين أو ثلاثمائة رجل على ظهر الخيل ، حيث يعيش أيضاً الرهبان ، أخيراً أصبحت مغارة

للصوص الذين يتجمعون فيها ، لكن ليس حالياً ، يقع بالقرب منها ، حقل ضخم ، يبلغ عرضه نصف فرسخ ، ويسمى في اللغة التركية Cara Secu ، وتعني "المسرح الأسود" ؛ لأنه عبارة عن هضبة طينية عالية ، وعندما تمطر تغوص الحيوانات فيها بحيث يصعب إخراجها .

في كثير من الأحيان ، يعلق التجار والقوافل في تلك الأقبية لأسبوع أو اثنين ، دون أن يتمكنوا من عبورها .

خلف هذا الحقل ، مررنا عبر مدينة ، وبعض الأماكن الأخرى كلها مدمرة ومهدمة ، عند منتصف النهار ، وضعنا رحالنا في "الخان" قديم جداً ، أمرت ابنة الملك "حسان باشا ببنائه منذ زمن بعيد ، بالقرب منه بئر ذات مياه عذبة تسمى بالتركية Cara Jorun وتعني "الحوض الأسود" ، وهو حوض ضخم ، صنع من صخرة سوداء ، تصل إليه المياه التي تؤخذ منه عبر عجلة على شكل مغرفة ، تشرب منها الحيوانات .

في الجانب الآخر ، يوجد أنبوب به الكثير من المياه ، تخرج منه عن طريق ماسورة ، يشرب منها المسافرون .

قبل عامين بنى أحد المسلمين منزلاً قوياً شيّده من الحجر المقطع ، وكان يوجد به دائماً رجل يدفع له على قضاء اليوم هناك والنوم مبلغ ثلاثة "ميدين" ، وكان ذلك المبلغ يكفيه ، وكل عمله هو أن يمشي بجانب العجلة حتى يبقى الحوض ممتلئاً بالماء ، هذا يوفر مشقة العمل لأولئك الذين يصلون متعبين من رحلتهم ، ويحتاجون للراحة .

بالقرب من هذا "الخان" ، قرية صغيرة منازلها من الحجارة والطين ، ويسكنها مزارعون من التركمان .

في عصر ذلك اليوم وصل رسول في طريقه من حلب إلى "أورفة" يرافقه أربعة أو خمسة آخرين ، أخذ حصانين من سائقي البغال وآخر من رفيقنا "الأرمني" (تلك كانت العادة في تركيا ، أن يأخذ الرسل الخيول التي يجدونها أينما وصلوا) ، كان علينا الانتظار حتى الخميس التالي ، عندما أحضرها أحد المسلمين ، ودفعنا له أجر إعادتها لنا .

غادرنا ذلك المكان بعد منتصف الليل ، وواصلنا سفرنا في اتجاه الغرب ، في حوالي منتصف النهار ، وصلنا إلى مدينة تسمى باللغة التركية "Biriajuc" ، والتي تعني "الممر الصغير" ؛ لأن من هذا المكان يمر الشخص للناحية الأخرى من نهر "الفرات" ، والتي تتميز بضيق المجرى المائي فيها ؛ ولأن المستحقات المدفوعة ليست بالكثيرة ، فلم ندفع أكثر من "شاين" واحد عن كل حمولة .

تقع المدينة على صخرة من الجانب الشرقي القريب من نهر "الفرات" ، الذي يجري ماراً بها ، من جانب الأرض اليابسة ، فيحيط بها سور قوي من الحجر المنحوت ، ومن ناحية النهر ، توجد منازل كثيرة مشيدة بنفس نوع الحجر المنحوت ، وقد بنيت أساساتها داخل المياه ، وهي أكثر متانة ، وقوة من السور .

المنازل من الداخل أيضاً من الحجارة والطين ، والسياج المصنوع من القصب ، والطين ولها أسطح مسطحة من الأعلى ، الشوارع ضيقة وقذرة ، لها أرصفة سيئة ، قد يكون بالمدينة حوالي ألف وخمسمائة أو ألفين من السكان من الأرمن ، والتركمان المسيحيين الذين يتحدثون العربية .

في جانب من المدينة ذاك الذي من ناحية النهر ، يوجد حصن متين ، شيد بطريقة جيدة ، ويقع في أقوى جزء من الصخرة ، وأشدها انحداراً .

في الجانب الشرقي من المدينة ، توجد صحراء تمتد في الجزء الأكبر من "أرمينيا" العليا ، وفارس وحتى مدينة أصفهان .

تبعد أصفهان مسيرة أربعة أيام من "كاشان" ، قد استولى عظيم الترك على البلاد من هنا ، وحتى تلك المدينة التي احتلها من "شاه إسماعيل" .

هذا إقليم جيد جداً ، به الكثير من القرى والحقول التي توفر العديد من المحاصيل والفواكه ، مثل التي في بلادنا .

عندما وصلنا إلى هنا ، وجدنا الفنادق (التي كانت عبارة عن كهوف بالقرب من المدينة ، لعدم وجود فنادق داخل المدينة) كلها مشغولة ، ومليئة بالجمال ؛ لأن اليوم كان ماطراً ، وكانوا يحتمون داخلها ، وقد اضطررنا لعبور النهر من الجانب الآخر وذلك لم يسبب لي أي مشكلة ؛ لأنني كنت أخشى هذا الميناء كثيراً ، عليه نحن على ظهور الخيل والأحمال والأمتعة على ظهور الدواب .

واصلنا سيرنا إلى المراكب الراسية دائماً هناك ، وجاهزة لحمل الأغراض ، ويوجد منها أكثر من عشرة أو اثني عشر مركباً ، تشبه مراكب الغال الفرنسية العريضة ، وليس لها جزء ممتد بطول المركب حتى المنتصف ، وبأسفلها جزء يستخدم كمستودع وبدون أعمدة صاري ، ومقدمتها مفتوحة تماماً ، وبها قطع حتى تبقى المياه في مستوى المستودع ، تدخل بواسطته الحيوانات والناس ، وتبحر عن طريق المجاذيف .

أخذوا مني هنا "شايناً" واحدا ، قائلين إنني كاهن بما أنهم رأوا شعراً على رأسي ، لم أرغب لعدة أيام بحلاقة رأسي ؛ لأنني كنت أود الوصول سريعاً إلى حلب ، وأرتدي ملابس مثل "الفينقي" (لوجود الكثيرين منهم هناك) ، وأضع قلنسوة ، وأخلع العمامة والزي الأرمني الذي كنت أرتديه ، تلك كانت العادة لكل الكهنة الذين يأتون عبر هذا الطريق من "أرمينيا" عند الحج إلى القدس ، وهم كثيرون ويؤدي "شاين" واحد عن كل رأس .

ينبع نهر "الفرات" من جبال Mingol التي في "أرمينيا" العليا بعيداً عن نهر دجله ونهر Araks على اثنتين وأربعين ونصف درجة ، ويتدفق باتجاه الغرب حتى يصل إلى حصن يسمى Pali ، ومن هناك إلى حصن آخر يسمى Pirtec على مسيرة يوم ونصف ، ومن ثم إلى مدينة Malatya على بعد مسيرة يومين ، ومن ثم إلى Chongus وOrrungala وبعدها إلى هذه المدينة Biriajuc .

يستمر في الجريان من هنا مع إنحناءات كثيرة لمسافة قد تمتد لمسيرة يوم من بغداد ، يظل هناك دون أن يلتقي بـ دجلة الذي يجري ماراً به ، ومن ثم عبر أماكن كثيرة ، يسكنها مسلمون عرب ، داكنو البشرة ، ويستمر النهر حتى يلتقي بـدجلة على بعد مسيرة يوم من البصرة .

من حيث عبرنا ، كان عرضه بطول طلقة بندقية ، ويبلغ عمقه بطول نصف رمح ، يتسع ويصبح أكثر عرضاً في فبراير ومارس ، ويضيق أكثر في أماكن أخرى .

عند عبوري ، شاهدت وبطول النهر وبمحاذاة المدينة حوالي ثلاثمائة

أو أربعمائة من القوارب التي صنعت مثل المراكب الشراعية ، والتي أعدت لحمل الناس ، والذخيرة والمؤن إلى البصرة ، وهي قوارب متينة جداً ، وصنعت من أجود أنواع الصنوبر ، الذي يؤتى به من سلاسل جبلية تسمى Albustan تبعد مسيرة سبعة أيام إلى الشمال الغربي ، وتصل على ظهور الجمال ، وأيضاً يؤتى بخشب الحور الذي توجد منه كميات كبيرة وراء هذا النهر ، في أماكن عديدة .

بما أن الخشب يمتاز بالقوة والجودة ، يمكن بناء سفن ضخمة "غاليوت" منه ، لو كان النهر يسمح بإبحارها عليه ؛ بسبب ضحالته في أجزاء كثيرة ، حتى أن تلك القوارب الصغيرة تعبره بصعوبة بالغة ، ويخوض الناس معظم الأحيان في النهر لدفع القوارب مثل ما يتم مع القوارب في نهر "سانتريم" في فصل الصيف بالبرتغال .

على مسيرة يوم من "جبال البستان" ، توجد سلسلة جبلية أخرى ، تسمى في اللغة التركية Guglec والتي تعني "topsail" ؛ لأنها عالية جداً وضيقة ، هنا وعلى طريق من حلب لمسافة مسيرة تصل لخمسة أيام ، يتفرع حيث يقود أحدها إلى القسطنطينية وعبر Karamania المحافظة الكبيرة التي ينتج فيها المادة الصمغية العطرة ، من أشجار تنمو هناك صغيرة الحجم ، تشبه أوراقها أوراق شجرة التفاح .

يوجد الكثير من تلك الأشجار التي تعيش في جذوعها بالقرب من الأرض ، العديد من المخلوقات البيضاء في حجم نصف طول الأصبع وسميكة الحجم ، مثل ريش البط ، وتقوم تلك المخلوقات بنهش جذوع الأشجار ؛ مما يتسبب في وجود ثقوب كبيرة تظهر في الخارج تنساب

منها تلك المادة الصمغية ، تجمع ، وتضرب بمطرقة خشبية تحت الشمس حتى تلتصق مع بعضها البعض في كتلة صغيرة .

يقومون بتعبئتها من "جولات" صغيرة وضيقة بطول نصف braca من المشمع ، ويسع كل منها من اثنين إلى ثلاثة alqueires ، وتباع في هذه العبوة حسب وزنها ، ويرسل الكثير منها إلى "البندقية" ، حيث يصل سعرها إلى مائة "كروزادوس" (وأكثر) ، وتوزع في كل "إيطاليا" ، وهو أفضل نوع في العالم . ، يوجد نوع آخر يأتي من "رودس" ليس بنفس مستوى الجودة ؛ لأنهم يخلطون معها قطعاً صغيرة من خشب نفس الشجرة .

عندما وصلنا إلى الجانب الآخر من النهر ، وجدنا "خاناً" آخر قريباً منه ، لكنه مشغول بالكامل ، فمشينا مسافة نصف فرسخ آخر ، وحطينا رحالنا في قرية صغيرة تسمى Tilmian التي يسكنها حوالي الخمسين مواطناً من التركمان المزارعين ، وتقع القرية شمال الطريق ، وتحتوي على منازل من أسيجة القصب والطين ، يبدو أن السكان قد هجروها خلال فترة والوباء ، هنا سمعت أن العديد من الوفيات قد حدثت هنا في Biriajuc .

تتوفر اللحوم في هذه القرية والمواد التموينية ، وذلك لوجود الحقول الغنية وكروم العنب التي تنتج كميات وافرة من العنب ، وهم لا يأكلونها ولا يصنعون منها الخمور لمنعهم من ذلك ، لكنهم يصنعون كميات كبيرة من الزبيب ، وترسل إلى أماكن عديدة وتباع بأسعار رخيصة ، وتصنع منها عصائر لذيذة الطعم بعد عصرها ، مثل الطريقة

التي يستخرج بها زيت الزيتون من حبات الزيتون ، وتغلى حبات العنب في أوعية نحاسية ضخمة صنعت خصيصاً لهذا الغرض ، وتؤخذ لتباع في أماكن عديدة ، وبأسعار لعبوة حوالي ثلاثة ونصف "مَنْ" تباع بحوالي اثنين ونصف "شاين" (وتعادل اثنين "توستوس") .

بقينا هنا من يوم الجمعة الذي وصلنا فيه ، حتى صباح الإثنين الموافق السادس والعشرين من الشهر الذي غادرنا فيه ؛ وذلك لأن الخيول التي عادت بعد أن استخدمها الرسل في رحلتهم كانت متعبة ؛ ولأن رئيس سائقي البغال لجأ إلى منزله الذي في المدينة (Biriajuc) وبقي فيه لعدة أيام .

سافرنا عبر تلك الحقول التي كانت مليئة بكروم العنب ، التي ليس لها سياج أو قنوات (لأنها خلال موسم الحصاد ، يمكن لكل من يمر مَنْ هناك الدخول ، والأكل وأخذ ما يحتاجه دون أن يعترضه أحد) ، صلنا بعد ظهر اليوم إلى "خان" يسمى Sajur ، أفضل فندق ، وأكثرها فخامة رأيته خلال كل تلك الرحلة .

هو بناء شيد وقسم إلى ثلاثة أجزاء تستوعب عدداً كبيراً من الساكنين ، وقد تم بناؤه من قبل مسلم غني ، وكان المبنى في السابق صغير الحجم ، وقد مرّ ذلك المسلم في ليلة عاصفة وماطرة مع أحد أبنائه في ذلك الطريق ، وعندما أرادوا حط رحالهم ، هناك لم يتمكنوا من ذلك

لأن مسافراً آخر كان قد حط رحاله مع دابته ومتاعه ، ولم يكن هناك أي مكان شاغر يسعهم جميعاً ، فأخرجوه من المكان ، واحتموا هم داخل "الخان" .

قضى المسلم البائس تلك الليلة في البرد القارس والمطر ، يشكو ، ويتألم ، في اليوم التالي واصلوا طريقهم ، بعد أيام قليلة سقط ابن الرجل المسلم مريضاً ، وأدى ذلك لوفاته ، عندما كان الابن على شفا الموت طلب من والده ألا يفعل أي شيء لروحه ، سوى أن يبني "خاناً" في المكان الذي رموا فيه المسافر في الخارج ، قد فعل الأب ما طلب منه .

من المؤكد أنه أنفق أكثر من ألفي "كروزادوس" ؛ لأنه شيّد تماماً من الحجر المنحوت ، والمبنى ضخم ، وبنيّ بطريقة ممتازة ، ولا شك أنه كلفه مبلغاً كبيراً من المال .

غادرنا هذا المكان في اليوم التالي قبل ساعة من طلوع الفجر ، وسافرنا عبر نفس الحقول الخصبة المزروعة بكل أنواع الذرة والغلال ، وقد شاهدت العديد من الرجال يحرثون الأرض بالثيران مع محراثين ، وذلك لجودة الأرض ، ورخوتها ، وخصوبتها .

مررنا عبر أماكن كثيرة العدد يسكنها أولئك التركمان الذين يعيشون على ما تنتجه تلك الحقول من محاصيل ، صلنا بعد الظهر إلى بلدة تسمى بالعربية "بابو" ، والتي تعني "البوابة" ؛ لأنها تشبه بوابة تقود إلى حلب ، وتقع بالقرب منها من ناحية الشمال من الطريق ، يعيش بها قرابة الخمسمائة أو الستمائة من المواطنين جميعهم مسلمون ، من العرب وتركمان ، وبها الكثير من المؤن والموارد ، وليس لها سور وتتألف من منازل شيّدت من القصب والطين مثل المنازل الأخرى .

في اليوم التالي الأربعاء ، الموافق الرابع عشر من شهر يناير ، وقبل ساعتين من طلوع الفجر ، انطلقنا مرة أخرى (في كل تلك الأيام كنا

نتجه نحو الغرب) ... ، كان الطريق حجرياً ، عند منتصف النهار تقريباً ، وصلنا إلى المدينة القديمة وذات الشهرة ، حلب ، قضينا سبعة وأربعين يوماً من هذه الرحلة ، وفيها العديد من أيام الانتظار والتأخير والمعوقات التي عانينا منها ، كما ذكرت في السابق لم تكن المسافة بأكثر من سبعين أو ثمانين فرسخاً ، وتقطع في العادة ليس بأكثر من ثلاثين يوماً .

حلب مدينة ضخمة وغنية ، وذات شهرة واسعة في تلك الأنحاء كعاصمة للمملكة ، وتقع في الجانب الشرقي ، يحيط بها سور ضعيف ، وقد يكون بها حوالي العشرة أو الاثني عشر آلاف مواطن من المسلمين ، والمسيحيين ، ويمكن القول إنهم من أرمن وإغريق ، و"نسطوريين" ، و"يعقوبيين" ، والذين يسمون أنفسهم "سوريين" ، ومارونيين ، وهم الأقرب لكنيستنا ، "قبط" وXemsi وهم أقوام تعبد الشمس .

لذلك يحملون هذا الاسم ؛ لأن هذا الاسم Xems في اللغة العربية يعني "الشمس" ، هناك أيضاً "جورجيون" مثل "الإغريق" ، وهم جميعاً يختلفون بطريقة ما بخصوص إيمانهم وطريقة احتفالاتهم .

هناك مسلمون و"أتراك" ، و"تركمان" كلهم من البيض ، وجميعهم يتحدثون العربية ، وأيضا العديد من اليهود الذين ولدوا هنا في حلب .

يوجد أيضاً قلة من الإسبان و"البرتغاليين" الذين هربوا من أوروبا ، العديد من التجار من أهل "البندقية" ، وقلة من الفرنسيين من أصحاب الشهرة والثروة ؛ بسبب التجارة الضخمة التي في البلاد مع العديد من الأماكن التي تورد منها كميات ضخمة الحرير ، والبهارات ، والتوابل ، والمجوهرات ، وملابس من وبر الجمال والكثير من أنواع

البضائع ، والسلع التي تأتي من "البندقية" وفرنسا ، يعود الناس إلى هنا مع الكثير من الأقمشة والساتان والدمشقي ، والمخمل ، وكل أنواع السلع الأخرى المتوفرة ، ويستخدم كل شيء ، ويوزع في كل مكان .

هناك قنصل يحكم ، ويحافظ على السلام والأمن والعدل وضع هنا من قبل سلطات "البندقية" ، وبموافقة عظيم الترك ؛ للاهتمام الكبير والدخل المالي الذي سيتحصل عليه منها ، أي من الرسوم التي ستدفع عنها ، وفي المصروفات الأخرى في المنطقة ويصل هذا إلى مائتي ألف "كروزادوس" في السنة .

بالرغم من هذا ليسوا في حل من تحرش الأتراك بهم ، والكثير من الظلم الذين يوقعونه بهم ؛ لأن تلك عادة الأتراك مع كل البشر في العالم ، فهم أسوأ الناس وأكثرهم في التصرف بعدم الكياسة والأدب ، ويختلقون آلاف المشاكل حتى يتحصلوا على الكثير من الأموال (تلك هي العقوبة التي يفرضونها على كل جريمة ولا تمارس العدالة إلا على أولئك المعدمين) .

قد استحمل "الفينيقيون" كل ذلك ؛ لأنهم جشعون بطبعهم ، هم من أكثر الأقوام طمعاً في الأعمال التجارية في العالم من الدوق وحتى أصغر جندي مشاه متواضع ، كلهم يتعاملون بهذا الطمع ، ويعيشون عليه ، كل الأغنياء والنبلاء لهم وكلاء في حلب ، والإسكندرية ، ودمشق ، والقسطنطينية ، و"قبرص" ، وكل مكان آخر تمارس فيه التجارة .

في المدينة الكثير من المحلات التجارية الضخمة التي تعج بكل

الأشياء الضرورية ، والعديد من الشوارع المليئة بالمحلات ، والحرفيين ، وكل البضائع التي لا تحصى .

بها أيضا الكثير من الفنادق ، والخانات ، والحمامات التي شيدت من الحجر المنحوت ، مبان ضخمة ورائعة مثل كل المباني التي بالمدينة ، مع مساجد غاية في الفخامة ، وللمدينة منطقة مذهلة حولها ، خصبة وتوفر محاصيل كثيرة من القمح والشعير ، وحيوانات اللحوم ، وأنواع جيدة من الزيتون ، والعنب ، وكل أنواع الفاكهة مثل التي عندنا في "البرتغال" بكميات مهولة .

كل هذا في الجانب الغربي ، أما في الجانب الشرقي ، وعلى مسافة مسيرة نصف يوم في البلاد لا يوجد سوى قرى ، ومزارعين يفلحون الأرض ، وخلف كل ذلك الصحراء التي تمر عبرها القوافل ذهاباً وإياباً في تجارتها مع البصرة .

يمر وسط المدينة خور كبير من المياه ، يوفر لها كل احتياجاتها من المياه .

يوجد باشا بصورة دائمة مع قوة جيدة من الخيالة وفي حصن متين ، في قلب المدينة وجد ضابط آخر مع ثلاثمائة من "الإنكشارية" حاملي البنادق الذين لا يعترفون بسلطة الباشا ، وهذه من عادة عظيم الترك في كل قلاعه ؛ حتى يضمن ولاءهم .

يقع هذا الحصن في جانب من المدينة على هضبة عالية رائعة ، يحيط به خندق مائي في شكل دائري شديد الانحدار ، مما يجعل من الصعب الصعود إليه من أي جانب ، وله أيضاً الواح حجريه ضخمة حوله من الأسفل ، وحتى منتصفه عند أعلى الهضبة مما يجعله شديد الانحدار

وزلقاً ، وبالقرب من البوابة التي يدخل منها المرء يوجد برج متين ، وضخم من كلا الجانبين ، مجهز بالكثير من التعزيزات ، والمدفعية من كل نوع ، وتقع تلك الأبراج في طرف الخندق المائي على مستوى الشارع ، من هناك إلى الحصن يصعد المرء على طريق ضيق فوق أقواس متينة البناء من نفس الحجر المنحوت إلى بوابة أخرى ، وفيهما (الطريق والبوابة) يقف "الإنكشارية" دائماً ويقومون بالحراسة .

عند القمة التي يدخل منها الشخص إلى الحصن توجد بوابة أخرى متينة ، ويحيط بها بالحصن أيضاً سور من الحجر المربع القوي ، ومحصن بأبراج عريضة من نفس مادة البناء .

في وسط الهضبة ، توجد أربعة أبراج قوية ومسلحة تماماً كل على مسافة من الأخرى بقدر مرة ونصف من عرضه ، وتحيط به تماماً للدفاع عنه .

كل سكان المدينة أو معظمهم يتكلمون اللغة العربية ، ويلبسون ملابس تركية وثياباً تصل حتى القدمين ليس لها "ياقات" ، ولكن لهم أيضا ألبسة تشبه تلك التي يلبسها الكهنة ، إلا أنها أقل عرضاً لكن لها أكمام ، آخرون يلبسون ما يسمى gabados ، وسترات مفتوحة من الأمام لها أزرار ، وتصل أيضاً حتى القدمين وعمائم على رؤوسهم .

الاستثناء عند الجندرمة "الإنكشارية" الذين حتى يتم التعرف عليهم ، يلبسون على رؤوسهم شيئاً مصنوعاً من الفضة مع شريط عريض مزركش "بالتركواز" ، وقد خيطت على غطاء رأس بقماش أبيض دائري بعرض اليد مطوي عند الخلف .

هناك الـ Chauses وهم من ينفذ العدالة ، ويتم اختيارهم من الجندرمة ، ويلبسون عمائم بعضها عليها قلنسوه كتلك التي يلبسها "شاه طهماسب" ، والتي تبرز من وسط العمامة وتصنع من المخمل ، وجميعهم من البيض وفي منتهى الأناقة .

تتصف النساء بالشجاعة والجمال ، لكنهن داخل البيوت ولا يمكن مشاهدتهن ، النساء الحاذقات اللائي يقضين حوائجهن بالخارج في الأسواق كبار في السن ، ويلبسن ملابس تغطي كل أجسادهن من الرأس وحتى القدم ، وعباءات وعلى الرأس غطاء أبيض ، وتغطي الوجوه بقناع أسود من قماش ناعم خفيف يستطعن الرؤية من خلفه مع أحذية وجوارب طويلة من الكتان ، وأخريات يلبسن أحذية تصنع من جلود ذات ألوان أو أحذية مثل أحذية الرجال ، لهن القليل من العبيد السود من ساحل "ماليندي" أو "الحبشة" .

المدخل عبر بوابة للمدينة في الجانب الشمالي يسمى بالتركية Capalug Capi وتعني "البوابة المظلمة (لأنه من البوابة الأولى إلى الثانية في الطريق المؤدي للمدينة امتداد قصير مغطى بقنطره تجعله يبدو مظلماً حتى في النهار) ، وهنا يوجد قبر عليه مزار يقدسه المسيحيون ، والمسلمون ويقول البعض إنه للقديس "جورج" ، لكن بناءً على أقوال المقيمين منذ زمن بعيد فإنه لمسلم فارسي .

والذي تأتي قصته تالياً في الماضي وخلال الحرب التي جرت بين ملوك فارس وملوك "أرمينيا" ، تم أسر زوجة أحد الكهان الأرمن ، وأخذت تحت أسر مسلم فارسي قريب لمحمد وكان اسمه Seit Nasemi (سيد ناظمي)

(وكلمة سيد تعني قريباً لمحمد وكلهم ينادون بـ : "سيد" ، الفرس منهم له مشعر طويل بضفائر ، أما الأتراك ، فيلبسون شريطاً أخضر على عمائمهم ، وآخرون يلبسون عمامة خضراء بالكامل ، وكلا المجموعتين تسميان "سيد") .

عاش في قرية بالقرب من تبريز وكان عدواً لدوداً للمسيحيين .

كعادة أولئك الكهان الأرمن عندما تتوفى نساؤهم أن يصبح راهباً ، حتى يصير كذلك قد لا يدخل الكنائس ولا يقوم بالقداس ، لم يقل هذا الرجل أنه راهب ، ولم يصبح واحداً منهم ؛ لأنه لم يكن يعلم إن كانت زوجته على قيد الحياة أو توفيت ، ولذلك قرر الذهاب ، والبحث عنها ، وخلال ذلك علم أنها تحت سيطرة "سيد نظمي" .

ذهب إليه هناك ، ولم يجرؤ على الحديث معه ؛ بسبب العداء الذي يكنه ذلك المسلم للمسيحيين ، خشية أن يقتله ، قف بجوار نافورة خارج القرية آملاً في أن تخرج زوجته يوماً ما لإحضار الماء ، فيقابلها ، ويتحدث معها ، وحدث ذلك ، أخبرته أنها لن تترك "سيد نظمي" ولن تخبره من هو زوجها ؛ لأنه لو علم بذلك فسيقتله ، طلبت منه الذهاب إلى بابه في زي رجل فقير يرجو أن يقوم بخدمته .

وقام الكاهن بما قالته زوجته ، جده "سيد نظمي" جالساً يوماً أمام الباب ، وسأله عمن يكون فأخبره أنه رجل فقير يود أن يكون في خدمته ، وطاعته فيما يأمر ، قبل المسلم وجوده داخل منزله ، وقام بخدمته في كل أوامره ، وأخيرا كلفه برعي الأغنام في الحقل .

كان هذا الكاهن يصحو في الصباح الباكر للعبادة والصلاة ، يساعده في ذلك راهب صغير كان معه ، كانت كل الحيوانات تأتي ، وتستمع

له ، وترفع أرجلها وكأنها تفهم ، كان يؤتى له بالطعام من المنزل بواسطة زوجته التي تبقى معه دائماً لفترات طويلة تصلي معه .

في يوم من الأيام (كانت قد أمرت بالحضور بسرعة) كانت تريد أن تواصل صلاتها وطلبت من زوجها ، وهي لا تعلم إن كانت لا حية ترزق ، ومتوفاة بالنسبة له أن يقدم لها القربان المقدس ، قام الكاهن هناك ، وفي الحقل بصنع كمية من العجين (كما هي عادتهم) ، وقام بخبزها وكرسها لقربان قدم لها قطعة صغيرة منها لتأكلها وأخبرها بأن تأخذ ما بقي منها معها ، في كل يوم تصومه تأكل منها .

عندما كانت تأكل قطعة منها بعد صوم أحد الأيام ، احتفظت بالجزء الباقي في المنزل مخبأ حتى لا يجده أحد ، استيقظ "سيد نظمي" في تلك الليلة ، ورأى المنزل مليئاً بالشموع والمصابيح ، وفم المرأة مضاءً بالنور أيضاً ، فزع جداً عند رؤية ذلك ، وقرر التجسس عليها ليرى سبب كل هذا ، باكراً عند صباح اليوم التالي عندما أخذت الطعام لزوجها ، تبعها ليرى سبب كل هذا ذهب وراءها خفية ، عندما وصل إلى هناك رأى الراعي راكعاً ، يصلي والمرأة خلفه تقوم بنفس العمل ، وكل الأغنام والخراف حولهما رافعة أرجلها .

اندهش وذهل كثيراً ؛ لأنه كان يعتبر أن أولئك الناس هم متوحشون وبهائم ، استمر يراقب ذلك لثلاثة أيام وهما يقومان بذلك ، واستنتج أن أولئك القوم هم مؤمنون حقيقيون ، وأن كل ما عدا ذلك هو زور وبهتان .

عاد إلى منزله وتم استدعاؤهما وسألهما من يكونا؟ وبأي دين يؤمنان؟ ووعدهم إن صدقاه القول أن يلبي كل طلباتهما ورغباتهما .

أخبر الكاهن بكل أمر وأنه أصلا كان كاهناً والمرأة زوجته ، وأنه من أجلها أصبح عبداً له خشية أن يخبره بالحقيقة ، وأنه مسيحي من أخوية "القديس جريجوري" المبجل ، كما أخبره عن حياة أتباع هذا القديس ، وكيف أن سيدنا المسيح جاء لإنقاذ الأرواح ، والمعجزات الكثيرة التي خصص بها ، وصبره على الموت ، وكل ما كان يقوم به كان من إفضاله ، وبركاته التي شاهدها في الحقل ، كما أطلعه على خبر سيدتنا العذراء .

كتب الرجل المسلم كل ذلك ، وبعد أن عمد وأصبح مسيحياً حسب طلبه ، قدم للكاهن وزوجته الكثير من الأغنام والشياه ، وأخبر "سيد نظمي" أنه يريد السفر بعيداً ؛ لأنه أصبح الآن خادماً لسيدنا المسيح ، وأن عليه أن يجوب العالم ويعظ عن حياته وعطفه .

أخبره الكاهن أنه لن يذهب إلى حلب ؛ لأن الناس فيها هم سيئون ، ولن يترددوا في أذيته ، وعاد الكاهن إلى وطنه مع زوجته .

غادر "سيد نظمي" إلى العديد من المدن والبلدات والأماكن يعظ الناس دائماً عن دين المسيح ومعجزاته ، احترمه وقدره الجميع لكلماته الرائعة وصلواته .

بعد أن استمر في ذلك لمدة طويلة استغرب كيف لا يذهب ، ويعظ الناس في حلب ؛ لأنه في كلا الحالتين ، ومهما كلفه الأمر كان عليه القيام بذلك ، فذهب مع زميل آخر يسمى Zahit (زاهد) كان قد حوله إلى مسيحي .

ذهب وقص الكثير عن معجزات هذا الدين المقدس إلا أن المسلمين

غضبوا لذلك ، وألقوا القبض على رفيقه ، وقطعوا أصبعه الصغير ، بدأ بالصراخ قائلاً إنه ليس "سيد نظمي" إنما هو الشخص الآخر ، أطلقوا سراحه ، وقبضوا على "نظمي" ، وأخذوه عبر البلاد ، وقطعوا رأسه لأربعة أجزاء ، وبدأوا سلخه إلا أنه ظل ينطق الكلمات الطيبة عن المسيح ، إيمانه ومعجزاته وكل صفات "القديسيين" .

العديد من المسلمين كانوا حاضرين من المخلصين له وكتبوا كل ما قاله ، وكان يمدح المسيح أثناء سلخه ، وتوبيخه ، وقال تلك الكلمات بالتركية :

"Curt, idum oldom guzi, men, iseia tangri, dierem guere, quise, tapeleng, meni men ambri, jani, ne illdrem, tagi, tagti, mulqui, ambri jani, ne illerem, gonglum, isa, diller, nesim"

تعني بالعربية :

"كنت ذئباً في بادئ الأمر إلا أنني صرت حملاً الآن ، وسأقول دائماً أن المسيح هو الرب ، إن أردتم رجمي بالحجارة ، فافعلوا ذلك في اللحظة المناسبة ؛ لأنني لا أريد منزلاً ولا biretta ولا كنزاً ولا صحة ولا حياة ، ورغبتي هي حب المسيح . "

قال أيضا بالتركية ما معناه :

"لأنهم قطعوا إصبع زاهد الصغير ، فقد عاد وهرب من العرب إليَّ مسكيناً ، بالرغم من أنني سلخت بعنف إلا أنني لم أشعر بذلك" ... ، قال هذا وأشياء كثيرة مدح بها سيدنا المسيح عيسى والعذراء المباركة ، وكان المسلمون من حولنا يكتبون كل ذلك في كتبهم التي يحتفظون بها حتى الآن ، ويجلونها كثيراً (مخبأة ؛ لأن عظيم الترك منع ذلك بسبب بعض

المسيحيين الذين تحولوا لهذه الديانة بسببها ومن يقبض عليه ، وهي معه يعاقب بشدة) ، لم يتوقفوا عن سلخه حتى وصلوا إلى السرة ، وعند تلك النقطة كان قد توفي وما زال اسم المسيح في فمه .

عند سلخه تماماً ، أخذوه إلى البوابة المظلمة حيث يوجد خندق صغير ، دفنوه فيه ، ومعه جلده الذي سلخوه منه ، عندما عادوا في الصباح لم يجدوا أثراً للقبر ، وسألوا في كل البوابات التي بالمدينة ، وأخبرهم الحراس في كل تلك البوابات أنهم رأوه يمشي في الصباح الباكر ، وهو يحمل جلده على ظهره ، عندما علم المسلمون بذلك بنوا ضريحاً جميلاً في ذلك المكان الذي يجلونه كثيراً الآن ، ويحترمونه ويشعلون الشموع (كما يفعل المسيحيون) ، اعترفوا بأنه كان قديساً ، أنقذه إيمانه بالمسيح .

هم لا ينكرون المسيح ، ولا يعترفون أيضاً أنه لم يكن نبياً مقدساً مثل محمد (صلى الله عليه وسلم) ، لكنهم يؤمنون أنه ليس ابن الرب ، إن تحدّث أي مسلم أو يهودي بسوء عن المسيح أو تعاليمه ، فإنه يقدم للعدالة ، ويعاقب بقسوة ، أكد لي أحد الأرمن أنه رأى يهودياً ألقي القبض عليه في القسطنطينية ، وكان سيحرق ؛ لأنه تحدث بسوء ، وأساء وقذف سيدنا عيسى المسيح بالكذب والتجديف .

تقع مدينة حلب على خط طول ستة وثلاثين ونصف ، ولها طقس معتدل ، معظم الناس يعتبرونها ، ويحسبونها جزءاً من "سوريا" لكن بعض الأرمن ، وكبار السن يقولون إنها ما زالت جزءاً من "أرمينيا"

السفلى ، وتتقاطع عند مدينتين على مسيرة يومين في اتجاه طرابلس تسميان حماة و"حمص" .

عندما وصلنا إلى هناك كان الوباء قد تلاشى منذ شهرين وفي بعض الأماكن الأخرى انتهى بعد شهرين أو ثلاثة ، كان رهيباً ومنتشراً بحيث قضى فيه أكثر من مائة ألف ، لم يتم عد الذين توفوا في القسطنطينية ، وهناك الكثيرين عبر تركيا والمناطق الخاضعة لعظيم الترك ، إن لم يحدث ذلك كل سنتين أو ثلاثة كما يحصل دائماً واعتماداً على شدته ، فإن مشاكل كثيرة كانت ستحدث للعالم المسيحي .

تم التأكيد لي أنه في القاهرة الكبرى كان هناك يوم توفي فيه ستون ألفاً (بسبب الوباء) ، وقد أخبر أحد الأتراك الباشا بذلك وتخوف كثيراً ، وقال له التركي لا تنزعج يا سيدي ، فإن للمدينة ستون ألف شارع ، فإن توفي في كل منها أحد الأشخاص ، فهذا ليس بالأمر الهام ؛ لأن الكثيرين يولدون غيرهم ، تحقق الباشا من ذلك ووجد أن الأمر كان صحيحاً ، اطلعت على ذلك بيقين شديد من أناس كانوا هناك ، مما اضطرني لتصديقه والكتابة عنه .

بما أن القاهرة مدينة كبيرة ، فإن للأتراك قول مفاده : (أنه لو كل الناس في العالم توفوا ، فيمكن للقاهرة أن تملأه مرة أخرى ، لكن إن توفى كل سكان القاهرة فإن كل العالم لن يملأها) .

الأخبار التي وجدتها هنا كانت عزاءً لي إلى حد ما من المصاعب والمضايقات التي سببها لي أولئك خلال هذه الرحلة ، شعرت بنفس الشعور بخصوص أسطول بعث به عظيم الترك إلى مالطا للاستيلاء

عليها ، وكان يتكون من مائة وسبع وتسعين سفينة ومائة من "الغليون" ، وعشرة قوارب كبيرة التي حملت الناس والذخيرة ، وعشرة مراكب تشبه السفينة الشراعية التجارية .

وتحمل الطعام والمؤن ، وثمانية زوارق تشبه السفن الكبيرة ذات الثلاثة صواري ، وتلك حملت العمال والفؤوس والمعاول وكل الضروريات الأخرى وأربعين من المراكب الشراعية لخدمة الأسطول عليها تسعون ألف رجل ، أي القول إن هناك أربعين ألف من القوات المقاتلة يمكن إنزالها على اليابسة وعشرين ألفاً لحراسة الأسطول ، والبقية من البحارة والعمال .

عادت جميعها منهزمة ، واثني عشر قائداً قتلى ، الكبار منهم بما فيهم القائد "Droguto Rex" الذي لامه الأتراك كثيراً ؛ لأنه كان قائداً عظيماً ، قتل ثلاثين ألف رجل بالإضافة له ، ومن الثمانية ألف إنكشاري الذين كانوا مع الأسطول (أولئك كانوا أهم الأشخاص عنده) ، عاد منهم فقط خمسمائة ، بداية الحرب ونهاية أحداثها يمكن لمن يريد معرفتها ، وقراءتها الرجوع إلى كتاب صغير طبع عن هذه الأحداث والموضوع .

خارج المدينة ولمسافة خمسة فراسخ باتجاه الغرب ، توجد "بئر الأسود" حيث كان النبي "دانيال" ، في اليوم التالي لوصولي إلى مدينة حلب ذهبت مع الأرمني للقنصل ؛ لأبلغه بموت الراهبة ، وأطلعه على محتوى الوصية ، حتى وبالرغم من صلواته ، فإن كبير كهنة القدس لن يكون هناك ، إلا أن علينا الذهاب إلى هناك وتقديمها له أو استدعاءه

وتسلميها له كأمين عليها ، ووصي حالما يغادر "البندقية" (لأنه لم يكن في القدس لكنه ذهب إلى "البندقية") .

أطلعنا القنصل على الصعوبات التي واجهناها لنأتي له بالرغم من هذا ، والقوة التي استخدمناها لإحضاره ، وطلبنا منه عدم (Galeaco) السماح له بالهرب إلى مكان ما ، والفرار بهذه المقتنيات ، كان ذلك مقصده دائماً ، كان متمرساً في اللغة العربية ، وعلى دراية جيدة بتلك الأقاليم ؛ لأنه كان قد تربى منذ طفولته في تلك البلاد وعاش دائماً هناك .

أرسل القنصل في طلبه ، بناءً على طلبنا أخذ منه كل شيء ، الأمر الذي كان ضد رغبته ، حاول الدفاع عن نفسه بالقول إن الوصية لم تقل إن كل شيء قد وضع تحت تصرفه ، وبما أنه كان أحدنا ، وكنا نحن الاثنين أدرك القنصل خداعه ، وأصر وأمره بإخراجها في الحال وإلا تعرض للعقوبة ، رأى أنه مجبر على القيام بذلك وفعلاً قدمها بروح غاضبة ، وبأسى شديد .

حقيبة المجوهرات والأمتعة من الملابس والأغراض الأخرى تم فتحها جميعاً في حضور الأشخاص التالين : القنصل وقاضي القضاة الذي كتب كل شيء بنداً بنداً ، الكفلاء "Mount Zoin" ، راهب من القدس كان الراهب الذي يعترف عنده القنصل ، وأمام تجار مسيحيين عديدين آخرين ، كلهم وقعوا بمن فيهم القنصل الذي جعل من نفسه وصياً على كل شيء ، وعد بأن يوقع بناءً على طلبي أسفل صحيفة الجرد ، وألا يسلم أي شيء لأي أحد باستثناء ما هو تحت رعاية القس الوصي عندما يعود من "البندقية" ، قد كتب له في طرابلس ، وجزيرة

"قبرص" ، مقدماً له بياناً مفصلاً عن كل شيء ، وطالباً منه أن يغادر طريق القدس وأن يأتي ليتولى أمر المقتنيات .

بقيت الأحجار الكريمة واللؤلؤ في حالة جيدة طبقاً لما هو مفصل في الوصية ، فقد فقط صليب مزخرف بالذهب ، والذي قد تكون رئيسة الراهبات قد ذكرته بنوع من الخطأ ، لم يكن من الممكن أن يأخذه "الفينيقي" ؛ لأنه أعاد لي الحقيبة مختومة مثلما سلمتها له ، ضع كل شيء بعد ذلك في جوال صغير ، وربط بطريقة جيدة ووضع كل من الأوصياء الثلاثة الراهب ، والقنصل ، وشخصي أختامهم عليه ، وبقي في حوزة القنصل في صندوق ، له مفتاحان ، ومعه بقية الملابس ، احتفظ الأوصياء بأحد المفاتيح .

سلموني نسخة من بيان بكل تلك الإجراءات ، وإفادة بأن القنصل تحت يده كل المقتنيات ، تم تفصيلها من قبل رئيس القضاة ، وعليها ختم St . Mark ؛ لأخذه معي حفظاً لكرامتي ، وحتى عندما يُطلب مني إعطاء بيان بتلك المقتنيات ، رسالة أيضا سلمها لي القنصل لسيدنا الملك ، وهذا أدى لتأخيري مدة خمسة وعشرين يوماً ، وكان هذا سبب عدم وصولي إلى "البرتغال" قبل السفينة .

عانيت الكثير من المصاعب والمضايقات كما سنشاهد ؛ لأن الأمر لو لم يكن كذلك لكنت غادرت مع القافلة إلى طرابلس بعد يومين من وصولي ، وأبحرت في سفينة تجارية إلى مرسيليا ، لذلك واجهت رحلة شاقة ، كما سأوضح فيما بعد .

لم يكن لي ما أقوم به هناك ، ولم أكن مضطراً للبقاء لأي سبب آخر ،

كنت مدركاً لكل التحرشات والمعاكسات وما سببته لي ، ومن حقيقة أن هذا قد يساهم في عدم وصولي قبل السفينة .

اجتهدت في أن تصل أخباري ، إن لم أصل أنا شخصياً ، ورتبت مع القنصل بعد يومين من وصولي أن يكتب في نهاية رسالة قصيرة ، كان سيرسلها إلى القائد الفارس في القسطنطينية أن يضيف سطرين يشير فيهما إلى وصولي إلى هناك ، وما صادفته والسبب في تأخر وصولي (في هذا الوقت وبسبب الاضطراب الحادث ؛ بسبب الحرب لم يكن من الممكن ولم يكن سهلاً أن تمر الرسائل لأن الطرق تفحص بعناية) .

طلبت منه أن يكتب لقنصلنا في "البندقية" حتى يكتب للسفير في "روما" يطلب منه فيه إطلاع الملك ، تم ذلك الأمر ، ووصلت أخبار كل هذه الأحداث قبل أسبوع أو اثنين من وصول السفينة .

الرسائل التي كنت أحملها ظلت معي ؛ لأنني لم أرغب في تلك التي معي ، والتي كتبتها بيدي أن تؤخذ مني ، لذلك مر الوقت ؛ بسبب ذلك ، وعندما أصبحت مستعداً للرحلة ، لم أجرؤ على الذهاب عبر القسطنطينية ؛ بسبب خشية أن يتم التعرف عليّ ، حتى الفينيقيين دفنوا كل ممتلكاتهم ؛ خوفاً من أن ينهبها ويسلبها منهم الأتراك ، كان الأتراك بائسين نتيجة لهزيمتهم في مالطا .

ذهبت إلى طرابلس لمغادرة السفينة هناك ؛ وكان ذلك سبب تأخيري .

في الوقت الذي كنت فيه في حلب ، جعلت من التركي الذي كان شاهداً على وصية رفيقي "جواو جورجي" كما ذكرت سابقاً أن يسلم كل مقتنياتي للقنصل ، (وصل في قافلة أخرى بعد خمسة عشر يوماً

من وصولنا) ، كان هذا طبقاً للوصية التي قام بعملها ، قام بتسليمها ، وقد قدم له ما أراد مع نفقات أخرى كثيرة ، رفض إعطاء نسخة من الوصية التي أعلن فيها كل قيمة المقتنيات ، قال إنه فقدها في الطريق وذلك حتى لا يتم الحصول عليها وتؤخذ منه .

لم يكن القنصل قادراً على إجباره على فعل أي شيء أكثر من ذلك (لأنه أيضاً جازف هناك إذا انكشفت الحقائق) ، لم يكن يرغب في الإساءة إليه ، لكن استخلص منه كل ما يود بكل العطف واللطف ، كان هذا يستحق أكثر من مائتي "كروزادوس" وكلها كانت ستضيع لو لم أكن موجوداً هناك ، سلمني القنصل إفادة أخرى أنها كانت في حوزته ليبعث بها "جواو جورجي" إلى ورثته .

قبل ثلاثة أو أربعة أيام من مغادرتي إلى طرابلس وصل شخص يهودي يدعى "ديفيد" "David" ، الحاكم على رسائلي ، بعثه بأخرى لطرفي ، قال فيها أنه يبعث بهذا اليهودي كمرشد لي ؛ لأنه خبير باللغات والطرق في تلك الأنحاء ، أراد مني أن أغادر القوافل ، وأذهب برفقته ، قد أمره وأخذ منه وعداً أن يأخذني حتى "البندقية" في أربعة شهور ، ليقوم بذلك سلمه مائة "كروزادوس" ، وحجراً من أحشاء حيوان كان يساوي خمسين أخرى ، ووعده أن يلبي له الكثير من المطالب ، ويجود عليه بالمكرمات .

هذا اليهودي (ونحن نعرف كيف هم) بالرغم من معرفته كيف كان الأمر مهماً بالنسبة لي أن أصل قبل الحاكم ، وبمقدار الثقة التي وضعت فيه ، كان مهتماً بوجه خاص لمصلحة تخصه عن أهمية إسراعه ، وشخصي

والباقين ؛ لأن أولئك القوم لا يصرحون أو يقولون الحقيقة ، ولا توجد صداقة تمتد مع شخص بعد أن يحصلوا منه على مبتغاهم .

لقد أخذ المائة "كروزادوس" من الحاكم ، واستثمرها في حمولة من الخرز الجميل من بعض نساء سود ، كانوا يأتون بها من البنغال ، ولها قيمة كبيرة من "البندقية" ؛ لأنها كانت تستخدم في التطريز لتزيين الحرير وأشياء أخرى .

سافر كل ذلك الطريق مع القوافل ، ولا شيء يشغل عقله سوى الربح الذي سيجنيه من حبات الخرز تلك ؛ مقللاً من أهمية الشخص الذي بعث به .

قضى خمسة شهور على الطريق ، وعندما وصل حاول تقديم الكثير من الإطراء لي والأعذار ، وأطلعني على الصعاب التي عانى منها ، قائلاً إنه بسبب اللصوص لم يتمكن من الوصول أسرع من ذلك .

لكن بما أنني كنت أعرف الحقيقة ، فقد تغاضيت عن كل ذلك ، لم أرغب في قول أي شيء له ، ولم أوافق حتى لمرافقته لي إلى طرابلس كما أراد هو .

كتبت رسالة لقائد هرمز مع رفيقي الأرمني (الذي كان عائداً إلى هناك) ، وقدمت له تفصيلاً عن ذلك السلوك المشين طالباً منه في حالة وصول ذلك اليهودي إلى هناك (كان ما زال في الطريق) أن يتحقق منه في أمر المال وأن يعاقبه بما يستحق .

أحداث عام ١٥٦٦م

بعث "ماتياس بيكودو فيرتادو" "Mathias Picodo Vertado" رسالة إلى "دوم فيرناندو دي مينيسيس" "D . Ferdinandes de Meneses" ، السفير البرتغالي في (روما) ، القاهرة ، في الثامن عشر من شهر يناير عام ١٥٦٦م ، وكتب تقريراً عن وفاة القبطان "جوفار" (جعفر) ، الذي أبحر من السويس إلى الهند برفقة عشر سفن ، معتزماً القيام بالسلب والنهب في ساحل "ماليندي" والعودة إلى "موزمبيق" : (٢١)

تقرير عن وفاة القبطان "جوفار" (جعفر) ، الذي أبحر من السويس إلى الهند برفقة عشر سفن ، معتزماً القيام بالسلب والنهب في ساحل "ماليندي" والعودة إلى "موزمبيق" .

---

(٢١) رقم الوثيقة والهامش.

سيدي ..

بتاريخ الخامس والعشرين من نوفمبر الماضي كتبت رسالة لسيادتك عبر "ميسينا" "Messina" وكانت الرسالة موجهة إلى "جواو لوميلينو" "Joao Lomelino" ، وتقرّ باستلام اثنتين أخريين كانتا قد أرسلتا على نفس البريد (النسخ طبق الأصل للأولى تسلمتها بواسطته) ، ولم نتسلم أي شيء فيما بعد ، ولم تسنح أي مناسبة بذلك .

قبل عدة أيام جاءت إلى ميناء الإسكندرية سفينة صغيرة من "البندقية" وسفن أخرى من "ميسينا" ، وأفدت بألا رسائل لطرفي ، قد يكون السبب لعدم وجود معلومات عند سيادتك عن مغادرة السفن المذكورة من "البندقية" أو أنك كنت مشغولاً بأعمال أكثر أهمية (حيث أعترف بعدم وجود نقص في تلك المحكمة) .

أجلت سيادتك الكتابة لي وتشريفي برسائلك ، وقد بحثت عن ذرائع لأظلّ في الخليج وأكبت رغبتي في الحصول على رسائلك ، ولم أجد أخرى أحاول إقناع نفسي بها وبضرورة مدى إبداء حبي لخدمتك وتصرفي الودي نحوك (سعادتي الخالصة لك متى ما سمح الوقت بذلك) أعيش في خوف دائم حتى لا يقع أي سوء على شخصك المشهور يحرمني من هذه النعمة .

لكنني أثق في خير الرب ورحمته ، بأن كل شيء سيكون مخالفاً للحب الذي أكنه لك ، ويجعلني فزعاً وخائفاً بأنني قريباً سأتلقى أخباراً تذهب بعيداً بكل المخاوف وتغريني وتلبي حاجتي لها .

إن كانت كل الرسائل التي كتبتها لك منذ الثامن والعشرين من

يناير من السنة الماضية قد وصلت جميعها بين يديك ، فإنني سأكون قانعاً بأنني خدمتك فعلاً في تلك المناطق ، ولبيت رغباتك ، ونلت الرضا فيما أمرتني القيام به في إحدى رسائلك .

آمل فقط أن أكون قد تمكنت من خدمتك في أمر يزيد من سعادتك وقناعتك .

تأكد لي أن كل رسائلي قدمت لك بطريقة جيدة من حيث لم تكن هناك عوائق منعت وصولها لسيادتك .

عند عودتي من مكة المكرمة ، كتبت وأشرت لك عن وفاة القبطان "جوفار" الذي أبحر من السويس إلى الهند مع عشر سفن ، وكيف أن باشا القاهرة بعث بمركب يطلب منها العودة ، في رسائل أخرى أفدتك فيها بأنها يتوقع وصولها قريباً إلى السويس ، وعليه في السادس عشر من الشهر الماضي وصلت كلها إلى هناك باستثناء قلة من الجنود ذهبوا إلى الهند حتى لا يعودوا إلى القاهرة محبطين بعد تبدد آمالهم .

عند سماع وصول السفن إلى السويس ، ذهب الباشا إلى هناك في التاسع عشر من نفس الشهر ، ونزع أسلحتها في الحال ، وأخذ السفن للشاطئ ، ومن ثم عاد بعد أن فحص المكان جيداً .

حاولت تقصي أهداف ذلك القبطان ونواياه ، وأُخبرت أنه بعد مغادرته للموانئ ، أبحر إلى جزيرة سوقطرة ، وبما أنه كان متأخراً ليوم وليلتين وعلى مشارف الوفاة أمر السفن بالتحول نحو عدن حيث توفى بعد ثلاثة أيام .

تم التأكد لي بأن غرضه كان نهب ساحل "مآليندي" ، بل وحتى "موزمبيق" ، وكان يأمل كثيرا في مواجهة أي سفن كانت تقضي الشتاء في ذلك الساحل ، لكن حمداً لله الذي أمر بتدبير كل شيء بنظام وأنقذني من الخوف الذي ألم بي من عدو الصليب .

كان ذلك اللص رجلا غاية في الجرأة ، وله تجارب في تلك الأنحاء ، يعلم جيداً كيف ومتى ينشر شباكه ، لا يوجد شخص آخر مثله نخشاه في تلك البلاد ، رغماً عن إهمال قومنا الذين يجعلون الأغنام تصطاد الذئاب .

المسحيون الهنود الذين كانوا عبيداً للقائد المتوفي لم يصلوا على هنا بعد أن عرضوا في دلالة (كما أعتقد أن ذلك سيتم) فسأحاول أن يتم شراؤهم من قبل مسيحيين ، وإنني أتوسل لسيادتك بألا تنسى حباً في الله ما كتبته أنت في رسالة أخرى تتعلق بهم .

أحد القباطة كان في مكة عنده عبد برتغالي ، ويرغب في بيعه بسعر مائة أشرفي ، أرسلت له برسالة في مناسبات عديدة ليكتب لسيادتك ليطلعك بمن هو لكنه لم يفعل ، يريد أن يعرف من هو الرجل الموجود هنا في القاهرة الذي يتعامل مع مهام سموه ويطلب من كل مسيحي يقابله بأن يخبره بذلك ، ظللت لعشر سنوات الآن وأنا أحمل على أكتافي حماقة وجهل قومنا ، أسأل الرب أن يريحني ويخلصني منها .

منذ أن أبحرت تلك السفن من السويس فإن موانئ شواطئ نهر "ريبيرا" لم تفتح ولم يقم أي رجل بإنجاز أي عمل ، لم تصل أي أخشاب من أي نوع من القسطنطينية ، الأمور هنا ليست فقط بطيئة لكنها في الغالب متوقفة .

حيث أنا الآن مجبر على إطلاع سيادتك بالقليل عن نفسي ، طالباً عفوك أن كانت ملاحظاتي مقلقة وتسبب الضيق ، السبب الذي يدفعني للقيام بذلك ليس عادياً وإنما له أهمية ؛ حيث إن مجرد التّفكير فيه يحزنني ويغرقني من أسى عظيم قد لا يمكن تخيله .

اتّفق معي "دوم ألفارو دي كاسترو" "D . Alvaro de Castro" (من وجهة نظر الأسباب التي قدمتها له) بعدم تركي في هذا المكان ، غادر تلك المحكمة وكتب لي من البندقية بأن هدفه لايزال هو نفسه ، وأنّه كان يتفق مع رغبتي التي أصريت عليها .

خلفته سيادتك في هذا المنصب وفي تلك المحكمة ، وعندما أشرت عليّ فيما بعد ونصحتني بالاستمرار لبضعة أيام في خدمة سموه ، حاثاً لي بأن هذه كانت رغبته وأن سموه سيسعد إن أنا وافقت .

لم يجد أي مشقة في إقناعي ، وعليه أجبت بأنني تحت تصرفه وسأفعل ما يود مني القيام به بما إنني خادمه المخلص ، غير أني أشرت إليه بحاجتي الملحة لمغادرة هذا المكان ، وطلبت منه النظر لأوضاعي بعين العطف .

حدث فيما بعد أن كان ذلك الأسطول في طريقه إلى الهند ، لذلك بدا لي أنهم يحتاجونني هنا حتى أدعم وأؤكد الجهة التي يجب أن يقود لها العمل ، لكن بحمد ونعمة الربّ جرت الأمور بمنتهى الهدوء هنا ، ممّا جعلني استمر بالعمل في هذا المكان ، وكانت تلك مشيئة الربّ وتجربة حظي (كعقاب لي على ذنوبي) الذي صاحبني حتى أقوم بخدمة سموه بطريقة جيدة .

الآن أعتبر ذلك كفضل ومنة عظيمة لن أنساها - هل يبدو هذا جيداً لك - وعند نهاية الصيف اللاحق سمح لي بالمغادرة ، تاركاً ورائي في هذا المنصب شخصاً ما يؤدي هذا العمل ، بكثير من الإخلاص والاهتمام والوفاء ، وقد سعيت لذلك لعدة أيام دون أن أكشف عن السر .

وضح لي أن لسيادتك سبباً جيداً لتدعوني بالمتعب والملحاح .

أعلم تماماً بالشرف الذي سأناله من بقائي في هذا المكان ، والأيام التي يقضيها سيادتك في تلك المحكمة ، طالما أنك نفسك تقول إن ذلك سيسرك وإنك تطلب مساعدتي في خدمة سموه بحق ، لكن ما الذي يمكن لي أن أفعله إن كان أقل الضرر الذي سيصيبني هو أن أجرد من حياتي .

لعلي لن أعيش إن كان العيش في هذه البلاد ليس أمراً خارقاً ، لعلي لا أنجو بينما أقوم بالأعمال ، أواجه المخاطر والأذى وأنا أعلم أن كل ذلك هام في خدمة سموه ، وهو ما يجعلني أبقى هنا ، لكن إن كان ذلك غير متوفر فلماذا أغادر بوجود خطر محدق ، ومخاطر تحوم حول قادم أمين ومفيد؟

أتوسل لسيادتك أن ترسلني بعيداً عن هذا السجن طويل الأمد والشيطاني ، وتفك قيدي من هذا الأسر الشاق ، من هذا الموت وهذا الجحيم .

أعلم جيداً بأنني لا أستحق طلب أشياء وضعت قلبي فيها ، وأنني لم أحقق خدمات تقودك وتحثك لتمنحني وتلبي هذه المطلب ، لكن ما أطلبه

هو فقط حب الرب وأن يمنحك كل الرحمة ، كل آمالي مكرسة في رحمته وعطفه وفي فضائل وجود سيادتك ، لذلك أثق في أن سيادتك ستتصرف بهذه الطريقة لكونك كاهنه وخادمه ولأنك سيدي .

أنتظر وصول رسائل من الحاكم خلال فصل "المونسون" هذا ، وأتساءل إن كان سيبعث لي بالرجال الذين طلبت منه تزويدي بهم للعمل في الملاحة والخدمة ، رغماً عن عدم علمي إن كان هذا سيتمّ بما أنّ الكونت نائب الملك الذي أدعو له بالمجد في العلالي إن كان فعل ذلك في الماضي اليهودي الذي بعثت به إلى هرمز مع رسالة من السفن لم يعد بعد ، لكنه لن يتأخر الآن .

لو يسمح سيادتك بإطلاعي عمّا عليَّ القيام به بخصوص الشخص الذي سأتركه هنا ، وما يمكن أن أعده به نيابة عن سيادتك في كل سنة في مسألة تتعلق بالشروط طالما أنّ الشّخص إن لم يكن برتغالياً فسيود أن يدفع له الكثير .

الصّديق الذي من الاسكندريّة سيذهب بواسطة هذه السفينة إلى البندقيّة ، ويترك هنا أهل بيته ومرافقيه الذين (بناء على الأمر الذي سيقدمه إلى توماس دي سورنوزا) ستوجّه إليهم رسائلي ، وإن بالصّدفة كان عليه الذهاب إلى تلك المحكمة ، فسيكون بالنسبة لي مجاملة كبيرة أن منحته سيادتك صداقتك ، وأبديت له المنة والفضل الذي يستحقه فعلاً .

في بداية الشهر الماضي بعثت من هنا برجل إلى دير "سانت انتوني" "Sant Antoni" حاملاً رسالة إلى الأب المبجل وقليلاً من نبيذ "كانديا"

"Candia" الممتاز الذي يحتاجه ذلك الرجل العجوز ، أخبرته عن الترحيب الجيد الذي كتبت لي به سيادتك ، كان يمكن التحدث به في تلك المحكمة للقادمين الجدد من الرّجال الذين أراد "أوليم" إرسالهم إلى هناك ، وعن التّزوير والخداع الذي أعاق به ذلك المسيحيّ الشّرير هذا العمل المقدّس هنا .

أجابني بأنه اعتبر الموضوع برمّته كذباً وأنه كان يعلم تماماً أنّ نفس هذا "الجوداس يهوذا" (يسميه دائماً كذلك) قد سرق أكثر من ألف (أشرفي) التي أعطاها له المسيحيون كصدقات للأديرة الصغيرة في مصر ، لكنه وضع كل شيء بين يدي الرب طالما أنه لا يستطيع فرض العقوبة على رجال غيّروا من دينهم وإيمانهم عند أول حجة ، وإنه سيأتي إلى هنا قريباً ؛ لينفذ ما أتفق عليه مؤخراً بناء على نصيحتي .

أنا في انتظار ردّ قداسته واثق في كرم الرب بأن كل شيء سيتم بأفضل ما يخدم قداسته .

لا أكتب للقسّ المحترم "إميليو" "Emilio" ، لكن يمكن لفضيلتك أن تشير له بذلك وتقدم له خدماتي .

في الوقت الحاضر لا توجد أخبار جديدة عن الحبشي الذي سأبعث لك به ، لكن يعتقد أن كل شيء هادي وآمن هناك .

لي بعض الأشياء التي أود قولها والتي قد ينتج عنها المزيد من المجد للرب والفائدة لسموه ، لكنني لا أظن أنه من الحكمة أن التزم بكتابة ذلك في رسالة ، آمل أن أقابل سيادتك ، وسأقدم عندها كل ما أعرفه عن تلك الأنحاء ، والتي اقتنع بأنها مفيدة .

تصرفي هو ما كان عليه حتى الآن ، لا توجد أخبار جديدة لأنقلها ، ليحفظك الرب وينعم عليك بالسعادة في خدمته .

من القاهرة

في الثامن عشر من يناير لعام ١٥٦٦م

"ماتياس بيكودو فورتادو"

في الجهة المقابلة :

للسيد صاحب الشهرة "دوم فيرناندو دي مينسيس" "D . Fernando de Meneses"

عضو مجلس الملك ، والمبعوث في لاد (...) سيدنا الملك .

وفي العام نفسه (١٥٦٦م)

نسخة من الفقرة التي كتبت من "فينيزا" "Venizia" ، في العشرين من شهر يوليو عام ١٥٦٦م ، يذكر فيها افتتاح طريق البصرة : (٢٢)

في رسالة وصلت من حلب بتاريخ التاسع والعشرين إبريل ، ذكرت فيها نصائح وإرشادات عن افتتاح طريق البصرة والذي تمر عبره كل توابل هرمز ، وأن هناك وسيطاً للملك في البصرة يقوم ببيعها ، والتي كانت تخص القادة في هرمز والتي ربحوا منها في ثلاث سنوات ما بين ستين إلى سبعين ألف عملة ذهبية (دوكات) .

وصلت إلى حلب كمية كبيرة من القرفة ونزلت إلى ثلاثة أرباع سعرها الذي كانت تستحقه في السابق ، توقعوا وصول ألف وخمسمائة قنطار من التوابل ، منها جوز الطيب ، القرفة ، توابل من قشرة جوز الطيب ، قرنفل وبعض الزنجبيل ، لا يأتي الفلفل عبر هذا الطريق ،

(٢٢) رقم الوثيقة والهامش.

هذا الطريق عبر البصرة هو الطريق الذي كانت في السابق تمر عبره كل المخدرات التي تأتي إلى هنا وهذا شيء مؤكد ، من حلب كانوا يعرفون أين يضعون التوابل على أساس أن الكثير من السفن تبحر من الإسكندرية ، من حيث تأتي تلك التي في "أكيم" .

انخفضت أسعار الفلفل هنا مرة أخرى وأيضاً جوز الطيب بناءً على السفينة كروز القادمة من الإسكندرية والتي كانت في سانت(؟) ويتوقع وصولها خلال ساعات ، ولم يكن متوقعاً وصولها قبل أكتوبر ، والحمولة التي تأتي بها هي كالتالي : ألفان وخمسمائة قنطار من الفلفل ، ألف قنطار من الفلفل أيضاً ، ألف قنطار من الزنجبيل ، مائتا قنطار من جوز الطيب ، خمسة عشر قنطاراً من القرنفل ، ثلاثون قنطاراً من تابل قشرة جوز الطيب ، ثمانون قنطاراً من القرفة ، من ثلاث سفن القادمة من سوريا فقد وضحت بيان حمولتها .

جاءتنا رسائل من الإسكندرية تفيدنا بأن الشحنة قد بيعت بأسعار جيدة ، وذلك نتيجة لإنزالها في "جدة" ، وهناك العديد من السفن من الهند ويقوم العرب البربر بحمايتها هناك حتى يتم تخليصها ، ستعرف التفاصيل عند وصول السفينة ؛ لأن هذه المعلومات عرفناها عن طريق الرسائل التي وصلت من القسطنطينية .

أسعار التوابل في يوم الثاني عشر من أغسطس عام ١٥٦٦م كانت كالتالي :

فلفل – ٣٤ قنطارا	– أسعار مفتوحة
الزنجبيل ٢٦ قنطارا	نفس السعر السابق

ريسيس (؟)	بسعر ١٢ دوكات (عملة ذهبية أوروبية)
جوز الطيب	بسعر ٦ دوكات
القرفة	بسعر ٥ دوكات
القرنفل	بسعر ٥ دوكات
فص الثوم	٦ جرامات
الفلفل الطويل	٣ دوكات
فلفل غينينا	بسعر ٨ دوكات

وفي العام نفسه (١٥٦٦م)

وردت الخطبة الذي ألقاها "أنتاو دي نورنها" "Antao de Noronha" نائب ملك الهند أمام المستشارين والنبلاء والفرسان وكل السكان الآخرين في مدينة "غوا" "Goa" ، بتاريخ عام ١٥٦٦م ، ويذكر أن الأتراك يطبقون على هرمز : (٢٣)

أيها المستشاون والنبلاء والفرسان والجميع الآخرون المحترمون في "غوا" ، أعظم مدينة تدين بالولاء .

الطبيعة الكونية أم كل الأشياء وضعت الرجال تحت التزام بسببها وفي انسجام معها حيث يعرضون أنفسهم لمخاطر جسيمة وسيحققون أشياء تبدو مستحيلة حتى في محاولتها ، لهذا السبب مازلنا نشير إلى الأرض التي ولدنا فيها كأرضنا الأم ؛ لأنها قامت بتربيتنا خير تربية وهي تطلب منا أن نكون أكثر ميلاً لإبداء حبنا الخاص لهذه الأرض .

(٢٣) رقم الوثيقة والهامش.

نحن لا نتلقى الصحة من أمراضنا عبر فعالية هذه الطبية ، لكنني مقتنع تماماً أنها طبيعة البرتغاليين في التعبير عن آرائهم وولائهم في خدمة ملكهم وسيدهم ، كما لوحظ ذلك كدليل قاطع على الأعمال المذهلة التي أدوها بطاقة كبيرة وولاء عظيم في ممالك "البرتغال" وفي الأراضي الإفريقية والهند . انتهى بهم الأمر والاستمتاع بانتصارات مذهلة بقلة قليلة من الناس وبقوة لا تساوي تلك القوة التي لأعدائهم .

بسبب كل هذا ، عندما كان القشتاليون الأسبان يتباحثون وهم مندهشون ؛ بسبب ذلك التباين في القوة والسلطة ، فإن الخسائر التي منوا بها في المعركة الملكية أفاد ملك "كاستيل" أنهم ما لم يكن قد ملأهم الخوف لكان من المستحيل أن يهزموا أباً له عشرة آلاف ابن ، هكذا كان ملك "البرتغال" من أجل البرتغاليين والبرتغاليون من أجل الملك .

من الواضح ، أنه من المناسب جداً لسيدي الملك أن يحمل اسم الأب لرعاياه وذلك بسبب وعبر الكثير من المكرمات والتشريفات التي منحتها لنا بصورة دائمة ، والحب والعطف الذي عاملنا به ، وبسبب ذلك وبسبب الثقة التي أدرك أنه يعاملنا بها ؛ بسبب هذا وبسبب الثقة والتي عرفتها عنه منذ قدومي لهذه البلاد .

وأنا على قناعة تامة بأنكم جميعاً سعداء وأننا فخورون أنه في وقتنا هذا يحدث شيء ما ، وأن خدمات جليلة وعظيمة تؤدي للرب لجلالة الملك ، يمكنكم أن تبدو حبكم وولاءكم إلى حيث تأخذكم وتدفعكم فطرتكم وطبيعتكم التي تدينون لها بالكثير .

إذا كان هناك العديد من المآثر والأعمال الفذة ذات النتائج العظيمة

قد أنجزت في الهند ، فلا يمكن مقارنتها مع هذه في عظمة تلك المغامرة والأفراد المشاركين فيها ، أدعو ربنا أن يتم ذلك حتى يتم اعتبار "ديو" وحصون أخرى أعضاء مخصوصين "للهند" .

هرمز تحتاج للمساعدة ؛ لأنها في خطر بناءً على ما علمت به كما عرفت عن الأسطول التركي الذي يطبق عليها ؛ لأن الجسم يتلقى القوة من كل أعضائه بالرغم من كونها منفصلة ؛ لأنه وبغض النظر عن العائد المادي الذي يتلقاه سموك من الهند ، فإن معظمه يأتي من هذه المدينة ، لن يكون ممكناً للهند أن تطعم نفسها من تجارة هرمز ، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن دولة الهند بكاملها تعتمد على دفاعاتها وأمنها .

من ناحية أخرى ، فقد تعلم الأتراك عبر التجربة أنهم لن يستطيعوا إصابة الهند بأي ضرر ؛ بسبب الكثير الذي تلقوه منها ، عندما وصلوا إلى هناك قرروا أن يقوموا بالاستيلاء على وتدمير هرمز بكل ما عندهم من قوات . من المهم مساعدة وإعانة هرمز بجهد وقوة عظيمة طالما أن هذه المدينة وسكانها خدموا أيضاً وأظهروا الولاء عند كل خطر في المواجهات السابقة . لا يتوقع أن يتم عمل ما أقل من ذلك ، أو بتصميم وإصرار أقل من ذلك الموقف ، الذي يختلف جداً لكن له أهمية كبرى وحاجة ماسة .

علاوة على ذلك ، بما أنني قائدك الملتزم بواجبه تجاه نفسي ولأولئك الذين يقدمون حياتهم في خدمة ملكي وسيدي ، لكن بالأخص لسموك ، الذي منحتني العديد من الشرف والمكرمات ، وسأقوم

بنفس الأمر من أجل أتباعه ، خاصة أولئك الذين يقيمون في هذه المدينة ، وذلك من أجل العطف والمحبة التي تلقيتها منهم .

وكما بيّنت فإن الأتراك يطبقون على هرمز بأسطول كبير ، ومن المخاطر التي قد تحدث أرجو منك أن تتكرم بمساعدتي بإعارة جلالته خمسة آلاف "كروزادوس" لفك أزمتها ، وحتى أكون على أهبة الاستعداد .

قم بتقسيمها على الجميع حتى لا يكون هناك أي سبب للشكوى ، وحتى يسعد الجميع بما يكون من نصيب كل فرد ، وبما أن ذلك سيكون خدمة عظيمة للرب ولسموه ولسلامة هذه البلاد ، نساءها وأطفالها ، وعليه أرجو من الله الذي نؤمن به جميعاً ، والذي لن يضن علينا بفضله أن يمنحنا النصر حتى يمجّد اسمه ونحمده .

ستتمّ إعادة ذلك المال بواسطة "ديجو سواريز" ، مقاول يقيم في البر الرئيسي ، وسيضمن هو سداد المبلغ من الربع من عائدات هذه السنة والتي ستصل الآن تقريباً ، سأقوم بإصدار الأوامر الضرورية لهذا الغرض حتى يتمّ التأكيد باستلام ذلك المبلغ ، كما أن سموّه سيعلم بذلك الأمر عن طريقي ، حتى يقوم بمكافأتكم وتشريفكم ، وسأظل ملتزماً بنفس القدر من الواجب لأسمه ما حييت .

أحداث عام ١٥٦٧م

صدر تقرير عن رحلة من "البرتغال" إلـى فارس ، مرسل من "أفونسو دي توفار" "Afonso de Tovar" السفير الإسباني في "البرتغال" ، "لشبونه" ، بتاريخ السابع من شهر يناير عام ١٥٦٧م ، ويبيّن له طريق التواصل مع ملك فارس واللغة التي يكتب بها له : (٢٤)

وفقاً للتحقيق الذي أمرني جلالته القيام به بخصوص موضوع السفراء ، فإن جلالته وسمو الإمبراطور يرغبان في أن يبعثا لشاه "طهماسب" ، ملك الفرس ، بالإضافة لما كتبته في رسالتي لجلالته التقرير المفصل التالي :

أن السفن الشراعية الضخمة التي تخصّ ملك "البرتغال" الجليل التي تغادر إلى الهند كل سنة في شهر "مارس" ، من الخامس عشر من

(٢٤) رقم الوثيقة والهامش.

الشهر وما بعده ، وأحياناً في الأسبوع الأول من "إبريل" بحسب ظروف الطقس ، لا تذهب أي من تلك السفن إلى "بلاد فارس" من هنا ، إن كان للملك الجليل أي أعمال هامة مع ملك الفرس فنائب الملك الموجود في الهند يقوم بإرسال رسائل إلى قائد سموه الذي في هرمز مع السفن التي تغادر "غوا" مرتين في العام .

حيث يوجد نائب الملك ، إلى هرمز ، تقع هرمز على بعد فرسخ ونصف عن "بلاد فارس" ، وهي جزيرة تقع على نهر "الفرات" . أحد الممرات التي تغادر فيها السفن "غوا" في طريقها إلى هرمز ، والتي تتم مرتين في العام ، تكون بين العاشر من نوفمبر ونهاية ديسمبر ، والأخرى في نهاية مارس .

تستغرق الرحلة شهراً لا أكثر ولا أقل ، السفن التي تغادر في نهاية مارس تستغرق ما بين أربعين إلى خمسين يوماً ، ويتجهون إلى "رأس الحد" ، أما الذين يغادرون في الشتاء فيبحرون بطول ساحل الهند وهو الطريق الأفضل ، حتى يصلوا إلى مضيق هرمز .

ليس للملك الجليل سفيرٌ عادي في فارس ، وأولئك الذين يقوم بإرسالهم ليست لهم رواتب محددة كل سنة ، وإنما يعطون ألفين أو ثلاثة آلاف "دوكات" لتأسيس أنفسهم . يتلقون الدعم وضمان الملك حتى يتم أعطاؤهم ما يحتاجون إليه في هرمز ، ومن هناك يتلقون الدعم .

يقوم التجار الذين يحضرون ويغادرون بلاط الملك بتوفير الكثير لهم ، والذين لهم معاملات مع مكتب الجمارك في هرمز إلى حيث قد يتواجد ملك الفرس . كل هذه الرحلة تتم براً وتستغرق حوالي

الثلاثين يوماً للوصول إلى بلاطه ، عليه فإن الرحلة تستغرق الشهرين للذهاب من البلاط الفارسي إلى "غوا" .

عندما تستدعي الضرورة إرسال معلومات لجلالته عن طريق البر فهناك نظام جيد حيث يقوم قائد هرمز بعمل ترتيبات لذلك الغرض مع الهنود الموجودين هناك ويقومون بأخذها معهم ، كضمان للتأكد من قيامهم بذلك فإنهم يتركون زوجاتهم وممتلكاتهم وأطفالهم كرهن مع القائد . يصلون إلى البحر الأحمر حتى الإسكندرية ويبحرون من هناك إلى البندقية ومنها إلى هذا البلاط . السفراء الذين يقوم الملك الجليل عادة بإرسالهم إلى "شاه طهماسب" رجال فاضلون ولهم خبرة في المباحثات ويعرفون مع من يتحدثون .

اللغة التي يكتب بها ملك "البرتغال" إلى ملك فارس هي الفارسية ، فهناك كتّاب ممتازون في هرمز وفي "غوا" ، نواب الملك أيضاً معهم من هؤلاء ، يعرفون الأسلوب وكيف يخاطبوهم ، تعطى لهم الرسائل ليقوموا بترجمتها . ملك "البرتغال" يخاطب ملك فارس بالقول "سموك" في بداية الرسائل حيث تتم كتابة الترحيب وألقابهم وغيرها ؛ لأن العادة جرت على هذا المنوال .

من عادة ملك "البرتغال" الكتابة عبر نواب الملك الذين لديه إلى الرجال المهمين في فارس وإرسال هدايا لهم ، وتتمّ الكتابة لهم باللغة الفارسية .

في الوقت الحاضر لا أحد في هذه المملكة يعرف حقيقة هؤلاء وما هي أسماؤهم ؛ لأنهم يتغيرون أو توفي البعض منهم ، بعضهم لوردات

تفوق دخولهم المائتي ألف أو الثلاثمائة ألف "دوكات" . على جلالته الكتابة لثلاثة أو أربعة منهم . شخص ما في الهند أو هرمز يعرف بالتأكيد هوية الذين يقدمون النصائح من الحاليين وسيضيف ألقابهم بالطريقة العادية .

لملك "البرتغال" الجليل اتفاقيات سلام مع ملك فارس يتم الالتزام بها تماماً والكثير من التقدير يوجه للتجار الفرس في هرمز والهند ونفس الشيء يتم عند التعامل مع التجار البرتغاليين في فارس .

إذا رغب جلالتهم في إرسال هدايا إلى ملك فارس حيث كان يبدو ذلك ضرورياً كما جرت العادة ، فإن أكثر الأشياء تفضيلاً هي الأسلحة المطلية بالذهب والمصنوعة من الحديد الصلب ، والتي تكون أجمل حتى من الجديدة ، السيوف القرمزية والتي تستعمل للدفاع بها ، الفولاذ الدمشقي الأحمر ، المخمل الأحمر والأخضر والحرير الأحمر .

ليس هذا ؛ لأنهم لا يملكونها هناك ؛ ولكن لأن تلك التي من هنا هي الأفضل ويسرون ويفرحون بها ... ، الأنسجة الرفيعة المزدانة بالرسوم والصور وأشياء مطلية بالفضة وكبيرة ، وبعض الأشياء من الهند يمكن شراؤها من هناك كالملابس الهندية وخشب الصقر وأشياء أخرى .

كل تلك الأشياء ترسل عادة للمستشارين ، لكن تختلف هدايا الملك من البقية في الكمية والنوعية . القيمة الكلية لكل الهدايا التي يمكن لكلا الملكين إرسالها يجب أن تكون بقيمة عشرة آلاف "دوكات" وتشمل ما يذهب من هنا وما تم شراؤه هناك ، أي في الهند .

السفراء المغادرون من ملوكهم يجب أن يضاعفوا كما يحدث هنا

عادة ؛ لأن بلاد فارس حارة جداً ، والكثير من هؤلاء الذين يذهبون إلى هناك من هنا كل سنة يتوفون . يحتاج كل سفير إلى أربعة آلاف "دوكات" لرحلته ولنفقات أخرى . يوجد تجار هنا يقومون بتوفير الاعتماد المالي في هرمز ؛ لأن لهم وكلاء هناك . أحدهم ويسمى "تيودوسيو هينريكس" ، وآخر من "بيرجوس" يدعى "فينتورا دي فياز" له تعاقدات هنا مع "غوان دي كنيل دي لا تور" "Guan de Kenel de la Tour" .

لهذا الرجل أخ يمارس التجارة في الهند وشخص آخر هنا يقدم بناءً على تعليمات من "غوان دي كنيل" وبسهولة ترتيب اعتماد مالي للمبلغ الذي يأمر به جلالته .

بالإضافة لكل هذا تم إخطاري بتفاصيل عظيمة عن موضوع الملاحة ، قد أفدت أنه حتى السفراء الذين عليهم المغادرة من هنا ، لن يغادروا في مارس مع سفن الأسطول التي تغادر في مارس ، فهي تحمل قدراً كبيراً من الحمولة وكذلك العديد من المقاتلين ، وهي سفن كبيرة جداً وتبحر في بطء شديد ، وإذا كان "دون كارلوس" أحد أبناء الملك ...

(الوثيقة غير مكتملة وتنتهي هنا)

وفي العام نفسه (١٥٦٧م)

جاء رأي "فيليب الثاني" "Philipe II" حول رؤى الإمبراطور "ماكسيمليان" "Maximillian" التي تتعلق بفتح سفارة في فارس ، والتقارب مع الأتراك وما يناسب الزواج الملكي ، "مدريد" ، بتاريخ عام ١٥٦٧م : (٢٥)

ما كتبه الإمبراطور حول فتح سفارة في بلاد فارس :

انطلاقاً من الرأي الذي يقول بالضرورة الشديدة التي أدخلت كل دولة في حروب دائمة ضد الأتراك ، وكيف أن عوناً قليلاً يمكن الحصول عليه وبصعوبة من الإمبراطورية ، وتلك المساعدة من أمراء مسيحيين آخرين وقوى أخرى لهو أمر مشكوك فيه ، اضعين ذلك الأمر نصب أعيننا واعتبارات أخرى كثيرة لا تقل أهمية فإنه (الإمبراطور) يرى أن الحرب لا يمكن لها أن تستمر أو يتم دعمها بقوة مناسبة ووضع الثقة ضد عدو بهذه القوة ، لهذا السبب فمن الحكمة أن يقوم جلالته بعمل سلام أو هدنة مع الأتراك .

(٢٥) رقم الوثيقة والهامش.

طالما أن الأمل قد أعطى للاثنين معاً من قبل خادمه الذي عاد قريباً من القسطنطينية ، لذلك أصدر أوامره لسفيره لفتح حوارات والتحقق من الشروط التي يمكن أن يضعها الأتراك لبسط السلام أو الهدنة .

إذا كانت بالدرجة التي يمكن لجلالته قبولها بشرف فسيقوم بإرسال من يتباحث بشأنها والموافقة على السلام والهدنة ، عليه فإن جلالته يرى أن السفارة المقترحة في فارس يجب أن تؤجل في الوقت الحالي . إرسال سفراء إلى الأتراك للتباحث حول السلام ولبلاد فارس لحثهم على مهاجمة الأتراك ، لهي أشياء لا يمكن أن تظلّ طي الكتمان ؛ لأنها ستكتشف عبر الجواسيس والأصدقاء لكلا الجانبين .

هذا سيثير غضب الأتراك والفرس وسيؤدي إلى إفشال المباحثات مع كليهما وتسبب الكثير من الشكوك وعدم الثقة ، لذلك وحتى نرى ما ينتج عن تلك المحادثات المتعلقة بالسلام ، فإن المحادثات الأخرى عن التحالف يجب أن تتأجل ، بغض النظر عن ذلك وحتى لا تتوقف تماماً في حالة عدم التوصل إلى سلام أو هدنة ، فإن الوقت لم يمض على تحقيق ذلك وأسباب أخرى شرعية .

فإن جلالته يعتقد أنه من الحكمة إذا وافق الملك أن نقترح على ملك "البرتغال" أن يصدر أوامره لوزرائه في المناطق الأقرب لبلاد فارس ، دون أي حث أو إيعاز من آخرين أن يقتربوا من الفرس بنفس الطريقة التي عرفت السفارة على القيام بها من هنا لإقناع ودفع الملك بالفوائد التي يمكن أن يجنيها في الدفاع ومهاجمة الأتراك .

ليشكل حلفاً واتحاداً مع ملكين بهذه القوة ، عليهم التعبير كلاهما

كونهما عدوّيْن للأتراك ، إذا كان عليه أن يدعوهم ويطلب ذلك منهم فسيشكلان حلفاً معه ، ولذلك المبتغى عليه إرسال سفرائه إلى هنا ، بغض النظر عن اعتبارات أخرى فإن هذا سيتمخض عن ثقة أكثر لكلا الملكين ، إذا وافقت السيادة الكاثوليكية فإن السيادة الإمبراطورية تتوسل إليه ألا يضيع أي وقت في بحث ذلك مع ملك "البرتغال" حتى يوافق ويعمل وفق ما قام به ورتب له جلالته .

جلالته الملك الكاثوليكي وبعد أن رأى رد أخيه العزيز الإمبراطور في رسالة سلمت إلى "المونسير دي شانتون" "Monsigneur de Chanton" ، سفيره ، تتعلق بالنقاط الثلاث التي يدور حولها النقاش بينهم في الوقت الحالي ، أي ، زواج أنجاله ، الوحدة ضد الأتراك وإرسال سفراء إلى "الصفوي" ، وكان قد أولى اهتماماً حذراً بما تحتويه ، فانتقل للإجابة والرد على كل واحد من تلك المسائل الثلاث بما جاء أدناه :

بالنسبة للأمر الأول ، فبالرغم من أن جلالته الكاثوليكي كان يعلم دائماً من كلماته وأفعاله بالنية الصادقة والحب الذي يبادله به جلالة الإمبراطور ، وجرى الكثير من كلمات وتعابير الإطراء بينهما ، حيث لم تكن لها الأهمية بما لهما من إخلاص كل تجاه الآخر ، وهو لا يستطيع الكف عن تقديره وامتنانه له للحب الذي بدا في تلك الرسالة ، والثقة التي يوليها لجلالته الكاثوليكي بالتحدث صراحة وفي رغبته معرفة رأيه ووجهة نظره ، وليظهر للفرنسيين في الرد الذي قام بإرساله لأسقف "ريمز" "Reims" أنه لا يريد اتّخاذ قرار في تلك المسائل بدونه .

يقدر جلالته الكاثوليكي كل ذلك بالرغم من أنه مجبر دائماً على

سلوك هذا الطريق الذي يلمح له أسلوب رسالته والذي يظهر للعالم الحب والأخوة الحقيقية التي تقوم وتزدهر بين جلالتيهما ، وأنهما يتحدثان عن شؤونهما بطريقة شخصية وبتفصيل كما يفعل كل واحد ، واضعاً الممكن والمستحيل في الناحيتين حتى يتم اتخاذ قرار في الأمر برضاء تام وفائدة أكثر مما كان متوقعاً .

أما بخصوص زواج جلالة الأميرة "إليزابيث" "Elizabeth" لملك فرنسا ، وقد عرف وفهم من قبل جلالته الإمبراطوري كما أقترح بواسطة سلطته الكاثوليكية الذي كان له التأثير الشديد ولذلك لن يتمّ تكرارها هنا ، مع أخرى كثيرة لم يتمّ التعبير عنها وقدمت من قبل جلالته الإمبراطوري للشخص صاحب العلاقة الذي يعلم بكل تلك الأمور ويفهم جيداً المكائد والطموحات (فقرة مرمزة) ضد البيت والعائلة النمساوية وعظمة كلا الملكين ، عليه فقد تمّ فهم ذلك من قبل جلالتيهما بأن هذا الزواج غير مرغوب فيه .

فيما يتعلق بمصالح التزاماتهم والهدوء وإصلاح دولتيهما ، كون ذلك هو الأمر ، فإن جلالته الكاثوليكي لن يتردّد في أخبار جلالته الإمبراطوري ، وبصراحة وبمنتهى الحرية ، أنه سيجيب بتصميم شديد لأعظم ملك وملكة مسيحيين أنه لا يرغب في اعتبار هذا الزواج بعيداً عن كل شكّ أو خوف ، فيما قد يبديه الفرنسيون من امتعاض لرد الفعل ذلك ؛ لأنه يفهم تماماً أن الملكين كونهما قريبين وسيظلان دائماً وكذلك ، وليس هناك ما يخشى منه ، لن يرفض هو على أساس أن يتجنب الافتراض بأن الالتزام هو أن يكون دائماً في عون ومساعدة جلالته .

بسبب أن يصيبه أي ضرر نتيجة لرفضه ؛ لأن التزام جلالته الكاثوليكي بمساعدته ومدّ يد العون له في كل احتياجاته مهما كانت طبيعتها ، والتي قد تنشأ فإنها لن تكون أعظم مما هي حالياً ، لكن بما أن جلالته الكاثوليكي قد أدرك بأن جلالته الإمبراطوري يؤمن بأن هذا الصد المطلق والسلبي يعطي ملك "فرنسا" بعض التبريرات لأعماله .

في نظر أولئك الذين لا يدركون أو يرون المساوئ التي ظهرت في هذا الأمر ، إما بسبب عدم فهمهم لها أو بسبب عدم امتلاكهم لوعي واضح ، وأيضاً أن جلالته الإمبراطوري يرغب في إظهار الطبقات الاجتماعية والدرجات الكهنوتية التي بالإمبراطورية والنوايا الحسنة التي يكنها لهم ، وإنّه على استعداد لاستخدام مصادره الشخصية لصالحهم ، يرى جلالته الكاثوليكي أن عليه التقدم ومواصلة هذا العمل وألا يأتي على سيرة الزواج ، فذلك أمر ضار وغير مقبول كما قبل وأصبح أكثر وضوحاً وفهماً ، لكن التعامل مع الآخرين بمثل الأمر الثالث .

يشير جلالته الإمبراطوري في رسالته أن ملك "فرنسا" يقترح إعادة "ميتز وفيردون" ، التخلي ونكران الذات عن صداقته مع الأتراك ، النية في إرسال جنوده إلى منطقة الحدود ضده ، والصداقة التي يجب أن تظل قائمة (دون التقييد بالحيادية) مع جلالته الكاثوليكي في حالة أي انقطاع للعلاقات بين جلالته والمجلس الفرنسي .

من وجهة نظر كل الذي قيل فإنه يرى أنه من الحكمة ألا يقرر جلالته الإمبراطوريّ في عمل ضار ومميت ، باستثناء إن كان يريد تخفيف الوضع ومعالجته ، وإعطاء الإمبراطورية ووجهائها القناعة التي

يريدها جلالته الإمبراطوريّ ، حتى يتعرّفوا على حسن نواياه تجاههم وهم مدينون له بذلك .

يجب أن ينقل إليه الفرض أن تلك المطالب الثلاثة هي الشروط الأساسية للتسوية ، وهي جميعها معقولة ، ؛ بحيث إن ملك فرنسا ملزم بما يقتضيه الواجب القبول بها حتى بدون تحالف واتحاد عن طريق الزواج ، أما بالنسبة للأمر الثالث فيجب أن يفهم ألا شيء يمكن أن يزعج ، يحول أو يغير ذلك .

إذا كان الملك يوافق على تلك الشروط ، فسيكون جلالته الإمبراطوري قانعاً وراضياً بالاستمرار في أمر الزواج ، وأن تتواصل المباحثات والشروط والتفاصيل الأخرى التي تمّ الاتفاق عليها والمتعلقة بالمصالح الشخصية للأمير والأميرة والذي هو زواجهما ، إذا تمّ قبول كل تلك الشروط واتخذ ملك "فرنسا" ووالدته الخطوات الأولى وراضين على القيام بذلك .

فإن جلالته الكاثوليكي سيوافق على ذلك والذي يعتبره جلالته الإمبراطوري أمراً صحيحاً ، عند القيام بذلك فسيكونان حذرين وسيحاولان تفادي المفاوضات ، والمكائد والخدع المعتادة التي يمارسها الفرنسيون دائماً ، وسيظلون كذلك على الدوام لتدميرهم ، ولهم سببهم الجيد في مراقبة ألا يتمكّن نسيبهم الجديد من القيام بأي شيء ضدهم .

قد يحدث أن يقوم الفرنسيون وهم على ثقة أن بإمكانهم ابتكار مشروع ما من نوعيتهم المعتادة ، حتى يتجنبوا القيام بما وعدوا به ، إذا ما قالوا أنهم يوافقون على التقييد بالشروط الثلاثة المقترحة ، فإن جلالته

الكاثوليكي يرجو ويتوسل جلالة الملك الإمبراطوري ، إن كان هناك أي سؤال عن حقيقة والإيفاء بتلك الشروط ، فإن جلالة الإمبراطور وفي كل الظروف سيخطره بذلك وسيكون مستعداً بقبول رأيه ، حتى يتمكّن من مساعدته وتقديم نصائحه ، وتأكيد أنّ الفرنسيّين لا يقومون بأي حيلة معه والتي قد تحرمه من السلطة كبديل عن الإحسان الذي سيقدمه لهم جلالته الإمبراطوري ، وانضمامه وقبوله لالتماسهم ويمنحهم أميرة مثل ابنته .

أما بخصوص زواج الأمير "رودلف" "Rodolph" ، فإن جلالة الإمبراطور يرى جيداً الإمبراطورية ويرى جيداً هذا الأمر طالما أن هناك فسحة من الوقت يمكن تركه للمستقبل للأسباب التي أشار إليها جلالته الكاثوليكي وجلالة الإمبراطور .

أما بالنسبة للتحالف فإن جلالته الكاثوليكي اقترحه فقط ؛ بسبب رغبته الخاصة ليرى جلالته الإمبراطوري ، مطمئناً وهادئاً ومرتاحاً ووجد المساعدة ضد عدو قوي ، ولذلك سوف لن يذهب بعيداً عن كل رأي وفكر مناسب لجلالته الكاثوليكي ، وسيهديه ويوجّهه للطريقة والأسلوب الذي سيوفر له الدعم في إجراءاته .

سيكون جلالة الإمبراطور مستعداً دائماً لمساعدة هذا التحالف كما يجب ، كونه ملتزماً لفرصته وهدفه المعلن ، والسبب كما يقال هو الوضع الدفاعي في البحر الذي سيظهر أن جلالته الكاثوليكي بعض الخسائر ، ولكن في المكان الذي ستدعم وتساعد فيه جلالة الإمبراطور والنصيحة التي قدمت لجلالة الإمبراطور تتعلّق بالخدمة التي يمكن

أن يمنحها لقداسته ، والتي مدّه بها جلالته الكاثوليكي ، لكن لم يتوفر الوقت لوصول الرد ، وعندما يتم ذلك فسيتم إخطار جلالته الإمبراطوري .

أما بالنسبة لـ "الصفوي" ، بما أن جلالة الإمبراطور قد وافق على رأي وفكرة جلالة الكاثوليكي فليس هناك ما يقال ، لكن لإبقاء ذلك للتباحث عندما يحين الوقت المناسب ، والذي أرى أنه سيكون قريباً وسريعاً جداً .

وفي العام نفسه (١٥٦٧م)

توجيـــه مــن الملـــك بخصوص "باستيـــاو دي ليمـوس" "Pastiao de Limos" ، "لشبونه" في الحادي والعشرين من شهر مارس عام ١٥٦٧م ، بشأن فتح مكاتب تجارية في قلهات ومسقط : [٢٦]

ملخص

وفقاً لرسالة الملك التي يعترف ويقرّ فيها بالخدمات التي قدمت له من قبل "باستياو دي ليموس" أحد الفرسان النبلاء في بلاطه ، ابن "جورج فرنانديز فوريرو" "George Fernandes Foreiro" بعد تخليه عن المكتب التجاري في قلهات ومسقط الذي عين فيه بواسطة رسالة ، فإنه يمنحه وظيفة كاتب تجاري ومفتش أشغال ومراقب النفقات للمتوفي "بدامان" لفترة قدرها ثلاث سنوات ، عندما أصبحت شاغرة من المعيّنين عليها ، من قبل السادس من مارس من السنة الماضية عام ١٥٦٦م ، اليوم الذي منحه فيه ذلك .

"لشبونه" ، في الواحد والعشرين من مارس عام ١٥٦٧م .

(٢٦) رقم الوثيقة والهامش.

وفي العام نفسه (١٥٦٧م)

عقد اجتماع المجلس الأول لمحافظة "غوا" "Goa" ، "غوا" ، بتاريخ عام ١٥٦٧م ، بشأن منع تواجد اليهود في المدن ، وعدم نقلهم في السفن : [٢٧]

دعوى رقم (٣) - المراسيم من ٢٦ - ٣٠

مرسوم (٢٦)

تأكّد بالبرهان الضرر الكبير الذي سيصيب إيماننا المقدس في ضرورة أن يعيش اليهود في هرمز أو أي مكان آخر يخص سموّه ، وعليه فإن المجلس يأمر كل مسيحي بعدم أخذ أو نقل أي يهودي في سفينته للأراضي التي تخص سموه ولا إلى أي مكان آخر يمارس فيه المسيحيون التجارة ، وسيتعرض لغرامة قدرها مائة "باردوس" أو أكثر كما يحكم بذلك المطران .

(٢٧) رقم الوثيقة والهامش.

بما أن فرض القانون له فائدة قليلة عندما لا يتم ممارسته ووضعه موضع التنفيذ ، المجلس يطالب القضاة المؤقتين ، وبكل إخلاص ، تنفيذ وفرض القانون الذي وضعه نائب الملك بأمر من صاحب السموّ ، وذلك بعدم سكن اليهود في أراضينا وعدم الذهاب إليهم ، وعلى سموّه أن يؤكد فرض هذا القانون وإصدار الأمر بأن يلقي كل اليهود خارج هرمز .

مرسوم (٣٠)

يرغب المجلس في تجنّب الفضيحة التي ستحدث من الملحدين في مناطق معينة من أراضينا ، وعلينا أن نعلن يوماً كل أسبوع لمراقبة نظام دينهم المزيف ، يتطلب الأمر من سموه أن يأمر بعدم ملاحظة هذه الأيام وأن تتم تسوية ذلك في مكتب الجمارك "بهرمز" وأن يتم العمل بذلك في أيام الجمع والذي لا يجب أن يؤخذ على أنه يوم احتفال للعرب البربر .

بعض العرب البربر مسؤولون هناك وبسبب غيابهم فإن الموظفين المسيحيين لا يقومون بأي عمل - الأمر الذي يجعل ذلك يبدو بطريقة ما وكأنهم يذعنون لشعيرة هذا اليوم الديني .

وفي العام نفسه (١٥٦٧م)
صدرت تعليمات للدوم "ألونزو دي توفار" "Alonso de Tovar" ، سفير "فيليب الثاني" "Philipe II" في "البرتغال" ، "مدريد" في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٥٦٧م ، بخصوص العلاقة مع فارس : [٢٨]

على دوم "ألونزو دي توفار" ، سفير جلالته في "البرتغال" ، محاولة دراسة التالي وإرسال تقرير خاص لجلالته عنه :

في أي شهر أبحرت سفن الأسطول الحربي التي يرسلها سيادة ملك "البرتغال" إلى مملكة فارس ، وكم عددها؟ أي أوامر صدرت لها ومن قائدهم وكم تستغرق الرحلة عادة ، أي الأماكن التي يتوقفون فيها وأين تقريباً ومتى يتوقع مغادرتهم "لشبونه" هذه السنة؟

إذا ما كان لجلالة ملك "البرتغال" سفير مقيم مع ملك الفرس؟ ما هو اسمه؟ ما هو موقفه وكيف يعامل؟ ما هو الراتب الذي يتسلمه

(٢٨) رقم الوثيقة والهامش.

سنوياً؟ كيف يتلقى الرسائل والإمدادات؟ وكم يستغرق وصول الأشياء من هناك وبأي طريق تصل؟

بأي لغة يكتب ملك "البرتغال" الجليل إلى ملك فارس ، وكيف يخاطبه؟ هل يستخدم كلمات مثل سموّك ، السيد الجليل .. ؟ وبأي لقب يجيبه؟ ما هي نوعية الأشخاص الأكثر قبولاً عند ملك فارس ومن هم الذين يثق في التحاور معهم ، ما هي أسماؤهم وإن كان ملك "البرتغال" يكتب لهم عادة ، وبأي أسلوب وأي لغة ودرجة الإعزاز والتقدير التي يكنها لهم سيد كل منهم؟

هل قام جلالة ملك "البرتغال" بإبرام أي اتفاقية مع ملك فارس ، وفي أي خصوص وإن كان يحافظ عليها؟

بما أن الإمبراطور وملك "إسبانيا" سيبعثان بسفرائهم إلى ملك فارس كما تم الاتفاق بينهم على ذلك فإن عليهم أخذ هدايا له وللمقربين منه ، حيث جرت العادة على فعل ذلك مع الأشخاص في تلك الأمة ، من الضروري معرفة الأشياء المناسبة والأكثر قبولاً لملك فارس شخصياً ، ولكل المقربين والمفضلين والمستشارين عنده الذين يمكن أن يؤثروا في توجيه سيدهم في الاتجاه الصحيح في المباحثات التي ستجري معه .

انسجاماً مع ما يرسله جلالة ملك البرتغال عادة إليهم ، تعرف على الكم الذي يمكن أن يوفره الإمبراطور من جانبه وكذلك الملك الكاثوليكي ، وذلك لشراء مثل تلك الهدايا التي سيأخذها السفراء معهم؟

كم المبلغ الذي يعتقد أن على السفراء أخذه نقداً لمنصرفاتهم ، وهل

هناك أي تجارة أو مراسلات بين التجار في "البرتغال" وفارس بالطريقة التي تمكنهم من الحصول على تبادل للأموال إذا ما كان أحدهما يعوزه بعضاً منها ، أو بأي وسيلة تمكنهم من توفيرها لأنفسهم؟ ما هي أنواع الاعتماد والديون التي يتلقّونها وممّن يتسلمونها لذلك الغرض؟

وفي العام نفسه (١٥٦٧م)

بعث "فيليب الثاني" "Philipe II" ملك "إسبانيا" رسالة إلى "ألونسو دي توفار" "Alonso de Tovar" ، سفيره في "البرتغال" ، "مدريد" في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٥٦٧م ، بشأن الصداقة مع فارس ، والعمل ضد الأتراك : [٢٩]

عضو المجلس وسفيري :

مما كتبت لك في مناسبات عديدة فستفهم قصد أخي الإمبراطور وشخصي بأن ترسل أحداً ما لملك فارس مع أمر رسميّ لإبرام اتفاقية صداقة معه ، مثلما فعل ابن شقيقي ملك "البرتغال" ولإقناعه نيابة عني بإنزال كل الضرر الممكن بالأتراك ، عدوه وعدونا المشترك ، هذا كما ترى ستكون له أهمّية كبرى بإلهاء الأتراك عن العمليات التي يحاولون القيام بها براً وبحراً كل سنة تقريباً لتدمير أقاليمي وتلك التي تخص الإمبراطور .

---

(٢٩) رقم الوثيقة والهامش.

بما أنّنا اتفقنا على تعيين أشخاص للذّهاب إلى فارس هذا الصيف للقيام بهذه المهمة حتى نتوصل لتحديد التعليمات والأوامر التي ستعطيها له ، فمن الضروري توضيح نقاط معينة تدون على ورقة لتلحق مع هذه الرسالة . نكلفك ونأمرك لمناقشتها في "البرتغال" مع عمي الكاردينال وأي شخص آخر ترى أنه قادر على إعطائك معلومات جيدة .

ومن ثم ترسل تقريراً واضحاً ومفصلاً على كل منها وجميعها ، وعن أي شيء آخر قد يخطر لك ، والشخص أو الأشخاص الذين نستشيرهم عما علينا معرفته حتى يكون سفرائي قد تلقوا أفضل التعليمات واستعدوا لرحلة طويلة وهامة لخدمة الرب ومصلحة المسيحية .

لهذا الغرض ولتوفير الوقت فقد أمرت هذا المبعوث بالذهاب والعودة والذي ستخطرني عن طريقه بصحة أصحاب السيادة الذين سيزودنه بأخبار لي ، والتي سنرفع شكرنا وامتناننا للرب عليها .

من "مدريد" ، الثاني والعشرين من ديسمبر عام ١٥٦٧م

أحداث عام ١٥٦٨م

صدر مرسوم من الملك بخصوص "جوميز دي كارفالهو" "Gomez de Carvalho" ، "لشبونه" في الثالث عشر من شهر يناير عام ١٥٦٨م ، بشأن الوكالات التجارية في قلهات ومسقط : (٣٠)

ملخص

مرسوم من الملك حيث يقر فيه بالخدمات التي قدمها "جوميز دي كارفالهو" ، وبناء على طلب الدوم "لويس دي أتيدي" العضو بمجلسه ، والذي يقوم بإرساله الآن كنائب للملك لأقاليم الهند ، فإنه يمنحه بموجب ذلك وكالة قلهات التجارية ومسقط لفترة قدرها ثلاث سنوات ، حيث عندما يصبح ذلك المنصب شاغراً من قبل أولئك الذين تم تعيينهم فيه بموجب أحكام صدرت قبل المرسوم الحالي أو بأي وسيلة كانت .

"لشبونه" الثالث عشر من يناير عام ١٥٦٨م .

---

(٣٠) رقم الوثيقة والهامش.

وفي العام نفسه (١٥٦٨م)

وردت رسالة من "جودا ماركوس" "Juda Marcos" ، حلب ، في الثاني من شهر فبراير عام ١٥٦٨م ، تتحدث عن أخبار الأتراك في المدن التي تمّ احتلالها من قبلهم : (٣١)

السيد صاحب الشهرة والصيت ،

في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر كتبت إلى "ميكا توماس دي كارنوزا" رسالتين عبر القسطنطينية قدمت فيها معلومات عما جرى في تلك الممالك حتى يقدمها لفضيلتك ؛ لأنهم عبر الأراضي البرية لا يحبّون حمل العديد من الرسائل .

في تلك الرسائل قدمت لك أخباراً جيدة ، والتي أؤكد مرة أخرى ، وأبين يا سيدي كيف أن مسلمي مملكة "جانكاو" (؟) ثاروا وقتلوا كل الأتراك ، واستعادوا أراضيهم والتي كانت شاسعة جدا ، لابد أن

(٣١) رقم الوثيقة والهامش.

يكون فضيلتك سعيداً جداً لهذا ؛ لأنهم كانوا جيراناً سيئين "للهند ولبرسترجون" ؛ ولأنهم انتشروا بكميات كبيرة .

لأنني قدمت هذه الأخبار الطيبة استحق من فضيلتك أن تمنحني جوائز عظيمة .

الآن يقولون إن الملك يريد أن يبعث بأربعة من الباشاوات ، وهم بالاسم باشا القاهرة - الذي ذهب من هنا ، وحكم في هذه المدينة ، وقد أُبعد من هنا ؛ لأنه قتل شخصاً ما ، كما كنت قد كتبت إلى "ميكا توماس" "Mica Thomas" ، ويقال إن باشا دمشق يجب أن يذهب ، وإن باشا هذه المدينة الذي جاء قبل سنة من القسطنطينية أيضاً .

كما قيل أيضاً إن باشا "ماراج" سيذهب أيضاً ، وهي مملكة تقع على مسيرة أربعة أيام من هنا في وسط الجبال ، والتي يقال إنّها ملكة "الأمازونز" وهي الآن تابعة للأتراك ، وسأشير عليك بها بالرغم من الحديث بأنها ستأخذ الكثير من الوقت حتى تستعاد الآن ، بها حصون قوية وقد استولى عليها "سليمان باشا" عندما ذهب إلى "ديو" قبل عدة سنوات ، وقيل إنه استولى عليها بعد أن وعدهم بعدم التسبب في أي أضرار بهم .

أما ما يتعلق "بالبصرة" فإن الحرب تتواصل ، وقد أفدت بأن أعداداً كبيرة من الرجال سقطوا من الجانبين - من "الأتراك" ومن "الأرقيس" على حد سواء .

قد مرّ مؤخراً من هنا رجل من البصرة في طريقه إلى القسطنطينية لطلب المزيد من الرجال ، وجاءني أحد الرجال برسائل من رفيقي

يقول فيها إنه في حالة بائسة وينتظر ابني "جوس ماركيز" الذي كان في البصرة جاء إليها من هرمز ولا يمكنه الحضور إلى بابل ؛ بسبب إغلاق الطريق ، وعدم وجود مراكب على طول النهر نتيجة للحروب الدائرة ، حتى يمكن لحامل هذه الرسالة إلى "ميكا توماز" أن يقدم إفادة عمن هو الفينيقي المدعو "ميكا أسيجانتي" "Mica Aseganti" .

من الذي كان في كل الهند وجاء الآن عندما شاهد البرتغالي الذي يُدعى "بيدرو لوبيز" "Pedro Lopes" الذي تحوّل إلى مسلم في بابل ، والذي غادر للتو ، قالوا إنه غادر ليواصل الرحلة إلى "البندقية" ، إن كان قد ذهب إلى هناك فعلى سموك إصدار أمر بمعاقبته لسوء سلوكه ؛ ولأنه رجل سيئ عرضنا هنا إلى مخاطر مميتة لشخصي وللآخرين ، وأعلن أنه جاسوس للبرتغاليين وأنّه اتّصل بابني من هرمز في المرة السابقة عندما ذهب إلى هناك .

يقولون أيضاً إنه ذهب إلى القسطنطينية ليطلب من الملك منحه سفناً وسيتقدم للاستيلاء على البحرين ، وأنا على يقين بأنه وعد باشا بابل عندما تحوّل إلى مسلم قائلاً إنه بعد الاستيلاء على "البحرين" سيمنحونه نصف "أشرفي" عن كل يوم كإيجار .

وعليك أن تتخيل السوء الذي في هذا الرجل الذي يتصرف بهذه الطريقة ، والذي يجب عدم عودته إلى تلك الممالك مطلقاً ، أقول هذا بالرغم من أن تلك ليست شخصيتي أو أخلاقي التي تقول أموراً شريرة ، وقد تحدثت قبلاً حديثاً طيباً عن "ماتياس بيكودو فيرتادو" الذي مر من هنا في طريقه إلى القاهرة .

وقد بث في داخلي الكثير من الشجاعة ، وأخبرني وحثني وتوسل إليّ بعدم ترك هذا العمل رغماً عن أنني لم أتسلم مالاً عن خدماتي ، ويعلم أنني خدمت أميراً عندما تنفذ الأوامر سيدفع لي ، ولا يصرح لي بأنني إن تحدثت إليه عن المال فسيدفع لي كل ما أحتاجه ، قبل هذا عندما قدمت له شرحاً عن أنني مطالب بديون في خدمتك فوعدني أنه حالما يصل إلى القاهرة فسيكتب في الحال إلى سيادتك حتى تدفع لي الأموال وتتم تسويتها .

كما وعدت أيضاً من قبل برتغالي آخر مرّ من هنا أقرضني عشرة "أشرفيات" وأنه سيقدم معلومات لسيادتك عن خدمتي وسيسعى في أمر توفير المؤن لي ، وأن يتمّ دفع أجور عمالي ، ما أقوله عن "فيرنادو" هو بسبب أنني شكوت له بألا أحد يفكر في شخصي كوني خادما جيداً في كل ما يتعلق بواجباتي .

بما أن الطرق مغلقة ؛ بسبب الحروب فإنّهم لن يتمكّنوا من البقاء (؟) لذلك وابني موجود الآن في البصرة ورفيقه في بابل في انتظاره ، وقد انفقت الكثير من الأموال في السنة الماضي ولا أدري متى يمكنهم مقابلة بعضهم البعض ، وما الذي يمكنني فعله له ؛ لأنني سأتعرض للكثير من الإذلال واليأس إذا وعدنا باسم سيادتك على اعتقاد أنّني سأرتاح ويخفّ الأمر عن كاهلي .

بناء عليه ألتمس من سيادتك كمنّة وإحسان منك أن تأمر بالنظر في شرط الترضية الذي أبرمناه مع "إسحاق بيسيدو" وأن توافق على ما قدموه لنا من هناك ، والعشر "دوكات" التي قدموها لابني في هرمز

في وقت ما ، وطلب أن يدفع لنا الرصيد حتى نسدد أجور من يعملون في الخدمات ، وإن لم يكن ممكناً أعطائي مبلغاً كبيراً .

فأرجو إصدار الأمر باعطائي مائتي "أشرفي" تحديداً ، مائة أدين بها للخزينة أخذتها عندما ذهب ابني ، والمائة الأخرى لأسلمها لرفيقي ، إما على أساس خدماته أو عن الدين الذي أقرضني أياه لمصرف على تلك الأشياء ، والباقي يصرف لي في هرمز على شكل توابل لأتمكن من سداد ما أدين به للآخرين واحتفظ بالباقي للمستقبل .

إن رأى فضيلتك صحة ذلك وأن تستمر في تكملة الأمر ، وعلينا إذاً اتّباع وسيلة أخرى حتى يتم العمل بصورة جيدة ، وهذا يستدعي ذهابي إلى هرمز ، وآخذ معي رفيقاً يهوديّاً سترسله لي وينتظرني بالبضاعة ، وأبعث معه برسائل للسيد القائد الذي يقيم هناك ، وسيكون لي أحد الرجال في بابل التي هي مفتاح تلك الممالك من حيث ينصحني هنا وفي هرمز بكل الاحتياجات .

بهذه الطريقة يمكن لفضيلتك الحصول على رسائل هرمز ، وبالعمل في التّجارة ولن نتّهم بالعمل كجواسيس كما هو الحال الآن وكما قلت ستتم خدمتهم بطريقة جيدة ، أرجو الموافقة على ذلك ، نحن العاملين وتحتاج إلى نهتم بذلك ونواجه النفقات التي نتعرض لها ، من الضروري أن يذهب "أسحاق بيسودو" إلى طرابلس ليبعث بالرسائل إلى "ميكا توماز" . أنا ورفيقي لنا رجل في بابل وابني يذهب ويجيء أنا هنا (؟) .

بتوفير كلّ ذلك سيتمّ تنفيذ الأعمال وبأفضل الطرق ، وإن لم يكن الأمر كذلك فباختصار أنّ كلّ ساعة يودّون العمل فيها سيعتقدون أنّها

الأفضل وهم في حاجة لشخص يعمل في هذا الموضوع (؟) لأنّه ليس بالشيء الصغير أن يكون في تلك الممالك شخص يقدّم تقريراً عمّا يجري وما الذي تم كما أفعل أنا .

إن قرر ذلك يجب إرسال البنود حتى نواصل التحقيق في هرمز ؛ لأننا مرتبطون بالخدمة ، وجاء "دي ماكو" (؟) حتى نتمكن من جعلها حماية وحراسة خلال كل الوقت الذي نعمل منه .

الخادم المطيع لفضيلتك

"جودا ماركوس"

وفي العام نفسه (١٥٦٨م)

بعث الملك رسالة تتعلق بـ "جياو فيرنانديز" "Jiao Fernandes" ، "لشبونه" في الحادي عشر من شهر مارس عام ١٥٦٨م ، ويذكر فيها مكانة قلهات ومسقط : (٣٢)

ملخص

وفقاً لرسالة من الملك يقر فيها بالخدمات التي قدمت له في أقاليم الهند بواسطة "جياو فيرنانديز" خادمه ، الموجود حالياً هناك ، وبناء على طلب قدم له نيابة عن "أنتاو دي نورنها" العضو في مجلسه ، ويشغل الآن منصب نائب الملك في الهند فإنه يمنحه بموجب ذلك المناصب التالية ، وسيط تجاري ، مسجل الوفيات ومفتش الأشغال في قلهات ومسقط لفترة ثلاث سنوات ، عندما تصبح شاغرة من قبل المعينين عليها ، بمقتضى شروطه وأحكامه التي صدرت قبل الأمر الحالي .

"لشبونه" ، الحادي عشر من مارس عام ١٥٦٨م .

---

(٣٢) رقم الوثيقة والهامش.

وفي العام نفسه (١٥٦٨م)

جاءت رسالة من الملك بخصوص "روي قودينهو" "Rui Godinho" ، "ألميريم" "Almireim" في الثلاثين من شهر مارس عام ١٥٦٨م ، ويذكر فيها مكانة قلهات ومسقط : (٣٣)

ملخص

وفقاً لرسالة الملك التي يعترف فيها بالخدمات التي قدمت له في أقاليم الهند بواسطة "روي قودينهو" ، خادمه ، الموجود حالياً هناك ، وبناءً على طلب "جواو لوبو" "Joao Lopo" ، بارون "ألفيتو" والعضو في مجلسه ومراقب خزينة الدولة ، فإنه يمنحه بموجب ذلك المناصب التالية :

وسيط تجاري ، ومسجل الوفيات ومفتش الأعمال في مدينة قلهات ومسقط لفترة ثلاث سنوات ، عندما تصبح شاغرة من المعينين عليها ، بواسطة شروط وأحكام صدرت قبل الأمر الحالي أو بأي وسيلة كانت .

---

(٣٣) رقم الوثيقة والهامش.

وفي العام نفسه (١٥٦٨م)

وردت مقتطفات من رسائل ، وصلت من القسطنطينية ، في السادس والعشرين من شهر إبريل عام ١٥٦٨م ، تذكر أن البرتغاليين قد احتلوا عدن ، وهناك ثورة في الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر : (٣٤)

في السادس والعشرين من شهر إبريل للعام ١٥٦٨م ، تقول بأن عظيم الترك شخصياً يتوقع وصوله هناك في اليوم التالي مع بطانته :

إن "بيجالي" "Begali" قد أعدّ تسليح عشرين سفينة وإنزالها بجانب تلك التي حددت له دون أن تستلزم أي تكاليف من خزينة كبير الترك ، وبانضمام تلك معاً والتي ذهبت مؤخراً إلى الإسكندرية وتلك التي مع حراس "رودس ، شيا وميتيليم" يبلغ عددها جميعاً تسعين سفينة بدون مراكب القراصنة .

مع "بيجالي" المذكور جاء "جوان ميكاس" "Joan Mecas" في سفينة

(٣٤) رقم الوثيقة والهامش.

أعطاها له "توماريل" "Tomaryl" ، والتي كانت ملكا خاصاً لدوق "نيشيا" "Nicia" وبقية الجزر التي في الأرخبيل ، وكان كل الأسطول قادماً للانضمام إليه في "شيا" ، وقد جهز له البسكويت في "موركا" "Morca" و"ليبانتو" "Lipanto" و"باتراس" "Batras" ، وقد علم بذلك عبر "كورفو" "Corfo" .

قد علم أن عظيم الترك ينوي الذهاب إلى حلب لقضاء الشتاء هناك حتى يستعد بصورة أقوى للحرب ضد مسلمي الجزيرة العربية ، الذين تمرّدوا في طول ساحل "البحر الأحمر" ، على الرغم من أنهم مازالوا يأخذون الرجال على ظهر السفن من "كارامانيا" و"سوسيا" باتجاه ذلك المكان .

في ذلك الأسطول يرفعون قطعاً من بطاريات المدافع والذخيرة والمجاديف .

من رسائل في نفس المكان ومن "بايلو" "Paylo" نفسه لفضيلته في الثاني من مايو ، والتي وصلت إلى "البندقية" في الثامن والعشرين ..

وصلت تحذيرات بوصول ثلاثين سفينة إلى الإسكندرية ، ومع تلك التحذيرات والتوصيات جاءت أيضاً أخبار عن استيلاء البرتغاليين على عدن في ساحل الجزيرة العربية ، بالقرب من مضيق "البحر الأحمر" ، وهي تقريبا المدخل لكل ذلك البحر .

أما ما يتعلق بالأسطول فقد تم تأكيد ما جاء بأعلى ، والفكرة الحالية هي احتمال أن يكون الحجم الكلي لسفن الأسطول قد يصل عددها إلى مائة سفينة أكثر أو أقل ، مع حساب سفن الحرس التي "بالإسكندرية" .

بواسطة رسالة من حلب بتاريخ الأول من إبريل للعام ١٥٦٨م :

أما ما يتعلق بحرب "جامان" والجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر ، فإن أعداداً كبيرة جمعت من أجل الحرب لتتحرك بكل تلك الأنحاء ، ومؤخراً وصل ثلاثمائة من الجند معه من القسطنطينية ليقدموا نحو دمشق ، وهؤلاء عليهم البقاء لحراسة المدينة ، وكل الذين هناك عليهم الذهاب مع الباشا ، وهنا أيضاً جاء كتاب بأن أعداداً أكبر من الرجال يذهبون على حساب الملك ... ؛ لذلك يقال إن جيوش المدعو "جامان" قوية جداً .

وفي العام نفسه (١٥٦٨م)

بعـــث "تومـــاز كارنوسا" "Tomaz Carnosa" ، رسالة من "البندقية" ، في الحادي والثلاثين من شهر مايو عام ١٥٦٨م ، ذكر فيها الاستعداد من قبل الأتراك في السويس لتخليص عدن من الاحتلال البرتغالـي : (٣٥)

(باللغة الإسبانية)

السيد عالي الشهرة

في الأول من أمس ، السبت ، التاسع والعشرين ، كتبت لفضيلتك في "روما" وقدمت رسالة إلى "إسحاق بيكودو" "Isaac Picodo" في الثاني عشر من إبريل من "طرابلس بسوريا" ، وفقرات من رسالة أخرى من "جودا ماركوس" في الأول من إبريل ، مرفقة نسخة منها مع هذه ، ولم أبعث بالأصلية ؛ لأن كل ما فيها التماسات طرحها "اسحاق بيكودو" ليتم الإيفاء بها حتى يتمكن من سداد ديونه .

---

(٣٥) رقم الوثيقة والهامش.

والرسائل من قائد هرمز التي جاء بها من جلالتك وفضيلتك وأخرى كثيرة أرسلت بواسطة يهودي لم يصل بعد ، والتي أتأسف لعدم إرسالها مع هذا الشخص الذي جاء بتلك الرسائل ، وعليه فإنني أنتظرها بفارغ الصبر .

عن الأخبار التي جاءت أيضاً من القسطنطينية إلى هنا ، قد بعثت بها لفضيلتك ، ولاحقاً جاء أحد السادة ابن أحد جيراني ، كان مغادراً الإسكندرية في الرابع من مارس ، قال إن الفزع عظيم جداً هناك ، وفي القاهرة ، من أن يستولي البرتغاليون على عدن ، وأنه عند مغادرته كانوا جميعا مستعدين في السويس للمغادرة مع اثنتين وعشرين سفينة وأخرى ضخمة جداً ، لكنه لا يعلم ما بقي هناك .

جاء هذا الرجل من حلب ، وكان غادرها في الأول من إبريل ، أكد لي بأن هناك أخباراً تقول إن على مشارف عدن يوجد أسطول من ستّين سفينة ، وآخرون يقولون ثلاثين ، لكن عبر أنباء أولية من القاهرة قيل إنها خمس عشرة سفينة .

مؤخراً عبر رسائل في الثاني من الشهر الحالي تلقاها فضيلته هنا في الثامن والعشرين ، ومن أشخاص خاصين ، سمع من القسطنطينية بوصول ثلاثين سفينة إلى الإسكندرية ، وإن عدن استولى عليها البرتغاليون ، وهم هناك غير راضين ؛ بسبب الضرر الذي سيلحق بهم .

من "البندقية" في اليوم الأخير من مايو للعام ١٥٦٨م .

وفي العام نفسه (١٥٦٨م)
صدرت لوائح سارية المفعول لحصن هرمز [(أ)] ، "غوا" "Goa" في العشرين من شهر أغسطس عام ١٥٦٨م : [(٣٦)]

أنا ، "د . أنتاو دي نورنها" ، عضو مجلس سيدنا الملك ونائب الملك في الهند ، أخطرك يا قائد المدينة وقلعة هرمز ، والموظف المسؤول عن خزينة سموه والمقيم هناك ، الوكيل التجاري لتلك القلعة والموظفين الآخرين والأشخاص الذين يتعلق الأمر بهم ، أنّه عندما بعثني سموّه إلى تلك المناطق أمر بأن أعطي في "البرتغال" مرسوماً منه تقول كلماته ما يلي :

الفقـرة ١ العشـرون : عند تحديد التعاملات مـع العائدات المالية لدولة الهند :

أنا الملك ، أخطرك "د . أنتاو دي نورونها" العضو في مجلس والذي سأبعثه الآن لمناطق الهند كنائب الملك ، وأنني مهتم الآن بالنفقات

(أ) لم نجد أي وثائق قد ترشدنا إلى بعض الأسعار .

(٣٦) رقم الوثيقة والهامش.

الضخمة التي تتحملها خزينتي في تلك المناطق ، والتي تتزايد للحد الذي جعل تلك المنصرفات تفوق العائد المالي بمقدار خمسة وعشرين مليون دولار في السنة .

هذا أمر مدمر للدولة ولمصالحي كما هو واضح ، معروف تماماً أن هذا نتيجة للرواتب العالية التي يمكن تجنبها ، وهناك نفقات أخرى كثيرة ليست بالضرورية ولا تتناسب بما يجب أن يقدم من خدمات للربّ ، كما أنها لا تساهم في الحفاظ على الدولة مما يجعل بالتأكيد من غير الممكن في الغالب توفير ما هو مطلوب للدفاع عن الدولة .

حتى نتمكن من التعامل مع هذا الأمر بطريقة صحيحة وسليمة كما يتطلب ، فإنني أرجو منك أن تدرس المذكرة التي أمرت بتسليمها لك ، كانت قد أرسلت لي بواسطة "كوندي دو ريدوندو" "Conde do Redundo" ، نائب الملك في تلك الأنحاء[أ] وتحتوي على بيانات مفصلة عن العائدات المالية

(أ) فالكاو فيقريدو : "(قلعة هرمز) هي المفتاح لدولة الهند ، قام بزيارتها كل العالم وأهل البندقية" . (ليفرو دي تودا فازندا ، ١٦٠٧م صفحة ١٢١) جواو دي باروس (وثيقة ١١ ، الكتاب الثاني ، الفصل الثاني) يفيد بأن المقيمين في هرمز يقولون أن العالم عبارة عن خاتم وهرمز هي الحجر الكريم الذي يعلوه . يقول جاسبر كوريا من جانبه أن مدينة هرمز قد أصبحت عظيمة جداً عبر التجارة وهي لكل أهل الهند الخاتم وهرمز هي الحجر الكريم" (نص من ليندااس ١ صفحة ١٨٥) .

يكتب بيرارد "في الساحل البعيد للهند تقع هرمز وهي مملكة ضخمة وتبعد خمسمائة فرسخ عن "غوا" وبالقرب من فارس ، وهي على مدخل مضيق فارس ، على ذلك المدخل جزيرة صغيرة تسمى هرمز يملكها ويحكمها البرتغاليون الذين لهم قلعة رائعة وبها حراسة جيدة ، وهذه الجزيرة تعتبر بعد "غوا" أغنى وأكثر المناطق تحقيقاً للأرباح يملكها البرتغاليون في الهند (فيفان II ص ١٧٨) .

تشييد قلعة هرمز بدأ في ٢٤ أكتوبر عام ١٥٠٧م بموافقة الملك الحاكم في ذلك الوقت ، صافي الدين .. "عندما بدأ العمل أعطى "أفونسو دي البوكيرك" الأولوية لإكمال البرج لأنه كان يعتزم الإبحار في يناير لاستكشاف البحر الأحمر ، فأراد أن يترك هذا البرج وله طابقان حتى يستطيع

والمنصرفات في كل الهند ، بعد استشارة كبير الأساقفة في "غوا" وآخرين تعتبرهم أنت مناسبين .

عليك تقليل أو إلغاء كل النفقات في هذه المذكرة والتي تبدو لك متزايدة وكثيرة أو غير ضرورية ، بمثل ما يتعلق بالرواتب والتعينات وبالنسبة لنفقات أخرى . عليك أن توظّف في الأمر كل الحرص الممكن والدبلوماسية التي ترى أنها تفيد أشغالي ومصالح خزينتي ، وما تقرره أنت بعد نصائح أولئك الأشخاص فإنك عندها ستأمر بوضع ذلك موضع التنفيذ حتى يتمّ العمل به في الحال .

البرتغاليــون الدفاع عن أنفسهم من هناك ضد كل الفرس الذيــن قد يأتون" (القائد أفونسو دي البوكــيرك الجـزء الأول ، الفــصــل ٣٧ ص ١٤٠) . كان هــذا في حملته الأولى ضد هرمز ، وقد سميت القلعة باسم "نوسا سينهورا دا فيتوريا" .

في حملتــه الثانية ضد هرمز في العام ١٥١٥م ، استولى البوكيرك على المدينة وأكمل القلعة التي بدأهــا قبل مــدة .. (دورت باربوسا ، ليفرو ص ٥٩) . في رسالــة بتاريخ ٢٢ سبتمبر عام ١٥١٥م قــام "أفونسو دي البوكيرك" بإطلاع الملك على موضوع هذه القلعة : هرمز حالياً حرة وخالية من كل الأتراك الذين كانوا يتواجدون فيها ، ولذلك قمت بتحريرها من كل تلك الفوضى والشغب الذي كان يتسبب فيه أولئك المغاربة الشياطين القذرين .

مــن تلك الناحية تكون قلعتنــا على مقربة من مسكن الملك ويشرف الجــدار على البئر الغربية ، لأنه في بعض الأحيان وبسبب المد العالي والبوابة الرئيسية تواجه الشاطئ فقد فتحت بوابة أخرى باتجاه الممر الذي يتجه نحو البوابة . كذلك خارج قلعتنا فإن الجدار بكل طوله من الناحية الغربية تابع لنا ، وكذلك بوابة ضخمة ناحية الممر أقيمت باتجاه البحر ، وبعض المنازل التي شيدت بطريقة جيــدة ، والتــي قام ببنائها "خواجا عطار" تلاصق البوابة والتــي أرجو أن تشيد محطتك التجارية بالقرب منها .. " (كارتاس ١ ، ص ٣٧٩ ، لشبونه ، ١٨٨٤م) .

كذلك الاستقــرار والاستيطان المؤكد للبرتغاليين في هرمز بدأ بتاريخ عام ١٥١٥م ، كان ملك هرمز في ذلك الوقت لا يزال صافي الدين واسم وزيره نور الدين في العديد من العقود التي تمت من قبل حكام دولة الهند مع هرمز (انظر سيماو بورلهو ، تومبو دو استادو دا انديا ص ٧٨ - ١٠٤) .

في ١٢ مايــو عام ١٦٢٢م استــولى شاه عباس على هذه القلعة بمساعــدة الإنجليز ، (cf . لوسيانو كورديرو ، كومو بيرديو هرمز ص ١٤٥ ، س . ار . بوكر ، تعليق روي فرير دي اندرادا) .

أتوقع في خدمتي أنه يعد أمراً مقبولاً ليس فقط عدم زيادة الإنفاق على العائد المالي لكن أيضاً ضبط خزينتي والتعامل مع المنصرفات ، بحيث تكون دائماً أقل من المستلم العائد . عليك الاهتمام بهذا الأمر حالما تصل وبكل السرعة الممكنة ، وعليك أن تبعث لي مذكرة بكل الذي تقوم به ، ومنه أستطيع أن استشف كل شيء قمت بحذفه وأيضاً مع ما أنفق حتى أرى بنفسي عندما يقارنان معاً . سيكون في البداية نسخة من مرسومي هذا .

قد وجّهت بواسطة ذلك المرسوم نواب الملك والحكام لتلك المناطق على ألا تزيد المنح التي تقدم على اثني عشر ألف "كروزادس" بكل سنة باسمي للأشخاص الذين يقومون بخدمتي هناك ، لكنني علمت أنهم يزيدون في الإنفاق من ذلك المبلغ بقدر كبير ، وأن تلك المنح والمكافآت تصل لثلاثين ألف "بارداوس" تقريباً في السنة ، إنني آمرك تحت أي ظرف ألا تنفق أكثر من الاثني عشر ألف "كروزادوس" في السنة وإن قمت بذلك فإنني سآمر بأن أي شيء يتعدّى مبلغ الاثني عشر ألف "كروزادوس" أن يُجمع ويسدّد من ممتلكاتك الخاصة .

أرجو أن يصبح ذلك سارياً كرسالة صدرت باسمي وختمت بختمي وصدرت عن محكمتي العليا ، بغض النظر عن القانون المحلي للكتاب الثاني في الفقرة (العشرين) والذي يقول إن الأمور التي ينتهي تأثير سريانها أكثر من سنة سيتم إصدارها كرسالة ولن تصبح سارية إذا صدرت كأوامر ، وهذا يصبح سارياً حتى لو لم يصدر من قبل المحكمة العليا بغض النظر عن القانون المحلي الذي يقول عكس ذلك .

كتب ذلك "بانتالياو ريبلو" "Pantaliao Rebello" في "لشبونه" في الثامن من مارس عام ١٥٦٤م- الملك .

الفقـرة (١) : الكيفيـة التي أرسل بهـا نائب الملـك أوامر سارية تتعلق بالرواتب وسدادها لقلعة هرمز :

امتثالاً لما جاء أعلاه ، وحالما وصلت لمدينة "غوا" من "البرتغال" وتسلمت مقاليد الحكم قمت على الفور وأوليت مسألة الأوامر السارية لقلعة هرمز المتعلقة برواتب الوظائف والإنفاق هناك . بحثت الأمر مع "جاسبار" ، كبير أساقفة "غوا" وآخرين من مسؤولي صاحب السمو الذين لهم خبرة بالمواضيع في تلك الدولة ، آخذاً في الاعتبار المعلومات التي تلقيتها محلياً ، حتى أتمكن من تخصيص أو وضع حد لتلك الأشياء التي لا ضرورة لها .

تبعاً لذلك فإن المبالغ المدفوعة في القلعة قد تم فحصها في المذكرة وتقديرات العائدات والنفقات في المناطق التي أمر سموّه بلفت النّظر إليها في المرسوم المذكور .

من المعلومات التي جمعتها ، وأراء المسؤولين التي تتعلق بما هو ضروري لتلك القلعة ، وما يمكن الاستغناء عنه ؛ انسجاماً مع مقاصد صاحب السمو ولصالح والحفاظ على هذه الدولة ، فقد أعددت أوامر سارية والتي اكتملت في اليوم الأول من شهر أكتوبر عام ١٥٦٤م ، أرسلتها في الحال لتلك القلعة وعليها توقيعي ليتم تطبيقها هناك كما تم فعلاً وحتى الآن .

أخطرت بأن بعض الأشياء تم تحويرها هناك ، وأن أخرى أضيفت وذلك للفائدة الكبرى لخدمة صاحب السمو وحتى الأرباح لخزينته ؛ وقد تسبب ذلك في بعض التعقيدات ، لذلك أعددت لمراجعة تلك الأوامر السارية حتى يتم إيضاحها .

قمت بمناقشتها مع "أنطونيو دي تيفي" كبير مراقبي الخزينة في تلك المناطق ومع "نونو كارنيرو" ، السكرتير ، و"جاسبار بيريز دي ماتوس" الموظف الأول السابق لخزينة قلعة هرمز ، "ليسنسيادو فرانسيسكو الفاريز" "Licenciado Francisco Alvares" قاضي قضايا الخزينة ، "ليسنسيادو مارتيم فيريرا" "Licenciado Martim Ferreira" ، وكيل التاج ومسؤولين آخرين وأشخاص آخرين على دراية ومعرفة بتلك القلعة .

بناء على نصيحتهم قمت بوضع الأوامر السارية طبقاً لمرسوم صاحب السمو الذي يؤسس ويتوافق مع الأخرى السابقة التي بدا من الضروري تركها كما هي ، أنا أعتبرها في خدمة صاحب السمو ولفائدة خزينته وأن تلك الأوامر السارية يجب التقيد بها تماماً دون استثناء ودون إضافة .

بعد إصدارها ومستقبلاً لن تتم أي إضافة لها وإن حدث ذلك فإنّها لن تطبّق أو صنفت من ضمنها ، كلياً أو جزئياً ، ولن يكون لأي منها أي صلاحية سوى تلك الأولى ، وفي حالة حدوث أي إضافة في السجلات ، يجب أن تلحق ببيان بعدم التقيد بها في أي وقت ، ولا أن تتم الاستفادة منها في أي وضع .

فقرة (٢) : راتب القائد والمسؤولين الآخرين في تلك القلعة :

مادة (١) أنت بصفتك القائد لتلك القلعة فستتقاضى راتباً قدره

ستمائة ألف ريس في كل سنة من قيادتك ، كما أشار صاحب السمو (٦٠٠,٠٠٠ ريس) .

فقرة (٣) راتب "الكايدي – مور" "Alcaide Moore" والموظفين الآخرين في تلك القلعة :

مادة (١) : سيتقاضى "الكايدي مور" راتباً قدره مائة ألف ريس في السنة ، يمكن أن يشغل هذا المنصب عندما لا يكون هناك رئيس مسؤول عن الخزينة في القلعة ؛ لأنه عند وجود أحد فإن الوكيل التجاري سيتولى هذه الوظيفة ومعها وظيفة المكتب التجاري ، والتي يمكنه أداؤها لقلة الأعمال التي عنده ، عندما يكون هناك رئيس مسؤول عن الخزينة في المقر ، لن يتسلم "الكادي – مور" هذا الراتب إلا عندما يقوم بشغل المنصب كما جاء بأعلاه (العاشر من ٠,٠٠٠ ريس) .

فقرة (٤)

مادة (١) سيتسلم قاضى التاج في تلك القلعة راتباً قدره مائة ألف ريس (العاشر من ٠,٠٠٠ ريس) في السنة .

فقرة (٥)

مادة (١) : الوكيل التجاري لتلك القلعة سيتسلم راتباً شهرياً قدره مائة ألف ريس (العاشر من ٠,٠٠٠ ريس) .

فقرة (٦)

مادة (١) الكاتبان في المكتب التجاري سيتسلمان مبلغ مائة ألف ريس ، خمسون ألفاً لكل منهما ، عندما يكون الرئيس المسؤول للخزينة

موجوداً فإن أحدهما سيكون كاتباً للخزينة ، أيهما يختاره رئيس الخزينة المسؤول . كما يقوم هذان الكاتبان بالعمل كمراقبين للقلعة وأعمال البناء فيها ، يتبادلان العمل كل شهر أو حسب الطريقة التي يتفقان عليها فيما بينهما . لن يتم تعيين مراقب سوى هذين الكاتبين (العاشر من ۱۰,۰۰۰ ريس) .

فقرة (٧)

مادة (١) (الموكساريف) أمين الإمداد والتموين في مستودع الأسلحة بالقلعة سيتقاضى راتباً قدره ثلاثون ألف ريس في السنة (۳۰,۰۰۰ ريس) .

فقرة (٨)

مادة (١) كاتب مخازن الأسلحة سيتقاضى راتباً قدره عشرون ألف ريس (العشرون .۰۰۰ ريس) .

فقرة (٩)

مادة (١) مساعد المأمور في القلعة سيتقاضى مبلغ أربعة وعشرين ألف ريس في السنة كراتب ومنصرفات إعاشة (٢٤,٠٠٠ ريس) .

فقرة (العاشر من)

مادة (١) ضابط الحرس بمستودع الأسلحة للقلعة سيتقاضى مبلغ خمسة وعشرين ألف ريس في السنة كراتب ومنصرفات إعاشة (٢٥,٠٠٠ ريس) .

فقرة (١١)

مادة (١) مسؤول الأمن في القلعة سيتقاضى مبلغ ستة وأربعين ألف ريس في السنة كراتب ومنصرفات إعاشة .

فقرة (١٢)

مادة (١) مسؤول حصن السفن الملكي والذي يمثل أيضاً قبطان السفينة سيتقاضى مبلغ أربعين ألف ريس في السنة كراتب وإعالة لكلا الوظيفتين والتي سيعين لهما شخص واحد مناسب ومؤهل .

فقرة (١٣)

مادة (١) مسؤول أعمال الحدادة سيتقاضى سبعة وعشرين ألف ريس في السنة كراتب وإعاشة .

فقرة (١٤)

مادة (١) مترجم قاضي التاج بالقلعة سيتقاضى سبعة ألاف ومائتي ريس للإعاشة بواقع ستمائة ريس في الشهر .

فقرة (١٦)

مادة (١) صانع أسلحة من السكان المحليين لتنظيف الأسلحة في القلعة سيتقاضى سبعة آلاف ومائتي ريس بواقع ستمائة ريس في الشهر وثلاثين "موس" من الأرز في الشهر .

فقرة (السابع عشر)

مادة (١) مسؤول حوض السفن الملكي سيكون معه مراقب عمال

لمساعدته في العمل هناك وسيدفع له مبلغ ثلاثمائة ريس في الشهر للإعاشة وخمسة عشر "موس" من الأرز في الشهر .

فقرة (١٨)

مادة (١) سيتواجد اثنان من العمال في مستودع الأسلحة يدفع لهما ثلاثمائة ريس نقداً كل شهر وخمسة عشر "موس" من الأرز كل شهر .

فقرة (١٩)

مادة (١) في حوض السفن بتلك القلعة سيتواجد مراقب عمال (موكاداو) وثمانية من البحارة المحليين لحراسة سفن صاحب السمو والعمل في حوض السفن ، وسيتقاضى كل منهم ثلاثمائة ريس في الشهر نقداً ، وسيتقاضى مراقب السفن ستمائة ريس ، سيعطون الأرز أيضاً إذا كانوا يأخذونه حتى اليوم وبغير ذلك لا يعطى لهم .

فقرة (العشرون) :

مادة (١) : صانع الحبال من السكان المحليين في القلعة يقوم بالعمل في حوض السفن سيتقاضى ستمائة ريس في الشهر نقداً ، كذلك حصته من الأرز إذا كانت تصرف له حتى الآن .

فقرة (٢١) :

مادة (١) : صانع الأقفال ليقوم بإصلاح الأقفال والعناية بالبنادق وأشياء أخرى ضرورية في القلعة ، سيتقاضى عشرة آلاف وثمانمائة ريس في السنة بواقع تسعمائة ريس في الشهر .

فقرة (٢٢)

مادة (١) : اعتبر ذلك من مصالح سيدي الملك ألا يكون هناك منصب "الكايدي دو مار" في القلعة وفي مدينة هرمز ، وذلك لعدم الضرورة ، مضر جداً للخزينة الملكية أن يتم التحرش بالتجار ومضايقاتهم في الوقت الذي يجب أن يتلقوا فيه المعاملة الكريمة والرفيعة ، وقد أخطرت أن ذلك ما كان يحدث دائماً . الشخص الذي يشغل هذا المنصب حالياً لن يستمر بعد الآن ، وسيقوم صاحب السمو بتعويضه .

فقرة (٢٣)

مادة (١) : النجارون الملباريون الثلاثة في تلك القلعة الذين اعتادوا العمل (دانينا) فهم هناك بناء على أوامر سارية من سفينة صاحب السمو (دانينا) وقد وجهت بألا يبقوا أكثر من ذلك وألا يدفع لهم أي شيء ، حيث علمت بعدم وجود أي ماليباريين يعملون بالنجارة هناك ، والإعاشة التي تدفع لهم يجب أن يستفاد منها في استخدام آخرين بدلاً عنهم ، وذلك لوجود نجارين محليين يستطيعون القيام بالعمل المطلوب ، ويمكن الدفع لهم على أساس يومي عندما يشتغلون .

فقرة (٢٤) : كما أمر بعدم وجود نائب مأمور للخزينة في قلعة هرمز ، وقد أمر الآن بوجود شخص واحد فقط في ظروف معينة .

مادة (١) : في الأوامر السارية السابقة قلت بعدم وجود نائب مأمور للخزينة بالقلعة ؛ لأن ذلك لم يكن ضرورياً ، بناء على طلب الرئيس المسؤول عن الخزينة المقيم والذي أفاد بأهمية وجود نائب مأمور للقيام

بتحصيل العائدات المالية المستحقة لخزينة صاحب السمو ، ولواجبات أخرى كثيرة تؤدي بتلك الوظيفة ، فقد أمرت فيما بعد بوجود مثل ذلك الموظف . تم إلغاء منصب "الكايدي دومار" ؛ حيث إن وجود نائب مأمور الخزينة أصبح أكثر ضرورة ، وعليه فقد قررت بناءً على ما تقتضيه مصالح سيدي الملك أن تظل هذه الوظيفة في القلعة .

سيتقاضى راتباً قدره خمسة وعشرون ألف ريس في السنة ، شريطة أنه متى كان ضرورياً القيام بتلك الأعمال في البحر فإن المأمور المذكور ، سيذهب عندما يؤمر بذلك دون أن يتلقّى أي منحة أخرى أو مبالغ مستحقة من أي شخص كما كان يفعل "الكايدي دو مار" .

فقرة (٢٥) : أجر حرس القائد :

مادة (١) : بصفتك كقائد حسب الأوامر السارية معك ثلاثون من رجال الحرس لمرافقتك والسكن في القلعة بحيث يتلقى كل منهم ستمائة ريس في الشهر بالإضافة لأجرهم والإعاشة وستكون لهم رواتب مستقلة ، ستدفع إعاشتهم كل ربع سنة وسيعطى الأجر والإعاشة لهم بشهادة المراقب الذي سيسجلها كل شهر كعاملين في الحرس . سيتم دفع الستمائة ريس للإعاشة عند التزامهم بالعمل حتى يتم خصمها مع البقية .

فقرة (٢٦)

مادة (١) : سيكون معك خمسون من الرجال كخدم وأتباع كحاشية وسيقيمون في القلعة وستدفع لهم رواتبهم والإعاشة التي سيتسلمونها كل ربع سنة عندما تستحق .

فقرة (٢٧)

مادة (١) : الوكيل التجاري لتلك القلعة سيعمل معه ثمانية رجال للقيام بأعمال المكتب التجاري .

الكتبة في ذلك المكتب سيكون لكل رجل منهم راتبه وإعاشته التي ستدفع ، والتي سيتسلمونها في القلعة عند كل ربع سنة عندما تصبح مستحقة .

فقرة (٢٨) :

مادة (١) : قاضي التاج بالقلعة معه أربعة برتغاليين ومع الشاهبندر أيضاً أربعة برتغاليين آخرين لمرافقتهم والتحرك معهم عندما يقومون بالتجول لأداء واجباتهم ، أجورهم وإعاشتهم ستدفع أيضاً والتي سيتسلمونها كل ربع سنة في القلعة عندما تصبح مستحقة .

فقرة (٢٩)

مادة (١) : سيكون هناك خمسة عشر ممن يطلقون القذائف متواجدين بصورة دائمة في القلعة وستدفع لهم أجورهم والإعاشة كل ربع سنة عندما تصبح مستحقة .

فقرة (٣٠) :

سيتواجد ثلاثمائة رجل في القلعة في الشتاء والصيف .

مادة (١) : وضعت في الأوامر السارية السابقة أمراً بوجود ستمائة رجل حاملين للسلاح في القلعة خلال الشتاء لحراستها والدفاع عنها وأربعمائة رجل في الصيف ويشملون رجال القائد والموظفين الآخرين ، قد أفدت

أن حاملي السلاح أولئك لم يقيموا في القلعة ويوجد في مكانهم رجال كثيرون يدفع لهم للذهاب للقلعة وتكملة العدد حيث يقومون بالأعمال المكفلين هم بها ، ولا يذهب آخرون إلى هناك إنما لقلاع ومدن أخرى ، بينما يبقى آخرون دون عمل لسيدي الملك ، هذا ضار جداً لأعمال الملك ومصلحة خزينته .

بما أن صاحب السموّ يدفع أموالاً بلا مقابل والقلعة ليست عليها حراسة ولا من يدافع عنها كما يجب ، بناءً على نصيحة المسؤولين المذكورين ، فإنني أوجه في المستقبل بعدم تواجد أكثر من ثلاثمائة رجل من حاملي السلاح في تلك القلعة ، صيفاً وشتاءً وأن يبقوا في القلعة بصورة دائمة للدفاع عنها وحراساتها ؛ لأنه وبجانبهم هناك دائماً العديد من الآخرين الذين يذهبون إلى هناك بغرض العمل ، حيث هي ميناء بحري وموقع تجاري مزدحم .

يشمل هذا العدد رجالك والجنود الذين يقومون بالحراسة وقاذفي القنابل وكل الرجال الذين مع مسؤولي القلعة ، أولئك الرجال الثلاثمائة ستدفع أجورهم وإعاشتهم كل ربع سنة في القلعة بنهاية كل ثلاثة أشهر عندما تصبح مستحقة ، سيتمّ سداد كل تلك المبالغ معاً بناءً على أوامرك من قبل الكاتب الرئيسي المسؤول عن الخزينة .

إذا كان موجوداً وفي حضورك كقائد ، والوكيل التجاري وموظفي المكتب التجاري ، سوف لن تسمح بالسداد أو تأمر بذلك لأي شخص ليس موجوداً في القلعة ويستحق استلام أجره هناك ، ولا للتجار ولا الأشخاص الذين يذهبون إلى هناك من أجل العمل ، ولا لقباطنة

السفن أو ملاكها الذين يذهبون للتجارة هناك ؛ لأنني أعتبر ذلك خطأ كبيراً ، الدفع لأشخاص لا يقومون بالعمل والخدمة في القلعة ، ستسجل تلك المدفوعات كل ربع سنة في سجل تحت مسميات عديدة ، أي رجال الحراسة مثلاً تحت مسمى محدداً .

عند تسجيلهم يقدمون شهادات من المراقب بأنهم قد قاموا بتلك الخدمة فعلاً ، والتي يقوم الكتبة في الوكالة التجارية بالتأكيد عليها . رجالك أيها القائد سيسجلون تحت مسمى آخر وبالمثل أولئك الذين يعملون مع الوكيل التجاري وكذلك الموظّفون الآخرون ، وأيضاً الرجال حاملو السلاح تحت مسمى آخر .

وسيسجل الجميع من قبل كتبة المكتب التجاري ، وكل شخص سيوقع على المبلغ الذي تسلمه ، لضمان وأمن أكثر لتلك المدفوعات فستسجل على أربعات بحيث كل من الأربعة يقدم بياناً يؤكد فيه بصحة الآخرين ، وعند تسجيلهم يتم بعد ذلك الدفع لهم .

على الوكيل التجاري أن يكون حريصاً جداً ليعرف أولئك الرجال الذين تم الدفع لهم أنهم ينتمون لتلك القلعة ، وإن وجد أنه دفع لأحد ما ولم يكن يعمل هناك أو ليس مستحقاً الدفع أو جاء من الخارج فلن تعتمد في حسابه وسيدفع ثلاثة أضعاف المبلغ للخزينة الملكية عقاباً له ، لهذا السبب فإن من يستحقون الدفع عليهم الحضور شخصياً واستلام أجورهم في حضور المسؤولين المذكورين ، ولن يُعطوا أي شيء لأي شخص آخر أو التوقيع نيابة عنه .

إذا أمرت أنت كقائد أن يتم الدفع خلافاً لهذا الإجراء بغض النظر

عن تلك الأوامر السارية ، فإن الوكيل التجاري سيلفت نظرك ، وإن تجاهلته فسيأخذ بلاغاً من الكتبة المتورطين في تلك العملية ويقوم بإرساله إلى هنا ، مع بيان المبلغ المدفوع ليبرئ نفسه ويتجنب العقاب والإجراء الذي تحملت أنت الأمر بموجبه .

فإنني آمر كتبة المكتب التجاري إن حدث ذلك فإن عليهم إصدار بلاغ بالحقيقة تحت طائلة العقاب بفقدانهم لوظائفهم ورواتبهم ، تلك المبالغ المدفوعة يجب ألا تزيد عن المبلغ المبين بأي حال ؛ لأن أي شيء إضافي لن يتم اعتماده في حساب الوكيل التجاري .

عندما يتمّ سداد المبالغ عن طريق هذا الإجراء ، فإنّ سجل المدفوعات لكل ربع سنة سيُقفل ، وفي النهاية سيدوّن بأن السداد قم تمّ بهذه الطريقة ، عدد الجنود وعدد رجالك وشخصك كقائد ، ستوقع عليه مع المسؤولين المذكورين آنفاً وأيضاً كبير مسؤولي الخزينة إن وجد واحد ، سيرسل الأصل إلى هنا ونسخة أصلية تمّ فحصها وتوثيقها للتّأكيد ستظلّ هناك حتّى يتمّ تقديم سجلّ للمدفوعات للخزينة الملكية وسينظر إذا كان متطابقاً مع الأوامر السارية حتى يتمّ اعتماده وإدراج الخصومات في السجل العام ثم ترصد في حساب الوكيل التّجاري .

يجب أن تكون هناك شهادات اعتماد من السجل العام .

بسبب حدوث الكثير من الشّكّ والإشكالات التي قد تنتج عن التحويل والالتزام في تلك المدفوعات التي تتم في القلعة وفي جهات أخرى في الهند ، فقد وجهت بإصدار شهادة من السجل العام لكل شخص يدخل في الخدمة الملكية بإدراجه فيه والمبلغ

المستحق له ، وإذا ما كان تخويله غير مشروط ، ومتى يتم الصرف ، والأشخاص ذوو العلاقة عليهم تقديم تلك الشهادات حتى يتم الصرف المستحق لهم .

ليس على هؤلاء الأشخاص إعطاء ضمان ؛ لأنهم أثبتوا من قبل أنهم من المسجلين وكيف تم تكليفهم ، لكن على كل منهم أن يقسم على الكتاب المقدس أمام اللجنة بأن الشهادة التي قدمها هي له شخصياً وهو مسؤول عنها . ينطبق بالمثل على كل الأشخاص الذين يتسلمون مبالغ على أنها تخصهم .

فقرة (٣١)

مادة (١) : نائب مأمور القلعة سيكون معه ثمانية من الجنود المشاة فقط ؛ لأن الأربعة الذين أكملوا العدد لاثني عشر أخذوا منه بناءً على الأوامر السارية السابقة ؛ حيث إن ثمانية اعتبرناه عدداً كافياً .

فقرة (٣٢)

مادة (١) : نائب مأمور الخزينة الملكية سيكون معه ثمانية جنود كمرافقين معه . أولئك الجنود الذين مع نواب مدراء القلعة والخزينة سيدفع لكل منهم أجر قدره ثلاثمائة ريس في الشهر وخمسة عشر "موس" من الأرز لكل منهم في الشهر وسيتم تسجيلهم ويسلمون شهادة من المراقب ومن قاضي التاج أو في حالة الذين يعملون في الخزينة فمن الرئيس المسؤول عن الخزينة أو في حالة عدم وجود أحد فسيقوم الوكيل التجاري بالدفع لهم .

نفقات الكنيسة[أ] والمستشفى[ب] :

فقـرة (٣٣) : تتعلّـق بالإنفاق علـى الكنيسـة والمستشفى وأمور أخرى وردت أدناه :

مادة (١) : مدير المستشفى الذي عين بأمر من سيدي الملك سيتقاضى راتباً قدره مائة ألف ريس في السنة .

فقرة (٣٤) :

مادة (١) : كاهن القلعة سيتقاضى مبلغ أربعة وثلاثين ألف ريس في السنة كراتب وإعاشة .

فقرة (٣٥) :

مادة (١) : أربعة من رجال الدين الأكليروس بالكنيسة التي بالقلعة سيتقاضون أربعة وثمانين ألف ريس في السنة لكل منهم واحد وعشرين ألف ريس في السنة كراتب وإعاشة .

فقرة (٣٦)

مادة (١) : سيتلقى صراف الكنيسة إعانة بمبلغ سبعمائة ألف ومائتي ريس في السنة ، بمعدل ستمائة ريس في الشهر لما يقوم به من عمل ، وبالرغم من الإشارة إليها في الأوامر السارية السابقة بتلقيه ثلاثة عشر

(أ) فرانسيسكو كوتينهو ، كوندي دي ريدوندو ، نائب الملك في الهند من ٧ سبتمبر عام ١٥٦١م حتى ١٩ فبراير عام ١٥٦٤م .

(ب) (كنيسة دا كونسيساو) الكاهن جاسبر كوريا ، ليندا س ١١ ص ٤٣٩ - كتب الأب سيلفا ريجو : محاولة "أفونسو دي البوكيرك" الأولى لبناء قلعة في عام ١٥٠٧م ، ذكرت كنيسة دا فيتوريا أيضاً في ١٥١٥م تأسست أبرشية "دا كونسيساو" ، قد شيدت داخل القلعة .

ألفا ومائتي ريس بمعدل ألف ومائة ريس ، هذا بسبب عدم وجود أي أمين صندوق في القلاع الأخرى بمثل هذا المبلغ من الإعانة وبالطريقة المطروحة بها هنا . إذا كان الشخص الذي يشغل هذا المنصب موجوداً في سجل الرواتب فتسحب دفعاته الربع سنوية عن الإعانة لتضاف إلى حساب الرجال الذين بالقلعة .

فقرة (٣٧)

مادة : عازف الأورغ سيتقاضى راتباً قدره تسعة ألف ريس في السنة عن عمله وواجباته ، بالإضافة لهذه الإعانة التي يتلقاها الرجال حاملي السلاح كما سيضاف إلى قوة الرجال المعينين للقلعة .

فقرة (٣٨)

مادة (١) : سيتواجد بالكنيسة اثنان من المنشدين البرتغاليين الذين سيدفع لهما أربعة عشر ألفاً وأربعمائة ريس في السنة ، بمقدار ستمائة ريس لكل منهما في الشهر عن الإعاشة .

فقرة (٣٩)

مادة (١) : الكاهن المذكور سابقاً والمستفيدون ، وأمين الخزينة والمنشدون يمنحون ملابس كهنوتية بيضاء (مدرعة) بمناسبة عيد الفصح كل سنة ، والتي تكلف كل منها ستمائة ريس بإجمالي قدره أربعة ألف وثمانمائة ريس سنوياً .

فقرة (٤٠) :

مادة (١) : في الأوامر السارية السابقة رصدت مائة ألف ريس في السنة

للمنصرفات الجارية للكنيسة ، غرفة المقدسات وملابس الكهنة والخدمات ، أي : الخمور ، والقداس ، دقيق للضيوف ، زيت للمصابيح ، وخميس العهد (الغسل) ، عيد الفصح وحطب الوقود والمياه والغسيل ، زخارف على أوراق ونبات السمار من أجل الاحتفالات الرئيسية ، وقد أفدت أن تلك مبالغ طائلة تتطلبها هذه للمنصرفات ، ولذلك أرسلت للاستفسار عن المبلغ الذي أعطى للكنائس في "ديو" "دامان" و"باسين" ، والتي هي في نفس الوضع فوجدت أنها منحت ستمائة ألف ريس في السنة .

أمرت "أنطونيو مينديز دي كاسترو" الذي كنت قد أرسلته إلى هرمز كرئيس لموظفي خزينة صاحب السمو لفحص وتدقيق تلك المدفوعات ومدى ضرورتها وتحديد ما هو مناسب ومعقول في ضوء ما يعطى للكنائس الأخرى ، ولذلك فإنني آمر في حالة قرار رئيس الخزينة المذكور بما يجب دفعه بأمر منه صادر قبل الأوامر الحالية ، فيجب إعطاء ذلك للكنيسة ويبين في الأمر الصادر عنه حتى يكون إجمالي المبلغ معروفاً .

أما إذا لم يقرر بعد فسيمنح مبلغ وقدره ستمائة ألف ريس في السنة عن تلك النفقات العادية بناءً على تلك الأوامر السارية . إذا رغب أمين الصندوق أو الكاهن بالاستئناف في ذلك الخصوص فعليهم بإرسال الأمر لي هنا ، لكن تظل هذه الفقرة سارية حتى أصدر أمراً بغير ذلك ، سيمنح هذا المبلغ لأمين صندوق الكنيسة ويسلم الوكيل التجاري إيصالاً بذلك لوضعه ضمن الحسابات .

فقرة (٤١)

مادة (١) : القداس الذي يتم يجب تكراره كل سنة في الكنيسة

على روح الراحل "إنفانتي دوم هنريك" وسيمنح كاهن تلك الكنيسة ثلاثة ألف ومائة وأربعين ريساً في السنة من أجل القائمين على القداس ، سيحصل الوكيل التجاري على الإيصال منه .

لإضافته ضمن حساباته وسيؤكد الكاهن على إجراء تلك القداسات ويعلن ويبين ذلك في الإيصال .

فقرة (٤٢) :

مادة (١) : "الــكـــاســـا داســانتــا ميــســيريــوكـــورديــا" "Alcasa da Santa Misericordia" بالقلعة سيمنح خمسين "أشرفي" كل شهر توزع كصدقات للفقراء والمحتاجين والتي تقدر قيمتها بمبلغ مائة وثمانين ألف ريس في السنة . يمنح ذلك المبلغ للمراقب وإخوة الكرسي الكنسي والذي سيحصل منه الوكيل التجاري على إيصال صادر عن كاتب "الميسيريوكورديا" وموقع منهم لإضافته لحساباته .

فقرة (٤٣) :

مادة (١) : خصصت نفقات لمستشفى سيدي الملك في تلك القلعة قدرها ألفا "اكسيرافن" في السنة لإطعام المرضى وكرواتب للطبيب والجراح ، والحلاق والصيدلي وكل المسؤولين الآخرين القائمين على خدمة المستشفى . يسلم المبلغ للمراقب والإخوة "بالميسيريوكورديا" التي بالقلعة ودارة المستشفى عند طلبه كما هو مقدر في السنة .

وسيقوم الكاتب التجاري بجمع الإيصالات وإضافتها في حساباته ، سيخطر المراقب والإخوة بعدم زيادة الرواتب أو المؤن المقدرة للطعام أو

سكن موظفي المستشفى وعليها أن تبقى كما هي وعدم تقديم أي مبلغ أو تسليف أي شخص من الخارج مهما كانت حاجته لذلك ، وإذا ما تم ذلك فعليهم عدم استخدام تلك المبالغ .

إذا لم يكن المبلغ المرصود كافياً لكل السنة فباتفاق بينك كقائد وبين كبير مسؤولي الخزينة ، إن كان هناك من يقوم بتلك الوظيفة والمراقب والإخوة ، فسيتم إكمال النقص وأنا أثق في طيبتهم وحسن خلقهم وما عندهم من فضيلة بألا يقدموا أي طلب بذلك إن لم يكن ذلك ضرورياً أو مهماً ، وذلك عبر التزامهم بخدمة سيدنا الرب .

إنهم لن يستخدموا المبالغ المتبقية عندما ينتهي الأمر الطارئ .

نفقات مكتب الجمارك وموظفيه(أ) :

فقرة (٤٤) : مخصصات ملك هرمز ، حاشيته وموظفين آخرين في مكتب الجمارك كما مبينة أدناه .

مادة (١) : يتلقى ملك هرمز من عائدات مكتب الجمارك أربعين "ليكوساً"(ب) كل سنة من أجل ملابسه والتي تبلغ تكلفتها خمسمائة

(أ) بحسب الأب "سيلفا ريجو" فإن أول ذكر للمستشفى كان في ٦ يونيو عام ١٥١٦م . في الانتفاضة ضد البرتغاليين في عام ١٥٢١م - ١٥٢٢م ، احتل المغاربة المستشفى محتمين بها ونتيجة لذلك تضرر المبنى بصورة فادحة .

(ب) سيماو بوتيلهو : "منذ أول يناير عام ١٥٤٣م تجمع حصيلة دائرة الجمارك لسيدي الملك كثيرة كانت أو قليلة ، وتدفع منها نفقات السفراء وملك هرمز ، رئيس الوزراء ، موظفي دائرة الجمارك بناءً على أوامر مارتيم أفونسو دي سوزا ، الحاكم (تومبو ، ٨٦) .
مـادة : في الأول من يناير عـام ١٥٤٣م أصبح مكتب الجمارك ملك سيـدي الملك وحتى نهاية تلك السنة . كان الدخل مائة وثمانية ألف وتسعمائة وثلاثين اكسيرافين وثمانية "كادس" 1d . page 90 .

وثمانية وخمسين ألف ومائة وأربعين ريساً[أ] ستمنح له عندما يتسلمها مكتب الجمارك وسيتسلم الكاتب التجاري إيصالاً منه لضمها لحساباته .

فقرة (٤٥) :

مادة (١) : يتسلم رئيس الوزراء (غازل)[ب] في هرمز ستة وثلاثين "ليكوسا" في السنة من عائدات دائرة الجمارك ، والتي تساوي خمسمائة وألفين وثلاثمائة وخمسة وعشرين ريساً ، ستدفع له وسيحصل الكاتب التجاري على إيصالات منه لضمها في الحسابات .

فقرة (٤٦)

مادة (١) : مترجم الملك في هرمز سيتقاضى راتباً قدره تسعة "ليكوسات" في السنة من عائدات دائرة الجمارك ، وستدفع كل ربع سنة ، وهي تساوي مائة وخمسة وعشرين ألف وخمسمائة وتسعين ريساً ، وسيتم إعداد إيصال بذلك .

فقرة (٤٧)

مادة (١) : سيكون هناك كاتب برتغالي واحد في دائرة الجمارك تم تعيينه من قبل سيدي الملك والآخرون الذين هناك لن يستمروا في العمل ، سيتقاضى راتباً قدره ستة "ليكوسات" في السنة ، والتي تساوي ثلاثة وثمانين ألفا وسبعمائة واثنين وعشرين ريساً .

(أ) ليكو = مائة ألف – لليكو وحدات تسمى الدينار .

(ب) أربعون "ليكوسا" تساوي خمسمائة وأربعة وستين ألفاً ومائة وأربعين ريساً .

فقرة (٤٨)

مادة (١) : "الخواجا علاء الدين" الكاتب في دائرة الجمارك ، مغربي ، سيستمر في الخدمة ، وسيتلقى راتباً قدره خمسة "ليكوسات" في السنة والتي تساوي ستة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثمانين ريساً .

فقرة (٤٩)

مادة (١) : "الخواجا ظافر الدين" كاتب مغربي آخر في دائرة الجمارك سيتقاضى راتباً قدره أربعة "ليكوسات" في السنة والتي تساوي خمسة وخمسين ألفاً وثمانمائة وأربعة عشر ريساً .

فقرة (٥٠) :

مادة (١) : "الخواجا محمد" ، كاتب مغربي آخر في دائرة الجمارك سيتقاضى راتباً قدره "ليكوسان" في السنة ، والتي تساوي سبعة وعشرين ألفاً وتسعمائة وسبعة ريسات .

فقرة (٥١) :

مادة (١) : لا يوجد الآن كتبة مغاربة آخرون باستثناء أولئك المذكورين أعلاه وهؤلاء فقط هم الذين سيستمرون في الخدمة بالرواتب الحالية . في حالة وفاة أي من هؤلاء المغاربة لن يعين أي أحد في مكانه ، مغربياً كان أم برتغالياً ، وسيستمر الباقون في الخدمة عندما يقل عدد العاملين عن المطلوب ، ويكون من الضروري إحلال أحدهم أو عدد أكبر ، فإنك كقائد ومعك رئيس موظفي الخزينة وموظفي دائرة الجمارك ستقومون بإخطار نائب ملك الهند بحاجتكم لتعيين آخرين

لخدمة سيدي الملك ، لكن لن يكون هناك أكثر من كاتب برتغالي واحد في دائرة الجمارك كما ذكر سابقاً .

فقرة (٥٢)

مادة (١) : موظف الأوزان البرتغالي الجنسية سيتقاضى راتباً قدره خمسون ألف ريس في السنة .

فقرة (٥٣)

مادة (١) : مترجم دائرة الجمارك سيتلقى راتباً قدره خمسة وسبعين "أزارس"(أ) واثنتين ونصف "سيدس" في السنة والتي تبلغ عشرة آلاف وخمسمائة ريس .

فقرة (٥٤)

مادة (١) : حارس بوابة دائرة الجمارك ، وهو أيضاً برتغالي الجنسية ، سيتلقى راتباً قدره ثمانية وعشرون ألفا وثمانمائة ريس في السنة ، وسيحتفظ بختم دائرة الجمارك واستخدامه ، ويتسلم الأجر الذي يدفع مقابل الختم الشخصي مثل الذي كان يدفع لمن يعمل كحافظ للختم ، ويتوقف عن العمل ؛ لأنني أعتبر أن الحارس عليه القيام بكل ذلك ، ولن يتقاضى أكثر من الراتب المبين بأعلى والأجر الإضافي عند استخدام الختم .

(أ) "قوزل" من كلمة وزير العربية ، أي رئيس الوزراء للملك ، حاكم المدينة .

الأوامر السارية الصادرة عن الحاكم جواو دي كاسترو للريس شرفا لمكتب رئيس الوزراء بالمدينة والمملكة ، تم التصديق عليها من سموه للريس نور الدين ، تاريخ ٣٠ نوفمبر عام ١٥٤٦م ، ونشرت بواسطة كونها ريغار . (أرشيف بورت أورينتال ، فاسك (٥) وثيقة رقم ٨٤) .

فقـرة (٥٥) : لن يدفع أي راتب من قبـل الخزينة الملكية لمحصل العائدات المالية بالقلعة .

مادة (١) : يعمل اثنان من جامعي العوائد في دائرة الجمارك ، أحدهما مغربي وهو يقوم بجمع المستحقات من البرتغاليين ، كان المغربي يتسلم راتباً قدره "ليكوسان" وستون "أزار" ويتسلم البرتغالي مائة وسبعون "أزاراً" ، جهت بعدم تسلّم محصلي العائدات لأي شيء من الخزينة الملكية .

وقد أخطرت بأن مستحقات دائرة الجمارك هذه من البرتغاليين ومن المغاربة تجمع هناك قبل أن تغادر البضائع مكتب الجمارك ، وقد أوقفت الآن ويمكن تجنب سدادها . إذا رغب الكاتب التجاري في وجود هؤلاء المحصلين فعليه أن يقوم بذلك على مسؤوليته .

فقرة (٥٦) :

مادة (١) : سيكون أحد الرجال البرتغاليين مسؤولاً عن الذهاب إلى الموانئ في البر لتسجيل القوافل والبضائع التي ترد هناك ويكتب قائمة بها لإحضارها إلى دائرة الجمارك ، ويتلقى جراء هذا العمل راتباً قدره ثلاثون ألف ريس سنوياً . تلغي هذه الوظيفة والراتب ؛ لأنني أعتبرها غير ضرورية .

فقرة (٥٧) :

مادة (١) : يتلقى شاهبندر[أ] هرمز اثنين "ليكوس" في السنة لدفعها

(أ) أزار : عملة هرمزية تساوي ١٥٠ ريساً ، مأخوذة عن الفارسية "هازر" التي تعني ألفاً ، والأزار يساوي ألف دينار ، "سيدي أوسادي" بالهرمزية ، وهو الاسم لكل مائة دينار .

للحمالين الذين يقومون بتفريغ الحمولة من السفن الشراعية التي تأتي بها وكذلك الحمالين الذين يعملون في دائرة الجمرك . يستمر سداد هذه المبالغ إليه وهي تساوي سبعة وعشرين ألفاً وتسعمائة ريسٍ . يتحصل الوكيل التجاري على إيصال منه وإضافته لحساباته .

فقرة (٥٨) :

مادة (١) : أخطرت بأن منصب الشابندر كان يمنح راتباً قدره ستمائة ألف ريس ، وقد وجهت بعدم تعيين أي أحد في هذا المنصب ، أو يتقاضى هذا الراتب في أي وقت .

فقرة (٥٩) :

مادة (١) : منصب "الكايدومار" يشمل عشرة جنود لمرافقته ، وجهت بإلغاء هذا المنصب كما ذكر بأعلاه ولذلك لن يستدعي ذلك وجود أي جنود ولن يتم صرف أي رواتب لهم للعمل بأي طريقة أخرى .

فقرة (٦٠) :

مادة (١) : في الأوامر السارية السابقة كان قد ذكر بأن مائتين وخمسة "ليكوسات" وثلاثة "أزارات" إضافية من عائدات دائرة الجمارك هذه تدفع للملوك ولوردات الدول التي على حدود مملكة هرمز ولسفرائهم الذين يأتون هنا لجمع تلك الهدايا والنفقات التي يتحملونها عند حضورهم لأخذها ، تلك لا تشمل ملك البصرة[أ] ؛ لأنه لا يتلقى أياً

(أ) شاباندر (من الكلمة الفارسية شاه باندر : رئيس الميناء ، كبير موظفي الجمارك : (جي . دي باروس : "الشاباندر ، هو مسؤول الأمور البحرية (وثيقة (٣) ، الكتاب (٧) ص ١٢٦) .

منها(أ) ، وقد أخطرت بأن جزءاً كبيراً من تلك الضرائب تقدمها الخزينة الملكية دون ضرورة لذلك ويمكن تجنبها ، قد أمرت "جاسبار بيريز دي ماتوس" كرئيس مسؤول للخزينة في قلعة هرمز بالتحري والتحقيق في هذا الأمر بالتفصيل ، وأن يقوم بكل الممكن لكشف الوضع الحقيقي وترتيب المبالغ الحقيقية التي يجب دفعها ؛ لأن لذلك أهمية كبرى للخزينة الملكية .

قام بذلك وأرسل لي تقارير وبيانات بما قام به من تحقيق ، مع نسخ للأوامر السارية وأدلة لشهود وكل شيء آخر كانت له أهمية في هذا الموضوع . قمت بفحص تلك الأشياء مع الأشخاص والموظفين الذين ذكرت بأنني استشرتهم عن تلك الأوامر السارية .

ويبدو أن شاه "طهماسب" تسلم من أجل سفرائه وموظفي بلاطه مبلغ ستمائة وستة "ليكوسات" وسبعة وستين "أزارا" من تلك المستحقات وأعطى تلك الضرائب إلى "تورون شاه"(ب) ملك هرمز الراحل ، لعودته إلى طائفة على الفرمان (الأمر) الذي أصدره له بذلك ترجم في هرمز بأمر من رئيس موظفي الخزينة في التاسع من فبراير من تلك السنة ١٥٦٨م كما أعلن في تلك الوثيقة .

(أ) الحملة البرتغالية الأولى ضد البصرة قام بها "بلكيور دي سوزا تافيراس" في عام ١٥٢٩م حسب وصف جواو باروس في الوثيقة (٤) الكتاب (٣) فصل (١٣) .

(١٢) موكاراريا ، من الكلمة العربية مقرري "ضريبة محددة" مبلغ يحدده القانون تدفع للملك الأجنبي ولمرور القوافل دون توقف .

(ب) انظر (Dalgado, Glossaro, S . V . Mocarraria) .

تسلم ملوك "ريشاهر"[أ] ، أيضاً ضرائب تقدر بتسعة عشر "ليكوسا" واثنين وثلاثين "أزارا" من المبلغ أعلاه ، هم وسفراؤهم والموظفون الذين تحت أمرتهم عندما كان "مارتيم أفونسو دي ميلو" قائداً "لهرمز" أرسل شاه "طهماسب" جيشاً لمهاجمة هذا الملك ، وأخذه أسيراً مع زوجاته وأطفاله وأقربائه ، وتم قتلهم جميعاً في بلاط شاه "طهماسب" بناء على أوامره ؛ لأنهم كما يقال ثاروا ضده . القائد المذكور أمر بإرسال مساعدة له عندما هوجم .

منذ ذلك الوقت وحتى الآن لا يوجد ملك في "ريشاهر" ، لكن يوجد خادم للشاه هناك وأحياناً شخص من طرف أمير شيراز ، ليست له أسرة عريقة ولا شيء يتفاخر به ولا صدقات أو تعاملات معنا . لا تعبر القوافل عبر حدوده ولا أي شيء آخر تكون له فائدة "لهرمز" .

يتسلم ملك "مكران" وسفراؤه والموظفون التابعون لأسرته وبيته ستة "ليكوسات" وخمسة وتسعين (أزاراً) كضريبة ؛ لأنه سيد قبيلة "نوتاكوس"[ب] ويجب أن يرعى أمور هرمز ، لكنه قام بعكس ذلك إذ دعم قبيلة "النودهاكي" تلك وشجعهم على الذهاب والنهب في مضيق هرمز ، وكان له نصيب من المسروقات ، تم تحذيره عن ذلك لكنه لم يفعل أي شيء في ذلك الخصوص .

لذلك ليس من المعقول أن يتلقى تلك الضرائب ولا أي نصيب

(أ) تاريخ ملوك هرمز– ترجمة ستيفنس في ملحق :
(Travels Pedro Teixeira edW . F . Sinclair & Fergusson, 1902) .

(ب) ملك ريشاهر "ريكسل" تابع لملوك هرمز .

من المبالغ الثلاثة الإضافية من شاه "طهماسب" . ملك "ريشاهر" وملك "مكران" تسلما معاً ثلاثة وتسعين "ليكوسا" وثلاثة "أزارات" كمبلغ إجمالي .

تم الاتفاق بين كل المسؤولين على عدم أخذها ولذلك وجهت وأمرت بعدم استمرارهم في استلامها وعدم إعطائهم لها من التاسع من فبراير عام ١٥٦٨م فصاعداً ، الآن ومن مبلغ الضريبة فقط مائة واثنا عشر "ليكوسا" في السنة ستدفع الآن من عائدات دائرة الجمارك عند تحصيلها ، وتقسم بين الجيران الآخرين من الملوك والحكام وسفرائهم كما سبق .

مبلغ المائة واثني عشر "ليكوسا" سيدفع من العائدات إلى رئيس وزراء مملكة هرمز كل سنة ابتداء من التاسع عشر من شهر فبراير فصاعداً ليقوم بدفع المستحقات كما كان يفعل دائماً ، لذلك فسيعطى واجباً إضافياً في وثيقة مكتوبة يتعهد بموجبها القيام بسداد تلك المبالغ ، مبيناً الملوك والحكام والأشخاص الذين يستحقون ونصيب كل شخص .

على أساس في حالة حدوث أي شيء من الآن فصاعداً يكون سبباً في عدم الصرف لهم فإنه لن يقوم بصرف أي مبلغ لهم ، سيكلف ذلك الخزينة الملكية أقل من المبلغ المذكور أعلاه ، سيتحصل الكاتب التجاري على هذه الوثيقة ويسجلها في المكتب التجاري . رئيس الوزراء سيتحصل على إيصالات لما يدفعها لإضافتها في حساباته .

فقرة (٦١) :

مادة (١) : التجار المحليون والميكانيكيون المذكورون أعلاه ، البحارة

العاملون في حوض السفن وآخرون في مستودع الأسلحة وخادم رئيس حوض السفن يتم تعينهم كلهم وفحصهم بواسطة كاتب الوكالة التجارية ، وسيمثل كمراقب ويقدم لهم شهادات بالتعيين وسيتقاضون على العمل الذي يؤدونه . الذين لم ينضموا للخدمة لم يدفع لهم أو يحصلون على إعاشة ، ولن يدفع لهم الكاتب التجاري بأي وسيلة أخرى .

فقرة (٦٢) :

مادة (١) : المدفوعات غير العادية الأخرى في تلك القلعة والتي قد تكون ضرورية ولابد منها سيتم دفعها بناء على قرار وأمر من كبير مسؤولي الخزينة في حالة وجود أحد ، وإن لم يتواجد أحد فبقرار منك كقائد وفي حرص شديد وإرسال بيان بالأسباب والاحتياجات التي صدر بموجبها القرار ، والتي سيتم فحصها هنا .

إذا لم يكن هناك مبرر حقيقي فستحاسب على ذلك ويؤخذ ضدك . إذا لم يتواجد كبير مسؤولي الخزينة هناك فأنت بصفتك قائداً ستوقع على تلك المدفوعات التي تتم بحضورك متخذاً نفس الإجراءات والتدابير .

فقرة (٦٣) :

صدر الأمر بألا يرسل قادة هرمز سفناً للهند لأي سبب باستثناء وجود موافقة من كبير مسؤولي الخزينة ، والكاتب التجاري وأشخاصاً آخرين .

مادة (١) : علمت أن قادة قلعة هرمز يرسلون كل سنة سفينة مموهة واثنتين أخريين يتبعون لسيدي الملك ، مسلحين ومجهزين ومعدين تماماً على حساب الخزينة الملكية ، متعذرين بأنهم يحملون رسائل هامة

لخدمة صاحب السمو لتسلم لنائب الملك في الهند ؛ حيث إن غرضهم هو القيام بعمل نيابة عن القائد ، تتسبب تلك السفن في نفقات كبيرة لصاحب السمو قادمة وذاهبة .

كما أخبرت أيضاً أنهم عند عودتهم فإن تلك السفن تحمل بضائع ممنوعة والتي يتحصل القادة والأشخاص الآخرين الذين يحضرونها على أرباح طائلة لأنفسهم منها ؛ بسبب أن تلك السفن تخص صاحب السمو وتحمل رسائل ولذلك لا يتم تفتيشها أبداً . هذا أمر مؤذ ومضر لمصالح الملك وقادة خزينته ، لذلك أمنع ذلك وآمر بعدم تجهيز تلك السفن في القلعة ولا أن ترسل "للهند" حتى وإن قالوا أن ذلك لأمر ضروري .

عندما يحدث شيء ما هنا أو هناك رسالة هامة في خدمة صاحب السمو ولمصلحة القلعة أو الدولة ويجب أن ترسل لنائب ملك الهند فأنك كقائد وبناء على نصيحة رئيس الخزينة إن كان موجوداً والوكيل التجاري وأشخاصاً ستآمر بكتابة قرار بواسطة كاتب المحطة التجارية موقع من الجميع ، أو إذا قرّر نائب الملك هنا أن سفينة معينة يجب أن ترسل له في وقت محدّد حتى يعلم بما يحدث هناك .

فسيرسل أمراً سوى في هذه الظروف تحت طائلة نفقات ليست اعتماداً على الوكيل التجاري الذي تسبب في ذلك ، أي شخص يبعث بسفينة خلافاً لهذا الأمر وعلى حساب سموه سيدفع ضعف ذلك .

إذا لم يكن الأمر عظيم الأهمية ، والذي قد يحدث ؛ بسبب تأجيله بعض الخطر فإن مثل تلك الرسائل يمكن إحضارها في سفن تأتي إلى هنا من هناك في فترة "رياح المونسون" .

فقرة (٦٤) : ليس على القائد ولا كبير مسؤولي الخزينة في تلك القلعة أن يقوما بإنشاء أي منصب أو وظيفة :

مادة (١) : يمنع سيدي الملك إنشاء أي منصب جديد أو وظيفة في أي من مدنه أو قلاعه ، متعلقاً بخزينته أو القانون أو المجلس تحت أي ضرورة ممكنة أياً كانت ، دون اعتبارات حذرة وسبب حقيقي لذلك التأسيس للمنصب والوظيفة .

أخطرت أن في قلعة هرمز تلك أن بعض الوظائف قد أنشئت ولم يكن لها أي فائدة بل كانت مضرة بالصالح العام وتسببت في الكثير من السخط والظلم ، إنني أمنع ذلك وأصدار أمراً باسم الملك ألا تقوم أنت كونك القائد ولا كبير مسؤولي الخزينة إن وجد ولا أي مسؤول آخر أن تؤسسوا أو تنشئوا أي وظيفة جديدة لأي غرض كان .

عندما تتضح هذه الضرورة فإنك ستخطر نائب الملك في الهند مقدماً الأسباب لذلك حتى يتمكن هو من مناقشة ذلك مع أشخاص مؤهلين ويوفر لها أفضل الطرق التي تصب في مصلحة الملك والخير للناس . الجزاء الذين سيحيق بكل من يخالف ذلك أن يدفع مائتي "كروزادوس" لنفقات المستشفى ، وأن يدفع تعويضاً عن كل الخسائر والأضرار التي قد تصيب الناس نتيجة لذلك . الشّخص الذي يقبل ويعمل في تلك الوظيفة سيسجن ويدفع غرامة قدرها خمسون "كروزادوس" للمستشفى وسينفى لثلاث سنوات في أي مكان أراه مناسباً .

فقرة (٦٥) : لن يتقاضى قائد بحري هرمز أي راتب :

مادة (١) : الشخص الذي يعمل في وظيفة قائد بحري على ساحل

هرمز ، عندما يكون وجوده ضرورياً ، لن يتقاضى أي راتب عن المنصب سوى الذي يتلقاه من السفينة التي يبحر فيها .

فقـرة (٦٦) : لا تصرف علاوة سكن لموظفـي الخزينة أو مكتب القانون :

مادة (١) : لن تمنح أي علاوة سكن في تلك القلعة لأي موظف ، سواء من طرف صاحب السمو أو القضاء ولن يدفع للسكن من قبل الخزينة الملكية كما وجهت أنا بعدم ذلك ، لكن عندما يتواجد كبير مسؤولي الخزينة ويحتل مباني المحطة التجارية التي بالحصن ولا يوجد سكن مناسب للكاتب التجاري ، عندها سيمنح الوكيل التجاري مبلغاً قدره ثمانية "اكسرافين" في الشهر للإقامة حيث يعيش ويقوم بعمله في المحطة التجارية .

فقرة (٦٧) : لن يتلقى أي موظف غير راتب واحد .

مادة (١) : أعتبر أنه من مصالح سيدي الملك ألا يتلقى أي من الموظفين سواء كانوا في خزينة الدولة أو القضاء أكثر من راتب واحد للوظيفة التي يؤدونها ، وحتى وإن كانت له أكثر من وظيفة فإنه لن يستحق مقابلاً عليها ، ولن تكون ديناً على الوكيل التجاري الذي يسددها .

فقـرة (٦٨) : يجـب ألا تكون هنـاك وظائف أكثر مـن الرواتب المخصصة في القلعة :

مادة (١) : لن تكون هناك في القلعة أي وظائف أكثر أو رواتب أكثر مما هو محدد في تلك الأوامر السارية ، ولن تكون تلك التي يتم إنشاؤها

لها أي تأثير ، لأنني وبحسب الخدمات التي تقدم لسموه ، لا داعي لأن تكون هناك أكثر مما هي موجودة . إن كانت هناك أوامر أخرى سارية أو أمر كتابي بغير ذلك فإنّني أعتبرها لاغية . الوكيل التجاري أو أي موظف آخر يمارس نقيض ذلك سيفقد راتبه وأي شيء دفع لهم لن يتم اعتماده لهم ، وإضافة لذلك سيتلقون أي جزاء وعقوبة أخرى أراها مناسبة .

فقرة (٦٩) :

مادة (١) : أبعث لك بملاحظة أيها القائد ، كبير مسؤولي الخزينة والموظفين الآخرين ذوي العلاقة ، كما آمرك بأن تتقيّد وتواكب تماماً ما تحتويه وتؤكد على التقيد بذلك والإذعان لها دون تردد أو اعتراض قد ينشأ عنها ، ستسلم الأوامر السارية للوكيل التجاري في تلك القلعة ، وسيكون مسؤولاً عن إقراره بالعلم كتابته عن استلامها ، مع الشرط أنها ستكون مسؤوليته بأن يسلمها لمن يخلفه ، وأنّها ستمرّر دائماً للوكلاء التجاريّين بنفس الالتزام والتعهّد ، ستدون في السجلات بتلك القلعة وفي دفاتر إيصالاته التي يسلم بها حساباته .

التقصير في عمل ذلك ستكون عقوبته غرامة قدرها ألفي "كروزادس" والعمل في حوض السفن الملكي وأي عقوبة أخرى أراها مناسبة . العلم بالاستلام سيقدم في استمارة يعدها الوكيل التجاري الذي يتسلمها ، وإن لم يتم ذلك ، فستنفذ العقوبة أعلاه ، والتي ستسجل أيضاً في دفتر الأوامر السارية الذي أمرت بكتابته ، والذي سيظل هناك .

هذا ما كتبه "جاسبار بيريز" كاتب حسابات الخزينة في "غوا" في العشرين أغسطس ١٥٦٨م وقد أمر "أنطونيو جيس" "Antonio Geis" بكتابتها .. نائب الملك

الأوامر السارية لقلعة هرمز لإطلاع سيادتك عليها :

نسخة من أمر مكتوب صدر عن نائب الملك "دوم لويس دي اتايدي" "D . Luis de Ataide"[أ] لطلب مائة رجل آخرين لقلعة هرمز :

أنا " دوم لويس دي اتايدي" عضو في مجلس سيدي الملك ونائبه في الهند ... إلخ ، أخطر كل من يطلع على هذا ، أنني اعتبرت موضوع الثلاثمائة رجل الذين أشار إليهم "أنتاو دي نورنها" نائب الملك السابق للهند في الأوامر السارية التي كتبها هذه السنة والذين يجب أن يكونوا في قلعة هرمز ، أنا أعتبر أن ذلك غير كاف لتلك القلعة حتى تكون في حراسة جيدة وقادرة على الدفاع عن نفسها ضد أي هجوم ، ولتوفير جنود للأسطول البحري المغادر فيما بعد للساحل لحماية السفن القادمة من الهند إلى هرمز لدفع المستحقات لصاحب السموّ .

هؤلاء أخذوا من الرجال الذين خصّصوا للقلعة ، والذي سيؤدي

(أ) نوتاكوس ، كلمة برتغالية لاسم قبيلة "نودهاكي" البلوشية (أسفار بيدرو تكسيرا ومكران التي تقع بين نهر اندوس ومدخل مضيق هرمز ، بالرغم من أن اسم هؤلاء الناس بلوش يمارسون النهب والسرقة أخذوا الاسم "نوتاكوس" والتي تعني في لغتهم ما يسميه "كورسير" أي لصوص البحار . (ديكادا III ، الكتاب (٧) الفصل II ، ص ١٢٤) ، يكتب جاسبر كوريرا" ؛ لأنه في الساحل المقابل لرأس الحد يوجد أناس يعرفون بـ "نوتاكوس" وهم تحت سيادة ملك "ريسبوتوس" في حدود كامبي ، ويعيش على ساحل البحر ، وهؤلاء البوتاكوس يبحرون في مراكب خفيفة بأشرعة ومجاديف .. لهم اتفاقية مع أسياد البلاد التي يسكنون فيها ولهم نصيب معين مما يسلبون وهم يتجمعون ، ويكونون أسطولاً كبيراً ويذهبون إلى ساحل قلهات لنهب السفن القادمة إلى هرمز" .

إلى نقص في الرجال ، لتلك الأسباب ومن معلومات تلقيتها ومن أجل حماية تلك القلعة والدفاع عنها ، فإنّني أعتبر أن مصالح الملك توجب وجود مائة رجل آخرين ، حتى يكون هناك أربعمائة رجل وهو العدد المقدّر للقلعة ، وسيتمّ الدفع لهم طبقاً للأوامر السارية بالرغم من البيان الذي يقول بضرورة وجود ثلاثمائة فقط، وإنني بموجب ذلك أرفع بمذكرة للقائد وكبير مسؤولي الخزينة والوكيل التجاري "لهرمز" والموظفين الآخرين ذوي العلاقة وأصدر أمري لهم بالتقيد والاستجابة لذلك دون تردد أو اعتراض .

سيُدوّن ذلك في سجلات المحطة التجارية حيث سجلت ودوّنت تلك الأوامر السارية وتضاف إليها ، حتى يكون معلوماً بأنني من أصدرها ، والتي سيشار إليها بملاحظات على الهامش . يصبح هذا سارياً كرسالة صادرة باسم صاحب السموّ وختمت بختمه ، بغض النظر عن الأمر المحلي في الكتاب (٢) الجزء (العشرون) الذي يقول إن الأمور التي ينتهي سريانها لأكثر من سنة واحدة يجب أن تصدر كرسالة ، ولن تكون سارية إن صدرت كأمر مكتوب .

في سجل تلك الأوامر السارية المذكورة التي في حوزة "أنطونيو جيس" وكاتب الخزينة الملكية هناك سيقوم بكتابة بيان بأنني أمرت بذلك وقمت بتعيين أولئك الرجال المائة لتلك المحطة التجارية .

كتب هذا "مانويل كويلهو" "Manuel Quelho" في "غوا" بتاريخ الرابع من ديسمبر عام ١٥٦٨م .

وقع على هذا الأمر المكتوب نائب الملك وقيد في سجلات

السكرتارية وعملت ملاحظة حوله ، ولم يدفع مقابله ، نسخ هنا من قبلي ، أنا "جواو دي باروس" "Joao de Barros" كاتب الحسابات وتم فحصه بواسطة المحاسب "أنطونيو دي أبريو" "Antonio de Abrio" .

"غوا" في الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٥٦٨م - "جواو دي باروس" - "أنطونيو دي أبريو" .

وفي العام نفسه (١٥٦٨م)

بعـــث الأب "غونسالـو الفاريـز" "Goncalo Alvarez" (جمعيـة يـســوع) زائر "للأبـرشيــة" ، رسالــة إلـى الأب "فرانسيسكو بورجا" "Francisco Borja" (جمعية يسوع) الرئيس العام للجمعية اليسوعية في "روما" ، "غوا" "Goa" ، شهر ديسمبر عام ١٥٦٨م ، ويذكر انتشار الرذيلة في هرمز : (٣٧)

مقتطفات

أما ما يتعلق بكهنة جمعية يسوع المقيمين في هرمز فعندما وصلت لم يكونوا يقيمون هناك في ذلك الوقت ، بخدعة وحيلة ذكية تمكنهم من العودة دون أن تتسبب في أي موقف عدائي ، قام الأب أسقف "الأبرشية" بإصدار تعليمات لهم بالعودة بمناسبة اجتماع مجلس الأبرشية الذي أقيم هنا في "غوا" السنة الماضية ،

(٣٧) رقم الوثيقة والهامش.

هناك تمت التوصية بعد استحسان أن يكون هناك دارين دينيتين(أ) في قلعة صغيرة .

بما أنني ومعي الراهب "الدومينياكاني" كنا في هرمز ، أدرك أسقف الأبرشية أنه إذا لم يتمكن أعضاؤنا بالإقامة حالاً فإنهم لن يتمكنوا من القيام بذلك فيما بعد ، دون التسبب في أي استياء ، لذلك اقترح في المجلس أن يأتي قومنا وهذا ما فعلوه . سألت عن المكان الصحيح ليعيش فيه أعضاؤنا هناك ، وكان رأي الجميع ألا يفعلوا ذلك لعدم وجود حصيلة للمسيحية هناك ، ولا أمل في أن يصبح لها وجود .

ليس لأن هناك عدداً كافياً من الرهبان الدومينيكان في هذا المكان ، لكن لأن الأرض غير صحية وتتسبب في إصابة الجميع بالأمراض ، لكن السبب الرئيسي هو عدم أخلاقية البلاد وسوء السلوك الذي أدّى إلى ارتكاب الرذيلة التي يتصف بها الجميع ويشترك في ارتكابها جميع أنواع الناس هناك ، عليه أتفق على وجوب بيع الصهريج الذي يخصنا والموجود هنا (٥٠٩v) .

قبل وصولي تم تنصيب بعض الكهنة وتمكّنوا من أداء القداس ، لحسن الحظ فإنهم بإمكانهم قضاء بعض الأيام في التأمل وتقوية إيمانهم ،

(أ) نائب للملك من ١٠ سبتمبر عام ١٥٦٨م إلى ٦ سبتمبر عام ١٥٧١م .

حتى يمنحنا الرب الصفاء والرضا لعمل الخير لهذه الجمعية[أ] ؛ بسبب ما حدث في هرمز[ب] ؛

بسبب أن هذه البلاد تميل إلى فعل الشر ومن الأهمية بذل جهد كبير لإقرار الإيمان وبثه في القلوب .

(أ) الاجتماع الأول لمجلس الأبرشية في غوا ، القرار (٣) المرسوم ٣٤ .

(ب) وصف بيوس الخامس أنه على الرهبان المنصبين أن يقسموا بنذر أنفسهم لخدمة الرب . جاءت تلك الأنباء إلى غوا في نهاية ١٥٦٨م – وثيقة ٦٤ ، ٣٥ .

أحداث عام ١٥٦٩م

صدر مرسوم ملكي بعدم أخذ أشياء من ملك هرمز حتى وإن كان الملك نفسه قد منحها ، "ألميريم" "Almireim" (السواحل) ، في الثامن عشر من شهر مارس عام ١٥٦٩م : [(٣٨)]

أنا الملك ، ليكن معلوماً لكل من يطلع على هذا المرسوم ، بأن الملك الراحل سيدي وجدي ، لترقد روحه في سلام ، أصدر مرسوماً إلى "تورون شاه" ملك هرمز يأمر فيه :

بألا يأخذ أي قائد لقلعة هرمز أو وكيل تجاري أو أي موظف آخر من الملك المذكور أي حبال ، خيول ، عائدات مالية عن الخمور أو أي شيء آخر قدمه له الملوك برغبتهم ، وإن أخذوها عليهم سداد قيمتها مضاعفة أربع مرات .

قد طلب مني الآن النبيل وصاحب الشرف العالي الملك "فيراغوت

---

(٣٨) رقم الوثيقة والهامش.

شاه" ملك هرمز أن أصدر مرسوماً مشابها آخر للوكيل التجاري وموظفي المدينة ومكتب الجمارك في هرمز الحاليين ومن يأتي مستقبلاً : يأمرهم بعدم أخذ أي شيء من ملك هرمز لأنفسهم أو لطرف ثالث من الحبال والخيول وعائدات الخمور أو أي شيء آخر ، حتى وإن أعطاهم لها الملك ، حيث علمت أنه يقوم بذلك دون رغبته ؛ خوفاً من أن يدفع أربعة أضعاف قيمة ما يتلقونه منه أو يأخذونه من الملك المذكور .

يذهب نصفها لمن أفشى المعلومة أي المخبر والنصف الآخر لمستشفى المدينة ، كما أنني أخطر وآمر القائد المذكور والوكيل التجاري والموظفين بأن محتوى وفحوى هذا الأمر الرسمي يجب التقيد بها واحترامها ، وأن يدرج في سجلات المحطة التجارية المذكورة ويصبح سارياً ونافذاً مثل أي أمر صدر باسمي وموقعاً من طرفي وصادراً من محكمتي العليا ، بالرغم من أنه لم يصدر بغض النظر عن أي أمر صدر خلاف ذلك .

كتب هذا "فرانسيسكو دا موتا" "Francisco da Mota"

في "ألميريم" بتاريخ الثامن عشر من شهر مارس للعام ١٥٦٩م ، آخر بنفس المحتوي يبعث عن طريق رحلتين ، أحدهما سيكون هو النافذ - الملك .

وفي العام نفسه (١٥٦٩م)
صـدر أمـر رسمي من نائب الملك "لويس دي أتايدي" "Luis de Ataide" يخص خيولاً قادمة من هرمز ، "غوا" "Goa" في التاسع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٥٦٩م : [٣٩]

أنا ، نائب الملك في الهند ... إلخ . أعرفك أنت "غونسالو بيريس دي كارفيلهوس" "Goncalo Perez de Carvalho" ، كبير مسؤولي خزينة سيدي الملك في قلعة هرمز والذين يعملون بتلك الدائرة والوكيل التجاري وموظفي المحطة التجارية أنه في إيصالات مستخدمي السيد المذكور كانت هناك شكوك تتعلق بعدد الخيول التي تذهب من القلعة للقلاع التي "بالهند" .

لا يمكن تبديد تلك الشكوك ما لم يتم استلام ضمانات من تلك القلعة كلّ سنة يسلمها القباطنة لتلك السفن ليعدوا إفادات بكيفيّة إنزال تلك الخيول في تلك القلاع ، آمرك وأستحثك أنّك حالما تتسلم

(٣٩) رقم الوثيقة والهامش.

هذا فإنك ستقوم على الفور بإصدار أمر يقضي بأن تحضر لك كل الضمانات التي تخص كل السجلات ، وأنّ نسخاً أصلية تعد بكل تلك التي أخذت من النوخذة الذي وصل لتلك الأنحاء مع الخيول من تلك القلعة منذ العام ١٥٤٤م ، مع كل البيانات التي في تلك الضمانات .

عليك أن ترسل النسخ بطريقة سرية لمكتب الحسابات مع أشخاص موثوق فيهم ، ستأمر عن طريق مرسوم أن نسخ الضمانات التي أحضرت أن ترسل للمكتب المذكور كل سنة ، وأنّ بيانات النوخذة التي تسلم من الموظفين بالقلعة التي يأخذون إليها الخيول مسجلة في الدفتر تماماً عندما تسلّم ، والتي سترسل نسخة منها كل سنة للمكتب المذكور .

أخطرك بذلك ، وآمرك بأن تذعن تماماً لهذا كلياً بكل السبل لأنني أعتبر أن ذلك يتم حسب مصالح السيد المذكور وفائدة خزينته . آمرك بتسجيل ذلك في مكتب الحسابات وفي أرشيف المحطة التجارية حتى يكون معلوماً لدى الموظفين في المستقبل .

كتب هذا بواسطة "أنطونيو دا كوستا" "Antonio da Costa" في "غوا" بتاريخ التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٥٦٩م / نائب الملك .

ربما يشير ذلك للكهنة هيريديا وتوندا .

دليل الباحثين

الوثيقة رقم : ١

وردت رسالة من محكمة التفتيش في "غوا" إلى "دوم سيباستياو""Dom Sebastiao" ، "غوا" "Goa" ، في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر ، عام ١٥٦٢م ، يُذكر فيها قرار بأن قدوم بعض اليهود البيض من تركيا عبر هرمز ، هو أمر ضار يستدعي إصدار قانون الرقابة .

(صفحة رقم ٩)

الوثيقة رقم : ٢

بعث الأب (القس) "أندريه فرنانديز" "Andre Fernandes" رسالة إلى الأب "بيرو دا فونسيكا" "Pero da Vonsica" في "البرتغال" ، "كوتشين" ، بتاريخ السادس عشر من شهر يناير ، عام ١٥٦٣م يذكر فيها ينابيع البحرين في البحر المالح .

(صفحة رقم ١٣)

الوثيقة رقم : ٣

بعث الأب "أنطونيو دي كوادرو" "Antonio de Guadro" رسالة إلى الأب "ديوغو ليونيس" "Diogo Leones" ، رئيس الكنيسة العام "لجمعية يسوع" ، "كوتشين" ، الثامن عشر من شهر يناير ، عام ١٥٦٣م ، ويذكر في رسالته جزيرة سوقطرة .

(صفحة رقم ١٥)

الوثيقة رقم : ٤

بعث الأب "ميلشيور نونيس باريتو" "Melchior Nunes Baretto" رسالة إلى الأب "دييجو ليونيس" ، الرئيس العام لرهبان "جمعية يسوع" ، "كوتشين" ، في الرابع والعشرين من شهر يناير ، عام ١٥٦٣م ، ويذكر فيها مصوع التي غزاها الأتراك .

(صفحة رقم ١٨)

الوثيقة رقم : ٥

بعث "أنطونيو منديز دي كاسترو" "Antonio Mendes de Castro" رسالة إلى الملكة ، بتاريخ الأول من شهر أغسطس عام ١٥٦٣م ، ويذكر فيها قصة ملك "قشن" والانتقام للبرتغاليين .

(صفحة رقم ٢١)

الوثيقة رقم : ٦

وردت نسخة لرسالة من "بيرو دا كروز" "Pero da Cruz" إلى الإخوة في "جمعية يسوع" في "إيفورا" "Evora" ،

"غوا" ، في الثالث والعشرين من شهر نوفمبر ، عام ١٥٦٣م ، ويذكر فيها جزر القمر .
(صفحة رقم ٢٧)

الوثيقة رقم : ٧

وردت رسائل عظيم الترك إلى الملك "دوم سيباستياو" ، بتاريخ الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٥٦٣م ، يطلب السلم والصداقة .

(صفحة رقم ٣٠)

الوثيقة رقم : ٨

بعث "سيماو دا كوستا" "Simao da Costa" رسالة إلى "دوم سيباستياو" ، "غوا" ، الحادي عشر من شهر ديسمبر ، عام ١٥٦٣م ، بشأن وصول مبعوث الأتراك إلى هرمز لعقد اتفاقية السلام .
(صفحة رقم ٣٥)

الوثيقة رقم : ٩

وردت رسالة من الملك تتعلق بـ"أندريه أمادو" "Andre Amado" ، "لشبونه" في الأول من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م ، يذكر أمين سجل الوفيات في قلهات ومسقط .
(صفحة رقم ٤٩)

الوثيقة رقم : ١٠

منح وظيفة قيادة القلعة في "بانجيم" "Banjim" ، "لشبونه" ، الرابع

من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م ، ويـذكر تكـريم "مانويل دى ميلو" "Manuel de Milo" . **(صفحة رقم ٥٠)**

الوثيقة رقم : ١١

وردت رسالة من الملك بخصوص "مانويل دى ميلو" و"انريك دى ميلو" ، "لشبونه" ، في الثالث والعشرين من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م ، ويذكر فيها اعترافه بخدمات "مانويل دى ميلو" . **(صفحة رقم ٥١)**

الوثيقة رقم : ١٢

وردت رسالة من الملك بخصوص "مانويل دى ميلو" ، "لشبونه" في الثالث والعشرين ، من شهر فبراير ، عام ١٥٦٤م . **(صفحة رقم ٥٣)**

الوثيقة رقم : ١٣

بعث الأب "مانويل كابرال" "Manuel Cabral" رسالة إلى الأب "دييجو ميراو" "Diego Mirao" ، هرمز ، الحادي عشر من شهر إبريل ، عام ١٥٦٤م ، ويذكر فيها الأجواء قبل الوصول إلى هرمز . **(صفحة رقم ٥٥)**

الوثيقة رقم : ١٤

بعـث الأب "فـيسنتي توندا" رسالة إلى الأب "دييجو ليونيس" الرئيـس العـام "لجمعـية يسـوع" في "رومـا" ، هرمز ، في

الخامس عشر من شهر إبريل ، عام ١٥٦٤م ، يذكر وضعه بين العرب في هرمز .

(صفحة رقم ٦٤)

الوثيقة رقم : ١٥

بعث ريس نور الدين رسالة إلى الملك "دوم سباستياو" ، بتاريخ الخامس والعشرين من شهر مايو عام ١٥٦٤م ، ويذكر أنه لم يتم في السويس بناء أكثر من ثلاث وعشرين سفينة ، وكذلك في البصرة لا توجد تحركات والسفن لا تزيد عن عشر سفن .

(صفحة رقم ٦٩)

الوثيقة رقم : ١٦

ورد خطّ الرحلة من جزيرة هرمز إلى "طرابلس الغرب" ، ومن ثم إلى "لاروشيل" "La Rochelle" ، "فرنسا" ، بقلم السيد "أفونسو" "Afonso" ، بتاريخ الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ١٥٦٥م .

(صفحة رقم ٧٥)

الوثيقة رقم : ١٧

صدور الفرمان (الأمر) من ملك هرمز "سلفور شاه" ، بخصوص الدخل المالي لإدارة الجمارك في هرمز ، في الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر ١٥٦٥م ، ويشتكي من المسؤولين البرتغاليين لتعديهم على ملكيات أجداده .

(صفحة رقم ١٧١)

الوثيقة رقم : ١٨

بعث الأب "أنطونيو دي كوادرو" "الجمعية اليسوعية" أسقف "الأبرشية" رسالة إلى الرئيس العام للجمعية اليسوعية في "روما" ، "مالقا" في العشرين من شهر نوفمبر ، عام ١٥٦٥م ، يذكر فيها أن الذين ذهبوا إلى هرمز من البرتغاليين الكهنة قد ماتوا ، فهي مقبرة مؤذية روحياً وجسدياً .

(صفحة رقم ١٧٩)

الوثيقة رقم : ١٩

جاءت رسالة من اليسوعية إلى الملك حول المسيحية في هرمز ، وتأسيس قلعة هرمز ، "غوا" ، بتاريخ عام ١٥٦٥م .

(صفحة رقم ١٨١)

الوثيقة رقم : ٢٠

صدرت يوميات ميستر "أفونسو" "Afonso" الجراح ، كبير الأطباء الذي ذهب من الهند في عهد الكونت نائب الملك والحاكم "جواو دي ميندونسا" ، عن الرحلة التي قام بها من الهند براً إلى مملكة "البرتغال" بأمر من الحاكم ذاته ، بتاريخ عام ١٥٦٥م ، وبها وصف لكل المناطق التي مر بها .

(صفحة رقم ١٨٥)

الوثيقة رقم : ٢١

بعث "ماتياس بيكودو فيرتادو" "Mathias Picodo Vertado" رسالة

إلى "دوم فيرناندو دي مينيسيس" "D . Ferdinandes de Meneses" ، السفير البرتغالـي في (روما) ، القاهرة ، في الثامن عشر من شهر يناير عام ١٥٦٦م ، وكـــتب تقريـــراً عن وفاة القبطان "جوفار" (جعفر) ، الذي أبحر من السويس إلى الهند برفقة عشر سفن ، معتزماً القيام بالسلب والنهب في ساحل "ماليندي" والعودة إلى "موزمبيق" .

(صفحة رقم ٣٥٥)

الوثيقة رقم : ٢٢

نسخة من الفقرة التي كتبت من "فينيزا" "Venizia" ، في العشرين من شهر يوليو عام ١٥٦٦م ، يذكر فيها افتتاح طريق البصرة .

(صفحة رقم ٣٦٤)

الوثيقة رقم : ٢٣

وردت الخطبة الذي ألقاها "أنتاو دي نورنها" "Antao de Noronha" نائب ملك الهند أمام المستشارين والنبلاء والفرسان وكل السكان الآخرين في مدينة "غوا" "Goa" ، بتاريخ عام ١٥٦٦م ، ويذكر أن الأتراك يطبقون على هرمز .

(صفحة رقم ٣٦٧)

الوثيقة رقم : ٢٤

صدر تقرير عن رحلة من "البرتغال" إلى فارس ، مرسل من "أفونسو

دي توفار" "Afonso de Tovar" السفير الإسباني في "البرتغال" ، "لشبونه" ، بتاريخ السابع من شهر يناير عام ١٥٦٧م ، ويبيّن له طريق التواصل مع ملك فارس واللغة التي يكتب بها له .

(صفحة رقم ٣٧١)

الوثيقة رقم : ٢٥

جاء رأي "فيليب الثاني" "Philipe II" حول رؤى الإمبراطور "ماكسيمليان" "Maximillian" التي تتعلق بفتح سفارة في فارس ، والتقارب مع الأتراك وما يناسب الزواج الملكي ، "مدريد" ، بتاريخ عام ١٦٦٧م .

(صفحة رقم ٣٧٦)

الوثيقة رقم : ٢٦

توجيه من الملك بخصوص "باستياو دي ليموس" " Pastiao de Limos" ، "لشبونه" في الحادي والعشرين من شهر مارس عام ١٥٦٧م ، بشأن فتح مكاتب تجارية في قلهات ومسقط .

(صفحة رقم ٣٨٤)

الوثيقة رقم : ٢٧

عقد اجتماع المجلس الأول لمحافظة "غوا" "Goa" ، "غوا" ، بتاريخ عام ١٥٦٧م ، بشأن عدم تواجد اليهود في المدن ، وعدم نقلهم في السفن .

(صفحة رقم ٣٨٥)

الوثيقة رقم : ٢٨

صدرت تعليمات للدوم "الونزو دي توفار" "Alonso de Tovar" ، سفير "فيليب الثاني" "Philipe II" في "البرتغال" ، "مدريد" في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٥٦٧م ، بخصوص العلاقة مع فارس .

(صفحة رقم ٣٨٧)

الوثيقة رقم : ٢٩

بعث "فيليب الثاني" "Philipe II" ملك "إسبانيا" رسالة إلى "ألونسو دي توفار" "Alonso de Tovar" ، سفيره في "البرتغال" ، "مدريد" في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٥٦٧م ، بشأن الصداقة مع فارس ، والعمل ضد الأتراك .

(صفحة رقم ٣٩٠)

الوثيقة رقم : ٣٠

صـــدر مرســـوم من الملك بخصـــوص "جـــوميز دي كـــارفالهـــو" "Gomez de Carvalho" ، "لشبونـــه" في الثالث عشـــر من شهر ينايـــر عام ١٥٦٨م ، بشـــأن الوكالات التجارية في قلهات ومسقط .

(صفحة رقم ٣٩٣)

الوثيقة رقم : ٣١

وردت رسالة من "جودا ماركوس" "Juda Marcos" ، حلب ، في

الثاني من شهر فبراير عام ١٥٦٨م ، تتحدث عن أخبار الأتراك في المدن التي تم احتلالها من قبلهم .

(صفحة رقم ٣٩٤)

الوثيقة رقم : ٣٢

بعث الملك رسالة تتعلق بـ "جياو فيرنانديز" "Jiao Fernandes" ، "لشبونه" في الحادي عشر من شهر مارس عام ١٥٦٨م ، ويذكر فيها مكانة قلهات ومسقط .

(صفحة رقم ٤٠٠)

الوثيقة رقم : ٣٣

جاءت رسالة من الملك بخصوص "روي قودينهو" "Rui Godinho" ، "الميريم" "Almireim" في الثلاثين من شهر مارس عام ١٥٦٨م ، ويذكر فيها مكانة قلهات ومسقط .

(صفحة رقم ٤٠١)

الوثيقة رقم : ٣٤

وردت مقتطفات من رسائل ، وصلت من القسطنطينية ، في السادس والعشرين من شهر إبريل عام ١٥٦٨م ، تذكر أن البرتغاليين قد احتلوا عدن ، وهناك ثورة في الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر .

(صفحة رقم ٤٠٢)

الوثيقة رقم : ٣٥

بعث "توماز كارنوسا" "Tomaz Carnosa" رسالة من "البندقية" ،

في الحادي والثلاثين من شهر مايو عام ١٥٦٨م ، ذكر فيها الاستعداد من قبل الأتراك في السويس لتخليص عدن من الاحتلال البرتغالي .

(صفحة رقم ٤٠٥)

الوثيقة رقم : ٣٦

صدرت لوائح سارية المفعول لحصن هرمز ، "غوا" "Goa" في العشرين من شهر أغسطس عام ١٥٦٨م .

(صفحة رقم ٤٠٧)

الوثيقة رقم : ٣٧

بعث الأب "جونسالو الفاريز" "Goncalo Alvarez" (جمعية يسوع) زائر "للأبرشية" ، رسالة إلى الأب "فرانسيسكو بورجا" "Francisco Borja" (جمعية يسوع) الرئيس العام للجمعية اليسوعية في "روما" ، "غوا" "Goa" ، شهر ديسمبر عام ١٥٦٨م ، ويذكر انتشار الرذيلة في هرمز .

(صفحة رقم ٤٤٥)

الوثيقة رقم : ٣٨

صدر مرسوم ملكي بعدم أخذ أشياء من ملك هرمز حتى وإن كان الملك نفسه قد منحها ، "الميريم" "Almireim" (السواحل) في الثامن عشر من شهر مارس عام ١٥٦٩م .

(صفحة رقم ٤٤٩)

الوثيقة رقم : ٣٩

صدر أمر رسمي من نائب الملك "لويس دي أتايدي" "Luis de Ataide" يخصّ خيولاً قادمة من هرمز ، "غوا" "Goa" في التاسع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٥٦٩م .

(صفحة رقم ٤٥١)

هوامش المجلد الحادي عشر

1- Arquivo Nacional da Torre do Tombo (TT), Lisboa, *Gavetas*: As Gavetas da Torre do Tombo. 9 volumes. Lisboa, Centro de Estudos Históricos Ultramarinos. I (Gav. I-II), 1960; II (Gav. III-XII), 1962; III (Gav. XIII-XIV), 1963; IV (Gav. XV, macos 1-15), 1964; V (Gav. XV, macos 16-24), 1965; VI (Gav. XVI-XVII, macos 1-3), 1967; VII (Gav. XVII, macos 3-9), 1968; VIII (Gav. XVIII, macos 1-6), 1970; IX (Gav. XVIII, maços 7-13), 1971 ,Gavetas I, pp. 157, 159,

- TT, Gavetas II, Maco 1, Document No. 43.

2- TT, *Documenta*: Documenta Indica. Edidit Iosephus Wicki S. I. Romae. Apud «Monumenta Historica Soc. Iesu». volumes: I (1540-1549), 1948; II (1550- 1553), 1950, vol. V, doc. 110,

- TT, Arquivo Romano S. I., Rome (AR), Goa 8 II ff 368r-369v.

3- TT, Documenta, vol. V, doc. 111,

- TT, AR, Goa 8 II ff 337r-339v.

4- TT, Documenta, vol. V, doc. 113,

- TT, AR, Goa 8 II ff 384r-385v,

- TT, AR, Goa 8 II ff 386r-387v.

5- TT, Corpo Chronologico (CC) 1500-1630. I/3/144, 1548-1630, Part 1st Maco 106 Document No. 80.

6- TT, Documenta, vol. VI, doc. 10,

- TT, Biblioteca da Ajuda (BA), Lisboa, Ulyssip 2 ff 604v-608r.

7- TT, Gavetas Antigas 1514-1711, I/3/146, 1531-1711,

- TT, Gavetas XV, Maco 14, Document No. 20.

8- TT, Gavetas V, pp. 137-143,

- TT, Gavetas XV, Maco 17, Document No. 40.

9- TT, Arquivo 1: Arquivo Portugues Oriental. Nova Goa, Imprensa Nacional. 1861 (fasc. 3. °, p. II); 1865 (fasc, 5.° p. I); 1876 (fasc, 6. °, suplementos), Fasc. 5, p. II, d. 487,

- Arquivo de Goa (AG), Livro 3 de registos antigos f 296.

10- AG, Livro de registos no cartorio da Fazenda de Goa, No. 610, pp. 140-141.

11- TT, Arquivo 1 , Fasc. 5, p. II, d. 502,

- AG, Livro 4 de registos antigos f 170v.

12- TT, Arquivo 1 , Fasc. 5, p. II, d. 503,

- AG, Livro 4 de registos antigos f 70v, 71.

13- TT, Documenta, vol. VI, doc. 34,

- TT, AR, Goa 8 III ff 484r-485v.

14- TT, Documenta, vol. VI, doc. 36,

- TT, AR, Goa 8 II f 445r-v.

15- TT, Corpo Chronologico (CC) 1500-1630. I/3/144, 1548-1630, Part 1st Maco 106 Document No. 136.

16- Bibliotheca National de Portugal-Portuguese National Library (BNL), Fondo Geral, General Series of Manuscripts (FG), No. 11026, fl 256, ff 273.

17- TT, Corpo Chronologico (CC), Parte I, Maco 107, Documents No. 80.

18- TT, Documenta, vol. VI, doc. 79,

- TT, AR, Goa 11 I ff 253r-256v.

19- TT, *Documentacao*: Documentacao para a História das Missoes do Padroado Português do Oriente. Coligida e anotada por António da Silva Rego, Lisboa, Agência-Geral das Colónias. volumes: I (1499-1522), 1947; II (1523-1543), 1949; III (1543-1547), 1950; IV (1548-1550), 1950; VI (1555-1558), 1951; VII (1559), 1952, vol. IX, pp. 553-585.

20- Itinerary of Mestre Afonso, Antonio Baiao, Coimba, Chapters: 1-3,

- BNL, Livraria No. 2262.

21- TT, CC, Parte I, pp. 101-107.

22- TT, Gavetas II, Maco 1, Document No. 6.

23- BNL, Colleccao Pombalina (Biblioteca Nacional de Lisboa), Lisboa (POMB), No. 196 ff 476v-478v.

24- Arquivo Nacional da Torre do Tombo (ANTT), Lisboa, Arquivo de Simancas, Secretarias do Estado, Legajo 385 f 60.

25- ANTT, Arquivo de Simancas, Secretarias do Estado, Legajo 371 f 62.

26- TT, Arquivo 1 , Fasc. 5, p. II, d. 599,

- AG, Livro 4 de registos antigos f 217.

27- TT, Documentacao, vol. X, pp. 334-383,

- Biblioteca Nacional Goa (BNG): Concilios Provincaes do Arcebispado de Goa ff 1-2v.

28- ANTT, Arquivo de Simancas, Secretarias do Estado, Legajo 384 Doc. 91.

29- ANTT, Arquivo de Simancas, Secretarias do Estado, Legajo 385 Doc. 52.

30- TT, Arquivo 1 , Fasc. 5, p. II, d. 618,

- AG, Livro 4 de registos antigos f 218.

31- TT, Corpo Chronologico (CC) 1500-1630. I/3/144, 1548-1630, Part 1st Maco 108 Document No. 95.

32- TT, Arquivo 1 , Fasc. 5, p. II, d. 651,

- AG, Livro 4 de registos antigos f 205.

33- TT, Arquivo 1 , Fasc. 5, p. II, d. 660,

- AG, Livro 4 de registos antigos f 213v.

34- TT, Corpo Chronologico (CC) 1500-1630. I/3/144, 1548-1630, Part 1st Maco 108 Document No. 104.

35- TT, Corpo Chronologico (CC) 1500-1630. I/3/144, 1548-1630, Part 1st Maco 108 Document No. 107.

36- British Library (B.L.), SS 229.

37- TT, Documenta, vol. II, doc. 117,

- TT, AR, Goa 11 II ff 505r-511v.

38- TT, Arquivo 1 , Fasc. 5, p. II, d. 669,

- AG, Livro 1 de copias de ordens regias f 23.

39- TT, Arquivo 1 , Fasc. 5, p. II, d. 676,

- AG, Livro 4 de Registos antigos f 208v.

ISBN 978-9948-721-99-4
9 789948 721994
www.alqasimipublications.com